قال تعالى :-

" انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »

سورة التوبة آية "٤١"

شكر وتقدير

أود في مفتتح هذه الرسالة أن أسجل عميق شكري وصادق تقديري ، وإعترافي بالجميل لمعالي الأستاذ الدكتور / عبد العزيز بن عبد الله الخويطر ، وزير المعارف ووزير التعليم العالي بالنيابة في المملكة العربية السعودية ، فقد زودني معاليه بمخطوطة « تاريخ الملك الظاهر » لمؤلفها الصاحب عز الدين بن شداد وكتابي « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » لمؤلفه محي الدين بن عبد الظاهر ، و« حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، لشافع بن علي وتأتي هذه المؤلفات في مقدمة المصادر الأساسية لفترة البحث ،

الباحث


بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية قدمت لنيل درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى ، وناقشتها لجنة مكونة من :

١ ـ الاستاذ الدكتور / أحمد السيد دراج مناقشاً داخلياً

٢ ـ الأستاذ الدكتور / حامد غنيم أبو سعيد مناقشاً خارجياً

٣ ـ الأستاذ الدكتور / محمد حمدي المناوي مشرفاً

وأجيزت بتقدير ممتاز بتاريخ ١٤٠٧/٢/٢٥ هـ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة - دراسة نقدية لاهم مصادر البحث :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، وبعد :

فلم يكد المسلمون يصلون بالصراع مع القوى الصليبية في الشرق الاسلامي الى قرب نهايته ، في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، حتى فوجئوا بحركة أخرى أشد هولا وأقسى وقعا ، هي حملات المغول على الدول الاسلامية ، الذين استغلوا ذلك التفكك والانقسام الذي حل بالعالم الاسلامي في تلك الفترة ، فاتخذوا من المشرق الاسلامي مجالا لتوسعهم ، فتقدموا من الشرق الى الغرب ، حتى دخلوا مدينة بغداد ، واستطاعوا اسقاط الخلافة العباسية ، ثم تقدموا غربا الى الشام . ولم يقف امامهم سوى قوى دولة المماليك المسلمين في مصر ، التي أنزلت بهم هزيمة مروعة في معركة عين جالوت ،[1] وأوقفت تقدمهم وغيرت موازين القوى ، حتى تحقق لها تطهير بلاد الشام من نير الاحتلال المغولي والصليبي معا .

ومن الاسباب التي دعت الى اختيار هذا الموضوع ، أنه موضوع ذو أهمية بالغة خاصة ، فيما يتعلق بفكرة احياء حركة الجهاد الاسلامي التي استدعى الأمر احياءها في نفوس المسلمين لمواجهة الاخطار التي احدقت بالشرق الاسلامى في ذلك الوقت ، فضلا عن كونه يلقي الاضواء على الجهود الجبارة التي بذلها سلاطين دولة المماليك في سبيل توحيد القوى الاسلامية في الشام ومصر ، للوقوف في وجه أعداء الاسلام ، المغول والصليبيين التي اثمرت طرد المغول من بلاد الشام ، وتطهير سواحله من بقايا الوجود الصليبي ، وليثبتوا بذلك العمل الجليل اركان دولتهم الفتية التي تعتبر بحق دولة جهادية استحقت عن جدارة زعامة العالم الاسلامي آنذاك .

---

(١) عين جالوت ، بليدة شرق دارين بين بيسان ، ونابلس من أعمال فلسطين ويرجع هذا الاسم الى الاسطورة القائلة بأن داود قتل جالوت في هذا المكان وكان الصليبيون يسمونها مدينةTubanea انظر ياقوت معجم البلدان ؛ أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص١٦٣ .

ومن ناحية ثالثة جاءت أهمية دراسة هذا الموضوع ، لكونه يجسد ما عليه العالم الاسلامي اليوم من اختلاف الآراء وتعدد القوى ، **وأنه ما أحوج الامة الاسلامية في وقتنا الحاضر** الى تكرار ما فعله المماليك من جمع الكلمة ووحدة الصف وتجديد احياء فكرة الجهاد المقدس ضد أعداء الاسلام ، لاستعادة المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، واعادة ارض فلسطين المسلمة لأهلها .

وقد اعتمدت الدراسة على مصادر اصلية يأتي في مقدمتها مؤلفات المؤرخ عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الانصاري الحلبي (٦٣١-٦٨٤هـ) الذي كان من خواص الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ،(١) وسفيره الى المغول .

وبعد سقوط بلاد الشام في أيدي المغول ، رحل ابن شداد الى مصر واستوطنها ، وصار له مكانة كبيرة لدى الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وكان فاضلا أديبا له العديد من المؤلفات التاريخية ،(٢) .

أفاد البحث من كتابين منها ، اولهما كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الذي جمع فيه ابن شداد بين التاريخ والجغرافيا ، وجعله في ثلاثة أقسام ، خصص الاول منها لمسقط رأسه مدينة حلب ، والقسم الثاني لدمشق والأردن وفلسطين ولبنان ، والثالث لمنطقة الجزيرة ، وتحدث عما فيها من معالم وآثار ومدارس ومساجد وخوانق وغيرها ، ثم ألحق بكل قسم تاريخا لتلك البلاد منذ الفتح الاسلامي حتى عصره .(٣)

---

(١) هو الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازي بن صلاح الدين بن يوسف بن ايوب ، قتله هولاكو سنة ٦٥٩هـ ، وذلك بعد هزيمة جيوشه في معركة عين جالوت ، (انظر الزبيدي ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ، ص ٥٧) ؛ انظر ايضا ابن شداد الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٤٩ ، ٧٥٠ (الملاحق) .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ٦ ، ورقه ٢١٠ أب ؛ ابن الفرات م٨ ، ص ٣٣،٣٤ ، وابن شداد ، هذا هو غير بهاء الدين بن شداد (٥٣٩-٦٣٢هـ) مؤلف سيرة صلاح الدين المعروف باسم « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » (انظر ابن شداد الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، مقدمة المحقق ، ص ١٥-١٧ ؛ علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، رسالة دكتوراه من جامعة ام القرى لم تطبع ، ص ١٣ حاشية (٣) .

(٣) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ح ٢ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٦ ؛ علي الغامدي المرجع نفسه ، ص ١٤ .

وقد أفاد البحث من كتاب الاعلاق الخطيرة في معالجة استيلاء المغول على مدن اقليم الجزيرة في أعالي الفرات ، وبالأخص مدينتي ميافارقين ، وماردين ، حيث صور لنا في اسلوب ممتع ما قام به حاكما هاتين المدينتين من جهود جبارة في محاولة تكوين جبهة اسلامية متحدة بينهما وبين الأيوبيين في الشام للوقوف في وجه المغول .

ومن ثم ما أبدياه من ضروب البسالة والشجاعة في مقاومة الحصار المغولي لمدينتيهما ، وأمدنا بمعلومات جديدة مخالفة لما ذكره مؤرخ المغول رشيد الدين هي أن هولاكو بعد أن اقتحم ميافارقين اضطر الى ترك ماردين لما هي عليه من الحصانة والمنعة وارتفاع الروح المعنوية لرجالها الى عبور نهر الفرات قاصدا مدن الشام ، ولم يعد اليها الا بعد وفاة حاكمها الملك السعيد[١] .

أما المؤلف الثاني فهو كتاب «تاريخ الظاهر بيبرس»[٢] الذي أمد البحث بمعلومات قيمة هي عبارة عن مشاهداته بنفسه لما بذله السلطان بيبرس من جهود لمواجهة عدوين في وقت واحد ، هما المغول والصليبيين .

وأورد ابن شداد في هذا الكتاب معلومات فريدة من نوعها فيما يتعلق بجهاد السلطان بيبرس ضد المغول وحلفائهم في الأناضول ، فصوّر لنا بوضوح حوادث معركة ابلستين ، وما أعقبها من دخول بيبرس مدينة قيصرية وجلوسه على تخت الملك بها[٣] .

ولا يقل اهمية عن ذلك كتاب « مفرج الكروب في اخبار بني أيوب » لمؤلفه جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله ابن واصل المازني التميمي الحموي الشافعي الذي يعتبر من كبار مؤرخي القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، ولد بعد مولد هذا القرن ، وتوفى قبل نهايته بقليل (٦٠٤-٦٩٧هـ/١٢٠٨-١٢٩٨م) .

وقد نشأ في حماه وتلقى بها علومه الأولى ، ثم رحل في طلب العلم الى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة وبغداد ومكة والمدينة ، ونبغ وصنف في علوم كثيرة . وأقام في مصر مدة طويلة ، وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة ، وسقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك وغزوات المغول ، وسقوط الخلافة العباسية[٤] .

---

(١) انظر ما يلي في الفصل الاول .

(٢) لايزال هذا الكتاب مخطوطا وتوجد منه نسخة في المسجد السليماني بأدرنه تحت رقم «٢٣٠٦» .

(٣) انظر ما يلي في الفصل الثالث .

(٤) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، مقدمة المحقق ، ص ٤ ؛ علي محمد الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١١ .

ويهمنا من كتاب ابن واصل ، الاجزاء الثلاثة الاخيرة التي[1] تناول فيها المراحل الأخيرة من الدولة الأيوبية ، وصدر دولة المماليك . وبالأخص الأيام الأولى من حياة السلطان الظاهر بيبرس ، وما واجهه من صعاب على أثر توليه السلطنة ، كما أمدنا بمعلومات قيمة فيما يختص بعلاقة السلطان بيبرس بجزيرة صقلية التي ذهب اليها بنفسه موفدا منْ قبل السلطان بيبرس يحمل هدية الى ملكها ، منفرد بن فردريك الثاني ،امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وذلك في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م .[2]

ورغم أن ابن واصل انقطع عن الكتابة منذ هذه السنة ، فان أحد تلاميذه واصل كتابته الى سنة ٦٨٠هـ ملخصا عن كتاب آخر اسمه « التاريخ » لا يعرف مؤلفه[3] ، وقد أفاد البحث منه فائدة كبيرة .

ومن مصادر البحث القيمة ، كتابات القاضي محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري ، ولد في القاهرة سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ، ومات في اليوم الثالث من رجب سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م .[4]

كان محي الدين كاتبا في ديوان الانشاء عندما تولى بيبرس السلطنة ، ويبدو انه عمل في الديوان على الأقل من ايام السلطان المظفر قطز ، فقد رافق حملته على الشام ضد المغول ، وسرعان ما حاز ثقة بيبرس بعد توليه الحكم .[5]

وتعتبر مؤلفات ابن عبد الظاهر من أهم مصادر البحث ، وذلك لكونها غطت معظم فترته ، فكتابه « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » تناول بالتفصيل الجهود العظيمة التي بذلها السلطان الظاهر بيبرس منذ ان كان قائدا من قواد السلطان قطز حتى وفاته ، وكيف تمكن بفضل تلك الجهود القائمة على أساس توحيد كلمة المسلمين واحياء حركة الجهاد الاسلامي من الوقوف في وجه المغول وإفشال محاولاتهم في اعادة سيطرتهم

---

(١) لايزال الجزء السادس مخطوطا بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٣١٩ تاريخ) ويقوم على تحقيقه الآن استاذنا الدكتور/ حسنين محمد ربيع الاستاذ بكلية الآداب ، جامعة القاهرة .

(٢) انظر ما يلي ، ص : ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) انظر محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٣٨ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، مقدمة المحقق ، ص ٩ ؛ تشريف الأيام والعصور ، مقدمة المحقق ، ص ٩ .

(٥) ابن عبد الظاهر ، الروض ، مقدمة المحقق ، ص ٩ .

على بلاد الشام ، وكذلك معاقبته حلفائهم المسيحيين من الأرمن وغيرهم . ومن ثم اكمال مشروع اقتلاع الوجود الصليبي من بلاد الشام . حيث أوضح لنا هذا المصدر في دراسة مستفيضة الخطط الحربية البارعة التي نفذها بيبرس حتى تمكن من اسقاط إمارة انطاكية الصليبية .[1]

أما كتاب « تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور » الذي تناول فيه ابن عبد الظاهر سيرة السلطان المنصور قلاوون فقد فقد معظمه ولم يعثر منه إلا على تاريخه للحوادث من سنة ٦٨٠ هـ الى وفاة قلاوون[2] .

وقد أمد هذا الجزء المتبقي البحث بمعلومات في غاية الاهمية ، حيث أوضح تلك الجهود العظيمة التي بذلها قلاوون لاكمال مشروع اقتلاع الوجود الصليبي من بلاد الشام حتى تمكن من الاستيلاء على مدينة طرابلس ، وطرد الوجود الصليبي منها[3] .

أما الكتاب الثالث الذي أفاد منه البحث فهو تاريخ الاشرف خليل بن قلاوون الذي أسماه ابن عبد الظاهر « الالطاف الخفية من السيرة الشريفية » من سنة ٦٩٠ ـ ٦٩٢ هـ ، وقد ضاع معظمه ولم يبق منه سوى جزء بسيط من سنة ٦٩٠-٦٩١ هـ[4] .

ومما يزيد هذه السير الثلاث أهمية بالنسبة لموضوع البحث ، كونها دونت مواكبة للحوادث نفسها ، فالمؤلف يستعمل كلمة « نصره الله » حينما يتكلم عن الظاهر بيبرس ، وكلمة « زيدت عظمته » حينما يتكلم عن الملك بركه خان القبيله الذهبية الذي عاصر السلطان بيبرس وتوفى قبله ، وكذلك كلمة « مولانا » كما يذكر في موضع آخر أنه الّف السيرة الظاهرية ، خدمة لمكتبة السلطان حيث يقول : « خدمت الخزانة المعمورة بجمع هذه السيرة » وأن بيبرس نفسه ساعده فيما بعد بأن أملى عليه معلومات عن حياته الأولى[5] .

---

(١) انظر ما يلي في الفصل الثالث .

(٢) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ، مقدمة ، ص ١٥ .

(٣) انظر ما يلي في الفصل الرابع .

(٤) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ، مقدمة المحقق ، ص ١٥ ، انظر ايضا كتاب الالطاف الخفية ، نشر AXEL MOBERG .

(٥) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، مقدمة المحقق ، ص ٢١ .

كما يذكر ابن عبد الظاهر في تشريف الايام والعصور ، عبارة « قال لي السلطان » يقصد السلطان المنصور قلاوون ، و « هذا ما أخبرني به الاتابك »[1] وكذلك كلمة « مولانا السلطان »[2] .

ومن المؤرخين الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، بيبرس المنصوري الخطائي الدوادار المتوفي سنة ٧٢٥ هـ ، تولى بعض المناصب الادارية في عهد السلطان سيف الدين قلاوون ، وابنه الناصر محمد . قلده قلاوون ولاية الكرك ، ثم عزله ابنه الاشرف خليل ، وعندما تولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣ هـ/١٢٩٣ م عينه رئيسا لديوان الانشاء ، ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار ، وترقى في مناصب الدولة حتى عين نائبا للسلطان سنة ٧١١ هـ .[3] ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده بنفسه في ذلك العصر .

ومن مؤلفات بيبرس الدوادار التي أفاد منها البحث ، الجزء التاسع من كتاب « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة »[4] الذي يعتبر من المصادر الهامة في دراسة التاريخ السياسي لسلاطين دولة المماليك في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي . وقد اعتمد البحث على هذا المصدر في دراسة جهاد سلاطين دولة المماليك قطز وبيبرس وقلاوون وابنه الاشرف ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام . وبالأخص الاستيلاء على آخر المعاقل الصليبية في الشرق الاسلامي مدينة عكا ، فقد اورد بيبرس الدوادار في كتابه هذا وصفا تفصيلياً للاستعدادات الضخمة التي سبقت اقتحام عكا ، ومن ثم الخطط الحربية البارعة التي نفذها الأشرف خليل بن قلاوون ، وتوج جهود من سبقه من زعماء حركة الجهاد ضد الصليبيين باقتلاع هذا الوجود من جذوره سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م[5] .

---

(١) ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ، ص ٦٩ ، ١١٢ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ج١ ، ص ٥٠٩/٥١٠ ؛ محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ٩/١٠ .

(٤) مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم (٢٤٠٢٨) ، وقد قامت زبيدة محمد عطا بتحقيق هذا الجزء ، وتقدمت به كرسالة لنيل درجة الدكتوراه من كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، باشراف الاستاذ الدكتور/سعيد عبد الفتاح عاشور ، ولكنها لم تطبع حتى الآن .

(٥) انظر بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

أما كتابه « التحفة الملوكية في أخبار الدولة التركية »[١] ، فعلى الرغم من الصعوبة التي واجهتها في قراءته ، فانني استطعت أن أستفيد منه بعض الفائدة ، وخاصة فيما يتعلق بجهاد سلاطين دولة المماليك الأولى ، لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام[٢] .

ومن المصادر المعاصرة للفترة موضع الدراسة ، كتاب « ذيل مرآة الزمان » للشيخ قطب الدين موسى بن محمد بن أبي الحسن اليونيني الحنبلي البعلبكي ، (٦٤٠ـ٧٢٦ هـ/١٢٤٢ـ١٣٢٦ م) ، تلقى تعليمه ببعلبك ، وصار شيخها بعد أخيه أبي الحسين[٣] .

وقد أفاد البحث من هذا الكتاب ـ الذي ذيل به اليونيني على كتاب « مرآة الزمان في تاريخ الفضلاء والأعيان » لسبط ابن الجوزي ، المتوفي سنة ١٢٥٦/٦٥٤ م ، ورتبه على أساس حولي ـ فائدة عظيمة ، خاصة وأن معظم كتابات اليونيني هي عبارة عما شاهده وسمعه بنفسه في تلك الفترة .[٤] أما التي سبقت عهده فقد دون معلوماته عنها نقلا عن مؤرخين معاصرين أمثال ابن واصل ، وعز الدين بن شداد وغيرهما[٥] .

ومن مصادر البحث القيمة كتابات المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الدمشقي المعروف بأبي شامه (٥٩٩هـ ـ ٦٦٥ هـ/١٢٠٣ ـ ١٢٦٧ م) وهو من كبار الفقهاء والمحدثين ، تفوق في علوم الفقه والحديث والنحو واللغة ، إضافة الى مؤلفاته التاريخية القيمة[٦] .

ألف أبو شامة الى جانب كتب الدين واللغة ، كتبا كثيرة في التاريخ يهمنا منها كتاب « الذيل على الروضتين » الذي ذيل به على كتابه « الروضتين في أخبار الدولتين » تحدث فيه عن الفترة من سنة ٥٩٠ ـ حتى وفاته سنة ٦٦٥ هـ ، وأكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الفترة ، وقد أفاد البحث كثيرا

---

(١) مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم (٢٤٠٢٩) .
(٢) انظر ما يلي صفحات ، ص ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣٢٤ .
(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ .
(٤) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٣٠ ، ٤٢ ، م٣ ، ص١٣٣ ، م٤ ، ص٩٤ .
(٥) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م٢ ، ص١١٤ ، ١١٥ ، ١٦١ .
(٦) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج٨ ، ص١٦٥ ـ ١٦٧ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ج٢ ، ص٢٦٦ .

من ذيل الروضتين عند دراسة اكتساح المغول لبلاد الشام ، ومن ثم هزيمتهم في عين جالوت ، كما أمدنا بمعلومات في غاية الأهمية عند دراسة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة(١) .

ومن المصادر المهمة لموضوع البحث كتاب « نهاية الأرب في فنون الأدب » لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم النويري ، الذي حصل له حظوة عند الملك الناصر ، ووكله في بعض أموره ، وباشره نظر الجيش في طرابلس ، توفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م(٢) .

اعتمدت الدراسة على الاجزاء ، الثامن ، والثامن والعشرون ، والتاسع والعشرون ، من هذا الكتاب(٣) ، فأمدت البحث بمعلومات طيبة ، فالجزء الثامن كان خير معين لمعرفة نظام الاقطاع الحربي لدى المماليك ، وخاصة ديوان الجيش المملوكي ، الذي كان يعد الجهاز التنظيمي لهذا النظام(٤) .

أما الجزآن ، الثامن والعشرون ، والتاسع والعشرون ، فقد أمدا البحث بمعلومات قيمة عن جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، ناهيك عن موضوع احياء الخلافة العباسية في القاهرة(٥) .

ومن مصادر البحث المعاصرة كتاب « المختصر في أخبار البشر » للملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، كان جوادا شجاعا عالما في عدة فنون ، نظم الحاوي في الفقه وصنف تاريخه المذكور ، وتقويم البلدان ، ونظم الشعر والموشحات ، وفاق في معرفة علم الهيئة ، واقتنى كتبا نفيسه ، ولم يزل على ذلك الى أن توفى سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م(٦) .

---

(١) انظر ما يلي في الفصل الثاني .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص١٩٧ .

(٣) يقع كتاب « نهاية الارب في فنون الادب » في ثلاثين مجلدا ، طبع منها سبعة وعشرون ، أما الاجزاء المتبقية فلازالت تنتظر اتمام طبعها ، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية .

(٤) انظر ما يلي في الفصل الخامس .

(٥) انظر ما يلي في الفصل الثاني .

(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ح١ ، ص٣٧١ ، ٣٧٢ ، الصفدى ، اعيان العصر وأعوان النصر ، ورقة ١١٨ آب ؛ الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ، ص٤٧ .

وقد أمد كتاب « المختصر في أخبار البشر » البحث بمعلومات في غاية الأهمية ، عن جهاد سلاطين دولة المماليك ضد المغول وحلفائهم وكذلك الصليبيين ، وخاصة عند استيلاء السلطان الاشرف خليل بن قلاوون على عكا وتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام التي شارك أبو الفدا حوادثها بنفسه ، فجاءت كتاباته عبارة عن مشاهداته الشخصية ، فكان هذا المصدر هو العمدة في توضيح هذا الحدث العظيم الذي ترتب عليه اقتلاع الوجود الصليبي في بلاد الشام من جذوره .(١)

والى جانب ذلك اعتمدت الدراسة على بعض المصادر المسيحية المعاصرة لفترة البحث ، منها كتاب « تاريخ مختصر الدول » لأبي الفرج غريغورس الملطي المعروف بابن العبرى (٦٢٣هـ ـ ٦٨٥ هـ/١٢٢٦ ـ ١٢٨٦ م) الذي يبدو أن أباه كان على اليهودية ثم تحول الى اليعقوبية ، ونشأ أبو الفرج في ملطية بالجزيرة حيث درس اليونانية والسريانية والعربية ، كما درس اللاهوت والطب والفلسفة . وأمام المصائب التي توالت على الجزيرة أيام غزوات المغول ، اضطرت الأسرة على الهرب الى انطاكية ، وبعد أن أتم دراسة الطب في طرابلس ، عينه البطريق اليعقوبي اسقفا ، وتنقل بين بلاد الجزيرة وعكا وحلب ، ثم رُسِّمَ بعد الغزو المغولي مطراناً على الشرق أي شمال العراق ، والعراق العجمي ، فهادن المغول مما مكنه من حماية طائفته وتنظيمها ، وتجديد كنائسها ، وبقي في منصبه هذا حتى مات في مدينة مراغة من أعمال أذربيجان .(٢)

ويهمنا من مؤلفاته كتابه في التاريخ الذي كتبه في آخر حياته وانتهى فيه بذكر دولة المغول التي عاصرها بنفسه ، فكان شاهد عيان لحوادثها . وقد اعتمدت الدراسة على كتاباته عند تناول موضوع اعتناق المغول الاسلام .(٣)

ولا يقل أهمية عن ذلك كتاب المؤرخ الصليبي جوانفيل (Joinville) حاكم شامبانيا (١٢٢٤ـ١٣١٨ م) عن « تاريخ القديس لويس » الذي يعتبر من أهم المصادر الأوربية المعاصرة للحملة الصليبية السابعة على مصر ، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، فقد كان جوانفيل أحد فرسان هذه الحملة وشاهد عيان لها ، كما انه كان موضع ثقة

(١) انظر ما يلي في الفصل الرابع .
(٢) شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخين ، ح٢ ، ص٤٥٥ ـ ٤٥٧ .
(٣) انظر ما يلي في الفصل الرابع .

الملك الفرنسي لويس التاسع . كثيرا ما كان يستشيره في شئون الحملة العامة ، وفي أموره الخاصة ايضا .[١]

ورغم ان كتابات هذا المؤرخ جاءت متقدمة لفترة البحث ، فإنها أفادت الدراسة كثيرا عند معالجة المحاولات التي بذلها زعماء المغول بعد هزيمتهم في عين جالوت لتكوين حلف مغولي صليبي ضد المسلمين . حيث أوضحت ما سبق ذلك من اتصالات بين خانات المغول ولويس التاسع في هذا المجال .[٢]

أما المجموعة الثالثة لمصادر الرسالة ، فهي مؤلفات لمؤرخين عاشوا بعد فترة البحث غير أنهم نقلوا عن مؤلفين معاصرين ، ويأتي في مقدمتها كتاب « تاريخ ابن الفرات » لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ، الشهير بابن الفرات ، المتوفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٣م . كان مغرما بالتاريخ ، فكتب فيه كتابه هذا في عشرين مجلدا حتى عصره .[٣]

وترجع أهمية تاريخ ابن الفرات الذي افاد منه البحث فائدة كبيرة الى أنه نقل عن مصادر معاصرة للفترة موضع الدراسة ، منها على سبيل المثال ، كتابات القاضي محي الدين بن عبد الظاهر[٤] والجزري وقطب الدين اليونيني[٥]، وبيبرس الدوادار[٦]، فضلا عما ذكره من أنه كان يستقي بعض المعلومات عمن شهد الحوادث بنفسه[٧].

ومن المصادر المتأخرة والمهمة جدا لموضوع البحث كتابات المؤرخ القدير أحمد بن علي المقريزي ، المولود سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م بحارة برجوان بمدينة القاهرة ، والمتوفي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م ، وهو بعلبكي الأصل ، مصري المولد والمنشأ ، عرف باسم المقريزي نسبة الى حارة المقارزة في مدينة بعلبك ، عكف على دراسة القرآن ، وعلوم الدين ، والتاريخ وغيرها ، وتقلد العديد من الوظائف ، كان آخرها وظيفة الحسبة

---

(١) جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، ص ٤ .
(٢) انظر مايلي ، الفصل الثالث
(٣) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٧٢ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ١٩ .
(٤) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٣ .
(٥) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ١٨ ، ٢١٧ ، م ٨ ، ص ٣ .
(٦) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ٢١٥ .
(٧) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٨ ، ص ٤٩ .

بالقاهرة ، ويعتبر المقريزي من أشهر المؤرخين المسلمين ، وله مؤلفات تاريخية كثيرة . وقد تميزت كتاباته بالدقة في ايراد الحقائق والاعتماد على مصادر ووثائق لاتزال اصولها مفقودة .(١)

وقد أفاد البحث من كتابين للمقريزي هما كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » وكتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار »، فقد أمد الأول البحث بمعلومات مهمة وقيمة في كثير من الموضوعات السياسية التي تناولتها الدراسة ، في حين أفادت الدراسة من الثاني عند معالجة موضوع تطور نظام الاقطاع الحربي في عهد المماليك .(٢)

ومن المصادر المتأخرة التي أمدت الرسالة بمعلومات فريدة كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير حفيد موفق الدين الهمداني المتوفي سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م .(٣)

شغل رشيد الدين منصب الوزارة لعدد من ايلخانات المغول في ايران ، وقد رأى ايلخانات المغول تدوين كتاب في التاريخ لشغفهم بهذا العلم ، يجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التي تدخل في الامبراطورية المغولية ، او التي لها علاقة بالمغول ، ونفذ بعض هذا العمل ، حيث كلف للقيام به خواجة رشيد الدين الذي كان يهوديا فأسلم على أرجح الاقوال ، وعاونه في هذا العمل مغولي عالم بالروايات التاريخية المغولية ، واثنان من علماء الصين ، وراهب بوذي من كشمير ، ومجموعة من علماء ايران وأدبائها .(٤)

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢١ ؛ انظر ايضا ، دراسات عن المقريزي ، مجموعة أبحاث اشترك في اعدادها مصطفى زيادة وآخرون ، ص ٧ ـ ٨ ؛ علي عودة الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٩ ؛ محمد عبد الله عنان ، ص ٨٧ .

(٢) انظر ما يلي ، في الفصل الخامس .

(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ح ١ ، المقدمة ، ص ٥ .

(٤) قام الاستاذ الدكتور / فؤاد عبد المعطي الصياد بدراسة شخصية رشيد الدين فضل الله وكتابه « جامع التواريخ » دراسة متكاملة فأخرج بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمة على المغول وعن رشيد الدين وكتابه ؛ انظر ايضا عبد العزيز فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص ١٠ ، ١١ .

وقد أمد كتاب جامع التواريخ ـ الذي دونه رشيد الدين باللغة الفارسية ، وباسلوب سلس عام ٧١٠هـ/١٣١٠م ـ[١] البحث بمعلومات وافية وقيمة مدعمة بالوثائق ، فكان العمدة في دراسة موضوع سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وكذلك اكتساح المغول لبلاد الشام ، كما أمد البحث ببعض الحقائق عن معركة عين جالوت .[٢]

ويلاحظ على رشيد الدين ميله الواضح الى زعماء الشيعة أمثال ابن العلقمي ، وكذلك الى زعماء المغول وتجريحه لزعماء المسلمين السنة وخاصة عند حديثه عن حصار المغول مدينة ماردين . وهذا ما أخذه الباحث بعين الاعتبار في مواضعه .[٣]

وفضلا عن هذه المصادر التي ورد ذكرها فقد أفاد البحث من مصادر اخرى كثيرة مخطوطة ومطبوعة ، وكذلك مراجع حديثة ، وجميعها مثبتة في حواشي الرسالة .

واحتوت الدراسة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول ، اقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لاهم مصادر البحث . وناقش التمهيد الاحوال في بلاد الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، فأوضح أن بلاد الشام في ذلك الوقت كانت تتقاسمها سلطات ثلاث متنازعة فيما بينها هي سلطة الصليبيين الغربيين ، والارمن المسيحيين ، والحكام المسلمين من امراء البيت الايوبي . وألقى الاضواء على اوضاع تلك القوى كل منها على حده ، ومن ثم الجهود العظيمة التي بذلها الملك العادل الايوبي وبعض الامراء الايوبيين لتوحيد الجبهة الاسلامية في الشام ومصر لمواجهة اطماع الصليبيين الغربيين ، والارمن المسيحيين في الشرق الاسلامي .

---

(١) يقع كتاب جامع التواريخ في مجلدين كبيرين ، طبع منهما المجلد الثاني الذي يشمل تاريخ الدولة المغولية من عهد « اوكتاي خان » حتى هولاكو خان وذلك بمدينة ليدن عام ١٩١١ م ضمن مجموعة « جب التذكارية » بتصحيح المستشرق ادجار بلوشيه . وطبعت منه في باريس سنة ١٨٤٤ م قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو بتصحيح المستشرق الفرنسي كاترمير ، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان في مجموعة جب التذكارية ايضا عام ١٩٤٠ م ، كما ان له نسخة عربية موجودة في دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة . (انظر عبد العزيز فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص ١٠) . وقد اعتمدت هذه الدراسة على النسخة المنقولة الى العربية ، التي اشترك في نقلها محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ، وراجعها وقدم لها يحيى الخشاب .

(٢) انظر مايلي ، في الفصل الأول والثاني .

(٣) انظر ما يلي ، ص ٥٢ ، ص ٧٧ ـ ٨٦ .

أما الفصل الأول وعنوانه « استيلاء المغول على بلاد الشام » فقد تطرق الى موضوع سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، باعتباره الاساس الأول الذي سهل على المغول بعد ذلك السيطرة على بلاد الشام ، حيث أوضح الاستعدادات الضخمة التي أعدها المغول للهجوم على مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية والمتمثلة في تلك الارشادات والخطط الحربية التي رسمها خان المغول منكو لأخيه هولاكو خان والتي قضت بأن يكمل الاستيلاء على ما تبقى من ايران وذلك بتحطيم قلاع الاسماعيلية في المنطقة القريبة من بحر قزوين .

وناقش هذا الفصل ما قام به هولاكو من توجيه رسائل عدة الى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة يطلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الاسماعيلية ، مقابل أن يبقيهم على ممتلكاتهم . وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته سيجرهم الى الهلاك والدمار . فكان لهذا التهديد والوعيد أثره البالغ على نفوسهم ، فسارع معظمهم الى تقديم فروض الطاعة لهولاكو الذي وصل على رأس جيشه الى قلاع الاسماعيلية واستولى عليها الواحدة تلو الأخرى .

ثم شرح الفصل بعد ذلك حالة الخلافة العباسية التي أدركتها الشيخوخة ، وظهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار ، الذي لم يكن وليد عصره ، بل أن جذوره قد امتدت الى الخلافة العباسية قبل مجيء المغول بمدة طويلة . وزاد من ذلك عند وصول المغول ضعف شخصية الخليفة العباسي المستعصم بالله ، فضلا عن الصراع المذهبي العنيف الذي احتدم بين السنة والشيعة ، والذي لم يقتصر عليهم بل شمل الطوائف الاخرى من المسيحيين واليهود الذين كانوا على خلاف دائم حول المسائل الدينية والميول السياسية . هذا بالاضافة الى تدهور الاوضاع الاقتصادية داخل الخلافة العباسية .

وتناول الفصل بعد ذلك رسائل التهديد والوعيد التي تبودلت بين هولاكو والخليفة العباسي . التي ضاق هولاكو بها ذرعا ، فأعلن الهجوم الكاسح على بغداد ، فدخلها المغول ، وأتوا على كل ما بها وأسرفوا في القتل والنهب والتخريب . وألقت الدراسة الاضواء على أهم النتائج التي ترتبت على سقوط الخلافة العباسية في بغداد في أيدي المغول .

كما ناقش الفصل ايضا موقف القوى الاسلامية وغيرها من الغزو المغولي بعد اكتساحهم مدينة بغداد ، فأوضح موقف الأمراء المسلمين في شمال العراق وبلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، الذين ساورهم الخوف من المغول ، فسارع معظمهم الى تقديم فروض الولاء والطاعة لهولاكو . كما ألقت الدراسة الاضواء على موقف القوى المسيحية في الشرق الأدنى من هذا الغزو .

وأخيرا شرح الفصل سقوط مدن أعالي الجزيرة وبلاد الشام في أيدي المغول ، بعد أن أوضح ما قام به بعض الامراء المسلمين من محاولات جادة لتكوين جبهة اسلامية لمواجهة العدوان المغولي .

ثم تطرق هذا الفصل الى طبيعة الغزو المغولي وأهدافه ، فأوضح التلاحم الذي تم بين القوى المغولية والمسيحية الشرقية حتى غدت حملة المغول أشبه بحملة صليبية أتت من الشرق لا من الغرب ، والتي أثمرت استيلاءهم على مدن أعالي الجزيرة والشام والتطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم .

وناقش الفصل الثاني وعنوانه « معركة عين جالوت » ما سبق معركة عين جالوت نفسها من مقدمات متمثلة في لجوء القوى الاسلامية الهاربة من وجه الغزو المغولي الى الاراضي المصرية والتي استقبلها السلطان قطز أحسن استقبال ، وأصبحت تكوّن جزءا هاما من جيشه ، كما قام السلطان قطز بالاتصال بالصليبيين ، على ساحل بلاد الشام لمعرفة نواياهم لضمان عدم تورط قواته في جهتين متباعدتين في وقت واحد . وكذلك الاتصال بالخان المسلم بركة زعيم القبيلة الذهبية (القبجاق) وحثه على قتال ابن عمه هولاكو على اعتبار ان ذلك واجب يفرضه عليه دينه الاسلامي .

ثم تناول هذا الفصل حوادث معركة عين جالوت ، فأوضح التهديد والوعيد الذي وجهه هولاكو قبيل عودته من بلاد الشام الى عاصمته مراغة الى السلطان المملوكي المظفر قطز ، ورد السلطان عليه .

ومن ثم الحوار الذي دار بين الامراء المماليك والذي انتهى باجماعهم على اعلان الجهاد لمواجهة الغزو المغولي ، ثم تناولت الدراسة في هذا الفصل التنظيمات العسكرية التي نفذها السلطان قطز وقواده عند اشتباكهم مع المغول في غزة وعين جالوت ، والتي ادت الى تحقيقهم ذلك الانتصار الحاسم على المغول وحلفائهم الذي غيّر موازين القوى

في ذلك الوقت ، وذلك لما ترتب عليه من نتائج عظيمة . كان أهمها الخسائر المادية والمعنوية التي مني بها المغول وحلفائهم . والتي اعقبها طرد المغول نهائيا من بلاد الشام ، واكتساب دولة المماليك صفة الشرعية الكاملة بعد أن نجح السلطان الظاهر بيبرس في مشروع احياء الخلافة العباسية في القاهرة ، فضلا عن اضعاف مركز الامارات الصليبية على ساحل بلاد الشام .

أما الفصل الثالث وعنوانه « جهاد السلطان الظاهر بيبرس ضد الصليبيين والمغول » فقد تناول في البداية ما ترتب على هزيمة المغول وحلفائهم في عين جالوت من اصداء في الاوساط المغولية والمسيحية على حد سواء ، والتي تجسدت في محاولات جادة لاقامة حلف مغولي صليبي لمواجهة الخطر المملوكي الذي بات يهدد وجودهم بالزوال من الشرق الادنى بأكمله .

كما تناول هذا الفصل الجهود العظيمة التي بذلها السلطان المملوكي بيبرس لاحتواء هذا الحلف والعمل على إفشاله بعقد معاهدات صداقة مع بعض القوى الخارجية التي كانت على عداء مع المغول والصليبيين .

وتناول هذا الفصل بعد ذلك الجهود الجبارة التي ظهرت واضحة في الخطط الحربية البارعة التي بذلها بيبرس للاطاحة بامارة انطاكية الصليبية ، التي اسهمت بزعامة اميرها الصليبي بوهيمند اسهاما فعالا في مساعدة المغول اثناء اكتساحهم القوى الاسلامية في الشرق الاسلامي . وكذلك الحال بالنسبة لمملكة أرمينية الصغرى التي مارس ملكها هيثوم الأول الدور نفسه في مساعدة المغول في ذلك الهجوم الكاسح ، حيث لقنه السلطان الظاهر بيبرس درسا قاسيا لم يستطع بعده تقديم أي مساعدة تذكر لحلفائه المغول .

وأخيرا شرح هذا الفصل انتصارات السلطان الظاهر بيبرس على المغول في أعالي الشام والأناضول ، عندما حاولوا اكتساح مدن الشام من تلك الناحية بعد أن عجزوا عن مهاجمتها عن طريق معابر نهر الفرات .

وتناول الفصل الرابع وموضوعه « جهاد أسرة قلاوون ضد المغول والصليبيين » أحوال دولة سلاطين المماليك عقب وفاة السلطان العظيم الظاهر بيبرس ، فأوضح الخلافات التي نشبت بين القادة المماليك والتي كادت أن تطيح بذلك الصرح المملوكي

العظيم ، خاصة بعد أن استغل المغول وحلفائهم ذلك الخلاف ، وحاولوا احتلال بلاد الشام مرة اخرى ، لولا ذلك التصرف الحكيم الذي اتبعه السلطان قلاوون بعد اعتلائه عرش السلطنة المملوكية مع خصومه ، وعلى رأسهم الأمير سنقر الاشقر ، حتى تمكن من لم شمل المسلمين ، وتوحيد كلمتهم لمواجهة اعدائهم ، والذي تمكن قلاوون بفضله تحقيق ذلك النصر العظيم على المغول في معركة حمص الشهيرة التي أطاحت بآمال المغول في انتزاع بلاد الشام من أيدي المسلمين مرة أخرى .

وتناول الفصل بعد ذلك ، التحول الكبير الذي حدث في صفوف مغول فارس بعد وفاة الايلخان أبغا ، وجلوس السلطان المسلم أحمد تكدار على العرش المغولي في فارس ، والذي كان له الدور الكبير في اعتناق المغول في اقليم فارس للدين الاسلامي ، ومن ثم محاولته اقامة علاقات طيبة مع دولة سلاطين المماليك قائمة على احترام مباديء الدين الاسلامي وحسن الجوار ، والتي كادت أن تحقق للدين الإسلامي انتشارا اوسع في الاوساط المغولية لولا خروج ارغون خان على عمه أحمد تكدار ونسفه تلك المحاولات الخيّرة .

كما تناول الفصل بعد ذلك ، جهاد السلطان المنصور قلاوون وابنه الاشرف خليل ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام ، فأوضح الجهود الجبارة التي بذلها السلطان قلاوون والتي ظهرت واضحة في الخطط الحربية البارعة التي نفذها ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام حتى تمكن من السيطرة على امارة طرابلس الصليبية . ومن ثم شروعه في الاعداد للاستيلاء على آخر معقل للصليبيين في الشرق الإسلامي ، بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية ، في مدينة عكا وما جاورها ، وعندما لم يمهله القدر لينال هذا الشرف العظيم قام باكمال هذه المهمة من بعده ابنه السلطان الاشرف خليل الذي حقق آمال زعماء الجهاد ضد الصليبيين باقتلاع الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي من جذوره .

أما الفصل الخامس والاخير ، فقد ناقش موضوع « مقومات حركة الجهاد عند المماليك » حيث تناول بالشرح السبل التي اتبعها سلاطين دولة المماليك لاحياء فكرة الجهاد في نفوس المسلمين ، ومن ثم تفكيرهم في تكوين جيش منظم قام على اساس اقطاعي ، كفل لسلاطين المماليك توفير كافة الاحتياجات لهم ولجيوشهم ، من مؤن وعتاد وأسلحة فضلا عن كون هذا النظام الاقطاعي قد كفى سلاطين هذه الدولة دفع رواتب لجيوشهم .

كما تناول هذا الفصل بالدراسة ديوان الجيش المملوكي الذي كان بمثابة الجهاز التنظيمي لنظام الاقطاع الحربي ، وكذلك عناصر الجيش المملوكي الذي كان يتكون من الجيش السلطاني وجند الامراء وفرق الجند المتطوعة ، فضلا عن طائفة « أولادالناس » التي استحدثها المماليك في عهدهم . ثم عالج هذا الفصل اساليب القتال المتنوعة التي اتبعها سلاطين المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، وكذلك أنواع الاسلحة التي استخدمت في ذلك ، وأخيرا تناولت الدراسة في هذا الفصل دور سلاطين دولة المماليك في اعادة بناء الاسطول الاسلامي منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وما أسهم به الاسطول في عهدهم من مجهود وافر في تحقيق النصر على الصليبيين ، وتطهير بلاد الشام منهم .

واخيرا احتوت الرسالة على خاتمة توضح أهم النتائج التي توصل اليها البحث ، ومجموعة من الملاحق التي تفسر بعض الحوادث الواردة في فصول الرسالة .

ومن الواجب في هذا المقام ، أن أتقدم بخالص شكري وتقديري ، واعترافي بالجميل الى استاذي الفاضل المشرف على الرسالة الاستاذ الدكتور/ محمد حمدي عبد الحميد المناوي ، الذي لم يبخل عليّ طيلة مدة البحث بغزير علمه ، ووافر توجيهاته وارشاداته العلمية السديدة . جزاه الله عني وعن طلابه وطالباته خير الجزاء .

كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص شكري الى المسئولين في مكتبات جامعة أم القرى ، ومكتبة الحرم المكي الشريف بمكة المكرمة ، ومكتبة جامعة الملك عبد العزيز ، ومكتبة وزارة المعارف بجدة ، ودار الكتب المصرية ، ومكتبة جامعة القاهرة ، والمكتبة الازهرية ، ومعهد احياء المخطوطات العربية بالقاهرة ، ومكتبات استانبول فيما قدموه من مساعدات قيمة .

والله أسأله العون والسداد ، انه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

د . عبد الله سعيد محمد الغامدي

التمهيـــد

بلاد الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري

- المسـلمون
- الصليبيون
- الأرمـــن

التمهيـــد

بلاد الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري

كانت بلاد الشام قبيل منتصف القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي تتقاسمها سلطات ثلاث متنازعة فيما بينها ، هي سلطة الصليبيين الغربيين والأرمن المسيحيين ، والحكام المسلمين من أمراء البيت الأيوبي ، الذين انقسموا على أنفسهم بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م أثر مرض قصير اعتراه ، وكانت وفاته خسارة فادحة للجبهة الإسلامية المتحدة التي انهارت بعده ، والتي كان من الممكن بفضل استمرار تكوينها تحقيق المزيد من الانتصارات العظيمة على الصليبيين وغيرهم من أعداء الإسلام . إلا أن رحيل صلاح الدين جاء نذير انقسام في جسم الدولة الأيوبية بسبب قيام المنازعات بين أولاده حول تقسيم التركة . حيث استقل أكبرهم وهو الأفضل « علي » بحكم دمشق والساحل وبيت المقدس ، أما الأبن الثاني وهو الملك العزيز « عثمان » والذي كان بمصر وقت وفاة والده ، فقد احتفظ بها ، في حين بقيت حلب وأعمالها من نصيب الظاهر غازي[1] أما الملك العادل الأيوبي ـ أخو صلاح الدين ـ فقد كان نصيبه من هذه التركة الكرك[2] والأردن وأرض الجزيرة وديار بكر التي ظلت على حالتها اقطاعاً له[3] . أما بقية الأراضي فقد وزعت كإقطاعات على بقية أخوة صلاح الدين وأبناء بيته[4] .

---

(١) عماد الدين ، الفتح القدسي ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٩ ، الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ، ورقة ٤٩ آب ، ١٥٠ آب ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٩٧ ، ٩٨ ، تاريخ من ملك عكا والشام وحلب والسواحل ، ورقة ١١١ ب ، الحلبي ، جهينة الأخبار ، ورقة ٢٧ ب ، ٢٨ آب ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢١ ـ ١٤١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١٢ ، الباز العريني ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، القسم الأول (الأيوبيون) ، ص ١١٥ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٣٥ .

(٢) عن الكرك . انظر ما يلي ، ص ١٩٧ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ ، أبو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، العريني ، الايوبيون ص ١١٤ .

(٤) انظر العماد ، الفتح ، ص ٣١٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩١٢ ، ٩١٣ ، العريني المرجع نفسه .

ولم تمض سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الشقاق ونشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي ، حيث هاجم الملك العزيز عثمان الملك الأفضل بدمشق ، أذ لم ترق له على ما يبدو ـ تلك الوصية التي أوصى بها صلاح الدين لأبنه الأكبر الأفضل بالسلطنة من بعده ، بمعنى أن تكون له السلطة العليا في جميع أنحاء الدولة الأيوبية[1] ، وبالرغم من محاولة الملك العادل والملك الظاهر وقف النزاع بين الأخوين ، فإن العزيز خرج من مصر في صيف سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م قاصداً الشام وشرع في حصار الأفضل بدمشق ، الأمر الذي دفع الملك الأفضل إلى اللجوء إلى عمه الملك العادل والاستنجاد به[2] .

وبهذا العمل أتيحت الفرصة للملك العادل وهو الرجل الطموح الذي كان يعمل جاهداً على إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامته . والذي كان يدرك في الوقت نفسه بأن نصيبه من تركة أخيه صلاح الدين لا تليق بمكانته وما قدمه من خدمات جليلة في حياة صلاح الدين . والواقع أن العادل الذي كان يتمتع بذكاء شديد حيث وصفه ابن واصل بأنه « ذا مكر وشجاعة »[3] كان يشعر بذلك الشيء منذ البداية إلا أنه لم يشأ أن يتعجل الأمور عقب وفاة صلاح الدين ، وأخذ يتحين الفرص المناسبة فاستجاب لنداء الملك الأفضل ، واتصل بالملك الظاهر غازي صاحب حلب والملك المنصور محمد صاحب حماه ، والملك أسد الدين شيركوه صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك ، واتفق مع هؤلاء جميعاً على الوقوف مع الملك الأفضل صاحب دمشق ، ومنع الملك العزيز صاحب مصر من الاستيلاء على دمشق . وكان لهذا الحلف الأثر البالغ في تثبيط عزيمة الملك العزيز ، الذي أدرك أن لا قبل له بمقاومة أولئك الأمراء جميعاً ، فأزمع العودة إلى بلاده ، ولم يشأ العادل أن يعود العزيز إلى مصر دون تسوية سلمية ، مع أخوته في بلاد الشام ، فاجتمع به وطيب خاطره بأن زوجه إحدى بناته[4] وسوى بين الطرفين ، بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور في حين يأخذ العزيز بيت

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٩٧ ، سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ج ٢ ص ٩١٣ .

(٢) ابن الاثير ، المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ١٠٩ ، سعيد عاشور ، ص ٩١٣ ، ٩١٤ ، العريني ، المرجع نفسه .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٣٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣٤ - ٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١١٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩١٤ ، ٩١٥ .

المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين ، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية علاوة على ما بأيديهما[١] ، وبهذه التسوية العادلة الهادئة أثبت العادل أنه الرجل القوي العاقل الحريص على وحدة البيت الأيوبي للوقوف في وجه العدوان الصليبي المتربص بالمسلمين الدوائر في ذلك الوقت[٢] ، إلا أن هذه التسوية لم تدم طويلاً إذ عاد الخلاف مرة أخرى بين الملك الأفضل وأخيه الملك العزيز الذي خرج في العام التالي ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م من مصر على رأس جيش كبير لمحاربة أخيه الأفضل ، الذي سارع بدوره إلى الاستنجاد مرة أخرى بعمه الملك العادل . وفي هذه المرة اتبع الملك العادل سياسة أخرى حكيمة لتهدئة الموقف وحقن الدماء إذ عمل على مراسلة أمراء الملك العزيز وحرضهم على التخلي عنه ، فوجد العزيز نفسه في الطريق إلى دمشق ، وقد انفض عنه أمراؤه ، فاضطر إلى العودة لمصر[٣] ، ويبدو أن العادل أدرك أن ذلك الخلاف بين الأخوين لن ينتهي ، فبدأ يفكر جاداً في السيطرة على الأمور ، مستغلاً الفرق الكبير بين كل من الأفضل والعزيز ، إذ كان الأول يميل إلى حياة اللهو والدعة والانغماس في الملذات ، بينما كان العزيز على قدر كبير من المروءة والطيبة وحسن الخلق ، فحسن للعزيز انتزاع دمشق من يد الأفضل تمهيداً لفرض سيطرته عليها ، فاستجاب له العزيز ، وسار على رأس جيشه لمحاربة الأفضل في دمشق وتمكن من الاستيلاء عليها في سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م ، وحينئذ حل العادل محل الأفضل في دمشق وحكمها نيابة عنه[٤] .

---

(١) الاصفهاني ، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، ورقه ١٢٥ آ ، العيني ، عقد الجمان ، ج ١٣ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٢ ص ١٢٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، والغور يبدأ من أول بحيرة طبريا ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي إلى زغر ويرد البحيرة الميتة ، والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً ، وبعض الغور من حد الأردن إلى أن يجاوز بيسان ، فإذا جاوزه كان من حد فلسطين ، وهذا البطن إذا أمتد فيه السائر أداه إلى ايله (انظر ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٠) ، وجبلة قلعة مشهورة من قلاع بلاد الشام الساحلية وتعد من أعمال حلب (انظر ياقوت معجم البلدان) .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١٥ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ٢١٢ آ ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩١٥ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤١ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٦٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢٦ ، العريني ، الأيوبيون ، ص ١١٦ ، سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٦٣ .

محققاً بذلك العمل أول أهدافه لإعادة توحيد الدولة الأيوبية ، ثم توالت الفرص للملك العادل لتحقيق بقية أهدافه ، فلم تمض سوى مدة قليلة على توليه مدينة دمشق حتى لقي الملك العزيز عثمان مصرعه في مصر سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ، الأمر الذي شجع الملك الأفضل على الوصول إلى مصر ليلي الوصاية على المنصور بن العزيز الذي لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره . ثم انتهز الأفضل هذه الفرصة السانحة ، فجمع الجيوش المصرية وخرج على رأسها قاصداً بلاد الشام في محاولة لإعادة سلطانه على مدينة دمشق .

إلا أن الملك العادل تنبه لخطورة الموقف واستعد لملاقاته ومنعه من دخول دمشق . فأدرك الأفضل أن لا قبل له بمحاربة عمه العادل ، فعاد إلى القاهرة دون تحقيق هدفه ، وعاقبه العادل على ذلك العمل بأن تعقبه في طريق عودته إلى مصر ووقعت بين الطرفين معركة قوية في بلبيس ، كان النصر فيها من نصيب الملك العادل ، أما الأفضل الذي مني بخسارة فادحة في هذه المعركة ، فلم يربداً بعدها من إعلان خضوعه لعمه العادل ، الذي دخل إلى القاهرة واستولى عليها سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م[١] ، وغدا بذلك سلطاناً على مملكة صلاح الدين كلها ما عدا بلاد الحجاز واليمن ، وأعالي الشام ، حيث كانت تحكم فروع من البيت الأيوبي في حلب وحمص وحماة ، واحتفظت هذه الدويلات الشامية باستقلالها مقابل الاعتراف بزعامة العادل والتعهد بتقديم المعونة الحربية إليه كلما طلب ذلك[٢] .

وجه العادل بعد ذلك جهوده نحو تهديدات الصليبيين ، حيث أعد ملك بيت المقدس جان دي برين حملة صليبية جديدة[٣] وجهها الى مصر سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م بعد أن أدرك أن مصر هي مركز المقاومة الاسلامية ، فاستولى على دمياط . وفي هذه

(١) الأصفهاني ، البستان الجامع ، ورقة ١٤٦ ب ، ١٤٧ آ ، العيني ، عقد الجمان ، ج ١٣ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٥٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، ابن تعري بردي ، النجوم ، ج ٦ ، ص ١٢٦ ، العريني ، الأيوبيون ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، وبلبيس مدينة بمصر على طريق الشام بينها وبين الفسطاط ، عشرة فراسخ (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٧٧ ، الجنابي ، البحر الزاخر ، ج ٢ ، ورقة ١٧ ب ، العريني ، المماليك ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٣) لمعرفة تفصيل هذه الحملة (انظر محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، حملة جان دي برين على مصر) .

السنة مات الملك العادل ، وخلف لابنه السلطان الكامل معالجة الموقف ، الى أن انتهى الأمر بعقد صلح معهم جلوا بموجبه عن دمياط سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م ، وعقد معهم هدنة لمدة ثمان سنوات .[١]

ومات الكامل بدمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م بعد أن حكم مصر أربعين عاما ، منها عشرون عاما نائبا عن أبيه وعشرون سلطانا ، وولي الامر بعده ابنه العادل الصغير الذي لم يمكث في السلطنة سوى عامين فخلعه الجند وتولى السلطنة أخوه الملك الصالح سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وهو الذي استدعى الخوارزمية الفارين من وجه المغول ، فاستولى بمساعدتهم على بيت المقدس سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م [٢] كما استولى على دمشق سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م وعسقلان سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م من عمه الصالح اسماعيل الذي كان على علاقة طيبة مع الصليبيين[٣] . وبذلك تمكن الصالح ايوب من اعادة الدولة الايوبية الى وحدتها . وبدأ يوجه جهوده لوقف تهديدات الصليبيين ، حيث أعد لويس التاسع ملك فرنسا حملة صليبية جديدة[٤] نزل بها على دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، وفي هذه الظروف الحرجة مات الملك الصالح ، فقامت زوجته شجر الدر بتسيير دفة الحرب وشئون البلاد المصرية ، حتى قدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا بديار بكر سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م ، وتمكن من مواصلة جهود والده ضد الصليبيين حتى اجلاهم

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ ؛ العريني ، الأيوبيون ، ص ١٢٤ ،
Selec Tions from Tarik Ibn Alfurat . P.75;
Stevenson ; The crusaders in the East .P 307 ;
ودمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر ، وصفها ياقوت بانها ثغر من ثغور الاسلام (انظر معجم البلدان) .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٦ ، ص٣٢٣ ؛ ابن دقماق ، نزهة الانام في تاريخ الاسلام ، لوحه ٦٣ ، ٦٨ ؛ العريني ، الايوبيون ، ص١٤١ ، محمد حلمي محمد احمد ، مصر والشام والصليبيون ، ص٢١٤ .

(٣) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج٦ ، ص٣٢٤ ، ٣٢٥ ؛ العريني ، المرجع السابق ، ص١٤٢ ؛
Selctions. From Torik IBN Alfurat. P.76.

(٤) عن حملة لويس التاسع على مصر انظر (جوانفيل ، القديس لويس ؛ محمد مصطفى زياده ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ؛ حسن حبشي ، حملة القديس لويس على مصر والشام ؛ عبد الرحمن زكي ، معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية) .

عن مصر بمساعدة المماليك البحرية[1] الذين اساء معاملتهم بعد ذلك فنقموا عليه ، وعقدوا العزم على التخلص منه ، فقتلوه في ٢٦ محرم سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م[2] ووقع اختيارهم على شجر الدر لتلي السلطنة من بعده[3] .

وبمقتل توران شاه انتهى حكم الايوبيين في مصر ، لان اختيار المماليك لشجر الدر أرملة الصالح أيوب ، والتي كانت بحكم أصلها أقرب الى المماليك منها الى الايوبيين جعلها اولى سلاطين المماليك في مصر ، ولعل مما يؤيد هذا الرأي زواجها من أمير مملوكي هو ايبك التركماني عندما استاء المسلمون من أن يلي أمرهم امرأة .[4]

فضلا عن أن ذلك الحدث لم يرق للايوبيين في بلاد الشام ، اذ سارع الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب الى الاستيلاء على دمشق التابعة لمصر سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م .[5]

كما أعلن الملك المغيث عمر الايوبي استقلاله بالكرك والشوبك .[6] الامر الذي أثار حفيظة المماليك في مصر فتنبهوا لخطر الايوبيين عليهم ، فاستدعوا طفلا من البيت الايوبي اسمه الاشرف موسى وجعلوه سلطانا على مصر تحت وصايتهم[7] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص٣٥٣-٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٣٢٤-٣٢٦ ، العريني ؛ الايوبيون ، ص١٤٩-١٥٢ ، المماليك ، ص٤٦ ، وحصن كيفا : بلدة وقلعة عظيمة كانت تشرف على دجله بين امد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (انظر ياقوت معجم البلدان ؛ القرماني ، أخبار الدول وآثار الاول ، ص٣٣٦).

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ص ١٢٤ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ؛ المقريزي ، السلوك ، ح١ ، ص٣٥٨ .

(٣) الخزرجي ، تاريخ دولة الاكراد والاتراك ، ورقة ١٩٦ ب ، ١٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ح٦ ، ص٣٧٢ ؛ العريني ، المرجع السابق ، ص٤٦ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص٣٦٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٧٤ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١٠٧٨ ؛ العريني ، المماليك ، ص ٤٦ ؛ انظر ايضا ، علي ابراهيم حسن ، نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ، ص١٠٧ .

(٥) ابن ايبك الدوادار ، الدر المطلوب ، ح٧ ، ص٣٨٥ .

(٦) ابن ايبك الدوادار ، المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٣٨٥ ؛ والملك المغيث هو : المعز فتح الدين عمر بن ابي بكر بن الكامل محمد بن ابي بكر العادل بن ايوب توفي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م (انظر الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب) ، ص ٦٢ ، ١٠٥ .

(٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥ ؛ ابن الراهب ، تاريخ ابن الراهب ، ص٩٩ .

الا ان تلك الحيلة لم تجد أمام التصميم الايوبي في الاستيلاء على مصر واعادتها إلى حوزتهم . وبدأ الصدام الفعلي بين الايوبيين والمماليك حيث زحف الملك الناصر على غزة واستولى عليها ، مما جعل الطريق الى مصر مفتوحا أمامه . فتقدم حتى دخل الى الاراضي المصرية يحدوه الامل في السيطرة عليها .(١)

وفي مقابل ذلك خرجت الجيوش المصرية لوقف زحفه بعد أن أعلن ايبك أن البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية ، صاحبة السلطان القديم على الاراضي المصرية ، وأنه نائب الخليفة العباسي بها .(٢)

والتقى المماليك بالايوبيين في معركة كبيرة عند بلدة العباسية(٣) سنة ٦٤٨هـ/١٢٥١م انتصر فيها الملك الناصر أول الامر ، الا أن فرقة من جيشه تدعى المماليك العزيزية خذلوه وانضموا الى العسكر المصري الذي تمكن بمساعدتهم هزيمة الناصر الذي عاد ادراجه الى بلاد الشام .(٤)

وساق الملك المعز خلفه يتعقبه ، إلا أن تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله أنهى الخلاف بين الطرفين المتحاربين ، وتقررت قواعد الصلح بينهما(٥) . قاصداً بذلك التدخل حقن دماء المسلمين ، وتوحيد جهودهم لإيقاف تغلغل الصليبيين في بلاد الشام ، ومن ثم الوقوف في وجه الخطر المغولي القادم من الشرق .

---

(١) ابن ايبك ، الدرة الزكية ، ج٨ ، ص١٦،١٧ ، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٨٧ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص٣٧ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص١٩٢ ؛ العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر ، ص١٢٥ .

(٣) العباسه : بليدة تقع على طريق القاصد مصر من الشام ، بينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخا عمّرها السلطان الكامل وجعلها أحد منتزهاته ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان).

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٣٨٢ ، ٣٨٣ ؛ المقريزي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٧٣،٣٧٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ، ص٧،٨ ؛ ابن ايبك المصدر نفسه ، ج٨ ، ص١٧ ؛ العبادي ، المرجع نفسه ، ص١٢٦ ، ١٢٧ .
والعزيزية : نسبة الى العزيز محمد والد الناصر يوسف ، وقد انتقلوا الى خدمته بعد وفاة ابيه سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م (انظر احمد مختار العبادي ، المرجع نفسه ، ص١٢٦ حاشيه)

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٧٠ .

أما بالنسبة لشمال الشام والذي كان خاضعاً لسلطة الأرمن المسيحيين فقد شاءت الظروف أن يتوج ليو الثاني ، ملكاً على أرمينيه الصغرى[1] سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٨ م في الوقت الذي أعقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م تقسيم دولته بين أفراد أسرته ـ كما سبق أن أشرنا ـ[2] .

ويبدو أن ذلك النزاع الذي احتدم بين أمراء البيت الأيوبي بعد رحيل السلطان العظيم صلاح الدين ، أدى إلى زيادة أطماع الأرمن في السيطرة على أجزاء من بلاد الشام ، فحدثت اشتباكات عنيفة بين ليو الثاني ملك أرمينيه وبين الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، بسبب إمارة انطاكية الصليبية التي كانت على علاقة طيبة مع الملك الظاهر . ذلك أنه حدث بعد وفاة بوهيمند الثالث حاكم انطاكيه الصليبي سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م أن ساءت العلاقة بين ارمينيه الصغرى وانطاكيه بسبب طمع ليو الثاني الأرمني في بسط سيادته على إمارة انطاكيه عن طريق الوراثه ، وهاجمها سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٣ م ، فأسرع الملك الظاهر الأيوبي صاحب حلب لنجدة حلفائه في إمارة انطاكيه ، الأمر الذي اضطر معه ملك أرمينيه للعـودة إلى بلاده دون تحقيق هدفه[3] .

ولا شك أن ذلك التدخل من الملك الظاهر قد أغضب ليو الثاني الارمني ، والذي عزم على الانتقام منه بالقيام بهجوم مباغت على دير بساك سنة

---

(١) نجم عن توسع السلاجقة في هضبة أرمينية ، هجرة أعداد كبيرة من الأرمن عن مواطنهم الأصلية إلى الأقاليم الواقعة غربي نهر الفرات وشماليه ، وقد اشتدت هجرة هؤلاء الأرمن عقب انتصار السلاجقة في معركة ملازكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، فلجأ كثير منهم إلى جبال طوروس وإلى إقليم قليقيه وشمال بلاد الشام والجزيرة ، مثل انطاكيه والرها واللاذقية وأرتاح وأفاميه وتل باشر ، وقد اختار الأرمن هذه المناطق لبعدها عن الطرق الرئيسية التي سلكها السلاجقة في غزواتهم . وأصبحت هذه المناطق التي نزح إليها الأرمن تعرف باسم أرمينيه الصغرى (سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩) ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٠٢ ، عليه الجنزوري ، امارة الرها الصليبية ، ص ١٢٢ ، دائرة المعارف الإسلامية (مادة ارمينيه) ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٢٢٣ .

Cahen, la. Syriedunord, P. 190, The cambridg medieval, vol. Iv, P. R, 628 - 629.

(٢) راجع ما سبق ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٠ - ١٦٣ ، سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٤٠ .

٦٠٣ هـ / ١٢٠٥ م[1] . وأمام ذلك الاعتداء خرج الملك الظاهر غازي بنفسه على رأس قواته سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٦ م للإنتقام من الملك الأرمني ، وانضم إليه حاكم إمارة انطاكيه ، ولم يستطع ليو الثاني الصمود أمام هذه القوات المتحالفة ، بل تقهقر أمامهم ثم وافق على عقد هدنة معها لمدة ثمان سنوات . إلا أن تلك المعاهدة لم تدم طويلاً ، إذ حدث أن قام الملك الظاهر غازي بمساعدة سلطان سلاجقة الروم بهجوم مفاجيء على أرمينيه الصغرى ، انتهى باستيلاء المسلمين على حصن عرقوس قرب مرعش ، وبعض القلاع الأخرى في تلك المنطقة[2] .

على أنه إذا كانت إمارة حلب قد انفردت ـ بحكم موقعها في شمال بلاد الشام ـ بمواجهة قوة أرمينيه الصغرى في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، فإن الموقف اختلف في النصف الثاني من ذلك القرن ، ذلك أن قيام دولة المماليك المسلمين في مصر والشام تحت قيادة سياسة واحدة أدى إلى جعل مملكة ارمينيه الصغرى في مواجهة هذه الدولة الفتية التي استهدفت منذ بداية عهدها الجهاد ضد المغول والصليبيين جميعاً[3] .

أما بالنسبة لأوضاع الصليبيين ببلاد الشام في ذلك الوقت ، فلم تكن أحسن حالاً من غيرها ، فبالرغم من أن وفاة صلاح الدين قد أغرت المتحمسين في الغرب الأوروبي إلى القيام بحملات صليبية جديدة على المشرق الإسلامي بهدف استعادة بيت المقدس من المسلمين ، سيما وأن صلح الرملة الذي عقده ريتشارد قلب الأسد مع صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م كان محدداً بثلاث سنوات وثلاثة أشهر[4] . فإن تلك

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ، ابن واصل ، المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٠٠ ، عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٤١ . ودير بساك : حسن قرب انطاكيه من اعمال حلب (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٨٧ ، سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى ، ص ٢٤١ ، ومرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٤١ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ، أبو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١٧ .

الحملات الصليبية التي استهدفت الأراضي المصرية التي كانت تعد مركز المقاومه الإسلامية في العصور الوسطى لم تحقق ولو جزء بسيط من أهدافها ، باستثناء ما حققه الأمبراطور فردريك الثاني من استعادة بيت المقدس لبعض الوقت بالطرق السلمية من الملك الكامل الأيوبي بمقتضى صلح يافا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م[١] . فقد اضطربت أحوال الصليبيين في جنوب الشام وشماله ، ففي الجنوب شهدت مملكة بيت المقدس صراعاً مريراً مع مملكة قبرص ، نتيجة استنجاد أسرة آل ابلين بحنادى ابلين[٢] . هذا فضلاً عن أنه إذا كانت مملكة قبرص قد استطاعت سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م أن تخلص نفسها من سيطرة الأمبراطورية المقدسة ، فإن مملكة بيت المقدس في بلاد الشام ظلت حتى سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م ـ تابعة من الناحية القانونية على الأقل للأمبراطورية . وطوال هذه المدة كان أباطرة الغرب مشغولين عن ممتلكاتهم في الشرق . الأمر الذي جعل مملكة بيت المقدس طوال تلك السنين الطويلة دون ملك مقيم فيها يرعى شئونها ، وينظم أمورها ويدافع عن حقوقها . خاصة وأن الفترة من سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ـ ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م كانت فترة حاسمة في تاريخ الشرق الأدنى نظراً لما شهدته من أحداث جسام كان من الممكن أن يستغلها الصليبيون لقلب الموقف في بلاد الشام لصالحهم[٣] . إذ أن تلك الفترة وافقت سقوط الدولة الأيوبية ، واستيلاء المغول على الدول الإسلامية في إيران والعراق والشام ـ كما سنرى فيما بعد ـ هذا بالإضافة إلى ما حدث في مملكة بيت المقدس في ذلك الحين من خلاف حول ولاية العرش ، والذي ترتب عليه تدخل الامبراطورية بارسال حملة عسكرية إلى قبرص والشام ـ إلا أن هذه الحملة انتهت بالفشل ، الأمر الذي ترك الصليبيين في بلاد الشام في حالة شديدة من التفكك والانقسام[٤] .

---

(١) انظر اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٧ ب ، ٢٨ آ ، السيوطي ، اتحاف الأخصاء ، ورقه ١٢٤ آ ، ابن ايبك ، درر التيجان ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٠٩ ـ ١٠١٧ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

Campbell. The Crusades. P 406, The Cambridge History of islame. P20B, panter Ahistory of the middle Ags, P 217.

(٢) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ١٠١٨ .

(٣) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ١٠٢٠ ـ ١٠٢١ .

(٤) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ١٠٢٢ .

ولم تكن أحوال الصليبيين في شمال الشام في تلك الفترة أحسن منها في جنوبه ، فالمعروف أن صلح يافا الذي عقد بين السلطان الكامل محمد الأيوبي والأمبراطور فردريك الثاني سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م لم تتعرض بنوده لأحوال امارتي انطاكيه وطرابلس أو لأملاك الداويه[١] ، والاسبتارية[٢] في تلك الجهات[٣] . وقد استغل الاسبتارية الظروف التي ألمت بالبيت الأيوبي في ذلك الوقت ، وأغاروا على منطقة بعرين ، ونتيجة لذلك الهجوم قام الملك المظفر تقي الدين الأيوبي صاحب حماه بهجوم مضاد وأنزل بهم هزيمة ساحقة[٤] .

أما بالنسبة لإمارتي انطاكيه وطرابلس فقد توفي صاحبها بوهيمند الرابع في مارس سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م ، وخلفه ابنه بوهيمند الخامس الذي شارك بدوره في نزاع الاسبتارية مع الملك المظفر صاحب حماه بعد ان تجددت الحرب بين الطرفين بسبب

---

(١) الداويه : هي طائفة فرسان المعبد (Templers) وتختلف عن الاسبتاريه في كونها نشأت أصلاً على أساس حربي منذ سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، وأخذت هذه المنظمة العسكرية من ساحة المسجد الأقصى مقراً لها ، وتعهد اتباعها بحماية الطريق بين يافا وبيت المقدس ، ثم أسهم فرسان الداويه في جميع الأعمال العدائية التي قام بها الصليبيون في بلاد الشام وغدت الداويه تابعة للبابوية مباشرة شأنها في ذلك شأن الاسبتاريه ، وشكلت هاتان الطائفتان أقوى دعامتين للوجود الصليبي في بلاد الشام (انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٣٥٩ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، رسالة دكتوراه لم تطبع ، ص ٢٣٣ ، حاشية (٢) .

(٢) الاسبتارية : (Hospitallers) طائفة من الفرسان الصليبيين نشأت منذ فجر الحروب الصليبية ، وبدأت أول الأمر على هيئة جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين ، وإيواء الحجاج ورعايتهم وطبقت مباديء الديريه البندكتيه في فلسطين ولم تلبث أن تخلت عن تبعتها للبندكتيه وانتمت للبابويه مباشرة ، ثم تطورت واكتسبت صفة حربية وارتدى اصحابها زي الرهبان ، وأخذوا يقاتلون من على ظهور الخيل كالفرسان تماماً . ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين منذ سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م . واسهمت مع طائفة الداويه في حماية كيان الصليبيين في الشام طوال أكثر من قرن من الزمان ، (انظر سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ ، رنسيمان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٩ ، العريني ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، علي عوده الغامدي ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٣ ، حاشية (٣) ، جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢٣٣) .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٢٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٢٧ ، سعيد عاشور المرجع نفسه ، ص ١٠٢٤ .

مطالبة الاسبتارية للملك المظفر بأموال فرضوها عليه[1] . حيث هاجمت قوات الصليبيين مدينة بعرين وبعض المناطق القريبة منها ، إلا أن هذه القوات الصليبية عادت من تلك المناطق بعد اسبوع واحد ، وذلك لخوفها من الاصطدام مع قوات الأيوبيين الذين تنبهوا للخطر الصليبي ، وكونوا حلفاً لمواجهته ضم الملك الكامل صاحب مصر ، والأشرف صاحب دمشق ، والناصر داود صاحب الأردن ، والمجاهد شيركوه صاحب حمص[2] .

كما كان لتجدد النزاع بين بوهيمند الخامس أمير انطاكيه وطرابلس ، وملك ارمينيه هيثوم الأول . أثره البالغ في اضعاف تلك الإمارتين في ذلك الوقت ، ذلك أن هيثوم الأول لم يصل إلى حكم أرمينيه الصغرى إلا بعد أن تخلص من أحد أفراد البيت الحاكم في انطاكيه ، وهو فيليب أخو بوهيمند الخامس ، الأمر الذي أثار غضب بوهيمند ضد الأرمن ودخل معهم في صراع مرير ، واستغل ذلك النزاع الدائم بين الداويه وارمينيه الصغرى حول حصن بغراس ، فنظم مع الداويه حملة كبيرة على ارمينيه الصغرى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ولكن ذلك المشروع لم يؤت ثماره كاملة لإختلاف الداويه مع بوهيمند حوله[3] .

أما العامل الأخير الذي كان له الاثر البالغ على إضعاف الوجود الصليبي فهو تجدد الصراع الإسلامي الصليبي في بلاد الشام ، إذ من المعروف أن صلح يافا انتهى إمده سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م الامر الذي تجدد معه الصراع بين المسلمين والصليبيين ، حيث أخذ الأيوبيون يعملون جاهدين على استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، وبالفعل تمكن الملك الصالح أيوب من استعادته . الأمر الذي أثار غضب الغرب ، فأرسل حملة صليبية جديدة تزعمها الملك الفرنسي لويس التاسع ، إلا أن هذه الحملة منيت بفشل ذريع أمام ذلك الصمود الهائل الذي أظهره المسلمون في الأراضي المصرية .

---

(١) العيني عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٢٧ ، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٢٤ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٤٧ ، عاشور ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، بعرين اوبارين : بلد بين حمص والساحل (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) عاشور ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، وبغراس : مدينة بينها وبين انطاكيه اربعة فراسخ على يمين القاصد إلى انطاكيه من حلب في البلاد المطلة على طرطوس (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

وهكذا غدا وضع الصليبيين في بلاد الشام سيئاً للغاية نتيجة تلك الهزائم المتلاحقة التي حلت بهم . الأمر الذي سهل على دولة المماليك الفتية طردهم نهائياً من بلاد الشام - كما سنرى فيما بعد .

الفصـــل الأول

الغزو المغولي لبلاد الشام

- سقوط بغداد في أيدي المغول ونتائجه .
- موقف القوى الإسلامية وغيرها من الزحف المغولي على بلاد الشام .
- سقوط مدن الشام في أيدي المغول .
- طبيعة الغزو المغولي وأهدافه .

« سقوط بغداد في أيدي المغول »

بعد وفاة أكتاي خان امبراطور المغول سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م اضطربت أحوال المغول ، واختلفوا على من يخلفه على العرش ، وكثر الطامعون في تولي عرش المغول ، حتى استطاع كيوك بن اكتاي أن يصل إلى العرش سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م ومن بعده منكو بن تولوي بن جنكيز خان سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م[١] .

ولم يكد منكو خان يتربع على عرش المغول ويقضي على الفتن الداخلية ويتخلص من المناوئين لسياسته حتى بدأ في توجيه همته نحو الغزو « وأرسل الجيوش إلى الأطراف والحدود »[٢] حيث أرسل قائده بايجو نويان على رأس جيش جرار للمحافظة على إيران ، وما أن وصلها حتى بادر بارسال رسالة إلى منكو خان يشكو إليه الاسماعيلية وخليفة بغداد ويحذره من خطرهم على ممتلكات المغول في إيران[٣] . والواقع أن منكو خان بدأ يفكر منذ اللحظة الأولى في إكمال استيلاء المغول على غرب إيران والعراق والشام ومصر ، واختار أخاه هولاكو الذي كان يتوسم فيه « مخايل الملك » لقيادة هذه الحملة على البلاد الإسلامية[٤] .

والواقع لم يكن أمام المغول بعد استيلائهم على أملاك الدولة الخوارزميه أي قوة تستطيع اعتراض طريقهم نحو الغرب ، وكان الحكام المسلمون يعرفون تمام المعرفة أهمية الدولة الخوارزمية كحاجز قوي بينهم وبين المغول ، يدلنا على ذلك ما حدث بعد مقتل السلطان جلال الدين منكبرتي بن السلطان محمد خوارزمشاه ، حيث ذهب بعض

---

(١) انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، العريني ، المغول ، ص ١٨٨ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ١٨٨ - ٢١١ ، عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ١٠٠ - ١٠٨ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٢ .

(٣) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٤) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ ، انظر ايضاً ، لين بول ، الدول الإسلامية ، ص ٥١٤ .

خواص الملك الأشرف موسى الأيوبي صاحب مدينة خلاط يهنئونه بمقتل عدوه جلال الدين ، فرد عليهم قائلاً : « تهنئوني به وتفرحون سوف ترون غبه ، والله لتكونن هذه الكسره سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام ، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج »[١] . ولقد صدقت نبوءة الأشرف .

وعلى كلٍ فقد حرص منكو خان على إعداد حملة هولاكو إعداداً محكماً يكفل لها النجاح ، فقد ارسل المرشدين ليختبروا الطريق الذي سوف تمر منه عساكر هولاكو من قراقورم حتى شاطيء نهر جيحون ، فأقاموا الجسور على الأنهار العميقة ، وعلى مجاري المياه السريعة[٢] . ثم رسم لأخيه الخطة التي كان عليه أن يتبعها حيث قال له : « إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها ، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران . . وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزئيات وخص كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وأنعامك ، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به ، وابدأ بإقليم قهستان في خرسان ، فخرب القلاع والحصون . . . . ، فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض له مطلقاً ، أما إذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين ، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد ، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً ، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم ، وأما الولايات الخربة ، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال ، وثق أنك بقوة الله

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ ، انظر أيضاً ، الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين ، ص ٢٤ ، ومنكبرتي هو جلال الدين محمد بن خوارزمشاه تكش بن ارسلان شاه بن اتسز توفى مقتولاً سنة ٦٢٨ هـ انظر النسوي ، سيرة جلال الدين ، ص ٣٨٤ ، ابن تغري بردي ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٧٤ ، والملك الأشرف هو : موسى بن أبي بكر العادل بن أيوب توفي بدمشق سنة ٦٣٥ هـ ، وخلاط : مدينة كبيرة مشهورة بها خيرات كثيرة وموارد كبيرة وهي قصبة بلاد أرمينيه (انظر القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٢٤) .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة ، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشئون »[1] .

وبعد أن قدم منكو خان وصاياه ونصائحه لأخيه هولاكو ، اختار أخاه الأصغر سنتاي أغول ليكون في صحبته ، وخرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول في سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م وفي طريقه لقى مساعدة كاملة من أمراء المغول الذين أعدوا له المأكل والمشرب في جميع المراحل وحرصوا على أن ينظفوا الطريق التي تقرر أن يسلكها جيش هولاكو من الحجارة والأشواك ، كما أعدوا السفن له لعبور الأنهار الكبيرة ، كما قام الأمراء والنبلاء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من الجند للإنضمام إلى جيش هولاكو[2] . وفي شهر شعبان سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م وصل جيش هولاكو إلى سمرقند ، وأمضى بها أربعين يوماً ثم توجه إلى مدينة كش ، وهناك وصله كافة الأمراء والأكابر في خرسان وقدموا خضوعهم وهداياهم له . وأقام بهذه المدينة قرابة شهر وجه خلالها عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة طلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الاسماعيلية والقضاء عليهم ، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولا يتعرض لهم بسوء ، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما سينزله بالاسماعيلية[3] .

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٣ ، ٢٧ ، ودقوز خاتون كانت زوجة تولوي ، ثم آلت من بعده إلى ابنه هولاكو ، فتزوج منها جرياً على عادة المغول في تزوج نساء آبائهم ، وكانت امرأة حازمة ذات شخصية قوية ، تدين بالمسيحية ، وكان هولاكو يعزها ويحترمها ، ويستشيرها في مهام الأمور ، (انظر عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية ، ص ١٠٩) .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٣) انظر نص الرسالة في رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، انظر أيضاً ، محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي ، ص ٦٨ ، والاسماعيلية : أصلاً فرقة تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفي سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م (عن ظهور هذه الفرقة انظر برنارد لويس ، أصول الاسماعيلية ، ص ٨٣ ـ ١١٥) . ولكن المقصود بالاسماعيلية هنا الفرقة التي تعرف بالباطنية ، أو الحشيشية ، أو الملاحدة والتي أسسها الحسن بن محمد الصباح الذي سافر من إيران إلى مصر وقابل الخليفة المستنصر الفاطمي وتلقى منه مبادىء الدعوة الاسماعيلية ، ثم عاد إلى بلاد فارس ، وفي سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٨٨ م استولى الحسن الصباح على قلعة الموت التي عرفت باسم عش العقاب لمناعتها وارتفاعها وحصانتها ، ووضع الحسن الصباح لاتباعه تنظيماً دقيقاً قسمهم إلى خمس مراتب وألف كتاباً =

ويبدو أن ذلك التهديد كان له الأثر البالغ على نفوس هؤلاء الملوك والسلاطين فسارع بعضهم إلى التوجه إلى هولاكو لتقديم فروض الطاعة له ، حيث وصل إلى حضرة هولاكو كل من سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين ، وكذلك ابن اتابك فارس ، وغيرهم من أمراء العراق وخراسان ، واذربيجان وجورجيا ، وكانوا جميعاً يحملون الهدايا الثمينة إلى هولاكو[1] .

وفي ذي الحجة سنة ٦٥٣ هـ / يناير ١٢٥٦ م ، أصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق ، وإقامة جسر على نهر جيحون حيث عبرت قواته النهر متوجهة إلى قلاع الاسماعيلية ، ونزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ وأمضى هولاكو الشتاء هناك[2] . ثم واصل سيره باتجاه قلاع الاسماعيلية ، وكان القائد كيتو بوقا قد سبق هولاكو على رأس طلائع جيشه إلى قهستان ، واستطاع أن يستولى على بعض القلاع الموجودة هناك[3] .

ثم وصل هولاكو بعد ذلك على رأس الجيش الرئيسي إلى قلاع الاسماعيلية الحصينة ، واستطاع بالحيلة تارة ، وبالقوة تارة أخرى أن يستولى عليها الواحدة تلو

= من أربعة فصول ضمنه أهم مبادىء دعوته وجند فئة من أتباعه تميزت بقوة أبدانها وطاعتها العمياء اشتهرت بتنفيذ حوادث الاغتيالات السياسية بالخناجر مهما كانت النتائج (انظر الشهرستاني، الملل والنحل ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٣ ،فيليب حتى ، تاريخ سوريه ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، محمد أبوزهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج ١ ، ص ٦١ ، ٦٢ ، سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٣٤١ ، كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، برنارد لويس ، الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ، ص ٦٣ ، صابر طعيمه ، دراسات في الفرق ، ص ٧٧ ، أحمد محمد جلي ، دراسة عن الفرق في تاريخ الاسلام ، ص١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، مسفر الغامدي ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق قبل قيام الدولة الايوبية ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ (حاشية) :

Leuis. Saladin and the Assassins.P. 238.

وكش : بلدة بنواحي سمرقند شمالي وادي الصغد (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٣) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

الأخرى حتى انتهى من آخر قلاعهم قلعة الموت في أواخر سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م حيث لم يستطع زعيم الاسماعيلية ركن الدين خورشاه ، مقاومة هولاكو ، فاستسلم له وقبّل الأرض أمامه . وبذلك تمكن المغول من الاستيلاء على كل قلاع الاسماعيلية التي بلغ عددها نحو المائة ، والتي اتخذها هؤلاء الاسماعيليون أوكاراً لهم سنين طويلة[١] .

ولم يكتف هولاكو بالاستيلاء على قلاع الاسماعيلية في تلك المناطق بل طلب من ركن الدين خورشاه تسليم جميع قلاع الاسماعيلية في بلاد الشام ، فاستجاب له وارسل مندوبين من قبله إلى بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة الناس هناك إلى التسليم عندما تصل إليهم « الرايات المغولية »[٢] .

وبالرغم مما ذكره البعض من أن اندحار طائفة الاسماعيلية كان له رنة فرح وسرور عمت معظم العالم الإسلامي ، رغم ما كان يعانيه من الخطر المغولي الداهم بما ينتظره على ايديهم من حوادث أخرى أكثر هولاً[٣] . فإنه يبدو لنا أن ذلك كان له مردود سيء على العالم الإسلامي ، إذ أن الاسماعيليين كانوا يمثلون جداراً آخر بعد الخوارزميين أمام المغول ، وأنه باندحارهم أصبح الطريق أمام المغول ممهداً وأكثر سهولة من ذي قبل .

وبعد أن قضى هولاكو على طائفة الاسماعيلية ، سار لتحقيق هدفه الثاني ، الذي رسمه له أخوه منكوخان ، وهو الاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ، التي ادركتها الشيخوخة ، وظهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار . والواقع أن جذور الضعف والتفكك قد امتدت إلى جسم الخلافة العباسية قبل مجيء المغول بمدة طويلة بسبب سيطرة الفرس أولاً ثم غلبة الأتراك ثانياً منذ أن فتح لهم الخليفة العباسي المعتصم بالله الباب على مصراعيه . هذا بالإضافة إلى تهاون العباسيين وانصرافهم عن الجنس العربي ، الأمر الذي ترتب عليه سقوط هيبة الخلافة العباسية ، وبذلك تفككت

---

(١) رشيدالدين ، جامع التواريخ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٥٥ ، الجزري ، تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، ورقة ١٩٤ ب ، ١٩٥ آ ، أحمد السعيد ، تاريخ الدول الإسلامية ، ومعجم الأسرات الحاكمة ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ ، لين بول ، الدول الإسلامية ، ص ٥١٤ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٣) العريني ، المغول ، ص ٢١٢ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١١٥ .

الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة العباسية بمختلف الأمصار الإسلامية ، حيث نشأت دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة العباسية وعلى أطرافها[١] .

وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الإسلامية في الشرق ، كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المستعصم بالله (٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) الذي تكاد تجمع المصادر على وصفه بأوصاف لا تحمد . وبأنه لم يكن يأبه بخطورة وضع المسلمين آنذاك من جراء خطر المغول القادم من الشرق[٢] .

ففي الوقت الذي كان على الخليفة المستعصم بالله إعداد العدة واتخاذ الاحتياطات الكاملة واصلاح أموره الداخلية وتقوية جيوشه للوقوف في وجه الخطر المغولي الذي بات يهدد ممتلكات الخلافة العباسية ، فقد عمد إلى قطع أرزاق أكثر جنده وانقاص عدد جيشه من مائة ألف فارس إلى عشرين ألف ، بحجة توفير الأموال وارسالها إلى المغول لاسترضائهم واثنائهم عن مهاجمة دولته[٣] .

والواقع أن هذا الأمر الذي أقدم عليه الخليفة المستعصم لم يكن مجدياً لإثناء هولاكو عن الهجوم على الخلافة العباسية ، خاصة إذا علمنا بأن الخليفة المستعصم نفسه قد رفض طلب هولاكو بمساعدته على تحطيم قلاع الاسماعيلية ، وأن هولاكو قد هدد من لم يستجب له بتحطيم ممتلكاته ، فضلاً عن أن خطة منكوخان التي رسمها لأخيه هولاكو كانت تنص على أن تأمين الخليفة العباسي يكون بدخوله في طاعة المغول من غير قيد أو

---

(١) الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) وصفه ابن تغري بردي بقوله : « كان قليل المعرفة بتدبير الملك نازل الهمة ، مهملاً للأمور ، محباً لجمع الأموال ، يقدم على فعل ما يستقبح ، أهمل أمر هولاكو حتى كان في ذلك هلاكه » (انظر النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦٤) ، كذلك وصفه رشيد الدين بأنه كان « شخصاً عاجزاً لا رأي له ولا تدبير ، وساذجاً » (انظر جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٢) ، كما وصفه الأربلي بأنه كان « محباً للهو واللعب .. ثم وكل أموره في الكليات إلى غير الأكفاء ، وأهمل ما يجب عليه حفظه والتصرف فيه » (انظر خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٩٢ ، ٢٩١) ، أما ابن طباطبا فقد وصفه بقوله : « كان المستعصم رجلاً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان .. إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعاً فيه غير مهيب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور ... وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أراذل العوام » (انظر الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٣٣٣) ، وكذلك وصفه ابن كثير بأنه « كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه » (انظر البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٠٥) .

(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ح ١ ، ص ٢٧٢ .

شرط . وهذا معناه عدم اعتراض جيش المغول الذين كانت خطتهم تنص على مواصلة الزحف غرباً باتجاه الشام ومصر .

كما أن الخليفة المستعصم بالله حاد عن السياسة التقليدية التي اتبعها أسلافه من الخلفاء العباسيين ، الذين كانت سياستهم تقوم على مصانعة القوى التي تعاقبت على حكم ايران كالبوهيين والسلاجقة مثلاً ، إذ كانوا يوكلون إليهم الأمور السياسية في حين يظلون هم متمسكين بالوظائف الروحية ويترقبون ضعف تلك السيادة ، فيعاودون رفع رؤوسهم والاستيلاء على الأمور السياسية والروحية معاً .

أما الخليفة المستعصم الذي كان يظن في نفسه القدرة على الصمود أمام الخطر المغولي فإنه لم يعر تلك السياسة أي اهتمام ، بل ظل على مكابرته معتقداً بأن الخلافة العباسية لن يعتريها أي سوء .

والواقع أن الخليفة العباسي في ذلك الوقت لم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب ، حتى أن أحد رجاله وهو مجاهد الدين ايبك الدواتدار الذي جمع حوله « الرعاع والسفلة » وأصبح خلال مدة وجيزة صاحب شوكة وبأس في الخلافة العباسية ، ورأى الخليفة المستعصم شخصاً ضعيف الرأي قليل العزم . اتفق مع طائفة من الأعيان على خلع الخليفة وتولية خليفة آخر من البيت العباسي مكانه ـ وما لبث أن وصل نبأ هذه المؤامرة إلى مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة ، الذي سارع بدوره إلى اطلاع الخليفة وتحذيره من مجاهد الدين ، فاستدعاه الخليفة ، وأطلعه على ما قاله الوزير في شأنه ، فاتهم مجاهد الدين ابن العلقمي بالتزوير والمخادعة وأنه يمالىء المغول ويتبادل معهم الجواسيس . فاقتنع الخليفة ومال إلى مجاهد الدين ، وقال له : « منذ هذه اللحظة كن يقظاً عاقلاً » وحاول الدواتدار الذي لم يكن يأبه بالخليفة ، الانتقام من ابن العلقمي إلا أن الخليفة الذي خشي تفاقم الفتنة ببغداد تدخل مرة أخرى ووضع حداً لهذه الفتنة ، وأرضى مجاهد الدين بأن نودي في بغداد بأن ما قيل في حقه إنما هو كذب ، وصار اسمه يذكر في الخطبة بعد اسم الخليفة[1] .

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ .

وزاد الطين بله في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الخلافة العباسية ذلك الصراع المذهبي العنيف الذي احتدم بين أهل السنة في بغداد والشيعة في الكرخ ، وكان الخليفة المستعصم ومجاهد الدين يؤيدان أهل السنة ، في حين كان الوزير ابن العلقمي شيعياً يساند الشيعة ، فكثرت الفتن والمنازعات بين هاتين الطائفتين ، ونشبت حرب ضروس بين السنة والشيعة اضطر معها الخليفة إلى التدخل لفض النزاع ، ووكل المهمة إلى ابنه أبي بكر الذي أغار على مقر الشيعة في الكرخ ، وأنزل بهم ضربة قوية . فكان لهذا العمل أسوأ الأثر في نفوس الشيعة ، فنقموا على الخليفة كما عظم ذلك الأمر على ابن العلقمي الذي كان من كبار الشيعة ، فأضمر الشر للخليفة العباسي ، وأمر أهل الكرخ بالصبر والكف عن القتال ، ووعدهم سراً بالانتقام لهم . فكان أول عمل قام به هو اقناع الخليفة بانقاص عدد جنده لتوفير الأموال وارسالها إلى هولاكو ، زعماً منه بأن ذلك سيثني المغول عن مهاجمة بغداد . في حين أنه قام في الوقت نفسه بالاتصال سراً بالمغول وأطمعهم في بغداد ، ووعدهم بتسهيل ذلك لهم . في مقابل أن يكون نائباً لهم بالبلاد بعد سيطرتهم عليها ، وأرسل غلامه وأخاه إلى المغول لهذا الغرض[1] .

ولم يقتصر الصراع على طائفتي السنة والشيعة ، بل تعداها إلى الطوائف الأخرى من المسيحيين واليهود ، الذين كانوا على خلاف حول المسائل الدينية ، كما كانوا يختلفون في الميول السياسية ، ولا شك ، أن هذا كثيراً ماكان يثير الفتن والمنازعات بين السكان[2] .

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٩٦ ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٦٦ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، سعد حذيفة الغامدي ، سقوط الدولة العباسية ، ص ٢٧٧ ، والذي يجدر ذكره أن المؤرخين ، رشيد الدين فضل الله ، وابن طباطبا يؤكدان براءة ابن العلقمي من هذه التهمة ، ويذهبان إلى أن خصومه من أهل السنة هم الذين روجوا لهذه التهمة ، (جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٥) ويبدو لنا أن ما ذهب إليه هذان المؤرخان بعيد عن الصحة بدليل اجماع المصادر على اتصال ابن العلقمي بالمغول ، فضلاً عن انتساب ابن طباطبا إلى آل البيت ، أما رشيد الدين ، فلا يستبعد أن يكون هو الآخر بحكم اقامته في بلاد فارس التي اشتهرت بميلها لآل البيت أن يكون متشيعاً ، لذلك مال إلى الدفاع عن ابن العلقمي .

(٢) انظر الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

كما كان لتدهور الأوضاع الاقتصادية أثره البالغ على اضعاف الخلافة العباسية ، فقد حدث آخر صيف سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، أن هطلت أمطار غزيرة ، سال على أثرها سيل عظيم أغرق مدينة بغداد ، لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل غمرتها المياه واختفت معالمها تماماً ، وقد استمر انهيار السيل خمسين يوماً ثم بدأ في النقصان ، ونتج عن ذلك أن نصف أراضي العراق أصبحت مهجورة خربة[١] . هذا بالاضافة إلى الخراج الذي ارهق كواهل الناس ، فضلاً عن تحكم الطبقة الحاكمة في شئون الأمصار لمصلحتها حتى ازداد أصحابها غنى ، وازداد الفقراء فقراً . الأمر الذي ترتب عليه الكساد الزراعي والصناعي ، كما قضت الحروب المتواصلة بانقاص عدد الرجال العاملين بهذا المجال ، مما أدى إلى تلف معظم الحقول الزراعية ، وزاد خرابها تكرار الفيضانات في سهول العراق الجنوبية[٢] .

وبالرغم من هذه المتاعب والمحن التي احاطت بالخلافة العباسية فإن المصادر لم تشر إلى أي محاولة من الخليفة العباسي المستعصم بالله في الإتصال بالقوى الإسلامية ، وبالأخص الايوبيين في الشام ، والمماليك في مصر . إذ يبدو أنه كان واهماً بأن تلك القوى ستكون رهن اشارته عند الحاجة لها ، يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي رد بها الخليفة على تهديدات هولاكو ، والتي ذكر فيها بأن كل القوى الإسلامية تنتظر إشارة بسيطة منه للوقوف في وجه المغول ، متناسياً بأن الأيوبيين والمماليك كان لديهم من المشاكل ما يمنعهم من تقديم أي مساعدة لبغداد[٣] .

وهكذا غدت الخلافة العباسية في بغداد في وضع يرثى له ، في الوقت الذي كان المغول بالجانب الآخر مشغولين بإعداد الجيوش وتجهيزها بأحسن العتاد والعدد ، استعداداً للزحف على بغداد ، حيث بلغ هولاكو بجيوشه الدينور[٤] في التاسع من ربيع الآخر سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ثم مضى إلى همذان في الثاني عشر من رجب من السنة نفسها ، ومن هذه المنطقة بدأ هولاكو في تنفيذ وصية أخيه الخان الأعظم وتعليماته ،

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(٢) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٨٥٢ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

(٣) انظر نص الرسالة فيما يلي ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) الدينور ، مدينة من أعمال الجبل وهي كثيرة الثمار والزهور ، بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخاً ، ومنها إلى شهر زور أربع مراحل (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

فأرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم في رمضان من هذه السنة رسولاً يحمل رسالة كلها تهديد ووعيد قال فيها : « لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند ، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة ، فلم ترسل الينا الجند ، والتمست العذر . . . ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ، ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي ، منذ عهد جنكيز خان[1] إلى اليوم ، والذي حاق بأسر الخوارزميه والسلجوقيه وملوك الديالمة والاتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة ، وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف ، واتخذوا منها قاعدة ملكاً لهم ، فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان ؟ ولقد نصحناك من قبل ، والآن نقول لك احذر الحقد والخصام ولا تضرب المخصف بقبضة يدك ، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب . ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فإذا أطاع الخليفة ، فليهدم الحصون ويردم الخنادق ، ويسلم البلاد لابنه ، ويحضر لمقابلتنا ، وإذا لم يرد الحضور فيرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه ، والدواتدار ، ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص ، فإذا استجاب لأمرنا ، فلن يكون من واجبنا أن نكِن له الحقد ، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته ، أما إذا لم يصغ إلى النصح وأثر الخلاف والجدال ، فليعين الجند وليعين ساحة القتال فإننا متأهبون لمحاربته ، وواقفون له على استعداد ، وحينما أقود الجيوش إلى بغداد ، مندفعاً بثورة الغضب ، فإنك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض . . . فسوف أنزلك من الفلك الدوار ، وسوف القيك من عليائك إلى أسفل كالأسد ، ولن أدع حياً في مملكتك . . . وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار . فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء ، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله »[2] .

---

(١) عن ظهور جنكيز خان وتوحيد القبائل المغولية وجهوده لتوسيع امبراطورية المغول (انظر الباز العريني ، المغول ، ص ٣٧ ، وما بعدها ، فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ١٩ وما بعدها ، عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ٢٩ وما بعدها .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، انظر أيضاً محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

ويبدو أن هولاكو قصد بهذا التهديد إدخال الرعب في نفس الخليفة العباسي المستعصم ليعترف له بالسيادة بحيث يصبح له من الهيمنة على بغداد ما كان للبويهيين ثم للسلاطين السلاجقة بعدهم ، في حين تبقى السلطة الروحية للخليفة العباسي ، إلا أن المستعصم رفض ذلك بشدة ورد على هولاكو برسالة كلها احتقار قال فيها : « أيها الشاب الحدث . . . . . المتمني قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً في يومين من الإقبال ، متوهماً أن أمره قضاء مبرم ، وأمر محكم . لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي ؟ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب وأنه من الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في ايران ثم اتوجه منها إلى بلاد توران ، وأضع كل شخص في موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوء بالقلق والاضطراب ، غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وايذاءهم ، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح ، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد ، وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان ، وان كنت تريد الحرب والقتال ، فلا تتوانى لحظة ولا تعتذر ، إذا استقر رأيك على الحرب ، أن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجاله وهم متأهبون للقتال ، وأنهم ليثيروا الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان »(١) .

وإذا أمعنا النظر في رد الخليفة هذا فبالرغم مما ذكره البعض من أن الخليفة المستعصم كان واهماً في هذا الرد الذي اشتمل على التهديد والوعيد والاحتقار لهولاكو ، مستدلين بأن العالم الإسلامي الذي كان يعاني من الأثره والأنانية والتفكك ، لم يكن في مقدوره انجاد الخليفة المستعصم(٢) . فإنه يبدو لنا أن الخليفة المستعصم كان بإمكانه تحقيق ذلك فيما لو حاول بالفعل استغلال سلطته الروحية ، وجدد الدعوة إلى إعلان حركة الجهاد الإسلامي المقدس ضد أعداء الإسلام المغول ، إذ أن تلك الدعوة كانت

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، انظر أيضاً ، محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٢) انظر الباز العريني ، المغول ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ستجد بلا شك أصداء كبيرة في نفوس المسلمين ، خاصة في العراق والشام ومصر حاله في ذلك حال عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود[1] ، وصلاح الدين من قبله[2] ، والمظفر سيف الدين قطز من بعده[3] ، فضلاً عن أن القوى الإسلامية الأخرى في المغرب ستسارع بلا شك إلى إرسال المدد للخلافة العباسية في بغداد ، إذ أنها هي الأخرى كانت على يقين أن نجاح المغول في السيطرة على الشام ومصر سيعرضها للخطر لا محالة .

ومهما يكن من أمر فقد عاد رسل هولاكو ومعهم رسل الخليفة برسالته هذه مع بعض التحف والهدايا وتعرضوا أثناء سيرهم في الصحراء إلى مضايقة شديدة من الرعاع الذين اطلقوا ألسنتهم بسب الرسل ، وبادروهم بالسفاهة وأخذوا يمزقون ثيابهم ، ويبصقون في وجوههم ، لعلهم يقولون لهم شيئاً يتخذونه ذريعة لإيذائهم والإعتداء عليهم . الأمر الذي زاد من غضب هولاكو عندما وصل الرسل إليه ، حيث عرضوا عليه كل ما شاهدوه وعبر عن غضبه بقوله : « إن الخليفة ليست لديه كفاءة قط ، إذ أنه معنا كالقوس الأعوج ، فلو أمدني الله الأزلي بعونه فسوف أجعله مستقيماً كالسهم » ، ثم دخل رسل الخليفة وبلغوا الرسالة ، فغضب هولاكو مرة أخرى من « عبارة الخليفة غير اللائقة » ـ على حد تعبير رشيد الدين ـ وقال : « إن إرادة الله مع هؤلاء القوم أمر آخر ، إذ ألقى في روعهم مثل هذه الأوهام »[4] .

ثم أذن هولاكو لرسل الخليفة بالإنصراف وأرسل إليه يقول : « إن الله الأزلي رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب ، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه ، تبقى له أمواله ونساؤه وابناؤه ، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك ، لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية ، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير ، وأن في أذنيك وقراً

---

(١) لمعرفة جهود عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود في توحيد الجبهة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين ، انظر محمد محمد الشيخ ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عصر الأسرة الزنكية ، مسفر الغامدي ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية .

(٢) لمعرفة جهود صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين ، انظر عبد الله الغامدي ، صلاح الدين والصليبيون .

(٣) لمعرفة جهود مظفر قطز ، انظر ما يلي ، في الفصل الثاني .

(٤) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ، محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي ، ص ٣٤٧ .

فلا تسمع نصح المشفقين ، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك ، وإذاً فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال ، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد ، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى ، فتلك مشيئة الله العظيم »[1] .

والواقع أن رد هولاكو هذا يؤكد ما سبق ذكره من أن هولاكو كان يحسب للخليفة العباسي بالرغم من ضعف دولته حساباً كبيراً . بدليل أن هذا التهديد هو الثالث من نوعه ، كما يلاحظ أن هولاكو بدأ يصارح الخليفة بأن يعامله معاملة من سبقه من البويهيين والأتراك السلاجقة بدليل قوله يخاطب الخليفة « ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك » ، كما يبدو أن هولاكو بدأ أيضاً منذ هذه اللحظة يتشكك في تحقيق الانتصار على الخلافة العباسية رغم تشدقه به في أكثر من رسالة بدليل قوله هنا « ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم » .

ومهما يكن من أمر فإن الخليفة المستعصم لم يعر ذلك الأمر اهتماماً ، ولا يستبعد أن يكون الوزير ابن العلقمي الذي كان على اتصال بالمغول ، والذي تسلم رسالة هولاكو هذه من الرسل ، وعرضها على الخليفة[2] . قد أخفى بعض نصوصها لكي لا يطلع الخليفة على تلك التغييرات التي طرأت على تهديدات هولاكو له . كما تمادى الخليفة المستعصم في عدم معالجة الأمور بنفسه ، وأخذ يستشير كبار الرجال في دولته لمواجهة ذلك الخطر ، فأشار عليه الوزير بجمع الأموال من الخزائن والدفائن وارسالها مع التحف والهدايا إلى هولاكو ، مع تقديم الاعتذار إليه[3] . فاستحسن الخليفة هذا الرأي وأشار به ، إلا أن مجاهد الدين ايبك الذي كان على خلاف مرير مع الوزير ابن العلقمي ، سارع بالاتفاق مع بقية الأمراء بإبلاغ الخليفة بأن مؤيد الدين ابن العلقمي على اتفاق مع هولاكو وأنه دبر هذه الحيلة لمصلحته الخاصة ، لكي يتقرب منه ، وأنه من الواجب إلقاء القبض على الرسل وأخذ ما معهم من الأموال ، فعدل الخليفة عن مشورة الوزير وأخذ برأي مجاهد الدين[4] .

---

(١) رشيدالدين ، جامع التواريخ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، محمد ماهر حماده ، المرجع نفسه ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ،م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٣) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٤) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

وبالنظر في موقف الخليفة المستعصم من هذين الرأيين ، فانه يبدو أنه قصد بذلك تفادي مزيد اشتعال الفتنة بين السنة والشيعة بدليل انه لم يهمل الوزير ابن العلقمي بالرغم من رفضه لمشورته ، بل بعث اليه رسالة . ذكر له بأنه على علاقة طيبة مع هولاكو وأخيه وأن رسالة الرسل غير صحيحة ، وفي حالة مخادعة المغول له ، فانه سيدعوا ملوك المسلمين الذين يعتبرهم بمثابة الجند له ، وأنهم منقادون ومطيعون لامره ونهيه للوقوف في وجه خطر المغول الغادر .(١)

ولكن يبدو أن الوزير ابن ابن العلقمي كان مصرا على التمادي في تنفيذ خطته . فلم يعجبه تصرف الخليفة هذا ، فجمع امراء بغداد وعظماؤها في حضرته ، وأطلقوا ألسنتهم في قدح الخليفة وطعنه ، واتهموه بالمساخره وحب المطربين وأنه « عدو الجيوش والجنود » . ثم تقدم القائد سليمان شاه وأعلن بأن الخليفة ، اذا لم يبادر بطلب العون والمساعدة لدفع الخطر المغولي ، حيث أن الفرصة لازالت مواتية لحشد الجيوش من كافة الاطراف ، فسيتغلب جيش المغول عن قريب على بغداد وسينزلون بالبلاد والعباد خسائر فادحة . وأعلن سليمان شاه استعداده لقيادة هذه الجيوش ، فاستحسن الخليفة المستعصم هذا الرأي وقال للوزير « ان كلام سليمان شاه له الاثر في النفس المنهكة ، فاستعرض الجند حسب تقريره ، لاغنيهم بالدرهم والدينار وسلم أمرهم الى سليمان شاه ليحقق خطته » .(٢)

والذي لاشك فيه أن هذا الرأي كان الاصلح لمواجهة خطر المغول في ذلك الوقت ، اذ لم يبق امام الخليفة المستعصم بعد أن أعلن استعداده لبذل الاموال . سوى استغلال سلطته الروحية لتجديد الدعوة الى احياء حركة الجهاد الاسلامي المقدس ضد المغول ، ودعوة كافة الاقطار الاسلامية الى نبذ خلافاتها ، وارسال المدد والجيوش للدفاع عن الخلافة العباسية . الا أن الخليفة المستعصم الذي لم يكن يقصد بذلك ـ على حد تعبير المؤرخ رشيد الدين ـ سوى ايصال نبأ تعبئة الجيوش الى البعيد والقريب لتصد عزيمة العدو . لم يف بما تعهد به من دفع الاموال ، وعاد ثانية الى ممارسة الحرب النفسية

---

(١) انظر نص الرسالة في رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٧٢ ، ٢٧٣ ، محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي ، ص٣٤٨،٣٤٩ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، م٢ ، ج١ ، ص٢٧٣،٢٧٤ .

مع هولاكو ، فرد عليه برسالة ذكره فيها بما حل بمن سبقه من الملوك والسلاطين ممن حاولو قصد اسرة بني العباس والاعتداء على دار السلام بغداد ، كيف كانت عاقبته وخيمة ، وأنه ليس من المصلحة أن يفكر هولاكو في قصدها والاعتداء عليها ، وانهى رسالته مخاطبا هولاكو بقوله : « فاحذر عين السوء من الزمان الغادر ».(١)

ولكن هولاكو لم يأبه بهذا التحذير ، بل يبدو انه بعد تلقي هذه الرسالة ، قطع كل أمل له في الحصول على تنازلات من الخليفة المستعصم ، وأدرك ألا سبيل له سوى تنفيذ خطة أخيه منكو خان بمهاجمة الخلافة العباسية في بغداد ، بدليل رده على الخليفة بقوله : « اذهب واصنع من الحديد المدن والاسوار ، وارفع من الفولاذ الابراج والهياكل ، واجمع جيشا من المردة والشياطين ، ثم تقدم نحوي للخصام والنزال ، فسأنزلك ولو كنت في السماء ، وسأدفع بك غصبا الى افواه السباع ».(٢)

أخذ هولاكو بعد هذا التهديد الاخير يعد عدته ، استعداد لبدء الزحف على بغداد ، وهنا يبدو أن الديانة البوذية(٣) الوثنية التي كان المغول وعلى رأسهم الخان الاعظم وهولاكو يدينون بها في ذلك الوقت ، كان لها الاثر في جعلهم يؤمنون ايمانا كاملا بالطيرة والفأل . اذ حرص الخان الاعظم أن يصحب جيش هولاكو منجما ليختار للجيش وقت النزول والركوب . وعمد هولاكو قبل زحفه على مدينة بغداد الى استشارة أحد منجميه ، الذي أشار عليه بمشورة مماثلة لتلك الرسالة التي سبق وأن بعثها الخليفة الى هولاكو يذكره فيها بخيبة أمل من قصد بغداد قبله . وانه اذا لم يستمع الى نصحه فستحل به وبجيشه مصائب عدة .(٤)

ولكن هولاكو الذي كان ـ على مايبدو ـ يتشكك في نوايا منجمه حسام الدين وانه يتعاطف لكونه مسلما سنيا مع الخليفة العباسي ، لم يقتنع برأيه هذا ، لذلك ركن الى

---

(١) انظر نص الرسالة كاملة ، في رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٧٥، ٢٧٦ ؛ محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي ، ص٣٤٩ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص٢٧٦ .

(٣) عن الديانة البوذية ، انظر عبد الرحمن زكي ، سلسلة مقارنة الاديان ، ج٤ ، أديان الهند الكبرى ، الهندوسية ، الجينية ، البوذية .

(٤) ذكر رشيد الدين أن المصائب التي ذكر المنجم أنها ستنزل بالمغول هي : أن الخيول تموت كلها ، ويمرض الجنود ، ولن تطلع الشمس ، وينقطع المطر ، وتهب ريح شديدة ، ويتعرض العالم للتخريب والدمار من جراء الزلازل ، ولا ينبت النبات في الارض ، ويموت منكوخان في تلك السنة (انظر جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ص٢٧٩ ؛ انظر ايضا ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٢٥٩).

استدعاء الخواجه نصير الدين الطوسي ، واستشاره في الامر ، فأجابه هذا الاخير بأن شيئا من ذلك لن يحدث[1] ونفى أن تكون للعباسيين مكرمة خاصة ، مستدلا بأن بعض الخلفاء قتل ولم تختل الامور .[2]

ومهما يكن من أمر فقد أخذ هولاكو برأي نصير الدين الطوسي وعقد النيه على مهاجمة بغداد ، فأصدر هولاكو أوامره بان تتحرك جيوش قائديه جرماغون ، وبايجونويان ، اللذين كانا يعسكران في اطراف بلاد الروم مشكلة الميمنة ، الى الموصل عن طريق اربد ، ثم تعبر جسر الموصل وتأخذ طريقها الى التمركز في الجانب الغربي من بغداد ، في انتظار وصول الجيش الرئيسي القادم من الشرق . أما جيوش كيتوبوقا[3] والتي كانت تمثل ميسرة الجيوش المغولية ، فقد بدأت زحفها عن طريق لرستان وبيات وتكريت وخوزستان .[4]

---

(١) ذكر رشيد الدين أن الخواجة نصير الدين ، أجاب هولاكو بالنفي تحت تأثير الخوف منه لانه كان يظن أنه كان يقصد بذلك اختباره (انظر جامع التواريخ ، ص٢٧٩ ، ٢٨٠) . ونصير الدين هو : محمد بن محمد ابن الحسن ، يكنى بأبي جعفر وشهرته الطوسي نسبة الى طوس المدينة المشهورة ، الجهرودي نسبة الى جهرود من نواحي طوس . وقد تحدث ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢١٠ عن بدء صلته بالمغول فأشار في صراحة الى أن نصير الدين دخل في خدمة هولاكو بعد انتزاع قلعة الموت من يد الاسماعيليين . ومن هنا اختصه هولاكو فأكرمه غاية الاكرام ، ولم يمض وقت طويل على هذه الصلة التي أثارت في نفس نصير الدين سعادة المطمئن بعد أن لاذ من الوحش بالوحش نفسه ، أن أعلن بشكل رسمي انه شيعي (اثنا عشري) فأزاح عن وجهه القناع الذي لازمه طوال ثمانية وعشرين عاما في قلاع الاسماعيليين ، وكان ذلك الاعلان المدهش في الرابع عشر من شوال سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ، ليصبح فيما بعد الزعيم الفعلي للفكر الشيعي بلا منازع ، والفيلسوف الشيعي الاول الذي يفخر به التراث الشيعي بكامله ـ على حد تعبير الدكتور عبد الامير الاعسم ـ (انظر عبد الامير الاعسم ، الفيلسوف نصير الدين الطوسي مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الاسلامي ، ص٢٣ ، ٤١-٤٣)

(٢) استدل نصير الدين بأن طاهر بن الحسين جاء من خرسان بأمر المأمون وقتل اخاه محمد الامين ، وكذلك قتل المتوكل ابنه بالاتفاق مع الامراء ، كما قتل الامراء والغلمان المنتصر والمعز ، وقتل غيرهم ايضا ، ولم يحدث شيئا مما ذكره حسام الدين (انظر رشيد الدين جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٨٠) .

(٣) يرد هذا الاسم على صيغ مختلفة مثل كتبوغا ، كتبغا ، وكتبوقانويان ، من قبيلة مغولية اعتنقت الدين المسيحي منذ قرون ، ولعل هذا من الاسباب التي جعلته يضطهد مسلمي دمشق ويعظم قسوس النصارى . ونويان لفظ فارسي كثيرا ما يقترن بأسماء قواد المغول ومعناه مقدم الف ، وقيل عشرة آلاف (انظر ابن تغرى بردى ، النجزم الزاهرة ، ج٧ ، ص٧٨ ، (حاشية) ؛ العبادي قيام دولة المماليك ، ص٢٥٧ ، (حاشية) .

(٤) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ص٢٨١ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص٤٧٢ .

اما هولاكو فقد بدأ زحفه على رأس قواته باتجاه بغداد عن طريق كرمان شاه وحلوان ، وبصحبته كبار رجاله من أمراء المغول وغيرهم ، وعندما وصل أسد اباد اوفد رسولا من قبله الى الخليفة العباسي يدعوه الى الحضور اليه . ولكن الخليفة المستعصم رفض كعادته الامتثال لامر هولاكو ، واكتفى بأن أرسل اليه رسالة حاول فيها اثناءه عن مهاجمة بغداد مقابل أن يدفع له ما يطلبه من الاموال . الا أن هولاكو رفض ذلك العرض ، وزعم أن الخليفة يريد من وراء تلك المماطلة اعداد الجيوش وتهيأتها لمواجهة المغول .(١)

وفي اوائل محرم من سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٧م اكتمل عقد الجيوش المغولية في الناحية الشرقية من بغداد ، وفي مقابل ذلك كان الخليفة المستعصم قد أعد جيشا تحت امرة قائده مجاهد الدين ايبك الدواتدار عبر به نهر دجله ، وباغت المغول في معسكرهم ، ودارت بين الطرفين معركة كبيرة انتصر في بدايتها جيش مجاهد الدين ، وتمكن من قتل عدد كبير من جند المغول ، وأخذ يتتبعهم طوال اليوم الاول من المعركة الى أن ادركه الليل . الا أن المغول عادوا في اليوم الثاني ونظموا صفوفهم ، وحملوا على جيش مجاهد الدين ، وتمكنوا من انزال الهزيمة به واستشهد عدد كبير من جنده في ساحة القتال ، وعاد الباقون الى بغداد .(٢)

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ من شهر محرم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م شرع المغول في الهجوم الكاسح على بغداد ، وأحاطوا بالمدينة من كل الجهات ونصبوا عليها المنجنيقات ، وأخذوا يمطرون المدينة بوابل من الحجارة ، حتى أحدثوا الثغرات في السور والابراج وتمكنت أعداد كبيرة من جند المغول من الدخول الى المدينة .(٣)

ونتيجة لذلك الهجوم القوي الذي تعرضت له مدينة بغداد ادرك الخليفة المستعصم أن لاقبل له بمقاومة المغول . وأخذ برأي وزيره ابن العلقمي الذي أشار عليه بأن يرسله اليهم لتقرير الصلح معهم ، فخرج مؤيد الدين ابن العلقمي وبصحبته

---

(١) رشيدالدين ، جامع التواريخ ، ص٢٨١ ؛ وأسد أباد : بلده قريبة من همذان عمرها اسد ابن ذي السرو الحميدي (انظر ياقوت ، معجم البلدان ؛ مسفر الغامدي ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق ، ص٧٤ حاشية ؛ وحلوان بلده في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد (انظر ياقوت ، المصدر نفسه).

(٢) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٢٢٣ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٨٥ .

(٣) ابن الفوطي ، المصدر نفسه ، ص٢٢٦ ؛ رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص٢٨٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧١ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٠، ٢٨١ .

الجاثليق المسيحي « مكيخا » الذي يبدو أنه كان لاختياره لمرافقة ابن العلقمي اهمية خاصة ، نظرا لما كان للمغول الترك والنساطرة من نفوذ عند هولاكو ، وما لجأ اليه الخليفة من ارسال زعيم النساطرة ، مندوبا عنه الى هولاكو . دل على ان المستعصم أراد بذلك استمالة دوقوز خاتون زوجة هولاكو النسطورية التي كان لها مكانه كبيره عنده .(١)

والواقع ان ابن العلقمي كان يعرف تمام المعرفة ، أن هولاكو لن يقبل بعروض الخليفة مهما كان حجمها ، بدليل ان هولاكو بادر ابن العلقمي بمجرد وصوله اليه بطلب العودة الى بغداد ، واصطحاب قائدي جيش الخليفة الدواتدار وسليمان شاه . ولا يستبعد أن يكون ابن العلقمي قصد بذلك العمل التوصل الى بلاط المغول لاظهار ولائه لهم ، ولينفذ مخطط الخيانة الذي كان ينويه للخليفة العباسي سرا ، بدليل ما ذكره ابن تغرى بردى من أن ابن العلقمي عندما خرج الى معسكر هولاكو ، اجتمع به وتوثق لنفسه بأخذ الامان منه ، ثم عاد الى الخليفة لابلاغه بمطلب هولاكو .(٢)

ومهما يكن من أمر فان هولاكو لم يستجب لهذا النداء ، واكتفى بأن أرسل نصير الدين الطوسي الى الخليفة المستعصم يطلب منه ارسال الدواتدار وسليمان شاه ، فامتثل الخليفة لذلك وبعثهما اليه ، فلما قابلا هولاكو أعادهما الى بغداد لاصطحاب أتباعهما ، بحجة أن سينفيهم الى مصر والشام ، فخرج بصحبتهما جمع كبير من جند بغداد ، وما أن وصلوا الى معسكر هولاكو حتى أمر بقتلهم عن آخرهم في ٢ صفر ٦٥٦هـ/١٢٥٨م .(٣)

وفي يوم الاحد الرابع من صفر من السنة نفسها (١٠ فبراير) خرج الخليفة ، ومعه ابناؤه الثلاثة وثلاثة آلاف شخص من أعيان ووجهاء بغداد لمقابلة هولاكو ، فلما وصلوا الى معسكره أمر بالقبض عليهم ، وطلب من الخليفة أن يأمر أتباعه والمقربين بالخروج الى معسكر المغول ، ولما وصلوا قتلوا عن آخرهم ، ثم أمر هولاكو بوضع الخليفة المستعصم وأبنائه في المعتقل .(٤)

وفي يوم الاربعاء السابع من صفر أعلن هولاكو الهجوم العام على المدينة من الشرق ومن الغرب ، وأمر بردم الخنادق ، وهدم الاسوار ، فدخلها المغول وخربوا

---

(١) رشيدالدين ، جامع التواريخ ، ص٢٨٦، ٢٨٧ ؛ العريني ، المغول ، ص٢١٨ .
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٤٩، ٥٠ .
(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٨٩ .
(٤) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص٢٩٠، ٢٩١ .

المساجد وهدموا القصور ، بعد أن سلبوا ما بها من الخزائن والتحف النادرة ، ثم أسرفوا في القتل والنهب وسفك الدماء وتبعوا ذلك باشعال الحرائق في المدينة ، فالتهمت النيران كل ما صادفها ، واستمرت هذه الغارة اربعين يوما ، ذهب ضحيتها ما يقارب ثمانمائة ألف نسمة من سكان بغداد .(١)

وفي يوم الجمعة التاسع من صفر سنة ٦٥٦هـ/ ١٥ فبراير ١٢٥٨م دخل هولاكو قصر الخليفة ، وأمر باحضاره الى مجلسه ، ثم أمره بتسليم أمواله وكنوزه ودفائنه وأوكل هولاكو الى أحد رجاله مهمة جردها ، فكانت - على حد تعبير رشيد الدين - عبارة عما جمعه الخلفاء في خمسة قرون ، وضمه المغول بعضه على بعض فكان « كجبل على جبل » .(٢)

وأخيرا فان هولاكو لم يجد بدا بعد هذا كله سوى اعلان الامان في المدينة ، بعد أن أصبحت اشلاء محطمة ، فخرج الناس من مخابئهم فكانوا « كأنهم الموتى اذا نبشوا من قبورهم »(٣). وفي يوم الاربعاء ١٤ صفر ٦٥٦هـ/ ٢٠ فبراير ١٢٥٨م استدعى هولاكو الخليفة المستعصم وأولاده وأقاربه وقتلهم جميعا . أما ابن العلقمي الذي كان يتولى الوزارة للخليفة المستعصم قرابة أربعة عشر عاما فقد نصب وزيرا في دولة المغول(٤)

وهكذا سقط ذلك الصرح الاسلامي العظيم ، وكان لسقوطه أسوأ الاثر على نفوس المسلمين جميعا ، فعلى الرغم من أن الخلافة العباسية ، فقدت منذ قرون عديدة

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٩١ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ، ص١٢٣ ؛ الديار بكرى ، الخميس في احوال انفس نفيس ، ج٢ ، ص٤٢٠ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢٨١ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص٢٢٩ ؛ العريني ، المغول ، ص٢١٩ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٢٦٤، ٢٦٥ ؛ عبد الحليم عويس ، دراسة عن سقوط ثلاثين دولة اسلامية ، ص١٢٧ .

(٢) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص٢٩٢ ؛ انظر ايضا ، جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانين ، ص٥٥ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٠٣ .

(٤) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، حوادث سنة ٦٥٦هـ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٩٤، ٢٩٥ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص٢٧١ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٣٢٧ ؛ الخزرجي ، العسجد المسبوك ، ج٢ ، ورقة ٩١ آ ؛ ستانلي لين بول ، طبقات سلاطين الاسلام ، ص٢٠٠ ؛ ذكر المؤرخون آراء متعددة في كيفية قتل الخليفة المستعصم . لمعرفة تفصيل ذلك انظر عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٢٦٦-٢٧٠ ؛ جعفر خصيباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ، ص٥٥ .

جانباً كبيرا من قوتها المادية ، الا أن ازالتها نهائيا على أيدي المغول ، أدى الى شغور منصب الخليفة الذي كان المسلمون في الشرق ينظرون اليه نظرة اجلال واحترام .[١]

ولم يقتصر ذلك الامر على الناحية الروحية ، بل تعدى الى الناحية السياسية ، فقد كانت بغداد قبل سقوطها بأيدي المغول مركزا هاما للنشاط السياسي في كافة أنحاء الشرق الاسلامي ، يؤمها وفود الحكام المسلمين للحصول على التأييد من الخليفة ، فلما سقطت في أيدي المغول فقدت تلك المكانة الممتازة وأصبحت مجرد مدينة ثانوية يعين عليها وال من قبل المغول ، بينما انتقل ذلك النشاط السياسي العظيم الذي كانت تتمتع به الى مدن الشمال في اذربيجان مثل مراغة وتبريز وغيرهما حيث أخذت تلك المدن تلعب دورا سياسيا كبيرا خلفا لما كان لمدينة بغداد من قبلها .[٢]

كما كان لسقوطها ايضا اثره البالغ على الناحية الاجتماعية ، فالمعروف ان الخلافة العباسية السنية اشتهرت في ذلك الوقت بمحاربة التشيع والحد منه في مناطق ايران وغيرها ، الا أنه بالقضاء على الخلافة العباسية انتشر التشيع في تلك المناطق بطريقة غير مألوفة ، نتيجة لازدياد نفوذ رجال الشيعة الذين أصبحوا يتبوؤن المراكز الهامة لدى المغول ، كنصير الدين الطوسي الذي كان مستشارا لهولاكو ، ووزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي الذي اسند اليه حكم بغداد بعد سقوطها[٣] . هذا بالاضافة الى ازدياد نفوذ المسيحيين الذين ساعدوا هولاكو في الاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ، اذ من المؤكد أن يحظوا بمكانة عالية في تلك المناطق على حساب مكانة السكان المسلمين . خاصة وأن دوقوز خاتون زوجة هولاكو التي كانت مسيحية نسطورية لم تكن تألوا جهدا في التعاطف مع المسيحيين الشرقيين ، والعمل على رفع شأنهم لدى زوجها هولاكو .

وما قيل عن هذه النواحي الثلاث الروحية والسياسية والاجتماعية يمكن أن يقال ايضا عن الناحية العلمية ، فقد كانت بغداد مركزا هاما للعلوم والفنون والآداب غنية

---

(١) العريني ، المغول ، ص٢٢٣ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٢٨٠ ، عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص٢٣١، ٢٣٢ ؛ حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ، ص١٦١ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٥٢٢ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٢٨٠ ؛ عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص١٣٣، ١٣٤ .

(٣) عبد السلام فهمي ، المرجع نفسه ، ص١٣٤ .

بمدارسها ومعاهدها ، ومكتباتها ، وبعلمائها ، وبشعرائها وفلاسفتها وفنانيها ، يهرع اليها طلاب العلم من كل مكان . فلما حلت بها النكبة على ايدي المغول ، قتل آلاف من العلماء والادباء والشعراء والفنانين ، وأحرقت المكتبات وأتلفت الكتب ، وخربت المدارس والمعاهد ، وقضي على الآثار الاسلامية التي كانت تزخر بها بغداد .[١]

وقصارى القول فان تدمير بغداد بعد أن دمرت قبلها بخارى وسمرقند ونيسابور والري وغيرها ، كان خسارة عظيمة على الحضارة الاسلامية ، خاصة وأنه ترتب على ذلك أن فقدت اللغة العربية مكانتها في تلك المناطق وتفوقت عليها اللغة الفارسية التي كان المغول يؤثرونها على اللغة العربية ، ولعل خير وصف لما حل باللغة العربية بعد سقوط بغداد في أيدي المغول هو قول ادوارد براون « ان تحطيم بغداد كعاصمة للمسلمين وانزالها الى مرتبة المدن الاقليمية ، قد أصاب رباط الوحدة بين الامم الاسلامية بلطمة شديدة ، كما أصاب مكانة اللغة العربية في ايران بضربة قاصمة ، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية ، فاذا وصلنا الى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) لم نعد نصادف الا القليل من الكتب العربية التي تم تأليفها في ايران »[٢] .

موقف القوى الاسلامية وغيرها من الغزو المغولي :

كان من نتائج سقوط بغداد في ايدي المغول أن عم الرعب والخوف الحكام المسلمين الذين أخذوا يتسابقون لتقديم الولاء والطاعة لهولاكو ، مقابل ابقائهم على ممتلكاتهم ، وكان أول هؤلاء الحكام بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، الذي راح منذ وصول المغول الى ايران يتقرب اليهم ، ويعمل على ممالأتهم لابعاد الاخطار المحتملة عن

---

(١) عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ١٣٥ .

(٢) فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٢٨١ ، نقلا عن ادوارد براون ، تاريخ الادب في ايران ، ص٥٦٤ ؛ انظر ايضا ، عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص١٣٦ ؛ حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ، ص١٦١ ؛ وبخارى من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها ، وسمرقند مدينة اخرى من أشهر مدن ما وراء النهر ، ونيسابور والري مدينتان من أشهر مدن خراسان (انظر ياقوت ، معجم البلدان ؛ انظر ايضا ، كي لسترانج ، بلدان الخلافة الشرقية ،ص ٥٠٦،٥٠٧ .

امارته وممتلكاته ، ففي الوقت الذي عزم هولاكو على مهاجمة بغداد ، عهد الى أحد قواده ويدعى ارقيو نويان بالاستيلاء على قلعة اربل الحصينة ، وعندما شرع هذا القائد المغولي في حصارها ، أبدى رجالها مقاومة عظيمة ، فعجز المغول عن تحقيق اقتحام القلعة بالرغم من استسلام أميرها تاج الدين بن صلايا العلوي . الامر الذي اضطر القائد المغولي إلى طلب النجدة من بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل ، الذي بادر باجابة طلبه وأرسل اليه عددا من جنده ، الا أن تلك النجدة لم تفلح في تحقيق ذلك الهدف . فاضطر ارقيو نويان الى استدعاء بدر الدين بنفسه للتشاور معه في أمر القلعة ، فأشار بدر الدين على القائد المغولي بأن يترك حصارها حتى حلول فصل الصيف « لان الاكراد يفرون من الحر ويلجأون الى الجبال »، وأخيرا قرر ارقيو تسليم أمر القلعة بكاملها الى بدر الدين الذي عمد الى هدم اسوارها والاستيلاء عليها .[١]

وعندما بدأت الجيوش المغولية - كما سبق أن ذكرنا - في مهاجمتها مدينة بغداد كانت فرقة منها قد قدمت من حدود بلاد الروم ومضت في طريقها على الموصل حيث عبرت الجسر ورابطت في الجانب الغربي من بغداد . ولم تشر المصادر الى تعرض تلك القوى المغولية الى تهديد أو اذى من قبل بدر الدين ، الأمر الذي يؤكد أن امارة الموصل واعمالها قدمت كل التسهيلات للقوى المغولية العابرة ، وأنها كانت مناطق نفوذ مغولية .[٢]

والواقع أن بدر الدين لؤلؤ قد اتبع سياسة فريدة قائمة على الحفاظ على امارته من هجمات المغول المدمرة . حيث كان يعلم أن الخلافة العباسية في بغداد كانت في وضع يرثى له ، علاوة على أن الايوبيين في شمال الجزيرة وبلاد الشام منقسمون على أنفسهم ، ولم يكن في استطاعة هذه القوى الاسلامية انجاد امارة الموصل بأي حال من الاحوال . لذا فانه لا يستبعد أن يكون بدر الدين قد مالأ المغول انتظارا لما يسفر عنه هجومهم على الخلافة العباسية في بغداد . يؤيد ذلك ما ذكره السبكي في طبقات الشافعية من أن المغول عندما قصدوا العراق كتب صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ الى الخليفة العباسي في

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٩٨، ٢٩٩ ، ابن دقماق ، نزهة الانام في تاريخ الاسلام ، لوحة ١٠٤ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ورقة ٢٤٧ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م١ ، ص٧٨ ، الرويشدي ، امارة الموصل ص٢٥٣، ٢٥٤ .

(٢) الرويشدي ، امارة الموصل ، ص٢٥٤، ٢٥٥ .

الباطن يستنهضه ضد المغول ، مع أنه في الظاهر كان يداري المغول ويسترضيهم[1] . ولعل هولاكو كان يحس بما يبطنه كثير من امراء المسلمين وأن انضمامهم له كان ممالأة لا أكثر ، اذ يذكر ابن العبري أن هولاكو لم يقابل الملك الصالح ركن الدين اسماعيل الذي وصل اليه نائبا عن والده بدر الدين مقابلة حسنة ، وقد اظهر له هولاكو عبسه وقال له « أتيتم بعد شك في أمرنا ومطلتم نفوسكم يوما بعد يوم ، وقدمتم رجلا وأخرتم رجلا لتنظروا من الظافر بصاحبه فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم اليه لا الينا . قل لابيك لقد عجبنا منك تعجبا كيف ذهب عليك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل . . . »[2]

ومهما يكن من أمر فان هولاكو لكي يعزز تهديداته لحكام الامارات والاقاليم المجاورة ، فقد أرسل اليهم رسائل يعرفهم بسقوط بغداد وما حل بالخلافة العباسية من الهلاك والدمار والخراب ، حيث بعث الى بدر الدين لؤلؤ رؤوس بعض القتلى من عظماء بغداد مع ابنه الملك الصالح ركن الدين اسماعيل لتعلق في الموصل . وعندما وصل الملك الصالح الى ابيه وأبلغه رسالة هولاكو التي انطوت على التهديد الزاجر ، أيقن بدر الدين أن المنايا كشرت له عن أنيابها وأن سياسة الاسترضاء والمهالأة التي اتبعها مع هولاكو لم تجد في تخفيف غضب هولاكو عليه . فانتبه من غفلته وبدأ يفكر في مخرج له من تلك الورطة ، فأخرج ما في خزائنه من الاموال واللآلىء والجواهر ، وحملها بنفسه الى هولاكو بجبال همدان ، فأحسن هولاكو استقباله لكبر سنه ، وأقام بدر الدين عنده أياما ثم أعاده الى الموصل .[3]

والحق أن هذه الزيارة التي قام بها بدر الدين لؤلؤ لبلاط هولاكو قد مكنته من تحقيق نجاح كبير في سياسته تجاه المغول ، اذ استطاع بهذا العمل أن يحفظ امارته من الخراب والدمار ، هذا بالاضافة الى ان هولاكو أخذ يعامل بدر الدين معاملة خاصة قائمة على الثقة به واحترام كبر سنه ، يدلنا على ذلك أن هولاكو عندما عزم على مهاجمة

(١) انظر السبكي طبقات الشافعية ، ج٨ ، ص٢٦٩ .

(٢) ابن العبري تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٦، ٢٧٧ .

(٣) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٦، ٢٧٧ ؛ ذكر رشيد الدين في جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٠٠، ٣٠١ أن بدر الدين وصل الى هولاكو في ضواحي مراغه في التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وأعاده هولاكو في السادس من شعبان من السنة نفسها .

بلاد الشام بعث الى بدر الدين رسالة قال فيها : « ان سنك قد جاوزت التسعين ولذلك أعفيناك من السير معنا ، ولكن عليك أن تبعث ابنك الصالح مع الرايات الغازية لفتح ديار الشام ومصر »[١] فامتثل بدر الدين لذلك وسير ابنه الى معسكر هولاكو ، الذي كافأه بمنحه ابنة السلطان جلال الدين خوارزمشاه ليتزوجها[٢] . ويبدو أن هولاكو قصد بهذه الزيجة ، استمالة بقايا الخوارزمية المتواجدين في تلك المناطق للانضمام الى صفوف المغول .

كما قدم الى هولاكو في شهر شعبان من السنة نفسها الاتابك سعد ابن ابي بكر أتابك فارس ، ليقدم له التهنئة باستيلائه على بغداد . ثم الاخوان عز الدين كيكاوس الثاني ، وركن الدين قلج ارسلان اللذان كانا قد اقتسما سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، لتقديم اعتذارهما لهولاكو ، الذي كان ممتعظا من السلطان عز الدين بسبب تمرده على قائده بايجو نويان والاشتباك معه في إحدى المعارك[٣] . وهنا لا يستبعد أن يكون السلطان عز الدين هذا بالرغم من اعلان تبعيته لهولاكو منذ البداية قد اتبع في الباطن سياسة الحياد مع المغول حتى سقوط بغداد ، حاله في ذلك حال بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل .

ومهما يكن من أمر فان المصادر التي بين ايدينا لم تشر الى الدور الذي قام به هؤلاء الحكام لمساعدة المغول ، ولكن يبدو أن موافقة هولاكو على ابقائهم في اماراتهم وممتلكاتهم كان مشروطا بتقديم المساعدة لجيوشه الزاحفة على الشرق الادنى الاسلامي ، ولعل مما يؤيد ذلك التذلل والخضوع الذي أبداه عز الدين لهولاكو عند اعتذاره عن زلته ، حيث يذكر رشيد الدين أن عز الدين لكي يبحث له عن مخرج من ورطة هذا الخطأ الذي اقترفه ضد القائد المغولي بايجونويان أمر بصنع حذاء ملكي في غاية الجودة ، ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه الى هولاكو ، ثم قبل عز الدين

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٠٥ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٠٥ ؛ الرويشدي ، امارة الموصل ، ص٢٥٨ .

(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ص٣٠١ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، حوادث سنة ٦٥٦هـ ؛ ذكر العريني في كتابه المغول ، ص٢٢٤ حاشية رقم (١) ان الاخوين عز الدين ، وركن الدين اقتسما سلطنة سلاجقة الروم ، فنال عز الدين الاقاليم الغربية منها ، بينما حكم ركن الدين الاقاليم الشرقية وكان نهر قول ارملك حدا بين القسمين ؛ انظر ايضا ، المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٠٨ حاشية المحقق .

الارض أمامه وقال : « ان أملي أن يشرف الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها »[1] ، هذا بالاضافة الى ما ذكره ابن العبري من أن الاخوين عز الدين وركن الدين خرجا في خدمة هولاكو عند توجهه الى بلاد الشام حتى قارب نهر الفرات ثم سمح لهما بالعودة الى بلادهما مسرورين مغبوطين[2].

ولم يقتصر ذلك التذلل والخضوع على البلدان الاسلامية في اعالي الجزيرة وآسيا الصغرى ، بل تعداه الى بلاد الشام نفسها . اذ أقدم الملك الناصر يوسف الايوبي صاحب حلب ودمشق الذي كان يعد أعلى الامراء الايوبيين شأنا في بلاد الشام على اعلان خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة . فقد استجاب لامر هولاكو ، فأنفذ اليه ابنه الملك العزيز يحمل الهدايا والتحف ومعه عدد من الامراء ، فلما وصل العزيز الى معسكر هولاكو وسلمه ما معه من الهدايا والتحف التي تعبر عن الولاء والتبعية لهولاكو ، طلب منه العزيز على لسان والده أن يرسل اليهم نجدة لمساعدتهم في استعادة الاراضي المصرية من أيدي المماليك .[3]

الا أن هولاكو الذي رأى أن عدم استجابة الملك الناصر يوسف لاوامره بالخروج اليه بنفسه ، يعد تمردا على أوامره ، وأن الوفد الذي أرسله الملك الناصر اليه لا يناسب مقامه . لم يكتف بعدم الاستجابة لطلبه هذا ، بل أصر هذه المرة على خروج الملك الناصر اليه بنفسه لتقديم الولاء والطاعة ومعه قوة قوامها عشرون الف فارس ، حيث أعاد هولاكو الملك العزيز الى ابيه ومعه رسالة ذكّر فيها الملك الناصر بما انزله المغول بمدينة بغداد وبالخليفة العباسي من صنوف العذاب والدمار والهلاك ، وختم هذه الرسالة بقوله مخاطبا الملك الناصر « اذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك ، الى طاعة سلطان الارض . . . تأمن شره ، وتنل خيره . . . ، ولاتعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، وقد بلغنا أن تجار الشام

---

(١) انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٠١

(٢) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٨ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤١٠،٤١١ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٣٣٩ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥٦ ؛ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢٨٥ ؛ ابن العبرى ، المصدر نفسه ، ص٢٧٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٥ ؛ ابن دقماق ، نزهة الانام في تاريخ الاسلام ، لوحة ١٠٥ .

وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم الى كروان سراى ، فان كانوا في الجبال نسفناها ، وان كانوا في الارض خسفناها ».[1]

ويبدو أن هذه التهديدات أزعجت الملك الناصر ، فانتابته نوبة من صحوة الضمير ، وشعر بمدى السخط الذي جلبه على نفسه بين الامراء الايوبيين والمسلمين عامة ، فرفض دعوة هولاكو ، وأرسل اليه ردا مليئا بالسباب ، وقلب سياسته تجاه المغول رأسا على عقب حيث اقدم عندما بلغه عبور القوات المغولية نهر الفرات على ارسال رسول من قبله هو الصاحب كمال الدين ابن العديم الى المماليك في مصر يستنجد بهم ضد جيوش هولاكو التي بات هجومها وشيكاً على بلاد الشام .[2]

وأمام هذا التصرف الجريء للملك الناصر يوسف ، أدرك هولاكو - على مايبدو - فشل سياسة التشدد التي اتبعها مع الملك الناصر ، والتي ادت به إلى الارتماء في احضان المماليك بمصر ، وبدأ هولاكو يفكر في تلافي ذلك الخطأ حيث سارع بارسال نجدة سريعة الى الملك الناصر في دمشق . ولكن هذه النجدة لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاكو ، بل زادت فكرة التصالح بين المماليك والايوبيين ، اذ يذكر المقريزي أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما سمع بوصول تلك النجدة المغولية الى الملك الناصر بدمشق ، بعث اليه كتابا اقسم له فيه بالايمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، وختم كتابه هذا بقوله : « وان اخترتني خدمتك ، وان اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فان كنت لا تأمن حضوري سيرت اليك العساكر صحبة من تختار ».[3] كما يؤكد ذلك ما ذكره ابن عبد الظاهر انه لما توالت الاخبار بقصد المغول بلاد الشام بعث السلطان مظفر قطز الى الملك الناصر يوسف الايوبي رسالة يعرض نفسه عليه ، ويحثه على مهاجمة المغول في معسكرهم قبل دخولهم

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤١١،٤١٥،٤١٦ ؛ انظر ايضا ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٧٣،٤٧٤ ؛ اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص١٥٠ .

(٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، ص٤١٥،٤١٦ ؛ والصاحب كمال الدين ابن العديم هو المؤرخ عمر ابن احمد بن هبة الله بن جراده العقيلي ، ولد سنة ٥٨٨هـ/١٢٦٢م توفى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وهو من اسرة عريقة في حلب اشتهرت بالعلم والفقه والقضاء والادب والشعر على مدى قرنين من الزمان (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ، ص٢٠٨،٢٠٩ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخين ، ج٢ ، ص٢٦٣ .

(٣) المقريزي السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤١٨ .

بلاد الشام ، ويبدي استعداده للمسير على رأس هذا الجيش ، حيث قال في رسالته : « لو جهزت معي عسكرا فيه ثلاثة آلاف فارس سقت الى العدو الى المكان الذي هم فيه » وكانت الاخبار تفيد بأن المغول قد أقاموا معسكرهم في بالس ، وأنهم في ثمانية آلاف فارس .(١)

وبالرغم مما ذكره هذا المؤرخ الاخير من أن الملك الناصر لم يستجب لذلك العرض السخي الذي تقدم به السلطان المملوكي قطز ، ولعل ذلك كان بسبب خوفه من بقية الامراء الايوبيين الناقمين على المماليك في مصر . فانه يمكن القول أن مماطلة الملك الناصر للمغول ، وتخوف السلطان المملوكي قطز ـ نتيجة لسياسة العداء التي كانت قائمة بينه وبين الايوبيين في الشام ـ من معاودة الملك الناصر مرة أخرى تسهيل مهمة المغول بالاستيلاء على بلاد الشام وطلب المساعدة منهم على مصر ، وما ترتب عليه من اعلان المظفر قطز استعداده للخروج الى بلاد الشام لمساعدة الايوبيين ضد المغول ، وَاعتبار نفسه نائبا للملك الناصر على مصر . يعتبر الاساس الاول لقيام الوحدة الاسلامية بين الشام ومصر ، التي مكنت المسلمين بعد ذلك من ايقاف الزحف المغولي المدمر على ممتلكاتهم .

أما عن موقف أرمينيه الصغرى من الغزو المغولي لبلاد الشام ، فان ملوك ارمينيه ماكادوا يحسون باقتراب المغول من المشرق الاسلامي حتى هللوا لهم ورأوا فيهم القوة الضاربة الكبرى التي تستطيع أن تقضي على الاسلام والمسلمين وتقوي الوجود المسيحي في تلك المناطق ، خاصة وأن المغول في ذلك الوقت لازالوا يدينون بالوثنية ، الامر الذي جعل هؤلاء المسيحيين ينظرون الى هذه القوى على انها مادة خام يسهل تشكيلها في القالب المسيحي ، وزاد من قوة هذا الطمع ظهور تيارات واتجاهات مسيحية بين صفوف المغول ، من ذلك أن زوجة هولاكو دوقوز خاتون ، وأمه سيورقوقيتى كانتا مسيحيتين نسطوريتين ، عملتا على مؤازرة المسيحيين ومناصرتهم في كل المناطق التي خضعت للسيطرة المغولية .(٢)

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٦٢ ؛ وبالس ، بلده صغيره بالشام بين حلب والرقة وارض الفرات ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٢٢٠ ؛ سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ، ومملكة ارمينية الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٤٢، ٢٤٣ ؛ انظر ايضا ، بول آميل ، تاريخ ارمينيا ، ص٣١، ٣٢ .

واذا كان الملك الارمني ليو الثاني قد توفى سنة ١٢١٩م/٦١٧هـ فان خليفته هيثوم الاول وضع دعائم سياسة خارجية جديدة قامت على اساس احلال التحالف مع المغول محل التحالف مع الغرب الاوربي ، بعد أن ثبت انشغال الغرب الاوربي بمشاكله الخاصة[١] عن المساهمة الجدية في الحروب الصليبية . وظهرت سياسة هيثوم عندما لجأت الى بلاطه زوجة كيخسرو سلطان سلاجقة الروم وابنته ، فرارا من بايجو القائد المغولي الذي ارسله هولاكو لمهاجمة السلاجقة والاستيلاء على قونيه[٢] وكانت الشهامة تتطلب من هيثوم ملك ارمينيه الصغرى حماية امرأتين لجأتا الى بلاطه وقت الشدة ، ولكنه ضرب بقواعد العرف والاخلاق عرض الحائط ، واختار أن يتقرب الى المغول على حساب المثل والفضيلة ، فسلم زوجة الحاكم المسلم وابنته الى بايجو .[٣]

ولم تقتصر جهود هيثوم الاول على استرضاء هولاكو عند هذا الحد بل عمد الى الاتصال مباشرة بخاقان المغول الاعظم كيوك خان في عاصمته قراقورم . حيث اقدم على ارسال أخيه سمباد في مهمة رسمية الى قراقورم في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م وعاد اليه منها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ومعه شهادة ضمان من خان المغول ببقاء مملكة ارمينيه الصغرى مع اعادة القلاع التي انتزعها السلاجقة منها . ولقد شجع نجاح هذه السفارة هيثوم على الخروج بنفسه سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م لزيارة خاقان المغول الجديد منكو خان في عاصمته ، ولقي منه كل احترام وأكد له الضمانات والوعود التي قدمها سلفه كيوك

---

(١) كانت الكنيسة في أوربا في العصور الوسطى تعاني من ثلاثة أمراض خطيرة هي : السيمونية (Somon) أي شراء الوظائف الكنسية بالمال ، وزواج رجال الدين ، والتقليد العلماني (Investiture) أي قيام الحكام العلمانيين بتعيين رجال الدين ، وعندما حاول باباوات روما ابتداء من البابا جريجورى السابع الذي اعتلى عرش البابوية في سنة ١٠٧٣م معالجة امراض الكنيسة في حزم وشدة . دخل في صراع مع الاباطرة ، وبدأ دور من ادوار النزاع العنيف بين البابوية والامبراطورية الذي كان سمة بارزة من سمات تاريخ العصور الوسطى انعكست آثاره على النشاط السياسي لغرب اوربا فبرز فريق ثالث وقف موقفا وسطا بين انصار البابوية وانصار الامبراطورية في محاولة لتجنيب العالم الاوربي ويلات هذا الصراع ورفعوا شعارا جديدا مفاده « اعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر » (انظر سعيد عاشور ، اوربا العصور الوسطى ، ج١ ، ص٣٤٥-٣٥٧ ؛ محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ اوربا العصور الوسطى ، ص٢٩٣-٣٠٨ .

(٢) عن هجوم المغول على سلطنة سلاجقة الروم ، انظر الباز العريني ، المغول ، ص١٧٦-١٨٠ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص١٨٢-١٨٣ ؛ على الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص٤٢٤-٤٢٧ .

(٣) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينيه الصغرى ، ص٢٤٣ .

لسمباد ، وزاد على ذلك باعفاء الكنائس والاديرة الارمينية داخل دولة المغول من الضرائب . الامر الذي شجع هيثوم على الطمع في الزج بالمغول في تيار الحروب الصليبية ، واتخاذهم حليفا قويا للمسيحيين في حركتهم الكبرى لاعادة سيطرتهم على بلاد الشام .[١]

ولم يكد الملك هيثوم يعود من عاصمة المغول الى بلاده حتى شرع في تنفيذ خطته الجديدة التي تقضي بتكوين جبهة من المسيحيين والمغول ضد المسلمين فاتصل بامراء الصليبيين بالشام يدعوهم الى المشاركة في مشروعه الكبير ، ولكنه لم يجد استجابة سوى من زوج ابنته بوهيمند السادس امير انطاكية الصليبي الذي أعلن انضمامه الى صهره هيثوم ومساعدة المغول الذين يتطلعون الى الاستيلاء على بلاد الشام ، حيث اشترك هيثوم الاول مع زعماء المغول في وضع الخطة لغزو بلاد الشام . وكان أن طلب هولاكو من حليفه الارمني أن يلتقي به على رأس جيش عند الرها ، حتى يذهب معه الى بيت المقدس ويخلص الاراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين .[٢]

وما قيل عن ملك الأرمن وبوهيمند امير انطاكية ، يمكن أن يقال عن بقية المسيحيين الشرقيين الذين كانوا داخل بلاد الشام نفسها آنذاك . اذ ان هذه الطائفة كانت ستنضم بلا شك الى صفوف المغول وتؤيد استيلاءهم على بلاد الشام ، باعتبار المسلمين عدوهم المشترك ، كما كان لدقوز خاتون التي كانت توليهم رعاية خاصة باعتبارها مسيحية نسطورية ـ كما سبق القول ـ أثره البالغ على هذه الجموع المسيحية التي كانت تعيش آمنة داخل العالم الاسلامي ، بفضل اتباع المسلمين لمبدء التسامح الذي يحث عليه الدين الاسلامي الحنيف . ومما يؤكد تعاون هذه الطوائف المسيحية مع العدوان المغولي مظاهر البهجة والسرور التي عمت تلك الطوائف المسيحية وعبرت عنها بممارسات انتقامية ضد المسلمين في مدينة دمشق عشية استيلاء المغول عليها .

أما بالنسبة للقوى الصليبية الغربية ، التي كانت تتمركز في ذلك الوقت على الشريط الساحلي لبلاد الشام ، فقد وقفت موقف المتردد من الهجمات المغولية على بلاد

---

(١) انظر ، سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ، ومملكة ارمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص٢٤٣، ٢٤٤ .

The cambridge of Islam 'P.211.

(٢) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص٢٤٤، ٢٤٥ .

الشام ، حتى أن سلوك بوهيمند السادس أمير انطاكية الصليبي وتأييده لحركة الغزو المغولي على بلاد الشام ، والذي لم يكن بوصفه أميرا كاثوليكيا ، وانما لكونه زوج ابنه ملك ارمينيه الصغرى هيثوم الاول وحليفه وصديقه .[١] قد ضايق معظم الصليبيين في بلاد الشام وخاصة في عكا . ويمكن ارجاع عدم تعامل الصليبيين مع المغول الى انشغال الصليبيين بمنازعاتهم الداخلية . الامر الذي لم يترك لهم مجالا للخوض في ميدان السياسة الخارجية ، واستغلال الظروف السيئة التي ألمت بالعالم الاسلامي من جراء الغزو المغولي . كما لا يستبعد أن يكون لاستياء التجار البنادقة في عكا من حركة المغول ، لما ترتب عليها من خلل اعترى طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب ، هذا بالاضافة الى أن العلاقات التجارية بين هؤلاء البنادقة والمماليك المسلمين في مصر كانت طيبة ، لذا حرص البنادقة على الا يحدث ما يعكر صفو تلك العلاقات التي كانوا يحصلون من ورائها على مكاسب مادية كبيرة .[٢]

وقد يكون السبب ايضا استياء الصليبيين الغربيين في الشام لما اظهره المغول من عطف واضح على المسيحيين الشرقيين دون الغربيين ، حتى أن المغول طلبوا من بوهيمند السادس أمير انطاكية اعادة البطرك الارثذوكسي الذي كان البطرك الكاثوليكي قد طرده من المدينة . اضافة الى أن زوجة هولاكو بالذات كانت نسطورية ، كما أن بطانته ومستشاريه ومؤيديه كانوا من النساطرة والارمن بوجه خاص . كما يبدو ان احساس الصليبيين الغربيين بعطف المغول على المسيحيين الشرقيين ضايقهم وأخافهم من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقية ، حتى أنهم أرسلوا الى الغرب الاوربي يطلبون حملة صليبية جديدة ليس ضد المسلمين هذه المرة ، وانما ضد المغول وحلفائهم المسيحيين الشرقيين .[٣]

وبالرغم مما ذكر من ان النتيجة الواضحة لموقف الصليبيين الغربيين من حركة الغزو المغولي ببلاد الشام هي ان الصليبيين الغربيين أضاعوا من ايديهم فرصة ثمينة ، لم يتحها لهم الزمان مرة أخرى[٤] فانه يبدو لنا أن موقف الصليبيين هذا هو الذي

---

(1) The cambridg History of Ialam . P . 211 - 212 .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٣٠٧ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١٠٧٧ .

(٣) جوانفيل ، القديس لويس ؛ ص١٧ ، سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص١٠٧٧ .

(٤) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص١٠٧٧ .

مكنهم من البقاء مدة أطول في بلاد الشام . اذ لو تحالف الصليبيون مع المغول ، لحققوا جزءا من أهدافهم ، وهو الانتقام من المسلمين في تلك الجهات ، ولكن ذلك التحالف كان سينعكس على وضعهم السياسي هناك ، اذ انهم كانوا بلاشك سيصبحون عبارة عن ولاية من ولايات المغول حالهم حال الارمن.وامير انطاكية من قبلهم . هذا بالاضافة الى ان ذلك التحالف كان سيغضب عليهم الباباوات في روما ، اذ ان تبعيتهم للمغول الذين عرفوا بمحاباة المسيحيين الشرقيين ، كان سيؤدي الى اضعاف مركز الكنيسة الغربية في بلاد الشام .

سقوط مدن الشام في أيدي المغول :

سبق ان ذكرنا ان هولاكو عندما عزم على مهاجمة بغداد ، عهد في الوقت نفسه الى قائده ارقيو نويان بالاستيلاء على قلعة اربل . ولم يتمكن هذا القائد المغولي من الاستيلاء عليها ، الا بعد أن طلب المساعدة من بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل ، الذي سار بنفسه الى معسكر المغول ، حيث سلمه ارقيونويان مهمة الاستيلاء على المدينة ، فهاجمها وهدم أسوارها وتسلمها من حاكمها بالقوة .[١]

وبعد أن تم للمغول الاستيلاء على اربل ، أمر هولاكو الامراء يشموت ، وايلكانويان ، وسونتاي ، بالتوجه الى مدينة ميا فارقين ، ولما بلغوا حدودها أرسلوا رسولا من قبلهم الى الملك الكامل الايوبي صاحبها يدعونه الى الخضوع والطاعة لهم ، ويتوعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم . الا أن الملك الكامل قابل ذلك التهديد بالرفض الشديد ، وذلك لما كان يعرفه عن المغول من الخيانة ونكث العهود ، حيث رد عليهم قائلا . « انني لن انخدع بكلامكم المعسول ، ولن أخشى جيش المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حيا » .[٢]

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٦٦ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣١٩ ؛ انظر ايضا ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ص٤٨٩، ٤٩٠ ؛ وميا فارقين : من أشهر مدن ديار بكر بمنطقة الجزيرة (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ؛ والملك الكامل : هو الشهيد ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل سيف الدين ابي بكر محمد ابن ايوب ، ملك ميافارقين سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م . (انظر الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ، ص٧١ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، المصدر نفسه ، ص٧٠٨ ، الملاحق) .

ونتيجة لهذا الرد الحاسم من الملك الكامل ، اتفق الامراء المغول على مهاجمة ميافارقين ، وانتزاعها بالقوة من يد حاكمها وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يعد نفسه وقواته لمواجهة ذلك الخطر ، حيث عمد الى تطييب خواطر سكان مدينته ورفع روحهم المعنوية ، باعطائهم وعدا ببذل كل ما يملك من الذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن في سبيل الدفاع عن مدينتهم ، فاتحد معه سكان المدينة جميعا ، واعلنوا له انهم رهن اشارته ، وعلى استعداد للجهاد ضد العدوان المغولي الذي بات يهدد مدينتهم بالخراب والدمار .(١)

ولم يأبه المغول بتلك الاستعدادات التي ابداها الملك الكامل واهل مدينته ، بل أقدموا على فرض حصار شديد على مدينة ميافارقين ، اشتركت فيه فرق ارمنيه ومسيحية شرقية ، وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود هائل عجز امامه المغول عن اقتحامها مدة طويلة . وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارعان اذهلا قادة المغول ودوخاهم واوقعاهم في الدهشة والحيرة ، اذ كان لبسالتهما واحكامهما الرماية سببا في انزال افدح الخسائر في الجيش المغولي . حتى اضطر هولاكو ـ الذي ادرك عجز قواته عن اقتحام المدينة ـ الى ارسال مدد جديد بقيادة الآمير ارقتوا ، وانضم هذا القائد الجديد بجموعه الى الجهة التي فيها جيش الامير المغولي ايلكيانويان . ونظرا لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة ، نفذت الارزاق من داخلها وعمّ القحط ، وانتشر الوباء ، وتهدمت الاسوار من شدة ضرب المنجنيقات ، حتى هلك اكثر سكان المدينة . ولما تأكد الملك الكامل ان مقاومته للمغول أمست عديمة الجدوى ، استسلم للمغول فقتلوه شر قتلة ، اذ اخذوا يقطعون لحمه قطعا صغيرة ويدفعون بها الى فمه حتى مات ، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك في سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م .(٢)

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣١٩ ، ٣٢٠ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق٢ ، ص٤٩٠ .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق٢ ، ص٥٠٢،٥٠٦ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، حوادث سنة ٦٥٦هـ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٢١،٣٢٢ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٧ ؛ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج٣ ، ص٢٠٣ ؛ ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٣٤٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٩١ ؛ ابو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص٢٠٥ ؛ الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب ، ص٥٦،٥٧ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٢٩٣ .

وبعد ان تمكن هولاكو من انهاء الامر في ميافارقين ، أشار على أمرائه بالزحف على مدينة ماردين ، التي كانت تتمتع هي الاخرى بحصانة كبيرة ، اذ تعجب المغول من ارتفاع قلعتها واستحكاماتها . لذلك عمد هؤلاء القادة الى اتباع نهجهم التقليدي بارسال الرسل الى صاحبها الملك السعيد .[1] بالتهديد والوعيد ، الا ان الملك السعيد الذي كان يعرف هو الآخر ما كان عليه المغول من الخيانة ونكث العهود والمواثيق ، أبى الانصياع الى اوامرهم ، ورد عليهم قائلا : « كنت قد عزمت على الطاعة والحضور الى الملك ، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين ، ثم قتلتموهم ، بعد ان اطمئنوا الى عهدكم وامانكم ، فاني الآن لا أثق بكم . وان القلعة بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والاسلحة ، ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد » .[2]

ونتيجة لهذا التصميم من جانب الملك السعيد على مواجهة جيش المغول ، اصدر قائدهم ارقيونويان اوامره بنصب المنجنيقات حول المدينة ، ايذانا ببدء حصارها ، وضرب اسوارها ورميها بالسهام . واستمرت الحرب بين الطرفين على أشدها مدة ثمانية اشهر[3] ، وهنا يبدو ان استحكامات المدينة واستماتة المسلمون بداخلها في الدفاع عنها ادى الى شعور القادة المغول بان اقتحام المدينة بالقوة بات امرا مستحيلا وانه من الافضل الاكتفاء بتشديد الحصار عليها ، وفي الوقت نفسه حرصوا على كسب الوقت وعدم اضاعته ، بالاغارة على المدن القريبة من ماردين حيث اغاروا على دنيسر وأرزن .[4]

وأخيرا ظهر الغلاء والقحط والوباء في المدينة ، ومات اكثر سكانها ، ومرض الملك السعيد نفسه ، وهنا تذكر المصادر روايتين مختلفتين في كيفية سقوط مدينة ماردين في ايدي المغول ، فيذكر رشيد الدين أن الملك السعيد كان له ولدان أكبرهما مظفر

---

(١) هو الملك السعيد نجم الدين ايلغازي بن الملك المنصور ناصر الدين ارتق بن ايلغازى ، خلف اباه على ملك ماردين سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م (انظر ابن شداد ، المرجع نفسه ، ص٥٩٨ الملاحق) .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٢٤، ٣٢٥ ؛ انظر ايضا ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٣) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص٣٢٥ .

(٤) رشيد الدين ، المصدر نفسه ، ص٣٢٥ ؛ ودنيسر : بلدة عظيمة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ، وارزن : مدينة مشهورة قرب خلاط . (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

الدين ، كان يقول لوالده اثناء محنة الحصار « من المصلحة النزول من القلعة اذ ليس في الامكان مقاومة هذا الجيش » فلم يصغ اليه والده وأصر على الصمود داخلها ، فسقى الابن أباه دواء ساما مات على اثره . ثم ارسل مظفر الدين الى القائد المغولي ارقيونويان يخبره بوفاة والده ، ويطلب منه ايقاف القتال وفك الحصار ، مبديا استعداده الى النزول من القلعة وتسليمها اليه . فاستجاب له ارقيو وأمر جيوشه بالكف عن القتال ، ثم نزل مظفر الدين مع أخيه وسلم القلعة الى المغول . ويستطرد المؤرخ رشيد الدين في سرد حوادث مسرحية التسليم هذه ، فيذكر ان مظفر الدين عندما وصل الى بلاط هولاكو طالبه بدم أبيه قائلا له : « هل يجيز أحد قط ان ابنا يقتل أباه . . . . . . » ، فاجاب مظفر الدين « انما فعلت ذلك لاني كلما تضرعت اليه وبكيت امامه لكيلا يفرط في القلعة وفي دماء الناس لم يستجب لي ، فاقدمت على هذا العمل الخاص من اجل المصلحة العامة ، لاني عرفت ان القلعة ستفتح باقبال الملك ، وانه سوف يقتل عدة آلاف من الابرياء ، فالحقيقة ان التضحية بدم واحد خير من التضحية بمائة ألف »، ثم تضرع مظفر الدين الى هولاكو بان يغفر له زلته تلك ، وان يمنحه ملك ماردين خلفا لوالده . فعفى عنه هولاكو ، وسلمه ماردين ، فظل سلطانا عليها حتى وفاته سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م ، ١٢٩٦م .[١]

واذا فرضنا جدلا صحة هذه الرواية ، فانه يبدو ان خطة اغتيال الملك السعيد قد تمت باتفاق مسبق تم بين هولاكو والملك المظفر ابن الملك السعيد ، وان ما ذكره رشيد الدين ان هولاكو قد عاتب المظفر على قتل والده ، كان من باب اظهار هولاكو في صورة مغايرة لما عرف عنه من الغدر والخيانة وسفك الدماء . بدليل ما ذكره رشيد الدين نفسه عند سرده هذه الرواية ، حيث انهى حديثه عنها بان حكمها انتقل بعد وفاة الملك المظفر الى ابنه شمس الدين داود ، ولما مات هذا الاخير حل محله نجله نجم الدين الذي

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٢٥،٣٢٦ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج١ ، ورقة ١٢١ آ ـ ب ؛ ابو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٢٠١ .

تلقب بالملك المنصور ، واشتهر باخلاصه للايلخان غازان ، فمنحه غازان التاج والمظلة الملكية ، وجعله من خواص أمرائه ، وفوض إليه الملك في كل ديار بكر وديار ربيعة[1] .

أما المؤرخ عز الدين ابن شداد ، فإنه يختلف مع رشيد الدين ليس في كيفية سقوط ماردين في أيدي المغول فحسب ، بل حتى في تاريخ سقوطها : فيذكر أن هولاكو بعد أن استولى على ميافارقين تقدم على رأس قواته إلى مدينة آمد ووصلها في أواخر عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ، ومن هناك بعث رسلاً من قبله إلى الملك السعيد حاكم مدينة ماردين يطلب منه الحضور إليه ، فأجابه الملك السعيد بأن بعث إليه ابنه الملك المظفر قرا أرسلان ، وقاضي القضاة مهذب الدين محمد بن علي ، والأمير سابق الدين بلبان ، وهو من أكابر امرائه ، ومعهم هدية سنية ، ورسالة تتضمن الإعتذار عن ابطائه عن الحضور إلى هولاكو لمرض ألم به ، ووافق وصول رسل صاحب ماردين إلى بلاط هولاكو استيلاءه على قلعة اليمانية التابعة لميافارقين ، وإنزاله من كان بها من حريم الملك الكامل وأولاده وأقاربه ، فلما اجتمع هولاكو برسل الملك السعيد أطلعهم على مصير آل الكامل ليؤثر على معنوياتهم ، ويلقي الرعب في قلوبهم ، فلما قدّموا الهدية وأدوا الرسالة قال لهم هولاكو « ليس مرض الملك السعيد صحيح وإنما هو متمارض ، وقصد بذلك انتظار مقابلتي للناصر حتى يرى ما يتم لي معه فإن انتصرت عليه اعتذر بزيادة المرض ، وإن انتصر عليّ فتكون له اليد البيضاء ، إذ لم يجتمع بي ، ولكن لو كان للناصر قوة كافية لم يمكنني من دخول هذه البلاد ، وقد بلغني أنه بعث حريمه وحريم امرائه وكبراء رعيته إلى مصر ، وهذا يدل على الهرب فلو نزل الملك السعيد إليّ ، لرعيت له ذلك »[2] .

ثم سمح هولاكو لقاضي القضاة بالعودة إلى ماردين وحده واحتجز عنده المظفر ابن الملك السعيد ، والأمير سابق الدين بلبان فلما عاد قاضي القضاة إلى ماردين واخبر الملك السعيد بما فعله هولاكو ، تألم لهما وندم على ارسالهما إلى هولاكو ، وبعث إلى الملك الناصر يستحثه على التقدم إلى حلب ، ويعده أنه متى وصل إليها رحل هو إليه برجاله

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٢٦ ، وديار ربيعة : هي الديار الواقعة بين الموصل إلى رأس عين ، نحو بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين ودنيسر والخابور جميعه وما بين ذلك من المدن والقرى (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٧٩٤ « الملاحق ») .

(٢) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ .

وماله . وفي الوقت نفسه أخذ يفكر في استخلاص ابنه من يد هولاكو ، فدبر لذلك الأمر خطة محكمة ، تقوم على التظاهر بإرسال رسول آخر إليه ، ليقدم له هدية ثانية ، وليتصل سراً بابن الملك السعيد وولدي سلطان سلاجقة الروم ـ اللذين صادف مجيء رسل الملك السعيد إلى هولاكو وجودهما عنده وتحفظه عليهما لبعض الوقت ـ ويحرضهم على الهرب ، فنفذ رسول الملك السعيد هذه المهمة وقال لعز الدين بن سلطان سلاجقة الروم « إن هدف هولاكو من الإبقاء عليك هو تهديد الملك الناصر بك ، لا لمحبة لك ورغبة فيك ، فأوسع الحيلة في الإنفصال عنه والحذر منه » فشكره عز الدين ورد عليه قائلاً « والله ما خرجت البلاد من أيدينا إلا بتخاذل بعضنا عن بعض ، فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى »[1] .

ومن كلام عز الدين هذا يبدو لنا ما كان عليه العالم الإسلامي آنذاك ـ رغم ما حل به من متاعب بسبب ظروف الفرقة والانقسام ـ من إحساس بالتطلع إلى التكتل ووحدة الصف لمواجهة الأخطار التي احدقت به . وإن ذلك الشعور والتحمس لم يكن ينقصه سوى الشخص القوي الذي يستطيع تحقيق رغبات تلك الجموع المتعطشة إلى سماع نداء داع الجهاد الإسلامي المقدس ، وقيادتها في ميادين الشرف والكرامة للذود عن حوزة الإسلام والمسلمين ، ولتبقى كلمة الله هي العليا . كما أن هذا الكلام يؤيد ما سبق ذكره من أن معظم الحكام المسلمين وعلى رأسهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، بالرغم من ممالاتهم للمغول والدخول في طاعتهم وإن ذلك لم يكن باقتناع منهم ، وإنما كان ناتجاً عن خضوعهم لسياسة الأمر الواقع ، إذ أن شعورهم بعدم القدرة على مواجهة المغول لضعف امكاناتهم ، فضلاً عن استحالة حصولهم على النجدة من الخلافة العباسية ، في بغداد ، أو الأيوبيين في الشام . قد دفعهم إلى اتباع سياسة خاصة قائمة على أساس تقديم الولاء والطاعة ، في مقابل تأمينهم وإبقائهم على ممتلكاتهم .

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ ، ٥٦١ ، انظر أيضاً اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ١ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، الذهبي ، دول الإسلام ص ١٦١ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

وعلى كل فإن هولاكو استطاع خلال تلك المدة أن يستولى على آمد وحران والرها وسروج وعدد كبير من مدن وحصون اقليم الجزيرة[1] . ومن ثم قرر هولاكو إرجاء أمر ماردين ريثما يصفى حسابه مع الشام ، فعبر الفرات على رأس قواته قاصداً حلب فاستولى عليها في المحرم من عام ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م ـ كما سنرى ـ وكان الملك السعيد خلال تلك المدة قد اشتد مرضه وأشرف على الهلاك ، ثم شفي من مرضه وارسل إلى هولاكو يطلب منه الإفراج عن الأمير سابق الدين بلبان الذي كان يحتجزه عنده ، فأطلق سراحه ، وكان هولاكو قد استماله في مدة احتجازه عنده ، فلما اجتمع سابق الدين بالملك السعيد أخبره بما حل بأهل حلب من القتل والسبي والفتك والدمار ، ليخوفه من بطش المغول ، ثم أشار عليه بتسيير هدية أخرى إلى هولاكو ، فأخذ الملك السعيد بمشورته ، وأرسله وبصحبته شخص آخر بهدية إلى هولاكو ، فلما وصلا إليه وجداه على قلعة اعزاز ، فاجتمعا به وقدما له الهدية ، واشار عليه سابق الدين أن يستميل زميله (عز الدين بن بطه) ، فاستدعاه هولاكو سراً وقال له « أقض لي حاجة أقض لك ألف حاجة ، قال ماهي ؟ قال : أريد منك أن تعرفني ، هل أن الملك السعيد مريض حقيقة أم متمارض ؟ قال : كان متوعكاً وازداد مرضه عند أخذك حلب ثم عوفي ، فقال : إذا ألزمته بالمجيء فهل تعلم أنه يفعل ؟ قال : ما يفعل أصلاً ، قال لأي سبب ؟ قال : لإشياء كثيرة منها أنكم لا تفون لأحد ، ولا تقفون عند كلام تقولونه ، وإنكم تهينون الملوك ولا ترعون حقوقهم ، وأنكم تكلفونهم ما لا تطيقه نفوسهم ، وقد تحقق أنه متى نزل إليك قتلته ، قال : فإن قصدته فهل يقدر أن يمنع نفسه مني ؟ قال : نعم ، قال بأي شيء ؟ قال : بحصانة قلعته ، وبما فيها من الذخائر والأقوات ، فإنه ادخر فيها قوت أربعين سنة »[2] .

فلما فرغ من الكلام قدم له هولاكو هدية ثمينة استمالة له وصرفه ، فلما اصبح استدعاه وسابق الدين ، وكتب للملك السعيد كتاباً جاء فيه « إني قد أعفيتك من

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٥٩ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٦ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٩ ، عماد الدين خليل، الإمارات الأرتقية ، ص ٣٢٩ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ ، ٥٦٣ ، انظر أيضاً عماد الدين خليل ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

النزول فطيب قلبك » ثم اجتمع هولاكو سراً بسابق الدين ، واتفق معه على استمالة أهالي ماردين وأعيانها وامرائها واجنادها وكتب لهم مراسيم بذلك ، وألزمه بتكفل هذا الأمر . فأشار عليه سابق الدين أن يرسل معه الملك المظفر بن السعيد ليطمئن قلب أبيه بذلك فأجابه ، وأعاد المظفر مع الرسولين إلى ماردين ، فلما وصلا أديا الرسالة ثم خلا عز الدين بطه بالملك السعيد ، وعرفه ميل سابق الدين إلى هولاكو وأنه يعمل لمصلحة المغول ، فغضب الملك السعيد من ذلك ، وكان قد سير سابق الدين بهدية ثالثة ورسالة اعتذار إلى هولاكو . وما أن غادر بلبان ماردين حتى اجتمع بعض غلمانه بالملك السعيد وعرفوه ميله إلى هولاكو ، وقالوا له أنه متى اجتمع به أفسد عليك الأحوال ، وأشاروا على الملك السعيد بالقبض عليه قبل وصوله إلى معسكر المغول ، وكان ذلك تعزيزاً لما ذكره عز الدين ، فأرسل الملك السعيد رسولاً في طلبه يأمره بالعودة ليرسله ثانية إلى هولاكو برسالة جديدة ، متظاهراً بأمر تجدد بعد مغادرته ماردين . إلا أن أحد أمراء صاحب ماردين ، ممن حصلوا على مرسوم من بلبان ، أرسل غلاماً إليه ليطلعه على عزم الملك السعيد القبض عليه ، فلحقه الغلام وهو على دنيسر وأبلغه الرسالة ، وأنه متى عاد إلى ماردين قبض عليه الملك السعيد فلحق بلبان بهولاكو ولم يعد إلى ماردين ثانية (١) .

أيقن الملك السعيد بعد ذلك أن المغول سيهاجمون ماردين لا محالة ، فأخذ يعد العدة لمواجهتهم ، ونقل ما في البلد من الذخائر والمؤن إلى القلعة . وبعد أربعة أيام وصلت رسل من هولاكو يحملون هدية للملك السعيد . وبعد ذلك بفترة قصيرة وصلت قوات المغول بقيادة هولاكو نفسه ونزلت إلى ماردين في مطلع جمادي الأولى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، ولم يعلن هولاكو القتال طيلة ستة عشر يوماً . وقام خلال هذه المدة بمعاونة قواده بالإشراف على القلعة ، لدراسة تحصيناتها لمعرفة مواطن الضعف بها ، ثم غادر وبعض قواده ماردين إلى جهة خلاط ، وأرسل من هناك رسالة إلى صاحب ماردين ، يلتمس منه أن يفتح أبواب المدينة ليدخل عسكره ويتمون منها

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ - ٥٦٤ ، انظر ايضاً عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٢٩ - ٣٣١ .

بالأقوات والعلوفات أياماً قلائل قبل أن يرحل عنها ، فأذن لهم الملك السعيد فدخلوها ، وترددوا في الدخول والخروج بحرية تامة . فلما كان عصر اليوم الثاني والعشرين من جمادي الأولى من السنة نفسها ، تسلق المغول أسوار البلد ، ودقوا الطبول وجردوا السيوف وهاجموا البلد ، فقاتلهم المسلمون في الأزقة والشوارع والمنعطفات ، ودام القتال ثلاثة وستين يوماً إلى أن فتح لهم بعض مقدمي البلد ثغرة فسيطروا عليها ، ودخلوا منها إلى الجامع وصعدوا المنائر وأخذوا يرمون منها بالنشاب ، فانسحب أكثر أهل البلد إلى القلعة وتم للمغول الاستيلاء على البلد . ومن ثم بدأوا مهاجمة القلعة ونصبوا عليها ست منجنيقات فلم يصل منها إلى القلعة سوى ثلاثة أحجار ، واستمر الحصار إلى أن انقضت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م ودخلت سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م[١] .

وفي تلك الأثناء توفى الملك السعيد ، بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة فهلك أكثرهم . فتولى الحكم بعده ابنك الملك المظفر ولما وصل الخبر بوفاة الملك السعيد إلى المغول ، أرسلوا إلى المظفر وطلبوا منه الدخول في طاعتهم ، فبعث إليهم رسولاً ليتعرف على ما أضمرته نفوسهم ، فلما اجتمع بمقدميّهم قالا له « إن بين الملك المظفر قرا ارسلان وبين هولاكو وعداً أن والده متى مات وتسلم الملك المظفر الحكم من بعده دخل في طاعته ، فقال لهم الرسول « هذا صحيح ولكن أنتم اخربتم بلاده وقتلتم رعيته فبأي شيء يدخل في طاعته حتى يداري عنه ، فقالا « قد علمنا ذلك ونحن نضمن له أن هولاكو متى اتصل به خبر وفاة الملك السعيد وأن ولده المظفر تحت طاعته عمل ما كان تقرر بينهما ، وعوضه عما خرب من بلاده بلاداً عامراً مما جاوره » . فلما عاد الرسول للمظفر وأخبره بما دار بينه وبين مقدمي المغول ، أعاده إليهم برسالة أخرى مضمونها « إن أردتم أن أسير رسلي إلى هولاكو ، فابعثا إلي رهائن من جهتكما تكون عندي حتى يرجع رسلي » وترددت الرسل بين الطرفين إلى أن تم الاتفاق على أن يرسل قطز نويان ولده ، ويرسل جرمون ابن أخيه ، فلما صعدا إلى القلعة ، بعث المظفر إليهما نور الدين محمود بن كاجار (شقيق الملك السعيد لأمه) فأرفقه قطز نويان بسابق الدين بلبان وأرسلهما إلى هولاكو ، فأديا مضمون الرسالة إليه والتي كانت تنص على ما تم الاتفاق

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، انظر ايضاً عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

عليه ، فأجاب إلى ماتعهد به قائداه ولكنه احتجز رسل ماردين عنده ، ثم أصدر أوامره إلى قواده بالجلاء عن ماردين وذلك في رجب من سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، ومن ثم أعاد هولاكو الرسولين إلى ماردين وأصحبهما بكوهداي أحد كبار أمراء المغول فتوجهوا إلى ماردين وتم عقد الصلح بين الطرفين ، وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر فزوجه الأخير أخته[١] .

وأعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه إلى هولاكو في رمضان من السنة نفسها يحمل الهدايا إليه ، فاجتمع به هولاكو وأكرمه ، ثم قال له « بلغني أن أولاد صاحب الموصل هربوا إلى مصر ، وأنا أعلم أن اصحابهم كانوا سبب ذلك ، فاترك أصحابك الذين رافقوك عندي ، فإني لا آمن أن يحرفوك عني ، ويرغبوك في النزوح عن بلادك إلى مصر ، وإذا ما دخلت البلاد فاصطحبهم معي » . فأجابه الملك المظفر إلى ذلك ، ثم قفل عائداً إلى بلده وفي الطريق أرسل هولاكو في طلبه يأمره بالعودة إليه ثانية ، فعاد إليه يرتجف خوفاً ، فلما اجتمع به قال له هولاكو « ان اصحابك اخبروني أن لك باطناً مع صاحب مصر ، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من التسلل إليهم » ثم عين لذلك أميراً يدعى (أحمد بغا) وأعادهما إلى ماردين ، بعد أن أضاف إلى الملك المظفر نصيبين والخابور ، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ضمت إلى آمد وميافارقين ، كما ألحق بإمارته بعض المدن التي سيطر عليها المغول في الجزيرة كقرقيسيا حيث ابقى فيها المغول قوة لحفظ المعابر[٢] . وفي الوقت نفسه أمر هولاكو الملك المظفر بهدم أبراج قلعة ماردين . وما أن غادر الملك المظفر معسكر هولاكو حتى أقدم الأخير على ضرب رقاب أصحاب الملك السعيد ، وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين ، ولم يكن لأي من هؤلاء ذنب يذكر ، ولكنه قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر[٣] .

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ - ٥٦٨ ، انظر ايضاً اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ١ ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، انظر ايضاً عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٣) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ٥٧٠ ، انظر ايضاً اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ١ ، ص ٤٥٧ ، عماد الدين خليل ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٤ .

ويتضح من مقارنة هذه الرواية برواية رشيد الدين السابقة ، كثرة نقاط الضعف فيها مما يجعل رواية ابن شداد هي الأرجح ، فرواية رشيد الدين ترد بأسلوب قصصي مصبوغ بطابع المبالغة ، حيث تشير إلى أن الابن سم أباه في وقت كان أبوه مريضاً بسبب الوباء الذي عم القلعة ، ومما يجعل أمر تعجيل وفاته بالسم أمر غير مقبول من قبل ابنه الذي برر عمله أمام هولاكو بأنه أراد الحفاظ على أرواح مائة ألف نسمة ، كما أشارت الرواية إلى أن هولاكو اعترض على الأبن لقتله أباه ، في الوقت الذي كان هدف الابن من الاغتيال فتح أبواب القلعة للقوات المغولية ، كما لا يعقل أن يقوم الابن بتسليم القلعة بما هي عليه من الحصانة والامكانيات الدفاعية للمغول دون أية شروط أو تحفظات يستفيد منها في المستقبل . وقد اجمعت الروايات على أن هولاكو قام باحتجاز الابن فترة من الزمن جرت خلالها اتصالات عديدة بين هولاكو والملك السعيد صاحب ماردين ، ولا بد أن هذه الاتصالات قد استغرقت فترة من الوقت ، بينما تشير رواية رشيد الدين إلى أن هولاكو أمر قواته بحصار ماردين وضربها بعد سقوط مدينة ميافارقين مباشرة ، وقبل التوجه إلى حلب . وذلك مخالف لسير الحوادث التي ذكرتها مصادر معاصرة تؤكد ما ذكره ابن شداد عنها[1] . بالاضافة إلى أن رواية رشيد الدين تصف الملك السعيد بالظلم والتعسف كي تبرر قتله من قبل ابنه المظفر ، في الوقت الذي يؤكد معظم مترجميه بأنه كان عادلاً حسن السيرة[2] . كما يشير كل من ابن العبري ، وابن الفوطي ، إلى أن الأب حين احس بميل ابنه لاتباع الطريق السهل والاستسلام للمغول ، أمر باعتقاله . فكيف تسنى للأخير سم أبيه ؟[3] .

وعليه يمكن القول أن ما ذكره ابن شداد يعتبر أكثر وثوقاً ، لكونه عاصر هذه الحوادث وكان طرفاً في الاتصالات والمفاوضات الدائرة آنذاك بين مختلف القوى

(١) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٦ ، ورقة ٣٩٤ ، انظر ايضاً عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٣٦ .

(٢) انظر عماد الدين خليل ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٦ .

(٣) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، عماد الدين خليل ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

الإسلامية والمغول ، وعلى صلة بمعظم الشخصيات السياسية . فضلاً عن أن حلب كانت مقر اقامته وهي القريبة من مسرح الحوادث ، فلا يعقل أن يذكر رشيد الدين بأنها سقطت قبل ماردين ، ثم يأتي مؤرخ آخر بعده بفترة طويلة فيقرر العكس ، ولا بد من الإشارة إلى أن رشيد الدين عاش بعد فترة طويلة من هذه الحوادث . وأنه كان المؤرخ الرسمي للمغول . ولذلك نجد في كثير من رواياته تحيزاً واضحاً لهم[1] .

ومما يؤيد رواية ابن شداد أيضاً أنه لا يستبعد أن يكون هولاكو عندما شاهد حصانة قلعة ماردين وما هي عليه من امكانات دفاعية هائلة ، فضلاً عن تطلع الملك السعيد صاحبها للحصول على النجدة والمساعدات من الملك الناصر يوسف الأيوبي ، صاحب حلب ودمشق . كل ذلك جعله يفكر في التوجه إلى بلاد الشام والسيطرة على أهم مدنها حلب ، لكي يقطع على الملك السعيد كل أمل في الحصول على المساعدات من أمراء الشام ، كما لا يستبعد أيضاً أن يكون هولاكو قصد بذلك التأثير على الجموع المسيحية التي كانت تتواجد بأعداد ضخمة داخل بلاد الشام ، لاستقطابهم إليه والإنضمام إلى جيوشه في حصار قلعة ماردين الحصينة . هذا بالاضافة إلى أن هولاكو ربما يكون قد حصل على وعود سرية مسبقة من الملك المظفر ابن السعيد لتسليم ماردين بعد وفاة والده ، وأن هولاكو أثر الانتظار وعدم التورط في حرب طويلة مع قلعة ماردين ، التي ذكر ابن العبري أنه لولا الوباء ووفاة الملك السعيد ، لما استطاع المغول الاستيلاء عليها « لا في سنتين ولا في ثلاثة »[2] . وأن هولاكو كسبا للوقت توجه للاستيلاء على حلب ، ريثما يتحقق أمله بانتهاء عهد الملك السعيد .

ومهما يكن من أمر فقد غدت مدينة ماردين ولاية مغولية ، ينفذ حكامها ما يأمرهم به قادة المغول ، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياستهم الخارجية وتحركاتهم

(١) عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٣٧ .

(٢) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٨ .

العسكرية ، ويقدمون لهم المال[١] ، والإمدادات العسكرية ، ويضربون السكة باسمهم ، ويخطبون لهم[٢] . كما غدت إمارة ماردين ـ شأنها شأن غيرها من الإمارات التي استولى عليها المغول ، أو دخلت تحت حمايتهم ـ مركزاً عسكرياً لتجمع قواتهم ، وقيامهم بالتهديد المستمر للجهات الغربية من العالم الإسلامي ، وشن غاراتهم وحروبهم عليه . كما غدت هذه المنطقة أيضاً من جهة أخرى بمثابة الخطوط الخلفية التي تحمي قوات المغول في حالة توغلهم في بلاد الشام ، وتمدهم بالمؤن والرجال والعتاد . وهكذا حقق المغول بإدخالهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود ، وهو السيطرة على منطقة ديار بكر واتخاذها مركزاً لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الإسلامي[٣] .

وكانت مدينة حلب ـ سواءاً أكانت سقطت في أيدي المغول قبل ماردين أو بعدها ـ هي أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية ، باعتبارها مفتاح بلاد الشام ، التي كانت تتقاسمها آنذاك سلطات ثلاث ، هي سلطة الأرمن المسيحيين في الأجزاء الشمالية ، والصليبيين الغربيين على الشريط الساحلي ، وسلطة الحكام المسلمين من أمراء البيت الأيوبي في الأجزاء الداخلية . ولما كان الأرمن قد انضموا بزعامة الملك هيثوم الأول إلى صفوف المغول منذ وصولهم الى منطقة الشرق الادنى ، بينما التزم الصليبيون الغربيون مبدأ الحياد في ذلك الصراع الاسلامي المغولي لشعورهم بمستقبل مجهول أمام تلك القوى المغولية التي لا تبقي ولا تذر ، فإن هولاكو قد وجه همته بكاملها نحو البلدان الخاضعة لحكم الأمراء الأيوبيين ـ وكما سبق أن رأينا ـ فإن الملك الناصر يوسف ، استاء من سياسة هولاكو التعسفية ، أثناء المفاوضات التي دارت بينهما ، وسارع بطلب النجدة من الملك المظفر قطز حاكم الأراضي المصرية . الأمر الذي آثار غضب هولاكو على الملك الناصر ، فأصدر أوامره لقواته بعبور نهر الفرات ومهاجمة بلاد الشام .

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٢٣٦ . المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٤٧ .
(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣١٧ .
(٣) عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

ووصل الخبر بذلك إلى حلب من البيره ، وكان يحكم حلب آنذاك الملك المعظم توران شاه نائباً عن الملك الناصر ، فجفل الناس خوفاً من المغول إلى دمشق ، وعظم الخطب على من بداخلها . وقبيل وصول القوات المغولية إلى حلب ، أرسل هولاكو كعادته إنذاراً إلى صاحبها جاء فيه « إنكم تضعفون عن لقاء المغول ، ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر ، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة ، وبالقلعة شحنة ، ونتوجه نحن إلى العسكر ، فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين ، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين بين الشحنتين ، إن شئتم طردتموهما ، وإن شئتم قتلتموهما »[1] .

ويظهر لنا من هذه الرسالة التي اقتصرت على طلب اقامة شحنة للمغول بالمدينة والقلعة ، أن هولاكو بدأ يراجع حساباته في اندفاعه السريع نحو المدن الإسلامية واسقاطها الواحدة تلو الأخرى . إذ يبدو أنه أدرك أن سياسته تلك ، أرغمت الحكام على تناسي خلافاتهم وما بينهم من أحقاد ، ونبهتهم إلى أن وحدة الصف واجتماع الكلمة هما السبيل الوحيد لمواجهة تلك الأخطار الممثلة في العدوان المغولي المدمر الذي بات يهدد ممتلكاتهم ـ ولعل خير دليل على هذا هو إقدام الملك الناصر الأيوبي على طلب المساعدة العاجلة من الملك المغيث صاحب الكرك ، بل إلى أكثر من ذلك وهو طلب النجدة من أعدائه الألداء المماليك في مصر الذين كان يعتبرهم الأمراء الأيوبيون مغتصبين لممتلكاتهم هناك ـ[ق] .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٢ ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٢ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٨ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤١ ، والشحنة تعني رياسة الشرطة ويسمى متوليها صاحب الشحنة ، انظر ابن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ، ص ١٢٩ ، حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص ٢٠١ .

Dozy, supplement Aut Dictonnarics Araber vol, p. 733 —

والبيرة : قلعة حصينة قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٩ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٠ .

ومهما يكن من أمر ، فإن الملك المعظم لم يجب هولاكو إلى ذلك الطلب ورد عليه بقوله « ليس لكم عندنا إلا السيف »[1] ثم احترز على حلب حتى صارت في غاية الحصانة والمنعة ، بأسوارها المحكمة البناء وقلعتها المنيعة ، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية[2] . وفي العشر الأخيرة من ذي الحجة سنة ٦٥٧ هـ / نوفمبر ١٢٨٩ م قصد المغول مدينة حلب ، ونزلوا على قرية يقال لها سلمية وامتدوا إلى قريتي حيلان والحاري وهما من قرى حلب ، ثم سيروا فرقة من عسكرهم باتجاه حلب ، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام والسوقة ، وأشرفوا على المغول وهم نازلون على تلك الأماكن ، وقد ركبوا جميعهم لانتظار عسكر حلب ، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين إلى المدينة ، وأصدر الملك المعظم تورانشاه بعد ذلك أوامره إلى قواته بالتحصن داخل حلب وعدم الخروج منها[3] .

وفي اليوم التالي تحركت القوات المغولية طالبة حلب . وفي الوقت نفسه اجتمع قادة الجيش الإسلامي للمشورة فيما يعتمدونه إزاء الهجوم المغولي المرتقب ، فأشار عليهم الملك المعظم تورانشاه بألا يخرجوا من المدينة لقتال العدو لقوته وكثرة عدد جنده ، وأن من الأصلح البقاء داخل المدينة ، فلم يوافقه جماعة من العسكر وأبوا إلا الخروج الى ظاهر البلد لئلا يطمع العدو فيهم ، ووافقهم على ذلك الرأي من بالبلد من العوام والسوقه ، واجتمعوا بجبل بانقوسا ، ولما وصلت جموع المغول إلى أسفل الجبل نزلت إليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم ، فلما شاهد المغول ذلك ، تراجعوا أمام الجيش الإسلامي مكراً وخديعة لإجتذابهم بعيداً عن البلد ، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار ، ثم كر الجيش المغولي وخرج من مكامنه ، فاندفع المسلمون أمامه إلى جهة البلد والعدو في أثرهم ، ولما حاذوا جبل بانقوسا وعليه بقية الجيش الإسلامي

---

(١) ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، انظر أيضاً المقريزي ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٢٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٥ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٣) ابن تغري بردي ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ ، وسلمية : بليدة صغيرة من أعمال حماه (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

اندفعوا جميعا نحو المدينة والعدو مستمراً في مطاردتهم ، فقتل من المسلمين جمع كثير من الجند والعوام ، ونازل المغول حلب ذلك اليوم إلى آخره ، ثم رحلوا عنها إلى اعزاز فتسلموها بالأمان[1] .

ثم عاود المغول هجومهم على حلب في ثاني صفر من سنة ٦٥٨ / يناير ١٢٦٠ م ، واحكموا حصارها ، بحفر خندق حولها عمقه قامة ، وعرضه أربعة أذرع ، وبنوا حائطاً بارتفاع خمسة أذرع ، ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقاً ، وشرعوا في رميها بالحجارة ونقب أسوارها ، ومهاجمتها من كل الجهات ، حتى اضطرت إلى التسليم في تاسع صفر من سنة ٦٥٨ هـ / يناير ١٢٦٠ م . ولما ملكوها غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ونهبوا الدور ، وسبوا النساء والأطفال ، ثم استباحوا المدينة خمسة أيام عاثوا فيها فساداً حتى امتلأت الطرقات بجثث القتلى ، ويقال أنه أسر من حلب زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان ، ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين ابن عمرون ، ودار نجم الدين أخي مردكين ، ودار البازياد ودار علم الدين قيصر الموصلي ، والخانقاه التي لزين الدين الصوفي وكنيسة اليهود . لفرمانات كانت بأيديهم ، وقيل أنه سلم بهذه الأماكن من القتل ما يزيد عن خمسين ألف نفس[2] .

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٥ - ٧٧ ، ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٩ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٢ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، واعزاز أو عزاز : قلعة حصينة في شمال حلب بينهما مسيرة يومان على الأقدام ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان) وجبل بانقوسا : جبل في ظاهر حلب (انظر ابن تغري بردي ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ حاشية) .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٥ - ٧٧ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ ، ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٢ ، ابن ايبك الدوادار ، الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية ، ج ٨ ، ص ٤٦ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٠٦ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

أما الملك المعظم تورانشاه ، فقد لجأ إلى القلعة ومعه جمع كثير من حلب واستمر الحصار على القلعة وشدد المغول مضايقتهم لها نحو شهر[١] . ويبدو أن خيانة حدثت في جيش الملك المعظم سهلت للمغول مهمتهم في تشديد حصارهم للقلعة ومعرفة مواطن الضعف فيها ، ومن ثم تثبيط همم المقاتلين داخلها . الأمر الذي ترتب عليه تسليم القلعة إلى المغول رغم حصانتها بكل سهولة ، يدلنا على ذلك ما ذكره أبو الفدا وابن الوردي من أنه وثب جماعة من أهل القلعة أثناء حصار المغول لها على صفي الدين بن طرزه رئيس حلب وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن احمد بن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون فقتلوهما ، لأنهم اتهموهما بمواطأة المغول أثناء اشتداد الأزمة[٢] . هذا بالاضافة إلى أن المسيحيين الذين كانوا داخل حلب لا بد وأنهم قد قدموا سراً المساعدات للمغول ، ودلوهم على المعابر السهلة إلى المدينة والقلعة . يؤيد ذلك ما ذكر من أن المؤرخ ابن العبري الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب رئيس أساقفة حلب ، سارع بعد سقوط القلعة مباشرة إلى تقديم ولاءه وطاعته لهولاكو[٣] . ولا يستبعد أنه كان يعمل في الخفاء لخدمة المغول .

ودخل هولاكو بعد ذلك إلى القلعة وخربها ، وهدم أسوار المدينة وجوامعها ومساجدها وبساتينها وعفى آثارها ، حتى غدت بلدة موحشة ، بعد أن كانت تعد من أزهى مدن الشام . ثم خرج إليهم الملك المعظم تورانشاه . . وهنا يذكر المقريزي أن هولاكو لم يتعرضه بسوء لكبر سنه[٤] . ولكن يبدو أن ذلك لم يكن تقديراً وعطفاً من هولاكو للملك المعظم ، بل لا يستبعد أن يكون الملك المعظم قد أصيب خلال حصار المغول للمدينة والقلعة بجراح بالغة أو بمرض لم يعد يرجى برءه ، أو أن هولاكو قد دبر قتله سراً ، بدليل ما ذكره المقريزي نفسه من أن الملك المعظم توفي بعد ذلك بأيام قلائل[٥] .

---

(١) ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ص ٢٠١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ص ٢٩١ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٢٢ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) انظر ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٣) انظر عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص ١٤١ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ .

ولم يشأ هولاكو أن تمر فرصة استيلائه على حلب دون أن يكافيء حليفيه ، هيثوم الأول ملك ارمينيه الصغرى ، وبوهيمند السادس الصليبي امير انطاكيه الذين ساعداه في ذلك العمل . حيث قام بإعطاء ملك الأرمن جزءا من الانفال ، وأعاد إليه الأقاليم والقصور التي كان مسلمو حلب قد استولوا عليها منهم . كما رد إلى بوهيمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها من امارته ، وعبر هيثوم عن ابتهاجه بذلك باحراق الجامع الكبير في حلب بنفسه انتقاماً من المسلمين[1] .

وهكذا سقطت مدينة حلب في يد المغول ، وحقق هولاكو بذلك ما لم يستطع تحقيقه الأمراء الصليبيون والأباطرة البيزنطيون ، وحطم حصناً عظيماً من حصون الإسلام . وغدت هذه المدينة التي كانت تعتبر بحق من أروع وأزهى مدن الشام خربة بائسة وعين عليها هولاكو حاكماً من قبله[2] .

وقد اثار سقوط هذه المدينة التي كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين ، الفزع والوجل في نفوس المسلمين ببلاد الشام ، فوصل إلى هولاكو بحلب كثير من أمراء المسلمين ليعلنوا ولائهم وخضوعهم ، ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي ، صاحب حمص ، الذي سبق أن انتزع منه الناصر امارته ، فأعادها إليه هولاكو ، على أن تكون اقطاعا وراثيا له من قبل هولاكو ، ولما رفض رجال حامية مدينة حارم الاستسلام إلا لقائد حامية حلب ، اعتبر هولاكو ذلك إهانة له وانتقاصاً من مكانته ، فأمر بقتل أهل حارم عن آخرهم وسبى نساءهم واطفالهم ثم ألحق بهم رجال الحامية جميعا[3] .

---

(١) سبط ابن العجمي ، كنوز الذهب في تاريخ حلب ، لوحة ٦٩ ، عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران ، ص ١٤١ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، العريني ، المغول ، ص ٢٤٥ .

(٢) العريني ، المرجع نفسه .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٣ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٩ ، ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، العريني ، المغول ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، والملك الأشرف هو موسى بن ابراهيم ابن شيركوه الثاني تولى الحكم بحمص سنة ٦٤٤ هـ وتوفى بها سنة ٦٦٢ هـ (انظر الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ، ص ٣٨) .

وبعد سقوط حلب جاء دور دمشق التي قام حاكمها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بحشد ما استطاع جمعه من القوات وما أنضم إليه من المتطوعة والعربان وخيم عند بلدة برزه شمالي دمشق ، ثم أرسل إلى الملك المغيث صاحب الكرك والسلطان المظفر سيف الدين قطز صاحب الأراضي المصرية يطلب منهما النجدة السريعة لصد الهجوم المغولي عن دمشق ، ولكن الأراجيف ما لبثت أن كثرت بدمشق عند اقتراب جيش المغول منها ، فضعفت قوة من بها من المسلمين وانهارت روحهم المعنوية وأصبح الملك الناصر في وضع حرج لا يستطيع معه انتظار النجدة القادمة من الكرك ومصر ، فخرج كثير من أهل دمشق وممن وفد إليها وتفرقوا في البراري والجبال والحصون وصادف ذلك أيام الشتاء ذات البرد الشديد فمات كثير منهم ، ونهب آخرون[1] .

ويبدو أن هذا الوجل والخوف الذي حل بأهل دمشق ، دفع هولاكو إلى تجنب الصدام مع قوات المسلمين في دمشق ـ ليس رحمة بهم واشفاقا عليهم ـ وإنما لادراكه بأنه لو اقتحم المدينة بالقوة فإنه سيتعرض لا محالة لخسائر جسيمة ، خاصة إذا علمنا بأن مدينة دمشق كانت آنذاك من أحصن وأمنع مدن الشام ، لارتفاع اسوارها واحكام بناء قلعتها. لذلك ارسل هؤلاكو رسلاً من قبله إلى دمشق دخلوها ليلة الاثنين السابع عشر من صفر سنة ٦٥٨ هـ / فبراير ١٢٦٠ م وهم يحملون « فرمانا » منه بتأمين المدينة وأهلها مقابل تسليمها ، وقريء هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر[2] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٨١٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٢٣ ، ابن عماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ ، السبكي ، المرجع نفسه ، ص ٢٧٥ ، ابو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٣ .

وفي هذا الموقف الحرج أشار بعض كبار أهل دمشق وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي[1] . بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو ، لتجنيب دمشق وأهلها ما حل بحلب من الهلاك والدمار والخراب . ولكن ذلك الرأي لم يجد التأييد الكامل من أهل دمشق ، حيث رفضه البعض وعلى رأسهم بيبرس البندقداري[2] ، الذي كان متواجداً آنذاك بدمشق ومعه جمع كبير من طائفة المماليك البحرية ، إذ صاح بيبرس في وجه زين الدين قائلاً : « أنتم سبب هلاك المسلمين » ويبدو أن الملك الناصر كان على رأي زين الدين الحافظي ، فحاول بعض أتباع بيبرس من المماليك ، قتل الملك الناصر ، وتولية حاكم آخر عالي الهمة ، نافذ الرأي ، يستطيع جمع الناس للجهاد في سبيل الله ، وقيادتهم في ميدان القتال لصد العدوان المغولي والدفاع عن الإسلام وأهله .

ولما علم الملك الناصر بتلك المؤامرة لجأ إلى قلعة دمشق ، فبادر الأمراء والأكابر بالدخول إلى القلعة وأشاروا على الملك الناصر بالخروج إلى المخيم ، وصادف خروجه منها تخلي بيبرس عن دمشق ، وخروجه منها ومعه جماعة من المماليك البحرية إلى غزة ، حيث استقبله أميرها أحسن استقبال ، وفيها سيِّر بيبرس رسولاً من قبله إلى السلطان المظفر قطز ليحلفه على اعطائه الأمان ، فكتب إليه المظفر أن يقدم عليه ووعده الوعود الجميلة ، ففارق بيبرس الناصرية ، ووصل ومعه جماعة من المماليك إلى مصر ، فأنزله السلطان المظفر بدار الوزارة « وأقبل عليه » واقطعه قليوب وأعمالها[3] .

---

(١) هو الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن خطيب عقرباء (كورة بدمشق) اشتغل بصناعة الطب ، وخدم بها الملك الحافظ نور الدين ارسلان شاه بن ابي بكر بن أيوب ، وكان يومئذ صاحب قلعة جعبر ، ولما توفي الملك الحافظ وتسلم قلعة جعبر الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، انتقل زين الدين الحافظي إلى حلب ، وصارت له يد عند الملك الناصر ، ولما ملك الناصر دمشق انتقل معه زين الدين وصار مكينا في دولته معايناً للصناعة الطبية (انظر ابن ابي أصيبعه ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٦٦٨ ، ٦٦٩) .

(٢) نسبة إلى البندقدار ، وهو لفظ فارسي معناه حامل جراوه أي كيس البندق خلف الأمير أو السلطان ، وقد سمي بيبرس بهذا الاسم ، لأنه كان في أول أمره مملوكاً للأمير ايديكين البندقدار ، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وصار من مماليكه البحرية (انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٤ حاشية) .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ، ابن دقماق ، نزهة الانام ، حوادث سنة ٦٥٧ هـ .

وإذا دققنا النظر في موقف بيبرس البندقداري هذا ، فإنه يبدو لنا أنه حاول في بداية الأمر أثناء الأمراء الدمشقيين عن الاستسلام للمغول ، وبعث روح الجهاد الإسلامي المقدس في نفوسهم للدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين . إلا أنه عندما شاهد تخاذلهم ، وميل حاكم دمشق الملك الناصر إلى الأخذ برأي من نادى بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو . وان انقسام المسلمين داخل دمشق بين مؤيد ومعارض لذلك الأمر سيجعل موقف الفريق المعارض لمداراة المغول والذي يتزعمه بيبرس نفسه غير مجد في تبني الدفاع عن دمشق منفرداً ، وأن الحل الأمثل الذي سيمكن المسلمين من إيقاف الزحف المغولي وانقاذ بقية الممتلكات الإسلامية ، هو الاتحاد مع دولة المماليك ، الفتية في مصر . لذا رأى بيبرس ترك دمشق وحاكمها وأمراءها ، والعودة إلى بني جنسه في مصر وإنهاء الخلافات معهم ، ومن ثم احياء فكرة الجهاد الإسلامي المقدس في ذلك البلد الغني بموارده الطبيعية والبشرية ، استعدادا لمواجهة الخطر المغولي صفاً واحداً وانقاذ مقدسات الإسلام من همجية هولاكو واتباعه . ولعل مما يؤيد هذا ما حدث بعد ذلك من اشتراك بيبرس البندقداري مع الملك المظفر سلطان مصر في التخطيط لمعركة عين جالوت ، وقيادة الجيوش الإسلامية ، وتحقيق ذلك النصر المؤزر الذي بدد أحلام المغول بكاملها ـ كما سنرى فيما بعد ـ .

أما الملك الناصر ، فيبدو أن اطماعه في وعود هولاكو السابقة بابقائه على ممتلكاته ، إنْ هو دخل في طاعته . قد عاودته في ذلك الحين ، الأمر الذي دفعه إلى الميل للأخذ برأي من قال بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو . علّه يحظى منه بابقائه على مدينة دمشق واعمالها بعد أن تبددت آماله في صد المغول عنها بالقوة .

ولكن الأمر المحيّر هو أن الملك الناصر بالرغم من ذلك لم يدخل في طاعة هولاكو مباشرة ، بل أقدم بعد أن شاهد تخاذل عسكره وتفرق كلمة أهل دمشق ، على الرحيل من برزه يوم الجمعة منتصف شهر صفر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ومعه جمع من اتباعه يريد غزه وترك دمشق في حالة يرثى لها[١] . ولعل ذلك كان بسبب عدم ثقته في أمان هولاكو ووعوده .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٣ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٣ .

ولما شعر من بقي من المسلمين في دمشق بالأهوال التي ارتكبها جيش هولاكو ، بحق من سبقهم ، وان معظم اطراف الشام ونواحيها قد دخلت في حوزة المغول ، قصد جمع من أكابرهم واعيانهم حضرة هولاكو ، ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات دمشق ، واظهروا الطاعة والخضوع له وسلموا المدينة . وهنا يبدو أن هولاكو لم يثق في ذلك الوفد ثقة كاملة ، فأمر بأن يذهب قائده كيتوبوقا إلى دمشق لاختبار أهلها ،

فاستقبله أهل المدينة وطلبوا منه الأمان ثم ارسل اعيانهم إلى بلاط هولاكو « فرق لهم وأشفق عليهم واجاب ملتمساتهم » ـ على حد تعبير المؤرخ رشيد الدين ـ وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال ، وولى عليها هولاكو جماعة من المغول وعين ثلاثة من أهلها لمساعدتهم في تصريف الأمور بها[١] .

أما قلعة دمشق فقد استعصت على المغول ورفض من بداخلها التسليم لهم وفي هذا الوقت وصل إلى دمشق الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ومعه مرسوم بأن يكون نائب السلطة بدمشق والشام كلها ، فامتثل لذلك القائد المغولي كيتوبوقا ، وصارت الدواوين وغيرها تحضر إليه بدمشق[٢] . ويبدو أن هولاكو قصد بهذا العمل ، التأثير على من بداخل القلعة ، إلا أن محاولته تلك باءت بالفشل ، حيث أصر من بداخل القلعة على عدم تسليمها . ثم أصدر هولاكو أوامره إلى قائده كيتوبوقا الذي بدأ حصارها بمن معه من عسكر المغول ليلة السادس من ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وشدد حصارها من كل الجهات وصادف آنذاك أن هبت ريح شديدة وهطلت أمطار غزيرة مصحوبة « برعود وبروق » فسقط من القلعة عدة أماكن ، وبات الناس بين « خوف أرضي وخوف سمائي » وهم صامدون بالداخل واستمر حصار المغول للقلعة وضربها بالمنجنيقات التي كانت تزيد عن عشرين منجنيقاً إلى الثاني والعشرين جمادي الأولى من السنة نفسها . وعند ذلك اشتد الرمي وخرب من القلعة مواضع ، فطلب من بداخلها الأمان ، ودخلها المغول ونهبوا ما كان فيها من الكنوز

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٦ .

والدفائن ، وأحرقوا مواضع كثيرة منها ، وهدموا عددا كثيرا من أبراجها ، واتلفوا سائر ما بها من الآلات والعدد[1] .

أما مدينة حماه ، فإن صاحبها الملك المنصور الثاني كان قد حضر إلى برزه ليتجهز مع الملك الناصر ، فلما سمع أهل البلد في غيبته بأخذ حلب ارسلوا رسولاً من قبلهم إلى هولاكو ، يسألونه العطف ، وسلموا له البلد ، فأعطاهم الأمان . وجعل عندهم شحنة من قبله ، أما قلعة حماه فيبدوا أن ما حل بحلب وأهلها وقلعتها من الأهوال ، فضلاً عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع متوليها إلى المسارعة بالتسليم للمغول[2] .

وبعد أن تم للمغول السيطرة على حلب ودمشق وحماه وغيرها من البلدان المجاورة ، أصبح استيلاءهم على بقية مدن الشام ، مسألة وقت كان على القائد المغولي أن يختاره متى شاء ، وذلك بسبب ما حل ببلاد الشام من الأهوال والفزع والخوف ، فضلاً عن تفرق كلمة الأمراء الأيوبيين ، ففي الأسابيع القليلة التالية ، أتم القائد المغولي كيتوبوقا الذي أوكل إليه هولاكو مهمة اتمام الاستيلاء على بلاد الشام بعد عودته من حلب إلى مدينة مراغة للمشاركة في انتخاب الخان الجديد[3] . السيطرة على بلاد الشام حيث توجه إلى نابلس ، وحينما حاول أهلها المقاومة جرى قتل عدد كبير منهم ، ثم أغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام حتى وصلت إلى اطراف بلاد غزة ، وبيت

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٦ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٢ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٢٣ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) ابو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ .

(٣) انظر مايلي ، ص ١١١ ، ١١٢ .

جبرين ، والخليل ، والصلت ، وبعلبك وبانياس وغيرها ، واستولوا عليها وقتلوا وسبوا ما قدروا عليه ، ثم عادوا إلى دمشق فباعوا بها ما غنموه من هذه المدن[1] .

والملاحظ أن المغول لم يهاجموا بيت المقدس في ذلك الوقت بالرغم من أنها لم تكن أحسن حالا آنذاك من غيرها ، ويبدو أن السبب في ذلك هو خوف المغول من استثارة حماس المسلمين واستفزازهم بالاعتداء على أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين المسجد الأقصى الذي لن يؤدي إعتداء المغول عليه إلى غضب المسلمين بالشام فحسب بل سيتعدى ذلك إلى كافة انحاء العالم الإسلامي ، الأمر الذي سوف يترتب عليه مجيئهم زرافات ووحداناً لإنقاذه ، بالإضافة إلى أنه لا يستبعد أن يكون المغول قد حرصوا في الوقت نفسه على عدم زعزعة الوجود الصليبي على الساحل الذي التزم الحياد إبان الصراع الإسلامي المغولي . إذ أن جيش المغول كان يسير في ركابه أعداد ضخمة من المسيحيين الشرقيين من الارمن وغيرهم الذين كانوا يدينون بالتبعية الكاملة للكنيسة الشرقية ، بينما كان هؤلاء الصليبيون الغربيون حريصين كل الحرص على أن تبقى الهيمنة في كنائس بيت المقدس[2] ـ التي يؤمها كثير من الحجاج ـ للكنيسة الغربية في

---

(١) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٥ ، ص ٤٢٦ ، ونابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ ، وغزة : مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبينها عسقلان فرسخان أو أقل ، وبيت جبرين أو بيت جبريل : بليدة بين بيت المقدس وغزة ، والخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم ، فيه قبر الخليل ابراهيم عليه السلام ، والصلت : بلدة لطيفة من جند الأردن ، وبعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وبانياس : بليدة صغيرة قريبة من جبل لبنان ، وتعد من أعمال دمشق (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

Iest range, Plastine under The Moslems. P 416.

(٢) كانت كنيسة القيامة أشهر الكنائس المسيحية في بيت المقدس ، بنتها الملكة هيلانه أم الأمبراطور قسطنطين عاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومؤسس مدينة القسطنطينية وكان الفراغ من بناء هذه الكنيسة سنة ٣٣٥ م ومن ذلك التاريخ هي الكنيسة التي يحج إليها المسيحيون من كافة أصقاع الأرض (انظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٢ ، حاشية المحقق رقم (١)) .

روما . خاصة إذا علمنا أنه كان على هولاكو بعد أن تتسلمها جيوشه أن يسلمها إلى حليفه هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى[1] .

ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ما جرى من كبس المغول لنابلس رحل من غزة إلى العريش ، وسير القاضي برهان الدين الناصر ، والملك المنصور[2] صاحب حماه ، ومعهما العسكر إلى قطية ، وهنا خاف الملك الناصر أن يدخل مصر فيقضي عليه الملك المظفر قطز ، فآثر البقاء بقطية ومعه جماعة يسيرة من اتباعه . وفارقه الملك المنصور صاحب حماه ومعه العسكر إلى مصر ، حيث التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية ، فأحسن استقبالهم وطيب قلوبهم ، وأهدى للملك المنصور « سنجقاً » ودخل معه القاهرة[3] .

أما الملك الناصر الذي يبدو أنه قصد بإرسال الملك المنصور إلى مصر جس نبض المظفر قطز لمعرفة موقفه منه . فإنه لا يستبعد ان استجابة المظفر قطز للرسل التي وصلت إليه قبل ذلك من العريش « تسأله النصر على عدوهم ، واجتماع الأيدي للمدافعة »[4] ، فضلاً عن ترحيبه الكامل بالملك المنصور ومن معه من عسكر الشام . جعلت الملك الناصر الذي « استراب بأهل دمشق »[5] وظن أن ذلك مجرد استدراج له ، فرفض الدخول إلى مصر وسار هو وأخوه الظاهر ومعهما الملك الصالح بن الأشرف

---

(١) انظر مايلي ص ١٠١ .

(٢) هو الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين بن محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ملك حماه يوم السبت ثامن جمادي الأولى سنة ٦٤٢ هـ فكانت مدة مملكته بحماه إلى ان توفي في حادي عشر شوال سنة ٦٨٣ هـ (انظر ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٣ ، الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون ، ص ٢٩٨) .

(٣) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩١ ، وقطية : قرية في طريق مصر قرب الفرما (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٤) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ .

(٥) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ .

موسى بن شيركوه إلى التيه[1] . ثم ظفر به المغول وسلم نفسه لهم ، فمروا على دمشق في طريقهم الى بلاط هولاكو الذي احسن استقباله ورعى له مجيئه إليه وابقاه في خدمته[2] .

وهكذا غدت بلاد الشام ـ باستثناء الأجزاء الساحلية التي يسيطر عليها الصليبيون ـ ولاية مغولية ، ينفذ فيها قواد المغول أوامرهم . وحقق هولاكو بذلك الجزء الأول من المرحلة الثانية من وصية أخيه منكو خان التي كانت تقضي بالسيطرة على الشام ومصر . وبدأ القائد المغولي كيتوبوقا الذي استخلفه هولاكو على بلاد الشام بعد عودته إلى عاصمته مراغة ، يعد عدته لاتمام السيطرة على الجزء الثاني من هذه المرحلة وذلك بالاستعداد لمهاجمة الأراضي المصرية بهدف السيطرة عليها .

طبيعة الغزو المغولي وأهدافه :

جاءت سيطرة المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام ، إذ أنهم بادروا قبل كل شيء إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماه وبعلبك وبانياس وغيرها . وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل[3] .

وكان الخطر المغولي أشد هولاً لأن جموعهم كانت أكبر عدداً ، وحبهم للقتال وإراقة الدماء لا حد له ، وما أكثر ما عاثوا في الأرض يهدمون المدن ويزهقون الأرواح[4] . ويبدو أن السبب الذي دفع هؤلاء الغزاة إلى اتباع سياسة التدمير والنهب والتخريب هذه كونهم رعاة لا حضارة لهم .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ ، والتيه : صحراء سيناء وهي التي تاه فيها بنو اسرائيل اربعين سنة .

(٢) الذهبي ، دول الإسلام ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ ، الذي يجدر ذكره هنا أن هولاكو لم يبق على الملك الناصر يوسف حباً فيه ، وإنما لاستخدامه كورقة رابحة في حربه التي كان ينوي شنها ضد المماليك في مصر .

(٣) العريني ، المغول ، ص ٢٤٨ .

(٤) نقولا زيادة ، دمشق في عصر المماليك ، ص ٢٦ .

أما من الناحية المذهبية فالملاحظ أن المغول مالوا منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري ، ولعل وصية منكوخان لاخيه هولاكو التي نصت على استشارة هولاكو لزوجته دوقوز خاتون التي كانت مسيحية نسطورية خير دليل على ذلك . وقد أدى وجودها في ركاب زوجها هولاكو الى التفاف المسيحيين الشرقيين حول المغول ، إذ المعروف أن النساطرة ازداد عددهم في الجيش المغولي ووصلوا إلى حد قيادة الجيوش المغولية ، فكيتو بوقا كان من عنصر النايمان النساطرة ، وكان من الطبيعي أن يتآخى هؤلاء النساطرة مع الجماعات الأرمنية واليعاقبة وغيرهم التي تكاثر عددها في كبرى مدن الشام[1] .

وقد أدى هذا التلاحم إلى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في اقتحام مدن الشام ، فهولاكو عندما اقتحمت جيوشه مدينة حلب كان بصحبته ملك ارمينيه هيثوم الأول وصهره بوهيمند السادس أمير انطاكيه ، كما شهدت عاصمة الخلافة الأموية دمشق لأول مرة منذ ستة قرون ثلاثة أمراء مسيحيين هم كيتوبوقا وهيثوم وبوهيمند يشقون بمواكبهم شوارعها[2] . وهنا يصح أن نؤكد أن غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً صليبياً ، ولعل خير دليل على ذلك ما أكدته بعض المراجع من أن الخطة الخاصة بغزو بلاد الشام تقررت في اجتماع هام انعقد بين هولاكو وحليفه الأرمني هيثوم الأول وأن هولاكو طلب من حليفه الأرمني أن يلتقي به على رأس القوات الأرمنية عند الرها . حتى يذهب معه إلى بيت المقدس ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ، ويسلمها للمسيحيين[3] . هذا بالاضافة إلى ما ذكر من أن هولاكو عندما غزا بلاد الجزيرة قدم عليه جاثليق الأرمن ومنحه البركات . ولما كان هيثوم الأول ملك ارمينيه الصغرى في اتصاله مع المغول يتحدث باسمه واسم صهره بوهيمند السادس امير انطاكيه الصليبي فإن هذه الحملة قد اتخذت صفة حملة صليبية ارمنية مغولية[4] .

---

(١) العريني ، المغول ، ص ٢٤٨ ، والنساطرة نسبة إلى نسطور وكان بطريركاً بالقسطنطينية واليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرذعاني وكان راهبا بالقسطنطينية (عن مذهب هاتين الطائفتين المسيحيتين (انظر ابن حزم الظاهري ، الفصل في الملك والأهواء والنحل ، ج ١ ، ص ٤٩) .

(٢) العريني ، المغول ، ص ٢٤٨ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، العريني ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٢ .

(٤) العريني المرجع نفسه ، ص ٢٤٢ .

والواقع ان سقوط المدن الثلاث الكبرى ، بغداد وحلب ودمشق في أيدي المغول يعتبر من الكوارث الفاجعة التي هزت العالم الإسلامي في ذلك الوقت . وترتب على سقوط دمشق في أيدي المغول أن أعلن المسيحيون بها التمرد والشموخ ، ولم يخفوا فرحتهم بما حل بالمسلمين من نكبة ، ولم يخف القائد المغولي كيتوبوقا نفسه ما يكنه من الميل نحو هؤلاء المسيحيين وتردده إلى كنائسهم ، وذهب بعضهم إلى هولاكو ، واحضروا من عنده « فرماناً » ينص على الاعتناء بأمرهم ودخلوا به البلد وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الاسلام ، ورشوا الخمر على ثياب المسلمين ، وأبواب المساجد ، وألزموا المسلمين في حوانيتهم بالقيام للصليب ، ومن لم يفعل ذلك أهانوه وأقاموه غصباً . وطافوا وهم يحملون الصلبان ويدقون النواقيس في الشوارع إلى كنيسة مريم ، وقام بعضهم اثناء المسيرة بالقاء الخطب فبجل دين المسيح وانتقص دين الاسلام . وضجر المسلمون من ذلك ، وصعدوا مع قضاتهم وشهودهم إلى نائب هولاكو بالقلعة فلم يستجب لشكواهم واخرجهم من القلعة بالضرب والإهانة . وأخذت نائب هولاكو موجة من التقوى فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم ، فاشتدت ثائرة المسلمين للانتقام لمقدساتهم ، فقاموا باحراق كنيسة مريم ، وخربوا جزءا من كنيسة اليعاقبة[1] .

وأخيراً . . يمكن القول أن هذا التلاحم بين القوى المغولية والقوى المسيحية الشرقية ، الذي اثمر استيلائهم على بلاد الشام وتحطيم استحكاماتها ، ومن ثم التطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم . كان أحد العوامل التي دفعت المسلمين في الأراضي المصرية إلى تدارك الأمر واستنفار كامل قواهم ، ومن ثم اعلان حركة الجهاد الإسلامي المقدس ضد المغول وحلفائهم ، حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم في معركة عين جالوت .

---

(١) أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٥ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٠ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٩ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤٢ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٩١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ ، العريني ، المغول ، ص ٢٤٩ ، الصياد ، المغول ، ج ١ ، ص ٢٩٦ ، عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية ، ص ١٤٢ . وكنيسة مريم : كانت كنيسة عظيمة في جانب دمشق ظلت بأيدي النصارى منذ فتح المسلمين دمشق حتى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي قام بهدمها واضافتها إلى الجامع الذي بني بجوارها فلما ولي عهد عمر بن عبدالعزيز عوضهم عنها فعمروها عمارة عظيمة وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون في هذه السنة (انظر بن تغرى بردى ، **المصدر نفسه ، ص ٨١ ، حاشية** رقم ٣) .

الفصل الثاني

معركة عين جالوت

(رمضان ٦٥٨ هـ)

- مقدماتها .
- حوادثها .
- نتائجها .

(أ) طرد المغول من بلاد الشام

(ب) إحياء الخلافة العباسية في القاهرة

(جـ) انهيار بقايا الصليبيين في بلاد الشام

الفصـــل الثـاني

معركة عين جـالوت

(رمضـان ٦٥٨ هـ)

- مقدماتها .
- حوادثها .
- نتائجها .

(أ) طرد المغول من بلاد الشام

(ب) إحياء الخلافة العباسية في القاهرة

(جـ) انهيار بقايا الصليبيين في بلاد الشام

أولاً ـ مقدمات المعركة :

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم أن عم الرعب والخوف سائر أرجائها ، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية . وقد انغرس داخل نفوسهم نتيجة ماشاهدوه من الأهوال وبسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك ، أن الشيء الوحيد الذي سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية ، تترجم نواياهم تلك ، بإنهاء خلافاتهم وتوحيد كلمتهم ، وإعادة تنظيم جموعهم ، ومن ثم بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم لدرء ذلك العدوان الذي استشرى خطره وبات يهدد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك .

والواقع أن مصر في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبيء بظهور قوة جديدة ، فنحن نعلم أن السلطان المظفر سيف الدين قطز اعتلى عرش الدولة المملوكية الفتية بمشورة من كبار الأمراء في الأراضي المصرية . الذين أجمعوا على أن الملك المنصور على بن المعز ايبك[١] الذي كان صغير السن ضعيف الشخصية ، لم يكن لديه من الطاقة والقدرة مايستطيع به مواجهة الأخطار والتحديات التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر ، لذا قرروا عزل السلطان الصغير ، وتعيين شخص عالي الهمة نافذ الشخصية هو الملك المظفر قطز ، ليتولى تسيير دفة الأمور في الدولة المملوكية ، وينقذها من ذلك الخطر ، فخُلِع الملك المنصور من السلطنة وتُوج الملك المظفر ، واستقر له الأمر ، وأقسم له الأمراء يمين الولاء والتبعية ، وذلك يوم السبت السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٦٥٧ هـ / نوفمبر ١٢٥٩ م[٢] . كما اقنع السلطان المظفر قطز خصومه من أمراء المماليك

---

(١) أيبك بفتح الهمزة وسكون الياء وتفخيمها ، لفظ تركي مركب من كلمتين « أي » معناه القمر ، و« بك » بمعنى أمير والمعنى « أمير قمر » (انظر ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٦ حاشية) .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٧ هـ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٠ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية ، ج ٨ ، ص ٣٩ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠١ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام . وعلى رأسهم بيبرس البندقداري ، بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لوائه متناسين ما بينهم من الخلافات . بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول[1] ، والأهم من ذلك أن جموع المسلمين التي تعرضت لويلات الغزو المغولي المدمر إبتداء من الدولة الخوارزمية ، ومرورا بالخلافة العباسية في بغداد ثم الأمراء الايوبيين في شمال العراق وبلاد الشام . قد تجمع أعداد كبيرة منها بالأراضي المصرية ومعهم كبار أمرائهم ، حيث استقبلهم السلطان قطز احسن استقبال وطيب خاطرهم وعطف عليهم ، ومنحهم العطايا والأموال فاستقروا بالأراضي المصرية واصبحوا يكونون جزءا هاما من جيشه[2] .

ومن هذا يمكننا أن نخلص إلى حقيقة هامة ، وهي أن فلول الممالك الإسلامية في الشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي ، اضحوا على يقين تام بأن دولة المماليك الفتية في مصر هي الدولة الوحيدة القادرة على حمل لواء الجهاد للنهوض بالعالم الإسلامي وانتشاله من وهدته العميقة ، وذلك لتوفر العنصر البشري ، فضلاً عن مواردها الطبيعية الضخمة ، وابتعاد من بها من الحكام عن الأثره وحب الذات . ولعل خير دليل على ذلك ما ذكره المؤرخ رشيد الدين من أن جموع الخوارزمية الفاره من وجه المغول اتجهت في بداية الأمر إلى بلاد الشام ، وحينما عزم هولاكو على المسير إلى بلاد الشام « تواروا في شتى الأطراف » ولكنهم عادوا فتجمعوا بعد عودته إلى عاصمته مراغه ـ تاركاً الأمر في بلاد الشام لقائده كيتوبوقا ـ واتجهوا إلى السلطان المظفر قطز في القاهرة ، وشرحوا له قصتهم فرحب بهم[3] . هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من مسير الملك المنصور صاحب حماه بعد وصول قوات المغول إلى نابلس ، ومعه جموع كثيرة من عساكر الشام التي فضلت على ما يبدو ـ مرافقة الملك المنصور في الوقت الذي امتنع فيه الملك الناصر يوسف عن الدخول إلى مصر (القاهرة) لمقابلة المظفر قطز إلى أن ظفر به المغول وحملوه إلى هولاكو[4] .

---

(١) راجع ما سبق ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ابن طولون الصالحي ، أعلام الورى ، ص ٣ ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، لوحة ٢٤٢ ، ٢٤٥ .

(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٤) راجع ماسبق في الفصل الأول .

والواقع أن الملك المظفر قطز بات هو الآخر يدرك ادراكاً تاماً أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتياز ذلك الامتحان الصعب المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره ، وأن يثبت أنه بحق أهل للثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد اجماعهم على عزل الملك المنصور على بن المعز ايبك وتنصيبه سلطاناً على دولة المماليك .

والحقيقة فقد كانت تواجه الملك المظفر معضلة في سبيل تجميع القوى الإسلامية ، وحثها على رفع راية الجهاد الإسلامي والتصدي للعدوان المغولي ، تلك المعضلة هي افتقار الشرق الإسلامي آنذاك إلى الخلافة الشرعية بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، اذ لو كانت الخلافة قائمة لكان من السهل على الملك المظفر قطز الاتصال بها ، والحصول على تقليد من الخليفة يخوله تزعم ما تبقى من الشرق الإسلامي ويُسْبغ على دولته الفتية صفة الشرعية الكاملة . وهنا لا يخفى ما كان للسلطة الروحية الممثلة في الخلافة من دور ايجابي في استثارة حماس المسلمين وحثهم على التوانـ إلى ميادين الشرف والبطولة والانضواء تحت لواء القادة العظام للدفاع عن دينهم ومقدساتهم وممتلكاتهم .

وبناء عليه فإنه كان على السلطان المظفر قطز أن يراعي ذلك النقص المتمثل في شغور منصب الخلافة في الشرق الإسلامي آنذاك ، وأن يتولى بنفسه وبأساليب مختلفة حشد أكبر عدد من عساكر المسلمين عنده لانقاذ دولته ، وما تبقى من العالم الإسلامي من خطر المغول المدمر . وهنا تذكر المصادر التي بين أيدينا أنه لجأ إلى أساليب عدة دلت على رجاحة عقله ، وأثبت معها بالفعل أنه الرجل المناسب في المكان المناسب . فبالاضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من استقباله لجموع الخوارزمية وعسكر بلاد الشام الفارين من وجه المغول ، فقد أمر داعي الجهاد بالنداء في كافة الديار المصرية وأعلن النفير العام إلى الجهاد في سبيل الله « وأرسل خلف عربان الشرقية والغربية » فاجتمع عنده من عساكر مصر أربعين ألفاً[١] .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ .

كما قام المظفر قطز في الوقت نفسه بالاتصال بالأمراء الايوبيين في بلاد الشام الذين انضووا تحت لواء المغول ، طالباً منهم التخلي عن تبعيتهم للمغول الذين زعزعوا كيان المسلمين . وفي هذا الشأن يذكر اليونيني صاحب ذيل مرآة الزمان أن الملك المظفر قطز لما عزم على لقاء المغول ، كتب إلى الأشرف موسى صاحب حمص كتابه يسفه رأيه على ما أعتمده من ميله إلى المغول وانحيازه إليهم . وتفضيلهم على المسلمين ، ويعده أنه متى ترك المغول ومال إليه « بشرط أن لا يقاتل معهم إذا كان بينه وبينهم مصافاً » أبقى عليه ما في يده من البلاد ، فأجابه الأشرف إلى ذلك[1] .

ولا يستبعد أن يكون الملك المظفر أراد قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام ، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذياً لهم ، لتخوفه من انضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب . وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبيين السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وبشراء ما تحتاجه من المؤن . واجتمع البارونات الصليبيون في عكا للتشاور في هذا الطلب . والواقع أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعد أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها ، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية ، على حين ان الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية والفوها . بل أن معظمهم كانوا يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين ظفروا بعطف المغول . ونتيجة لذلك ابدوا أول الأمر استعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز ، غير أن مقدم طائفة الرهبان التيتون ، أنو سانجرهاوسن Anno of Aangerhousen أنذرهم أنه متى انتصر المسلمون على المغول ، لم يأمنوا جانبهم . على أن السلطان قطز ، سارع فتلافى ذلك الخلاف بينهم ، فشكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة ، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه[2] . والواقع أن مصالح الرهبان تحكمت في سياسة الفرنج ، فالمعروف أنه كان لطائفة التيتون أملاك

---

(١) يبدو أن الملك المظفر لم يطلب من الملك الأشرف الانضمام إلى القوات المصرية في ذلك الوقت واكتفى بطلب التزامه الصمت بعدم مشاركة المغول هجومهم على الأراضي لخوفه عليه منهم ويؤيد ذلك ما ذكره المصدر نفسه من أن كيتوبوقا عندما طلب من الأشرف المسير معه إلى قتال المماليك « اعتذر وتمارض » انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٣٠ .

كثيرة في مملكة ارمينية الصغرى ، وأن مقدمهم كان على ما يبدو يقدر سياسة هيثوم الأول ملك مملكة ارمينية الصغرى[1] ، وكيفما كان الأمر فالذي يهمنا هو أن استجابة الأمراء الصليبيين لطلب السلطان قطز بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم جعلته في مأمن من ذلك الجانب ، وجنبته خطر اشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة .

وبعد أن تمكن السلطان المظفر قطز من حشد تلك الأعداد الوافرة من القوات الإسلامية ، وأمن جانبه من ناحية الصليبيين ، كان عليه أن يشرع في جمع الأموال اللازمة لتجهيز تلك القوات بما يلزمها من العدة والعتاد ، وهنا اتبع المظفر طريقة هادفة لجباية هذه الأموال من المسلمين ، قائمة على أساس تحكيم الشريعة الإسلامية لكي لا ينزعج المسلمون من ذلك العمل ، خاصة إذا علمنا بأن دولة المماليك لا زالت دولة حديثة ، تواجهها معارضة أيوبية ، فحرص المظفر وكبار رجاله على استدعاء شيخ الإسلام العز بن عبد السلام[2] ، وأخذ رأيه في جمع الأموال اللازمة من المسلمين لتجهيز الجيش المملوكي ، الخارج لصد العدوان المغولي ، فأصدر الشيخ فتوى مفادها أنه إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس الخروج لقتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار ، وأغنياء الناس ، ما يستعين به على تجهيز العساكر لدفع العدو . بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة والسيوف المحلاة

---

(١) انظر العريني ، المغول ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) العز بن عبد السلام : هو عز الدين عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد أئمة الأعلام ، سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها ، ولد سنة ٥٧٧ هـ ، وصنف الكثير من الكتب في الشريعة وعلومها ، توفي سنة ٦٦٠ هـ (انظر ترجمته مفصلة في السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٠٩ ـ ٢٥٥) وانظر ايضاً ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١ ، ص ٣٢٣ حاشية ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ١٧٢ ، الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، عبد القدوس الأنصاري ، بنو سليم ، ص ٣٣٩ ، ٣٤١ ، عبدالله الوهيبي ، العز بن عبد السلام ، على عوده الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٧ ، عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين ، ج ٥ ، ص ٢٤٩ .

بالذهب ، وأن يتساوى العامة مع غيرهم سوى آلات الحرب ، ويقتصر الجندي على فرسه ورمحه وسيفه . وأما أخذ الأموال من العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات فلا[1] .

وإلى جانب ذلك فإن هذا التصرف يوحي بأن السلطان المظفر قطز قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن استشارته للعز بن عبد السلام كان بمثابة دفعة معنوية قوية شحذت همم الناس للجهاد وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله . اذ يمكن القول أن تلك الفتوى التي أصدرها العز بن عبد السلام - في ذلك الوقت الذي كان الشرق الإسلامي بلا خلافة شرعية - أدت الدور نفسه الذي كانت الخلافة ستؤديه فيما لو كانت قائمة . إذ كانت فتواه تلك بمثابة سلطة روحية ساعدت الملك المظفر في الحصول على استجابة عامة المسلمين بدفع ما قرر عليهم من أموال ، مستشعرين بأن ذلك واجب يفرضه عليهم دينهم الحنيف . وفي هذا الشأن يذكر ابن اياس ان قطز « قرر على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً ، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأخذ من التِرَك الأهلية ثلث المال ، وأخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد » وبلغ جملة ما جمعه من الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار[2] .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٠ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢١٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، والترك الأهلية التي أوردها ابن اياس بكسر التاء وفتح الراء ، يبدو أن المقصود بها تركات الأهالي ، أي تركات المتوفين ، أما ما ذكره كل من محمد مصطفى زياده في المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ ، حاشية رقم (٥) وأحمد مختار العبادي في كتابه قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٦٠ ، حاشية رقم (٣) من ان المقصود بالترك الأهلية هنا عناصر الترك المقيمة بمصر منذ زمن طويل (Turcs domiciles) فإن ذلك كان على ما يبدو - بسبب اعتمادهما على طبعة متقدمة للمصدر نفسه ، هي طبعة بولاق سنة ١٣١١ - ١٣١٢ هـ وان اللفظ ورد بها من غير ضبط .

علماً بأن قطز لم يشرع في جمع الأموال من المصريين إلا بعد أن نفذ فتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بأن احضر هو والأمراء ما عندهم من حلي وأموال ووضعها بين يدي الشيخ[1] .

وعليه يمكن القول أن السلطان المظفر قطز استطاع أن يتغلب على كل الصعاب التي واجهت دولة المماليك الفتية المسلمة والمتمثلة في شغور منصب الخلافة الذي أدى إلى افتقار دولته إلى صفة الشرعية الكاملة ، فضلاً عن العداء المتأصل ضد دولته من جانب أمراء البيت الأيوبي ، الذي كان أمراؤه بالرغم من انهزامهم أمام المغول يعتبرون المماليك مغتصبين لأملاكهم بالأراضي المصرية ، إذ المعروف أن الملك الناصر يوسف الذي كان حتى ذلك الوقت معتقلاً لدى المغول ، لا زال يطمع في ملك مصر والشام التي وعده بها هولاكو ، إذا تمكن من السيطرة على الأراضي المصرية . هذا بالإضافة إلى ما حل بالجموع الإسلامية الهاربة إلى الأراضي المصرية من وجه المغول من الخوف والفزع ، بسبب ما شاهدوه من الأهوال ، وما نزل بمدنهم من الخراب والدمار ، والتي تمكن السلطان المظفر بفضل ما يملكه من براعة في ميادين السياسة والحرب من النجاح في إعادة الثقة والعزم إلى نفوسها ، وأحيا في هذه الجموع المسلمة روح الجهاد الإسلامي المقدس وكوّن منها جيشاً وفير العدد كامل العدة ضمن له ـ بعد اتصاله بالصليبيين وتحليفهم على التزام مبدأ الحياد ـ القتال في جبهة واحدة .

أما بالنسبة للمغول ، فإنه يمكن القول أنهم إذا كانوا قد أفادوا من الأحوال السيئة التي أحاطت ببلاد فارس والشام وآسيا الصغرى ومصر ، فضلاً عن الحروب الداخلية التي نشبت بين الإمارات الصليبية ، وتحقق لهم بفضل ذلك ما أرادوا من تدمير قلاع الاسماعيلية ، والقضاء على الخلافة العباسية في بغداد ، وفرض سلطانهم على اقليم الجزيرة واذربيجان حتى جبال القوقاز ، ثم لم يجدوا في الأمراء الأيوبيين من المقاومة ما يردهم عن المضي في سياستهم التوسعية حتى سيطروا على بلاد الشام واضحوا يهددون

---

(١) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٨٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ .

ممتلكات المماليك في الأراضي المصرية[1] . فإن أمرهم ما لبث أن تبدل بعد أن ترك هولاكو قيادة هذه الجيوش ، وعاد ادراجه إلى عاصمته مراغه ، بعد أن وصلته الأخبار بوفاة أخيه الأكبر منكوخان سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٩ م . وتنازع أخويه الآخرين « قوبيلاي » و « اريق بوقا » على ولاية عرش المغول ، إذ وجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى مقره الرئيسي مدينه مراغه ليكون قريباً من مجرى الحوادث في منغوليا ، ليسهل عليه التحرك إلى منغوليا إذا دعته الحاجة إلى ذلك . وبالرغم من أن هولاكو هو الأبن الرابع لتولوي خان من حقه أن ينافس أخويه في تولي ذلك المنصب ، غير أنه لم يولي ذلك المنصب اهتماماً . ولعل ذلك راجع إلى ما تهيأ له من النجاح والظفر في ايران والعراق والشام[2] ، فضلاً عن خوفه من ازدياد هوة الخلاف وتعقيد الأمور . ولكنه في الوقت نفسه كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي العرش من أخيه الآخر اريق بوقا ، وحرص على أن يحضر الانتخابات ليزكي ترشيح أخاه قوبيلاي خانا اعظما للمغول[3] .

ومن ناحية أخرى لا ننسى ما كان من ازدياد العلاقات سوءا بين هولاكو ، وابناء عمومته خانات القبيلة الذهبية (القبجاق)[4] ، الذين باتوا يهددون ممتلكاته ، إذ أن بركه خان زعيم القبيلة الذهبية كان يميل إلى المسلمين في الوقت الذي كان هولاكو وحاشيته يعملون جاهدين على ارضاء المسيحيين واستمالتهم إليهم ، وتطور الأمر ببركه أن اعتنق الدين الإسلامي ، وتعرض هولاكو للتقريع والتأنيب من قبله ، وصار بركه يتهدده بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح ضحيتها ألوف من المسلمين ، وما أنزل بهم من دمار وخراب ، فضلاً عما تعرض له الخليفة العباسي من الهوان ، وتجرئه

---

(١) العريني ، المغول ، ص ٢٥٣ .

(٢) الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر ، العريني ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، الصياد ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٨ ، عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ١٤٤ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ٤٦ .

(٤) القبجاق : فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض نهر ارتش ، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر ارتل (الفلجا) في جنوبي روسيا الحالية ، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق ، كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماه القبيلة الذهبية (انظر القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٦٣) .

على قتله[1] . لذلك كثيراً ما وقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما ، بل ذهب بركه خان إلى ما هو أبعد من ذلك ، حيث قام باضطهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق وذلك رداً على ماسلكه هولاكو من سياسة تعسفية تجاه المسلمين بقصد اذلالهم . ويبدو أن هولاكو أراد أن يضع حداً لتصرفات التهكم والانتقام التي مارسها بركه ضده ، فحاول أن يفرض سلطانه على الجانب الشمالي لجبال القوقاز ، ولكن بركه أعد لذلك الأمر عدته ، واستطاعت جيوشه أن تنزل بجيوش هولاكو هزيمة ساحقة[2] .

ويبدو لنا أن عودة هولاكو إلى بلاد فارس لم تقتصر على هذين السببين ، بل يمكن القول أن هناك أسباباً أخرى تضافرت معهما فأجبرته على العودة ، منها أن هولاكو الذي بات محاذيا لممتلكات الصليبيين على الساحل الشامي وكان يطمح إلى تحالفهم معه ضد المسلمين أدرك أنه لا جدوى من قيام ذلك الحلف لكونه وثنياً يدين بالديانة البوذية ، وعليه فإنه لا يستبعد أنه فكر في طريقة أخرى ملتوية يستميل بها هؤلاء الصليبيين إلى صفه ، فوجد أن الطريق لضمان ذلك هو جعل صراعه ضد المسلمين صراعاً مسيحياً بحتاً ، علّه بذلك يكسب عطف المتحمسين للدين المسيحي من الصليبيين الغربيين ،

---

(١) توجد أقوال كثيرة عن أسباب العداوة بين هولاكو وابن عمه بركه منها : ما ذكر بالمتن من أن بركه لم يرض بما فعله هولاكو بالمسلمين عند اقتحام بغداد وقتله الخليفة المستعصم ، ومنها أن تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يرق في عين بركه ، ولا سيما بعد ادماج بلاد أران واذربيجان داخل حدودها مع أنهما كانتا من نصيب أرش والد بركه حسب وصية جنكيزخان ، والقول الثالث أن العداوة بينهما نشأت بسبب عدم مظاهرة بركه خان للخان الاعظم قوبيلاي ، ومناصرته لأخ صغير له اسمه اريقا بوقا ، اذ من المعروف أن بركه اعترف بهذا الأخ الصغير خاناً أعظما للمغول ، ورأي رابع يرى أن سبب ذلك هو أن هولاكو كان منذ صار بركه ملكاً على المغول القبجاق ، قد منع عن ذلك الفرع المغولي نصيبه من مغانم الحروب (لمزيد من التفصيل انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، حاشية رقم ٥ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٦٢) ، ومما يضاف إلى ذلك ما ذكره البازي العريني في كتابه المغول ، ص ٢٢٢ حاشية ، من أنه في حديث لهولاكو مع جماعة من رجال الدين من الأرمن والكرج سنة ١٢٦٤ م ، أشار إلى أن عواطفه وميوله نحو المسيحية ، أقامت فجوة عميقة بينه وبين بني عمومته من الخانات في جنوب روسيا وتركستان (خانيتي القبجاق ، وجغتاي) نظراً لميلهم نحو المسلمين .

(٢) انظر ما يلي ص ١٥٧ .

فيتناسون ما بينهم من خلافات مذهبية مع المسيحيين الشرقيين ، ويوحدون صفوفهم لمحاربة المسلمين . ولعل اختيار هولاكو لقائده كيتوبوقا الذين كان يدين بالمسيحية ليخلفه على بلاد الشام ، وتفضيله على غيره من أمراء المغول الكبار الذين كانوا يسيرون في ركابه ولهم اليد الطولى في تدمير قلاع الاسماعيلية واقتحام بغداد ، ومدن اقليم الجزيرة والشام ، خير دليل على ذلك . كما يمكن أن نضيف إلى ذلك أن هولاكو أدرك أن تدهور الوضع في منغوليا وتطوره سيؤدي إلى خلاف حول ولاية العرش داخل قراقورم ، سينعكس على القوات التي تعمل تحت يده مما قد يعرض هولاكو لخسارة جسيمة أمام المماليك المسلمين في مصر . الأمر الذي يفقده مكانته العالية بين المغول بعد تلك الانتصارات العظيمة التي حققها ضد المسلمين ابتداء من إيران حتى بلاد الشام ، لذا فضل العودة إلى المشرق وترك الأمر لغيره هناك لكي يكسب إحدى الحسنيين ، اما النصر على المماليك فيزيد ذلك من رصيده بحكم أن هذه القوات تعمل باسمه ، أو الاحتفاظ في حالة الخسارة بمكانته تلك ، لكونه بعيداً عن مسرح الحوادث .

ومهما يكن من أمر ، فبالرغم من أنه يمكن القول أن هذه الأسباب الأربعة قد تضافرت جميعها في دفع هولاكو للعودة إلى عاصمته بالمشرق ، فإن الذي يهمنا قوله هو أن ذلك الحدث المفاجيء كان تحولاً خطيراً ، غير مجرى سياسة المغول التوسعية التي كانت تتم على حساب العالم الإسلامي . إذ المعروف أن هولاكو لم يعد إلى فارس بمفرده ، بل عاد ومعه جموع من عساكره[1] . ولعل ذلك كان لتبرير فراره ، بأنه يريد مواجهة تفاقم تهديد خانات القبيلة الذهبية (القبجاق) له . كما أن خطة هولاكو التي قضت بأن يخلفه على بلاد الشام القائد كيتوبوقا المسيحي ، لصبغ ذلك الصراع - على مايبدو - بالصبغة المسيحية ، لم ينجح في استمالة الجموع الصليبية في ساحل بلاد الشام إليهم لتكوين حلف صليبي مغولي ضد المسلمين ، ذلك أن بارونات عكا ظلوا ينظرون إلى المغول على أنهم برابرة لا يمكن الاطمئنان إليهم ، كما أنهم في الوقت نفسه كانوا يدركون بأن المغول لن يسمحوا لهم بإقامة إمارة صليبية مستقلة ، وإنما يريدونهم تابعين للخان الكبير . لذا فإن هؤلاء الصليبيين كانوا يؤثرون المسلمين ويفضلونهم على هذا

---

(١) انظر الغريني ، المغول ، ص ٢٥٧ .

العنصر الغريب الهمجي المتغطرس القادم من الصحاري النائية ، والذي كان سجله في شرق أوربا داعياً للنفور[١] ، وقد تطور هذا النفور وعدم الارتياح إلى قيام أحد البارونات ، يسمى الكونت جوليان الصيداوي (Julien de Sidon) بمهاجمة دورية مغولية وقتل ابن اخي كيتوبوقا ، فسخط المغول ، وعزموا على الانتقام ، فهاجموا مدينة صيدا وأنزلوا بها خسائر جسيمة . فكان هذا العمل إيذاناً بقطع كل الآمال في قيام حلف صليبي مغولي[٢] .

وفي ظل هذا التنافر الذي نمّ عن خيبة أمل مغولية ، بعد فشلهم في استمالة الصليبيين الغربيين إلى صفوفهم ، لمساعدتهم في التغلب على دولة المماليك المسلمين في مصر ، كان الملك المظفر قطز قد نجح قبل الاصطدام بهم في خلق جو من التجانس والوئام بين عناصر جيشه المختلفة ، وغرس في نفوس رجاله روحاً جهادية خالصة لمواجهة العدوان المغولي المرتقب على دولتهم والذين لم يكن يخفى عليهم ما أحدثه المغول من صنوف الدمار والخراب والهلاك في بلاد الشام . ويؤيد هذا قول رنسيمان « من سوء حظ المغول ، ان توغلهم في فلسطين آثار دولة إسلامية كبيرة لم تتعرض للهزيمة ، وهي دولة المماليك في مصر إذ اضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة ما يجعلهم يقبلون تحدي المغول »[٣] .

لم يعد أمام المظفر قطز بعد اتمام تلك الاستعدادات سوى اختيار مكان وزمان المعركة التي كان ينوي منازلة المغول فيها ، وهنا تبدو لنا استراتيجية جديدة اتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة ، ذلك أنه إذا كان حكام المسلمين ابتداء من الدولة الخوارزمية حتى ارض فلسطين قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم انتظاراً لهجوم المغول عليهم ومحاولة صده فقط ، فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية ورأى أن من الأفضل منازلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية واختار لذلك النزال مكاناً مناسباً خارج دولته هو منطقة عين جالوت بأرض فلسطين ، الذي يمتاز بقربه من المناطق

---

(١) انظر ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥١٣ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٢) الصياد ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٣٢ .

الساحلية التي كان يسيطر عليها الصليبيون ، الذي ابدوا استعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه . هذا بالإضافة إلى كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة يعلوها جبل[١] . الأمر الذي سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف ، ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفة يكون القتال في منطقة منبسطة ، وفي حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعداً للرماه لآداء واجبهم على الوجه الأكمل ، كما أن اختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول ، يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة منهم إلى مصر والتي انضمت إلى جيش المماليك ، للاستبسال والتفاني في الجهاد طمعاً في العودة مرة أخرى إلى بلادها ، خاصة وأن هناك أمراء ايوبيين في ركاب هذه الجيوش ، كان الملك المظفر قطز قد وعدهم باعادتهم إلى اماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام ، كما اختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر اغسطس الذي تكون فيه الحرارة مرتفعة ، للتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحاري منغوليا الباردة[٢] ، للتقليل من نشاطهم القتالي لكونهم لم يعتادوا على المناخ الحار الذي عادة ما يسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت .

حـــوادث المعـــــركة :

في الوقت الذي انصرف فيه هولاكو من بلاد الشام ، كان قد أرسل رسله إلى سلطان مصر برسالة كلها تهديد ووعيد قال فيها « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان

---

(١) انظر ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٦٤ .

(٢) يعد مناخ هضبة منغوليا من أشد مناطق العالم برودة ، إذ هي الغالبة في معظم أيام السنة . بسبب طول فصل الشتاء ، فالماء يتجمد في المنخفضات في شهر مايو من كل عام ، ويمكن أن يرى الجليد على أواني الشرب في شهر اغسطس ، أما الصيف فلا يكاد يبدأ حتى ينتهي ، وتصل درجة الحرارة في فصل الشتاء في بعض الجهات إلى ٥٨ درجة تحت الصفر (انظر عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ١٢) .

الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم يتنعمون بانعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال إنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا

مزدجر ، فاتعظوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرفق لمن شكى ، قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم ، وأي البلاد تحميكم ، فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا

صواعق / وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عن الكلام ، وختنتم العهود والإيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذلة والهوان . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ،

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا اطعتم ، فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خلفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم ان نحن

الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الاهنة ما لملوككم عندنا سبيل ، فلا تطيلوا الخطاب ، واسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم

الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزّاً . ولا كافياً ولا حرازاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد انصفناكم إذ راسلناكم ، وايقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هلاون قد أتى بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر[1]

ولما تسلم قطز هذه الرسالة ، أحضر الأمراء واستشارهم في الأمر وقال « لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء إلى دمشق ، ولو لم يبلغه نعي أخيه ، لألحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا نويان الذي هو كالأسد الهصور ، والتنين القوي في الكمين وإذا قصد مصر ، فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته ، فيجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة »[2] .

ويبدو أن كلام قطز هذا قد ولَّد الخوف والفزع لدى بعض أمرائه فأبدوا تحفظاً في مواجهة المغول ، ورد أحدهم على قطز قائلاً « إن هولاكو خان فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان وابن تولوي وأخو منكوقان ، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان ، وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن ، وقد اختص بالتأييد السماوي . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان ، فليس في ذلك عيب ولا عار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . إنه ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس وهو لا يفي بعهده

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، أما رشيدالدين فقد أورد هذه الرسالة في صفة مغايرة ، حيث ذكر أن هولاكو أرسل رسولا مغولياً وبصحبته أربعون من الاتباع إلى سلطان مصر يقول « إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيز خان واسرته ومنحنا ممالك الأرض برمتها وكل من يتمرد علينا ، ويعصى أمرنا يقضي عليه مع نسائه وابنائه وأقاربه والمتصلين به ، وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك اسماع الجميع ، أما صيت جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار ، فإذا كان مطيعاً كخدم حضرتنا ، فأرسل إلينا الجزية وأقدم بنفسك ، واطلب الشحنة ، وإلا فكن مستعداً للقتال » انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ١ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

(٢) رشيد الدين ، المرجع نفسه ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١١ .

وميثاقه ، فإنه قتل خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه ، وصاحب اربل بعد أن اعطاهم العهد والميثاق ، فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل »[1] .

وأمام هذا الرأي تجلّت لنا حكمة السلطان قطز وحنكته السياسية ، فلم يشأ أن يعارض هذا الرأي منذ البداية ، رغم عدم اقتناعه به ، بل آثر زيادة التشاور مع جمع آخر من امرائه تلافياً لوقوع الخلاف بينهم وتفرق كلمتهم ، فدار بينه وبينهم حوار بدأه السلطان قطز رداً على المقولة السابقة بقوله « والحال هذه فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأزواج والأبقار والبذور . فلو أننا تقدمنا لقتالهم ، وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفراً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة » . فأجابه أحد الأمراء بقوله : « وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم » ، وهنا أثمر ذلك الحوار إجماع بقية الأمراء على تفويض الأمر إلى المظفر قطز حيث قالوا له « ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك » فسارع قطز بإعلان الجهاد ضد المغول ، وقال لمن حوله « إن الرأي عندي أن نتوجه جميعاً إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق »[2] .

وفي هذه الأثناء أراد المظفر أن يقطع كل مجال للتردد في الخروج لمواجهة المغول ، فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دين رسول الله ﷺ وطالب الولاة « بإزعاج الأجناد للخروج للسفر

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١١ ، ٣١٢ ، انظر ايضاً محمد ماهر حماده ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، وخورشاه : زعيم الإسماعيلية ، أما حسام الدين عكه ، فيبدو أن المقصود به هو المنجم الذي رافق جيش هولاكو وحذره من أن اعتدائه على بغداد سيجر عليه كثير من المصائب .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع » ، وسار بنفسه حتى نزل الصالحية ، حيث تكامل عنده وصول العساكر المصرية ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم وذلك في يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨ هـ / يوليه ١٢٦٠ م[١] . وفي هذه المنطقة طلب قطز الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم في المسير لقتال المغول ـ وهنا يبدو أن بعض هؤلاء الأمراء عاودهم الخوف من مواجهة المغول ، وامتنعوا عن الخروج ، الأمر الذي أثار حماسة السلطان المظفر قطز فقال لهم « ياأمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين[٢] .

وأمام هذا التصميم الذي أبداه قطز لمواجهة المغول ، والذي أعقبه تحليف من وافقه من الأمراء على المسير ، ومن ثم إصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو مهما كانت الظروف حيث عبر عن ذلك بقوله « أنا ألقي التتار بنفسي » لم يسع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة ، وانقضى الجمع على الخروج صفاً واحداً لإنقاذ الأراضي المصرية من ويلات الغزو المغولي المدمر[٣] .

وكان أول اجراء قام به المظفر قطز ضد المغول هو استدعاء رسل هولاكو واستقبالهم استقبالاً جافاً إيذاناً بإعلان الحرب عليهم ، ومن ثم القبض عليهم وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب القاهرة وتعليق رؤوسهم على باب زويلة ، وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه ، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من المغول[٤] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٩ ، والصالحية : بلدة بناها الملك الصالح ايوب سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م في أول الرمل بين مصر والشام ، وأنشأ بها جامعاً وسوقاً لتكون قاعدة لجيوشه إذا خرجت إلى الشام (انظر المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٣) المقريزي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٩ .

(٤) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ ، عبد السلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

طلب قطز بعد ذلك الأمراء فاجتمعوا عنده ، وحثهم على قتال المغول وذكرهم بما وقع بأقاليم الإسلام من القتل والسبي والحريق ، وخوفهم من وقوع مثل ذلك ، ودعاهم إلى نصرة الإسلام والمسلمين ، واستنقاذ الشام من المغول ، وحذرهم عقوبة الله ، فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد[1] .

تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، الذي طلب منه المظفر قطز ، أن يتقدم عسكره ليتعرف أخبار المغول ، ويمهد الطريق للقوات الرئيسية الزاحفة نحو فلسطين . فسار بيبرس حتى نزل غزة في شعبان من سنة ٦٥٨ هـ / يوليه ١٢٦٠ م ولقى بها جمعاً من المغول بقيادة الأمير المغولي (بايدر) ، الذي كان قد بعث إلى كيتوبوقا بالقرب من بعلبك يخبره بتحرك الجيوش المصرية . ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس لم يستطع بايدر الصمود فيها أمام جيوش المسلمين ، فرحل عن غزة وملكها بيبرس منه بالقوة[2] .

وبهذا تعتبر معركة غزة هذه أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول . كما يمكن القول أن هذا الانتصار الذي تحقق للمسلمين فيها كان دافعاً قوياً لهم للتقدم إلى الشمال باتجاه عين جالوت للقاء المغول في موقع أفضل . خاصة وأن تلك الهزيمة التي مني بها جيش الأمير المغولي بايدر لم تقابل بأي اهتمام من القائد المغولي كيتوبوقا الذي بقي على جموده إلى أن وصلت الجيوش الإسلامية عين جالوت ، هذا بالإضافة إلى أن هذا الانتصار الذي حققه ركن الدين بيبرس في غزة لا يستبعد أن يكون أحد العوامل التي دفعت الصليبيين على الساحل إلى خطب ود المسلمين بتقديم العون والمساعدة لهم والسماح لجيوش المماليك بعبور أراضيهم إلى داخل فلسطين .

أو يبدو أن ذلك الانتصار قد ولّد مزيداً من الخوف والفزع لدى الصليبيين ، وقضى على آمالهم في ضرب المسلمين بالمغول لإنهاك كلا القوتين لضمان بقائهم في ساحل بلاد الشام . يؤيد هذا ما حدث من مسارعة المظفر قطز عقب هذه المعركة بارسال سفارة إلى عكا للتفاوض مع الصليبيين في ذلك الأمر ـ كما سبق أن أشرنا ـ كما أن هذا

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ .

(٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

العمل دلّ في الوقت نفسه على ما كان عليه المظفر قطز وقائده ركن الدين بيبرس من حنكة سياسية وبراعة حربية ، إذ أنهما قصدا بذلك العمل - على ما يبدو - الوصول إلى منطقة العمق في فلسطين ، ومن ثم قطع الاتصال بين القائد المغولي كيتوبوقا الذي كان في ذلك الوقت في بعلبك . وبين القوات المغولية التي كانت تعمل في أقصى جنوب فلسطين تحت أمرة الأمير بايدر .

والذي يجدر ذكره هنا . . أنه لا بد أن نتساءل لماذا رفض السلطان قطز تلك المساعدة التي عرضها الصليبيون عليه ؟ وللإجابة على هذا يمكن القول أن قطز كان حريصاً كل الحرص على صبغ حروبه ضد المغول والصليبيين معاً بصبغة إسلامية بحتة . كما أن هذا يوحي إلى أن قطز كان مصرّاً على دحر العدوان المغولي ، ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي ، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منّة عند مهاجمتهم .

قاد السلطان قطز جيشه على امتداد الساحل ، ثم توجه من عكا صوب الجنوب الشرقي ، فاجتاز الناصرة في طريقه إلى عين جالوت . وكان قد بعث الأمير ركن الدين على رأس فرقة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو وتحديد مكانه ، واشتبك بيبرس مع طلائع الجيش المغولي واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز بالجيش الرئيسي عند عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م ، حيث التقى الجمعان « وفي قلوب المسلمين وهمٌّ من التتر »[(١)]. وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلأ الوادي بالناس وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء إيذاناً ببدء الهجوم ولما حمي وطيس المعركة تحيز المغول إلى الجبل واقتتل الفريقان قتالاً شديداً لم ير مثله قبل ذلك حتى قتل من الطائفتين إعداد كثيرة وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة .

فحمل الملك المظفر بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها ، ثم اقتحم القتال وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً ، وهو يشجع اصحابه ويحسن

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ ، والناصرة : قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً ، فيها كان مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ومنها اشتق اسم النصارى (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

لهم الموت في سبيل الله ، ويكر بهم كرة بعد كرة ، ثم ألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته « واسلاماه » فحمل المسلمون على المغول حملة رجل واحد حتى نصر الله الإسلام وأهله وانكسر المغول وولوا الأدبار هاربين على أقبح وجه ، بعد أن قتل أعيانهم وأصيب قائدهم كيتوبوقا الذي ظل يحرضهم على الصمود في القتال حتى لقي مصرعه على يد أحد الأمراء المسلمين[١] .

وبمقتله انهارت الجموع المغولية وولت لا تلوي على شيء وهنا سارع المسلمون بالقبض على الملك السعيد حسن بن العزيز عماد الدين بن الملك العادل ، الذي كان معتقلاً بقلعة البيرة ، فلما ملكها المغول أطلقوا سراحه وأعطوه بانياس وقلعة الصبيبة وظل موالياً لهم وقاتل المسلمين قتالاً شديداً يوم المصاف في معركة عين جالوت . فلما مثل بين يدي السلطان قطز أمر بضرب عنقه[٢] .

تقهقر المغول بعد تلك الهزيمة ، ولاذ من سلم منهم برؤوس الجبال[٣] ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قرب بيسان ، حيث احتشد المغول « وصافوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول » فهاجمهم المسلمون واشتد القتال بين الطرفين ، فصرخ السلطان المظفر قطز صرخة عظيمة سمعه معظم العسكر وهو يقول « واسلاماه » ثلاث مرات « يا الله انصر عبدك قطز على التتار » فقويت عزائم المسلمين وحملوا على عدوهم حملة منكرة فهزموه هزيمة ثانية ، فنزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ، ثم ركب مرة ثانية وغنم المسلمون في هذه المعركة غنائم كثيرة[٤] . ويبدو أن هذه الهزيمة ليست الأخيرة للمغول في هذه الحملة ، حيث يذكر

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، انظر ايضاً بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٢٣ (مخطوط) ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٥ ، ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، الصفدي ، أمراء دمشق في الإسلام ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج ١٥ ، ص ١٨٣ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٧٩ ، والصبيبة : اسم لقلعة بانياس وهي من الحصون المنيعة ، (انظر ابو الفدا ،تقويم البلدان ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .
Lestrange, palestine under the moslems p. 419.

(٣) ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

المؤرخ ابن عبد الظاهر أن الأمير ركن الدين بيبرس لم يشغله ما قاساه من التعب في معركة عين جالوت بل ساق خلف المغول حتى أفامية فوجدهم قد تجمعوا بها ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعداداً لمواجهته ، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم أموالاً طائلة وخيولاً كثيرة[1] .

ورغم الهزيمة القاسية التي مُني بها المغول في هذه المعركة فإن أحد المؤرخين المسلمين وهو رشيدالدين فضل الله الهمذاني ، لم ينكر ما كان للقائد المغولي كيتوبوقا من صفات بطولية في هذه المعركة . فذكر أن هذا القائد عندما لاحت له بوادر الهزيمة أمام قطز ، أشار عليه جماعة من أتباعه بالهرب ، فلم يستمع لهم ورد عليهم قائلاً : « لا مفر من الموت هنا ، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان ، وسيصل رجل واحد ، صغيراً أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلاً : إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه . ينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحدا ، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور . فليدم اقبال الملك ، ما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة ، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود ، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والاتباع أمر سهل يسير »[2] .

كما يذكر رشيد الدين نفسه رأياً مخالفاً في كيفية قتل القائد المغولي كيتوبوقا ، حيث يشير إلى أنه وقع في بداية الأمر في الأسر ، ثم أحضره قطز إلى مجلسه مكبلاً ، ودار بينهما حوار بدأه قطز مخاطباً كيتوبوقا بقوله « أيها الرجل الناكث العهد ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة ، وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً في الشرك » وعندما سمع كيتوبوقا كلامه انتفض وهو مكبل اليدين كأنه الفيل الهائج ، فأجاب قائلاً « أيها الفخور المغتر لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا ، فأنا إذا قتلت على يدك فإني أعلم أن ذلك من الله

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٦٥ ، انظر ايضاً : عبدالعزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، وافاميه : مدينة حصينة من سواحل الشام وكوره من كور حمص (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

لا منك . فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة ، ولا بهذا الغرور العابر ، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو خان نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من آذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك .

إن لهولاكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض أنه نقص واحد منهم » فقال له قطز « لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران ، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة » .

فرد عليه كيتوبوقا « إني كنت عبداً للملك ما حييت ولست مثلك ماكراً وغادراً . . . . بادر بالقضاء عليّ بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك » فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده . ولما بلغ هولاكو خان نبأ نعي كيتوبوقا ، وعلم بحديثه في ذلك الموقف أسف أسفاً شديداً على وفاته ، واشتعلت نيران غضبه وقال « أين أجد خادماً آخر مثله يبدي مثل هذه النوايا الطيبة ، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه »(١) .

وبالرغم مما عرف به رشيد الدين من محاباة للمغول ، فانه لا يمكن ان ننكر ما كان عليه كيتوبوقا من مكانة عند المغول ، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره وكان بطلا شجاعا مقداما ، وخبيرا بالحروب وافتتاح الحصون ، وكان هولاكو يثق به ولا يخالفه فيما يشير به ، وبموته استراح الاسلام منه ، حيث كان شر عصابة على الاسلام واهله .(٢)

---

(١) انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٩١ ؛ العريني ، المغول ، ص٢٦١ .

نتـــائج المعركـــة :

غدا السلطان المظفر قطز ، عقب معركة عين جالوت سيد الموقف في بلاد الشام ، ففي يوم الاحد السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/سبتمبر ١٢٦٠م تقدم الى طبريه ومنها كتب الى اهل دمشق يبشرهم بما حققه من نصر عظيم على المغول ، فسرّ من بها من المسلمين سرورا عظيما ، ووثبوا على نواب المغول فهربوا من دمشق وتبعهم اصحابهم ، وكانت مدة احتلالهم لها سبعة اشهر وعشرة أيام .[1] وفي يوم الاربعاء آخر شهر رمضان من السنة نفسها وصل الملك المظفر قطز ومعه عساكره الى ظاهر دمشق وعسكر بهم حتى ثاني شهر شوال ثم دخل دمشق ونزل بالقلعة ، وبدخوله دمشق اعلنت سائر بلاد الشام من الفرات الى حد مصر خضوعها له . ما عدا امارة الكرك[2] التي كانت حتى ذلك الوقت في يد الملك المغيث الايوبي ، واقيمت للملك المظفر في دمشق احتفالات عظيمة ، احتفاء بمقدمه ، ثم أخذ يرتب امور الشام وعين عليها النواب ، ووزع الاقطاعات على الامراء ، واستناب عليها الامير علم الدين سنجر وجعل معه الامير مجير الدين ابو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الازكشي الكردي . ووصلته رسالة من الملك الاشرف موسى صاحب حمص الذي كان نائبا لهولاكو ببلاد الشام يلتمس فيها منه الأمان فأمنه . واقام المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار نائبا على حلب ، واقر الملك المنصور على حماه وبارين ، واعاد عليه المعره ، واخذ منه سلمية واعطاها للامير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع امير العرب ، ورتب الامير شمس

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٣٢ ، ابو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص٢٠٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٠ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٥٧ ، ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، ج١٥ ، ص١٨٣ .

(٢) عن الكرك ، انظر ما يلي ، ص ١٦٥ .

الدين أقوش البرلي العزيزي اميرا على الساحل وغزه.[1] ثم أمر السلطان بأن يدفع النصارى جزية قدرها مائة وخمسون الف درهم فجمعوها وتسلمها الامير فارس الدين اقطاى المستعرب، اتابك العسكري وسلمها للسلطان.[2]

وبعد ان اطمأن الملك المظفر قطز الى تطهير بلاد الشام من المغول، عزم على العودة الى الاراضي المصرية لمشاركة اهلها احتفالاتهم بالنصر العظيم في عين جالوت،

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨١؛ ابو الفدا، المختصر في اخبار البشر، ج٣، ص٢٠٥،٢٠٦؛ ابن الوردى، تتمة المختصر، ج٢، ص٢٠٧،٢٠٨؛ ابن خلدون العبر، ج٥، ص٣٧٩،٣٨٠ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٢ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٦٦؛ ابو شامه، الذيل، ص٢١ وبارين أو بعرين بلد بين حمص والساحل؛ والمعره: هي معرة النعمان، نسبة الى النعمان بن بشير الذي دفن بها وهي مدينة قديمة وكبيرة من اعمال حمص بين حلب وحماه (انظر ياقوت، معجم البلدان)، وعلم الدين هو: سنجر بن عبد الله التركي الشجاعي، لقب بعلم الدين وتنقلت به الاحوال الى ان تولى وزارة الديار المصرية مرات، وتولى نيابة دمشق عن الملك الاشرف خليل، ثم عزل عنها وعاد الى الديار المصرية، توفى مقتولا سنة ٦٩٣هـ (انظر ابن الفرات، م٨، ص١٨٨؛ ابن عبد الظاهر تشريف الايام والعصور، ص٢٧٤.

(٢) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٤٣٣؛ ابن تغرى بردى النجوم، ج٧، ص٠٤٣؛ فائد عاشور، العلاقات الساسية، ص٥٥؛ واتابك: لقب يتكون من لفظين، أتا بمعنى اب، وبك بمعنى أمير وكانت نظرية السلاجقة في الحكم ترتكز على ان يتولى افراد من الاسرة السلجوقية حكم الاقاليم، وارتبط بكل فرد من هؤلاء الامراء السلاجقة قائد تركي يحمل لقب اتابك. أي الامير الوالد، الذي يعتبر مسؤولا عن تربية ابن الامير، وتلقينه اصول الحكم والادارة، وقد درج امراء السلاجقة على تزويج الاتابك من احدى مطلقاتهم، أو قيام الاتابك نفسه بالزواج من والدة الامير الصغير بعد وفاة والده، ويتزوج الامير بدوره ابنة الاتابك، وبالتالي اصبحت العلاقة بينهما شبه ابويه واضحى للاتابك الكثير من النفوذ والسلطان. واول من تلقب بهذا اللقب الوزير السلجوقي نظام الملك حين فوض اليه ملكشاه تدبير شؤون دولته. وفي العصر الزنكي اصبح لفظ اتابك يدل على الحاكم. أما في العصرين الايوبي والمملوكي، فان مدلوله يعني ايضا قائد العسكر. (انظر القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٦٥؛ حسن الباشا الالقاب الاسلامية، ص١٢٢،١٢٣؛ على محمد الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي رسالة دكتوراه لم تطبع، ص٢٨، ٢٩؛ حاشية (١)؛ مسفر الغامدي، الجاد ضد الصليبيين في الشرق، ص٤٥؛ كلود كاهن تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ص٢٤٢،٢٤٣؛
Dozy . Supple ment Dicionnaires .vol . 1, P. 8; Gibb : The Damascus Chronicle. of The Crusades. pp. 24-25.

حيث اخذت مدينة القاهرة زخرفها وزينت استعدادا لاستقباله ، فغادر دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال ٦٥٨هـ/اكتوبر ١٢٦٠م في طريقه الى مصر وفي تلك الاثناء بلغه تنكر الامير ركن الدين بيبرس ، لعدم حصوله على حلب التي كان المظفر قد وعده بها بعد طرد المغول منها . واوجس قطز خيفة منه ، واخذ كل منهما يضمر للاخر سوءا ، واتفق بيبرس مع جماعة من اصحابه على قتل المظفر غيلة وهو في طريقه الى مصر . ولما وصل المظفر الى القصير ، ولم يبق بينه وبين الصالحية الا مسافة بسيطة سمح لعساكره بالتقدم الى الصالحية ، وبقي هو في بعض خواصه بالقصير وخرج للصيد ، فتبعه بيبرس ومعه جماعة من اتباعه فقتلوه في السابع عشر من ذي القعدة ٦٥٨هـ/٢٢ اكتوبر ١٢٦٠م .[١]

وبموت المظفر قطز اعتلى بيبرس عرش السلطنة المملوكية بمصر ، وتلقب بالملك الظاهر ، ولما بلغ المغول نبأ قتل قطز بتلك الصورة توقعوا حدوث انقسام داخل دولة المماليك . ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة اخرى . فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرها من مدن اقليم الجزيرة ، وانضم اليهم من سلم من معركة عين جالوت ، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا اسوارها وابراج قلعتها واضحت مدينة مكشوفة ، فادرك الملك السعيد بن بدر

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، حوادث سنة ٦٥٨هـ ؛ المقريزي السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٣٥ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص٢٠٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٢٢ ، ٢٢٣ ؛ ابو شامه الذيل على الروضتين ، ص٢١٠ ؛ ابن خلدون ، ج٥ ، ص٣٨٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٨٣ ، ٨٤ ، ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ص٦٨ ؛ أما اسباب مصرع السلطان قطز فيبدو انها اعمق بكثير من قصة رفضه اعطاء بيبرس نيابة حلب ، وان هذا السبب لا يعدو كونه سببا مباشرا لمقتله عند الحدود المصرية ، اما الاسباب الرئيسية فهي قديمة ترجع الى ايام السلطان ايبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية وقتله زعيمهم اقطاى . انظر المقريزي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٣٧ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٩ - ١٠٠ ؛ العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر ، ص١٧٣ ، ١٧٤) . والقصير : هي القرية التي تعرف اليوم باسم الجعافرة احدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية (انظر ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ص٨٣ حاشية المحقق)

الدين لؤلؤ الذي كان واليا على حلب خطورة الموقف فيها ، وارسل نجدة من عنده لمساعدة اهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم . الا ان هذه القوة الاسلامية لم تستطع الصمود امام الجموع المغولية وتراجعت الى داخل المدينة حيث بعث قوادها الى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول وانهم اتجهوا الى منبج . ويبدو ان المغول ارادوا عدم اضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة ، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب

التي وصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ / نوفمبر ١٢٦٠م وبدأوا في مهاجمتها بقيادة الامير المغولي بايدر الذي استطاع اقتحام المدينة واخراج من بها من المسلمين الى قرية قرنبيا شرقي حلب ، وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة اخرى للوقوف في وجه المغول وايقاف زحفهم الا ان ذلك التجمع

لم يجد نفعا امام كثافة الجموع المغولية . واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذي خلف الملك السعيد على حلب[1] الى التراجع الى الخلف لاستدراج المغول الى مكان افضل لمنازلتهم ، فتراجع الى حماه التي فيها الملك المنصور صاحبها ، وفيها رأى - على ما يبدو - توسيع الرقعة على المغول بالتراجع الى حمص متظاهرا بالضعف امامهم .

بهدف اعطاء نفسه فرصة كافية لحشد اكبر عدد من الجيوش الاسلامية ، فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حماه ، ومعه اخوه الملك الافضل علي ومعهما عساكر حماه ، كما انضم اليه في الوقت نفسه الملك الاشرف صاحب حمص . وفي حمص اعاد الجوكندار تنظيم جيوش الاسلام مرة اخرى وجهزها بالعدة والعتاد استعدادا لمنازلة المغول ، الذين وصلوا الى حمص في المحرم من سنة ٦٥٩هـ/ديسمبر ١٢٦٠م . حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بالقرب من

---

(١) تذكر المصادر ان الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي كان السلطان المظفر أقامه على حلب « حصلت منه امور أنكرت عليه » فاتفق اهل حلب على القبض عليه وتنحيته ، واقاموا عليهم الامير حسام الدين الجوكندار العـزيزي . (انظر ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٩٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٠٢ ؛ ومنبج مدينة كبيرة بين الفرات وحلب في فضاء من الارض (انظر ياقوت ، معجم البلدان).

الرستن ، ابلى فيها المسلمون بلاء حسنا رغم قلة عددهم وكثرة عدد المغول ، حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم ، وفر بايدر من المعركة فيمن سلم من جنده وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه الى حلب . الامر الذي اضطر فلول المغول الى الاتجاه الى سلميه حيث انضموا الى جموع مغولية كانت نازلة بها . وحاولوا عبثا مهاجمة حماه مرة ثانية واقاموا عليها يوما واحدا ، ثم رحلوا عنها الى أفاميه ، التي كان قد سبقهم اليها فرقة من جيش المسلمين اقامت بالقلعة ، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة حتى اضطر العدو الى ترك افاميه والاتجاه الى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن ، حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر والشام ، حيث سارع بارسال جيش كبير أوكل اليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام ، ولما سمع المغول بمقدم ذلك الجيش داخلهم الهلع والخوف فولوا الادبار هاربين باتجاه الشرق وطُهرت بلاد الشام مرة اخرى من نير الاحتلال المغولي .[1]

وعليه يمكن القول ان ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المماليك في عين جالوت ، وما اعقبه من طرد المغول نهائيا من بلاد الشام ، يعتبر بحق من الاحداث الحاسمة ليس في تاريخ مصر والشام فحسب ولا في تاريخ الامم الاسلامية بمفردها ، وانما في تاريخ العالم بأسره ، اذ ان ذلك الانتصار لم ينقذ العالم الاسلامي وحده ، بل انقذ العالم الاوروبي ، والمدنيه الأوروبية من شر لم يكن لاحد من ملوك اوربا وقتئذ قبل

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، ص٣-٧ ؛ ابو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص٢١١ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٤٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٠٤-١٠٦ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص٢١٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٢٣ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٩٦،٩٧ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ، ص١٦٤،١٦٥ ؛ ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٣٠٠-٣٠١ ؛ ابن العماد الحنبلي ، ج٥ ، ص٢٩١ ؛ الذهبي ، العبر في خير من غبر ، ج٥ ، ص٢٥٢ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة حوادث سنة ٦٥٨هـ ، ٦٥٩ (مخطوط)، والرستن ، بليدة بين حماه وحمص ، وسلميه : بليدة صغيرة من اعمال حماه (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

بدفعه .[١] فلو تم للمغول اكتساح الاراضي المصرية والنفاذ الى شمال افريقيا حيث الصحراء الكبرى التي هي الطريق التقليدي المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو اوربا من الجنوب في العصور المختلفة . لتمكنوا من سلوكه الى اوربا عبر جزيرة صقليه وجبل طارق .[٢]

كما ان هذه المعركة تفوق في اهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة ، لانها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها القوانين والقواعد والاعراف ، بل كان احد طرفيها وهم المغول عبارة عن شعب بدائي بربري متوحش سفاك للدماء مخرب لكل معالم الحضارة ، ومن هذا المنطلق نستطيع ان نؤكد بان موقعة عين جالوت قد تركت في تاريخ البشرية اثرا اشد وقعا واقوى تأثيرا مما تركته وقعتي المارن في الحرب العالمية الاولى والعلمين في الحرب العالمية الثانية .[٣]

واذا ما قُصِرَ ذلك على العالم الاسلامي ، فان انتصار المماليك في هذه المعركة ، كان بمثابة السد المنيع الذي حال دون تقدم المغول الى الاراضي المصرية وبقية العالم الاسلامي ، وقضوا بذلك على خرافة الجيش المغولي الذي لا يقهر . ورغم ان هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو نفسه فان تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها جيشه وقتل فيها قائده العظيم كيتوبوقا ، تعد صدمة عنيفة هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث ، فتأثر لذلك ، وحاول ان يمحوا ذلك العار الذي لحق بجيوشه بارسال حملة جديدة الى الشام في محاولة يائسة للانتقام من المسلمين . غير ان الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك .[٤] اذ لم يستطع التقدم غربا لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت

---

(١) العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص١٦٩ ، نقلا عن :

Camb med Hist . vol Iv . PP, 643-644 .

انظر ايضا ، العدوى ، العرب والتتار ، ص١٢٦ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٣١٧ .

(٢) العبادى ، المرجع نفسه ، ص١٦٩ ؛ الصياد ، المرجع نفسه ، ص٢١٣ ، ٢١٤ ؛ العدوى ؛ المرجع نفسه ، ص١٢٥ .

(٣) العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص١٦٩ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٣١٣ .

(٤) الصياد ، المرجع نفسه ، ص٣١٤ .

لانشغاله في حروبه مع منافسيه من اهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية . واكتفى هولاكو بان عمل على مراسلة الخان الاعظم فيقراقورم أخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر . فما كان من الخان الاعظم الا ان أصدر مرسوما يقضي باعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام ، قاصدا بذلك ـ على ما يبدو ـ رفع الروح المغولية لهولاكو وتشجيعه على معاودة حرب المماليك . فبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين لكن الموت عاجله في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م فتوفى دون أن يحقق حلمه بضم مصر والشام الى ممتلكاته .(١)

وانقذ ذلك الانتصار الذي احرزه المماليك الاسلام والمسلمين من اشد ما تعرضوا له من اخطار ، فلو ان المغول توغلوا في الاراضي المصرية لما بقي في العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه دولة قوية تستطيع ايقاف الزحف المغولي ، خصوصا وان المغول لم يكونوا وحدهم يهددون ما تبقى من العالم الاسلامي ، بل حالفتهم بقية القوى المعادية للاسلام بعد ان وجدت في الزحف المغولي على ممتلكات المسلمين فرصة سانحة لتحقيق اطماعها . فلو انتصر القائد المغولي كيتوبوقا الذي اعتنق الديانة المسيحية لازداد عطف المغول على المسيحيين « ولاصبح للمسيحيين في اسيا السلطة لاول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الاسلام » على حد تعبير رنسيمان .(٢)

يؤكد ذلك ان بلاد العراق وايران التي كانت اكبر معقل للاسلام في مواجهة الصليبيين ، اضحت بعد سقوط بغداد مركزا لبلاط مغولي شديد العطف على المسيحيين ، وصار البطريرك النسطوري بعد زوال الخلافة العباسية يشار اليه بالبنان في الدولة المغولية . كما اضحت بلاد الشام بعد سقوطها في ايدي المغول مقسمة بين المغول والمسيحيين الشرقيين والصليبيين ، فلم تم للمغول وحلفائهم النصر في هذه الوقعة ، ونفذوا الى الاراضي المصرية لواصلوا زحفهم الى ليبيا وبلاد النوبة ولاسترد الصليبيون بيت المقدس من المسلمين .(٣)

---

(١) انظر ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م٢ ، ج١ ، ص٣٣٦ .
(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٥٣٧، ٥٣٨ .
انظر ايضا الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٣١٥ .
(٣) العريني ، المغول ، ص٢٦٢ ؛ الصياد ، المغول في التاريخ ، ج١ ، ص٣١٤، ٣١٥ .

وثمة اهمية اخرى كبيرة لانتصار المماليك في هذه المعركة ، فقد تم لهم القضاء نهائيا على المعارضة الايوبية لهم ، واعادوا الوحدة بين مصر والشام بعد ان ادى ضعف ابناء البيت الايوبي وتنازعهم الى تمزيق رباط الوحدة التي اجهد كل من نور الدين محمود وصلاح الدين نفسه في بنائها قبل ذلك والتي كان لابد من استمرارها لمواجهة الاخطار التي احدقت بالمسلمين في الشرق الادنى ، ولكن تقاعس امراء البيت الايوبي عن صد المغول وحلفائهم ، بل تواطوء بعضهم مع المغول واشتراكهم معهم في عين جالوت ضد اخوانهم المسلمين ، كل ذلك افقد بني ايوب اي حق شرعي في الملك وجعلهم يبدون في نظر الناس في صورة قوة متداعية غير جديرة بحكم المسلمين .[1] في الوقت الذي ابدى فيه المماليك ثباتا وصلاحية للبقاء[2] وحصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لابد منه لتثبيت اركان دولتهم ، فنسى الناس اصلهم غير الحر ، وتناسوا انهم اغتصبوا العرش من سادتهم الايوبيين . ولم يعد المسلمون يذكرون عنهم الا شيئا واحدا هو ان المماليك انقذوهم من المغول وان بقاءهم في الحكم بات ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى .[3]

والواقع أن الأمراء الأيوبيين أدركوا ـ على ما يبدو ـ تلك الحقيقة فانضووا تحت لواء المماليك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ولم يبق منهم سوى الملك الناصر يوسف الذي اعتقله هولاكو ، ثم احتفظ به عنده ووعده بتوليته حكم الشام ومصر بعد القضاء على دولة المماليك المسلمين في مصر . وهنا يتضح لنا جلياً أن هولاكو لم يحتفظ بالملك الناصر حباً فيه ، وانما قصد بذلك استخدامه كورقة رابحة في تأليب بقية الأمراء الايوبيين واتباعهم في بلاد الشام ضد المماليك في مصر ومساعدته في حربه ضدهم . يدلنا على ذلك إصدار هولاكو أوامره عقب هزيمة جيوشه في عين جالوت مباشرة بالقبض على الملك الناصر الذي كان قد سيره إلى بلاد الشام ، وإعادته إليه وقتله في ثامن عشر شوال من سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وقتل معه أخاه الملك الظاهر غازي ، والملك الصالح بن شيركوه

(١) سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص٣٦ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٣١٥،٣١٦ .
(٢) العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص٣١٦ .
(٣) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص٣٧ .

وغيرهم ، ولم يسلم من القتل سوى الملك العزيز بن الناصر الذي شفعت فيه دوقوز خاتون زوجة هولاكو[١] .

كما أن هذا الانتصار العظيم بعث روحاً جديدة في المسلمين لا سيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية ، وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين ، وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول بإيران . وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي ، حتى كللت مساعيهم بنجاح باهر ، أثمر اعتناق المغول في غرب آسيا للدين الإسلامي[٢] . والذي يمكن اضافته هو أن المغول رغم كونهم شعب بدائي لا ينتسب للحضارة بشيء ، أدركوا ما كان عليه الدين المسيحي من تحريف والمسيحيين من تشتت واختلاف تمثل في ذلك الصراع المرير الذي تمخض عن ظهور هوة كبيرة بين اتباع الكنيستين الشرقية والغربية . والذي ظهرت آثاره واضحة للمغول بين المسيحيين الشرقيين اتباع الكنيسة الشرقية والصليبيين الغربيين اتباع الكنيسة الغربية داخل بلاد الشام نفسها . فعزفوا عن اعتناق الديانة المسيحية رغم تحالف المسيحيين الشرقيين معهم ومساعدتهم لهم ، وآثروا اعتناق الدين الإسلامي ، بعد أن ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله ، ولبعده كل البعد عن تلك الخلافات الجوهرية التي ابتلى بها الدين المسيحي ، وذلك لكون الإسلام خاتم الأديان تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٤ . ويتضح لنا من رواية المقريزي هذه في كيفية قتل الملك الناصر . أن هولاكو بعثه إلى بلاد الشام في الوقت الذي كانت الجيوش المغولية تستعد لمهاجمة المماليك في مصر . وأنه قصد بإرساله في ذلك الوقت الحاسم ، رفع الروح المعنوية للجيش المغولي الذي كان يعمل تحت قيادة القائد المغولي الشهير كيتوبوقا . لأدراكه بأن وصول الملك الناصر إلى الشام وإنضمامه إلى صفوف المغول ـ خاصة إذا علمنا بأن هولاكو قد كتب له فرماناً وقلده مملكتي مصر والشام ، واخلع عليه الخلع وأعطاه خيولاً كثيرة وأموالاً طائلة ـ سيعطي بقايا الأمراء الأيوبيين واتباعهم في بلاد الشام باعتباره اكبرهم ، دفعة قوية لمساعدة المغول ضد المماليك طمعاً في استعادة سلطتهم على الأراضي المصرية .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٣٨ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

ومن الناحية الحضارية ، جُنِّبتْ مصر ويلات الغزو المغولي المدمر ، واحتفظت مصر بما لها من مكانة حضارية ومدنية . ولم تتعرض لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار الذي عطّل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الفنون والعلوم والآداب ، والمعالم الحضارية وبقيت القاهرة مكاناً هادئاً آمناً يهرع إليها العلماء والأدباء والفنانون ، حتى اكتسبت عاصمة الدولة المملوكية

مكانة ممتازة من الناحية الأدبية والعلمية إلى جانب مكانتها السياسية[1] ، التي برهنت عما اكتسبه المماليك المسلمون من هيبة ومقدرة في شئون السياسة والحرب اتضحت في علاقاتهم الخارجية الدولية الواسعة الانتشار ، وفي اصلاحاتهم وإدارتهم الداخلية الحازمة التي فرضت احترامهم على كافة الحكام المسلمين ، يدلنا على ذلك على سبيل

المثال لا الحصر ما رواه الخزرجي في كتابه العقود اللؤلؤية من أن المظفر شمس الدين[2] سلطان دولة بني رسول في اليمن حج بجيش كبير في العام التالي لمعركة عين جالوت أي في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . وفي أرض الحجاز طلعت أعلامه الشريفة ، وأعلام سلطان مصر ، فقال له أحد الأمراء « هلا أطلعت أعلامك يا مولانا قبل أعلام المصريين ؟ » فرد عليه سلطان اليمن قائلاً « أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس ، وأقدم أعلامي لحضوري »[3] .

على أن الأهمية الكبرى لهذه المعركة هي أنها تعتبر بحق نصراً حسياً ومعنوياً لدولة لا زالت في دور التأسيس تتلمس مختلف الوسائل التي تدعم بها أركانها[4] ، ومن هذه

---

(١) انظر العريني ، المغول ، ص ٢٦٣ ، انظر ايضاً ، محمد عبدالمنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في مصر ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) المظفر شمس الدين أبو المحاسن يوسف بن السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول المتوفي سنة ٦٩٤ هـ (انظر يحي بن الحسين غاية الأماني ، ج ١ ، ص ٤٣٤ ، ٤٧٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠١ حاشية .

(٣) انظر الخزرجي ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، ص ٦٩ ، العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٦٨ .

(٤) العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٦٨ .

الوسائل التي فطن بيبرس إلى دعم سلطته بها ، إحياء الخلافة العباسية التي ظلت غائبة عن الوجود ثلاث سنين ، ولعل السبب المباشر الذي دفعه إلى ذلك هو أنه بالرغم مما حققه من نجاح في صد المغول في بلاد الشام ، وإعادة الوحدة مرة أخرى بين الأراضي المصرية والبلاد الشامية ، فإن إقدامه على قتل السلطان قطز عقب ذلك الانتصار ، أدى إلى استياء بعض الأمراء منه . وظهرت ضده ثورتان داخليتان في وقت واحد تقريباً وذلك في أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م . إحداهما بدمشق ، حيث قام بها الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قطز قد استنابه بها . ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق في ذي الحجة من سنة ٦٥٨ هـ / نوفمبر ١٢٦٠ م . وتلقب بالملك المجاهد ، وتقلد شعائر السلطنة وخُطِبَ له على المنابر ، وضربت السكة بإسمه . وأخذ في تحصين قلعة دمشق استعداداً لمواجهة بيبرس ، وحاول في الوقت نفسه استمالة الملك المنصور صاحب حماه ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص ، إلا أنهما رفضا إجابته إلى ذلك .

ولما لم تُجْدِ محاولات بيبرس السلمية في اقناعه بالعدول عن ثورته . جرّد جيشاً قوياً للقضاء عليه قبل أن تستفحل ثورته . وتمكن ذلك الجيش من إخماد تلك الثورة وعاد إلى القاهرة بنائب دمشق مقرنا في الأصفاد ، في ١٦ صفر ٦٥٩ هـ / يناير ١٢٦١ م . وولى بيبرس استاذه علاء الدين البندقداري نائباً على دمشق[1] . وبذا قضى بيبرس في سرعة وحزم على إحدى الحركات الانفصالية التي هددت السلطة المملوكية بالتفكك ، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء[2] .

أما الثورة الثانية فقد ظهرت بالقاهرة وتزعمها رجل شيعي عرف بالكوراني[3] ، أظهر الزهد والورع ، وسكن قبة بقلعة الجبل[1] ، حيث تردد عليه جماعة من أتباعه ،

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٩ هـ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، أبو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ ، أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢١١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠١ .

(٢) العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص ١٧٣ ، ١٧٨ .

(٣) نسبة إلى كوران من قرى اسفرائين ، واسفرائين : بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، العبادي ، المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ، حاشية رقم ٢) .

واتفق معهم على تنظيم ثورة داخلية لاستبدال الحكم السني بحكم شيعي فشق الثوار شوارع القاهرة ليلاً في أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وهم ينادون « يا آل علي » وقاموا بعمليات سلب ونهب حيث اقتحموا حوانيت بيع السلاح واصطبلات الخيول

وأخذوا منها السلاح والخيول ، لاستخدامها ضد قوات السلطان الظاهر بيبرس ، التي سارعت بدورها بمحاصرة الثوار ، وإلقاء القبض على زعمائهم حتى خمدت الثورة ، ثم أمر بيبرس بصلب الكوراني وغيره من زعماء هذه الثورة الشيعية على باب زويله[٢] .

وبهذا تمكن السلطان الظاهر بيبرس من إضافة وسيلة جديدة عززت مكانة دولة المماليك في مصر والشام ، إذ تمكن بذلك من القضاء التام على الحركات الشيعية التي ظلت تعمل على هدم نظام الحكم السني في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين . بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر والشام طول العهد المملوكي الأول والثاني[٣] .

ويمكن اعتبار هاتين الثورتين سبباً مباشراً لقيام السلطان بيبرس بتنفيذ فكرة إحياء الخلافة العباسية ، ونقل مقرها إلى الديار المصرية لتكتسب بذلك دولة المماليك الفتية وعاصمتها صفة شرعية تؤهلها لزعامة المسلمين في المشرق . حين تصبح القاهرة تضم بين جنباتها دار الخلافة العباسية والسلطنة معاً .

والذي يجدر ذكره هنا ، أن بيبرس لم يكن أول من فكر في مشروع إحياء الخلافة العباسية ، التي انتهت بسقوط بغداد في أيدي المغول ، إذ يذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ، أن شخصاً عباسياً اسمه أبو العباس أحمد ، كان قد اختفى عن أعين المغول وقت دخولهم بغداد ، ونجا منهم إلى بلاد الشام ، وأقام عند الأمير عيسى بن

---

(١) قلعة الجبل : هي القلعة التي شيدها السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبي على طرف جبل المقطم في مصر ، وتعد من أفخم القلاع الحربية التي شيدت في القرون الوسيطة (انظر عبدالرحمن زكي ، قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ، ص ٣١ ـ ٣٣ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٣) العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص ١٧٩ .

مهنا[1] أمير العرب فلما سمع به الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، أرسل إليه يستدعيه « فبغته مجيء التتار »[2] . وعليه فإنه لا يستبعد أن الملك الناصر كان يقصد باستدعائه ذلك إحياء الخلافة العباسية ، ونقل مقرها إلى دمشق أو حلب وذلك قبل وصول المغول إلى بلاد الشام .

كما يذكر أيضاً أن السلطان قطز حاول القيام بنفس العمل ، بعد انتصاره على المغول في معركة عين جالوت ، إذ يقال أنه عندما وصل إلى دمشق استدعى أبا العباس أحمد المذكور ، وبايعه بالخلافة ، وقال للأمير عيسى بن مهنا « إذا رجعنا إلى مصر انفذه إلينا لنعيده إن شاء الله »[3] ولكن قطز قتل قبل تحقيق ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن السلطان الظاهر بيبرس هو الذي نجح في تحقيق مشروع إحياء الخلافة العباسية وإبرازه إلى حيز الوجود وزاد على ذلك بأن أقدم على نقل الخلافة

---

(١) هو الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيفة ، فوض إليه السلطان الظاهر بيبرس امرة العرب بعد وفاة ابن عمه على بن حذيفة بن مانع ، فخالف ابن عمه بالإمتناع عن سفك الدماء إلا بحكم الله ، فأصلح أمور العرب ، وصلحت سيرتهم ، وقل فسادهم ، بل كاد يعدم في أيامه ، وكان رجلاً ديّناً خيراً ، حسن السياسة لين الجانب انتفع الإسلام والمسلمون به في مواطن كثيرة ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي وصُلّي عليه صلاة الغائب بجامع دمشق في يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول سنة ٦٨٣ هـ / ٢٦ مايو ١٢٨٤ م . (انظر ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٦ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، الملاحق ص ٢٩٠) .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، وابو العباس هذا هو أحمد بن أبي علي الحسن بن ابي بكر بن الحسن بن على القبي ـ بضم القاف وتشديد الياء الموحده ـ ابن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله . الذي ولي الخلافة بالقاهرة بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله ، وتلقب بالحاكم بأمر الله .

(٣) العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص ١٨١ ، نقلاً عن مفضل بن ابي الفضائل ، النهج السديد ، ج ١ ، ص ٤٣٥ .

العباسية إلى مقرها الجديد بالقاهرة[١] . وذلك عندما سمع بوصول الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر مع جماعة من العربان فارين من المغول إلى دمشق إذ بعث إلى نوابه بدمشق يطلب منهم القيام بخدمته وتعظيم حرمته ، وتسييره إلى مصر ، حيث خرج السلطان الظاهر بيبرس من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع شهر رجب سنة ٦٥٩ هـ / يونيو ١٢٦١ م للقائه ، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا[٢] ، وقاضي القضاه تاج الدين بن بنت الأعز[٣] ، وسائر الأمراء ومقدموا العسكر ، وجمهور

---

(١) يبدو أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكن أول من فكر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر . وإنما هو الذي نجح في تحقيق ذلك فقط ، يدلنا على ذلك ما ذكر من أن أحمد بن طولون حاول في سنة ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م ، إجتذاب الخليفة المعتمد ـ الذي لم يكن له من الخلافة غير الإسم مع أخيه أحمد الموفق طلحه ـ إلى مصر . إلا أن الموفق قبض على المعتمد في الموصل ، وأعاده إلى بغداد (لمزيد من التفاصيل انظر الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٩ ، ص ٦٢٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٩ ، أحمد البلوى ، سيرة ابن طولون ، ص ٢٨١) . وكذلك حاول محمد الاخشيد سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م إغاثة الخليفة المتقي من جور الحمدانيين بحلب ، ومن استبداد الأمراء الأتراك ببغداد ، فلقيه بالرقة في شمال الفرات ، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر ، ولكن الخليفة عزَّ عليه آخر الأمر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض ، وعاد الاخشيد إلى مصر على حين عاد الخليفة إلى بغداد (انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٤١ ، ابن الاثير ، المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ١٤٨ ، ابن سعيد ، العيون الدعج في حلي دولة بني طغج ، ص ١٤٠ ، والذي لا شك فيه أن كلًا من ابن طولون والأخشيد رأى أن في اجتذاب الخلافة العباسية إلى مصر ما يقوى دولتيهما اللتان أسساهما في مصر (العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص ١٨٠ ، ١٨١) .

(٢) على بن محمد بن سليم بن حنا (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٦٤ .

(٣) تاج الدين بن بنت الأعز هو : عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي ، المعروف بابن بنت الأعز ، والعلامي ، نسبة إلى علامه ، وهي قبيلة من لخم ، أما الأعز فهو جده لأمه الصاحب الأعز ، فخر الدين وزير الملك الكامل الايوبي ، ولقد درس تاج الدين بالاسكندرية الحساب فمهر فيه وولاه السلطان الكامل شاهداً لبيت المال وفي عهد الملك الصالح أيوب تولى نظر الدواوين ثم قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ ، ثم ولي الوزارة سنة ٦٥٥ هـ ، ثم عزله السلطان قطز في نفس السنة ، وظل بعيداً عن مناصب الدولة حتى أعاده بيبرس إلى منصب قاضي القضاه بالديار المصرية سنة ٦٥٩ هـ وظل به حتى وفاته سنة ٦٦٥ هـ (انظر السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ١٣٣ ، ١٣٦ ، ابن حجر العسقلاني : رفع الأصر عن قضاة مصر ، ص ١٧٦ ـ ١٧٨ ، السخاوي ، الذيل على رفع الأصر ، ص ٢٠١ ، العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص ١٨٣ حاشية) .

من أعيان القاهرة ، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين ، « حتى اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل » ، فسار به السلطان إلى باب النصر ، ودخل القاهرة وقد لبس الشعار العباسي وخرج الناس لرؤيته ، وكان يوماً من أعظم أيام القاهرة شق فيه القصبة إلى باب زويلة ، وصعد قلعة الجبل وهو راكب ونزل في مكان جليل هيء له بها ، وبالغ السلطان الظاهر بيبرس في إكرامه واحترامه . وفي يوم الاثنين الثالث عشر من الشهر نفسه ، حضر قاضي القضاه ونواب الحكم وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشائخ وأعيان الصوفية والأمراء ، ومقدموا العسكر ، والتجار ووجوه الناس . . وحضر أيضاً شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام فمثلوا كلهم بحضرة الأمير العباسي أحمد ، وجلس السلطان متأدباً معه « بغير كرسي ولا طراحة ولا مسند » وشهد جماعة من العربان والبغاددة الذين قدموا معه بأن الأمير أحمد هو ابن الخليفة الظاهر بن الناصر ، وشهد بالإستفاضة عدد من القضاه ، فقبل قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الشهادة ، وقام على قدميه وأعلن ثبوت نسب ابي القاسم أحمد وانه ابن الخليفة الظاهر ، ثم تقدم وبايع أبا القاسم بالخلافة ، تقدم بعده السلطان الظاهر بيبرس[1] فبايعه على العمل بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها في مستحقها ، ثم بايعه بعد السلطان الشيخ العزْ بن عبد السلام ، ثم الأمراء وكبار رجال الدولة . فلما تمت البيعة قلّد الخليفة ـ الذي لقب المستنصر بالله ـ السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية ، وما يضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من البلاد ، ثم قام الناس وبايعوا الخليفة المستنصر بالله على اختلاف طبقاتهم ، وكتب بيبرس في الوقت نفسه إلى الملوك والنواب بسائر الممالك الإسلامية ، أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبي القاسم أحمد وأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان الظاهر بعده ، وأن تنقش السكه باسمهما . فلما كان يوم الجمعة السابع عشر من رجب خطب الخليفة المستنصر في جامع القلعة ، واستفتح خطبته بقراءة صدر سورة الأنعام ثم صلى على النبي ﷺ وترضى عن الصحابة ، وذكر شرف بني العباس ، ودعا للملك الظاهر .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٩ هـ ، ورد في بعض المصادر أول من بايع الخليفة هو السلطان الظاهر نفسه (انظر ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٤٧٧ .

ولما قضى من الخطبة نزل وصلى بالناس الجمعة ، فاستحسن المسلمون منه ذلك واهتم السلطان بأمره[١] ، ورغم الإحتياطات التي قام بها الظاهر بيبرس ، للتأكد من صحة نسب الخليفة المستنصر بالله ، فإن بعض الناس قد ساوره الشك في صحة نسب الخليفة ، ويبدو هذا التشكك واضحاً في الطريقة التي أشار بها بعض المؤرخين إلى الخليفة الجديد ، وهي طريقة لا تخلو من الغمز الواضح ، مثال ذلك ما رواه المؤرخ أبو الفدا في حوادث سنة ٦٥٩ هـ في هذا الشأن حيث قال « في هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله » ويكرر أبو الفدا اسلوبه في الإشارة إلى الخليفة الجديد فيقول في موضع آخر « وبرز الظاهر والخليفة الأسود »[٢] . كما يسمى مفضل بن أبي الفضائل هذا الخليفة باسم « المستنصر بالله الأسود »[٣] .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٩ هـ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٨ - ٤٥٠ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، إبن عبدالظاهر ، الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر ، ص ٩٩ - ١٠١ ، أبو شامه ، الذيل ، ص ٢١٣ ، ٢١٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١٢ - ٣١٥ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥ ، ٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ص ٨٦ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، إبن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، إبن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢١ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٤٦ ، الجبرتي ، عجائب الآثار ج ١ ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ ، ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، ج ٨ ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ابن دقماق ، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، حوادث سنة ٦٥٩ هـ .

(٢) أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، والملاحظ أن أبا الفدا ولد سنة ٦٣٢ هـ ؟! أي بعد مجيء المستنصر إلى القاهرة بثلاث عشر سنة ، ويكون بذلك قد سمع هذا الشك من المعاصرين له والمتقدمين عليه في السن (العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، حاشية رقم ٤) ، انظر ايضاً ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، ص ٢٢٨ ، كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٩٠ .

(٣) العبادي ، المرجع نفسه ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، عاشور ، المرجع نفسه . نقلاً عن المنهج السديد ، ص ١٠٥ .

على أن الأهم من ذلك هو موقف السلطان بيبرس من الخليفة نفسه حيث تذكر المصادر ، بأن بيبرس شرع في تجهيز الخليفة لاسترداد بغداد وأرجاع الخلافة إليها ، ويقال أن مبلغ ما أنفقه بيبرس في هذا المشروع « ألف ألف دينار وستون ألف دينار عيناً »[1] ، وأن الظاهر بيبرس خرج بنفسه مع الخليفة إلى دمشق التي وصلها في ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . وفي دمشق وسوس له أحد الأمراء وخوّفه من منافسة الخليفة له . وهنا ترك بيبرس الخليفة واكتفى بأن جهزه بثلاثمائة فارس ، وسار الخليفة بهذا العدد القليل من العسكر إلى العراق وفي الطريق انضم إليه أربعمائه من عرب العراق ، كما انضاف إليه ستون مملوكاً من مماليك الموصل ، وثلاثون فارساً من عسكر حماه ، وتقدم الخليفة المستنصر بهذا الجيش وعلى الحدود العراقية التقى بمنافسه على الخلافة أبي العباس أحمد ـ الحاكم بأمر الله[2] في سبعمائة فارس من التركمان ، واتفقا على العمل معاً لإعادة الخلافة العباسية في بغداد ويعبر أبو شامه عن ذلك بقوله « فانصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذلك الأكبر ، ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد »[3] . ثم سار الخليفة إلى عانه ومنها إلى الحديثة ، وخرج يريد بلدة هيت ، فلما وصل إليها أغلق أهل المدينة أبوابها دونه ، فحاصرها حتى افتتحها آخر ذو الحجة سنة ٦٥٩ هـ / اكتوبر ١٢٦١ م ، ثم رحل عنها وعسكر بالقرب من الأنبار . وهناك التقت

---

(١) انظر ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١١٢ .

(٢) ورد في بعض المصادر أن الظاهر بيبرس كان قد أرسل أول الأمر في طلب أبي العباس أحمد هذا وهو لا يزال في العراق ، فقدم أبو العباس إلى دمشق حيث جهزه نائبها إلى القاهرة ، غير أن أبا العباس هذا كان قليل الحظ ، إذ سبقه إلى حضرة بيبرس شخص آخر من أبناء البيت العباسي هو أبو القاسم أحمد (الخليفة المستنصر) ففضل أبو العباس الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها الثائر على بيبرس شمس الدين أقوش البرلي ـ الذي لم تستمر ثورته طويلاً إذ تمكنت جيوش السلطان بيبرس من إخماد ثورته بحلب سنة ٦٦٠ هـ ـ ولقبه الحاكم بأمر الله . ثم أمده بسبعمائة فارس من التركمان ، فسار بهم الحاكم إلى الحدود العراقية لمناوشة المغول مرة أخرى (الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٥٦ ، العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٨٢ .

(٣) أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢١٥ ، انظر أيضاً ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٣ .

جيوش المغول بقيادة قرابغا وبهادر بجيوش الخليفة في ٢ محرم سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م ودارت بين الطرفين معركة كبيرة انتهت بانتصار المغول على العباسيين الذين قتل معظمهم ، ولم يفلت منهم سوى الأمير أبو العباس أحمد وبضعة من الأمراء . أما الخليفة أبو القاسم فيقال أنه قتل في المعركة ، ويقال أنه نجا مجروحاً في طائفة من العرب ومات عندهم متأثراً بجراحه[1] .

وبعد هذا الحدث لنا أن نتساءل عن السبب الحقيقي الذي دفع الظاهر بيبرس إلى تسيير الخليفة الى محاربة المغول ، وتعريضه إلى ما آل إليه ؟ وفي هذا يذكر أحد المؤرخين المحدثين بأن السلطان الظاهر بيبرس بعد أن حقق غرضه وحصل على تقليد بالسلطنة من الخلافة العباسية ، وأضفى على نفسه وعلى ملكه صفة شرعية عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكا في الملك ، ذلك أن النقود صارت تضرب باسم السلطان والخليفة معاً ، كما صار يدعى للخلافة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان . ولم يغب عن بال الظاهر بيبرس أنه إذا حدث صدام بينه وبين الخليفة ، فإن الرأي العام في العالم الإسلامي سيقف إلى جانب الخلافة بوصفها السلطة الشرعية الأولى في حكم المسلمين منذ وفاة الرسول ﷺ ، لذا بدأ بيبرس يفكر وبسرعة في التخلص من الخليفة المستنصر ، بعد أن قضى وطره من الخلافة ، وحصل منها على ما كان يطمع فيه من تفويض بالسلطنة . ودلل على ذلك بأن السلطان بيبرس لو كان جاداً في استرداد بغداد من المغول

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٥٩ هـ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ، أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ج ٥ ، ص ٢١٥ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠١ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٨ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، الجبرتي ، عجائب الآثار ، ص ٥٦ ، العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ . ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٨٣ ، وعانة : بلدة مشهورة بين الرقة وهيت وهي من أعمال الجزيرة ، والحديثة : قلعة حصينة في وسط الفرات يحيط بها الماء ، وهيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ، والأنبار : مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

وإعادة الخلافة العباسية إلى قاعدتها الأولى ، لمشى بنفسه صحبة الخليفة المستنصر إلى العراق . ولأعد للأمر عدته لأنه خير من يعرف قوة المغول[1] .

والواقع لا نستطيع أن نجرد السلطان بيبرس عن النية الخالصة في استرداد بغداد وإعادة الخلافة إليها ، ولكن يبدو أن الظاهر بيبرس لما وصل دمشق أدرك بأن مواصلة السير إلى العراق وتوسيع جبهة الصراع مع المغول في تلك المنطقة ، قد يُعَرِضْ دولته للخطر ، خاصة إذا علمنا بأن هناك عناصر داخل بلاد الشام لا زالت تكن الحقد للظاهر بيبرس . حيث تزامن ذلك ـ على ما يبدو ـ مع ثورة آقوش البرلي نائب حلب الذي نافس بيبرس حتى في إحياء الخلافة العباسية ، هذا بالإضافة إلى تخوف الظاهر بيبرس من تجدد خطر الصليبيين على الساحل .

على أن هذا الأمر يدعونا إلى التساؤل مرة أخرى ، لماذا أقدم السلطان الظاهر بيبرس على تسيير الخليفة لوحده رغم ضعف امكاناته ؟ ألم يكن من الأجدر به إثنائه عن المسير إلى العراق وتجنيبه ذلك المصير السيء ؟ وهنا يمكن القول أنه لا يستبعد أن يكون نبأ تجهيز أقوش البرلي نائب حلب الثائر للخليفة المنافس أبو العباس أحمد ـ الحاكم بأمر الله ـ ومعه سبعمائة فارس من التركمان إلى الحدود العراقية لمناوشة المغول ، هو السبب المباشر الذي دفع السلطان بيبرس إلى ذلك العمل . إذ يبدو أن بيبرس قد ساوره الشك في أن يؤدي مسير الحاكم بأمر الله إلى الحدود العراقية ومناوشته للمغول إلى التفاف المسلمين في تلك المناطق حوله . وتحقيق نجاحاً ولو بسيطاً مما يعرض مشروع إحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية الممثلة في شخص الخليفة المستنصر إلى الاهتزاز الذي قد يؤدي إلى الفشل . وتنعكس آثاره على دولته التي قد حصلت على تقليد بالسلطنه منه أضفى عليها صفة الشرعية الكاملة .

ومهما يكن من أمر ، فإن ذلك العمل لا يمكن اعتباره من جانب السلطان بيبرس تخلّصاً من الخليفة ، إذ أن مشروع إحياء الخلافة العباسية كان ـ على ما يبدو ـ موضوع

---

(١) سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

الساعة والشغل لكل من أراد زعامة المشرق الإسلامي في ذلك الحين ، يدلنا على ذلك أن الظاهر بيبرس نفسه ما أن علم باستشهاد الخليفة المستنصر حتى سارع إلى استدعاء الأمير العباسي أبو العباس أحمد[1] إلى مصر ، واستقبله استقبالاً حسناً ، وفعل معه ما فعله مع الخليفة المستنصر من قبل من حيث اثبات النسب ، حيث جلس بالإيوان الكبير بقلعة الجبل إلى جانب السلطان وذلك في ثامن المحرم سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م

وقريء نسبه على الناس بعدما ثبت لدى قاضي القضاه تاج الدين بن بنت الأعز ، ولُقِبَ بالحاكم بأمر الله . ولما ثبت ذلك تقدم السلطان بيبرس ومد يده وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله ، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها ، والوفاء بالعهود ، وإقامة الحدود ، وما يجب

على الأئمة فعله في أمور الدين وحراسة المسلمين ، ولما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلّده أمور البلاد والعباد ، وفوض إليه سائر الأمور ، ثم أخذ الناس في مبايعته على اختلاف طبقاتهم ، ونقشت السكه باسم السلطان واسمه ، وخطب لهما على منابر الشام ومصر ، وقدّم اسم الخليفة على اسم السلطان في الدعاء[2] .

وهكذا أُعيدت الخلافة العباسية مرة أخرى إلى البلاد المصرية . ولا شك أن إبقاء الخليفة في هذه المرة في الأراضي المصرية وعدم تسييره إلى العراق ، يدلنا على الرغبة

---

(١) هو الحاكم بأمر الله سالف الذكر ، التقى بالخليفة المستنصر على الحدود العراقية وانصاع لأوامره ، وقاتل معه المغول ، ولكنه نجا من القتل في الوقت الذي استشهد فيه الخليفة المستنصر ـ كما سبق أن رأينا ـ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، حوادث سنة ٦٦١ هـ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٤٢ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٢٠ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٦٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٧ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣١ ، الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٠٤ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢١٥ ، أبوشامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٢١ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٧ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢١١ ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الأكيدة التي جالت في نفس الظاهر بيبرس ، والتي أراد تحقيقها من وراء إحياء الخلافة العباسية . وهي رغبة سياسية أكثر منها دينية ، إذ أن بيبرس كان يريد زيادة ملكه واتساع سلطانه بمساعدة الخليفة له باعتباره الزعيم الديني ذلك أن « فكرة الزعامة الدينية تعمل في الرؤوس ما لا تعمله أساليب السياسة أياً كان نوعها ، وما لا تناله أسنة السيوف مهما كانت أراقت من دماء »[١] .

وصفوة القول ، فإن الظاهر بيبرس قد حقق للامم الإسلامية في الشرق الإسلامي ما كانت تصبوا إليه ، إذ كانت في ذلك الوقت لا تزال متعلقة بأهداب الخلافة ، ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال ، كما كان المسلمون في الوقت نفسه ينظرون إلى من يحقق فكرة إقامة الخليفة بنفس العين التي كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه[٢] . بالرغم من أن الخلافة العباسية التي عاشت في القاهرة طيلة حكم المماليك البحرية والبرجية إلى أن جاء السلاطين العثمانيون وقضوا على دولة المماليك ، لم يكن لها حول ولا طول ، ولا رأي في سياسة الأمور ، وإنما كان عملها مقصور على مباركة سلطة من حصل على السلطنة منهم[٣] . ولعل خير وصف لما كان عليه حال الخلافة العباسية بمصر هو قول أحدهم « وبمقتل المستعصم انقرضت دولة بني العباس من العراق ، وانتقل بقيتهم إلى مصر . ولم يكن لهم في مصر من الخلافة إلا الإسم ومن المُلك إلا الرسم . بل كان الموجود منهم مع سلطان مصر كالصفر المثبت في أحد مراتب الأعداد[٤] .

---

(١) انظر جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٦١ .

(٢) جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ، ص ٦١ .

(٣) احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ج ٥ ، ص ١٩٦ .

(٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ، ج ١ ، ص ٤٤٧ ، أما القلقشندي فقد وصف ذلك بقوله « والذي استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ، ويُدعى له قبل السلطان على المنابر إلا في مصلى السلطان خاصة في جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة ، ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل ، وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك » (انظر صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٧٥) .

وبقي لنا أن نتحدث عن تأثير انتصار المسلمين في واقعة عين جالوت على بقايا الصليبيين في ساحل الشام ، ودوره في انهيار وجودهم في تلك المناطق . والذي لا شك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة ، وباتوا مؤمنين بأن يومهم آت لا محالة ، فسارع زعماؤهم بالتقرب إلى السلطان الظاهر بيبرس ، الذي قام بدوره بالاجتماع برسل عكا في دمشق واستعرض معهم تاريخ مؤامراتهم ومكائدهم واعتداءاتهم المتكررة ونقضهم للعهود ، والتآمر مع الغزاة ضد المسلمين ، ثم وبخهم وأهانهم وحقر من شأنهم بقوله « ولا يفزع من أخبار التتار إلا مثلكم ، وأن هذه عساكري أولها في الفرات وآخرها في عيذاب » كما تحدث أيضاً بنفس الاسلوب مع رسل بقية الإمارات والفرق الصليبية قائلاً « ما تقولون ، قالوا نتمسك بالهدنة التي بيننا وبينك ولا نفسخها » كما أبرم الظاهر بيبرس ، سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع الملوك المسلمين وغير المسلمين ، مثل الأمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس ، وبركه خان زعيم مغول القبجاق ، وسلاطين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى[1] ، كما أسفر في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م أي بعد انتصاره في عين جالوت ، المؤرخ جمال الدين ابن واصل قاضي القضاه بحماه آنذاك إلى « مانفرد هو هنشاوفن » ملك صقلية ومملكة بيت المقدس الرمزية ، وصاحب الامبراطورية الرومانية الغربية ، بعد وفاة أبيه الامبراطور فردريك الثاني سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ ، وكانت مهمة ابن واصل أن يوطد العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس ومانفرد وفي هذا المعنى يقول ابن واصل « فلما وصلت إلى الامبراطور مانفريد المذكور أكرمني ، واجتمعت به مراراً ، ووجدته متميزاً ومحباً للعلوم العقلية ، يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس »[2] ، ومكث ابن واصل طويلاً في بلاد منفريد ، ووجد أكثر أصحاب الامبراطور فيه مسلمين ، ويُعلَن بالآذان والإقامة في معسكره ، وتوطدت صلة ابن واصل بالامبراطور إلى حد الإعجاب فصنف له كتاباً في المنطق[3] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٦ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، انظر أيضاً نظير سعداوي ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، ص ١٣٥ ـ ١٣٧ ، وعيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة : بليدة على ضفة البحر الأحمر (القلزم) مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

(٣) نظير سعداوي ، المرجع نفسه ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

والمهم في الأمر أن السلطان الظاهر بيبرس تمكن بفضل تلك المعاهدات والاتفاقات السياسية والودية فرض عزلة على الصليبيين في بلاد الشام وحرمانهم من أية معونة خارجية يمكن أن تصلهم من الشرق أو الغرب[1] .

وختاماً يمكن القول أنه بفضل انتصار المماليك في معركة عين جالوت أصبحت سلطنة المماليك المسلمين في بلاد الشام ومصر أقوى دولة في الشرق الأدنى لمدة تزيد على قرنين من الزمان . إذ أن هذا الانتصار بدد أحلام المغول في السيطرة على بلاد الشام ومصر . وعجل بزوال ما تبقى من الإمارات الصليبية في المشرق ـ كما سنرى ـ .

(١) سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك ، ص ٦١ ، سعداوي ، المرجع نفسه .

الفصـــل الثـالث

جهـاد السلطان بيبرس ضـد الصليبيين والمغول

- محاولات عقد حلف صليبي مغولي .
- استيلاء بيبرس على انطاكيه سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م .
- جهاد بيبرس في أرمينيه الصغرى .
- انتصارات بيبرس على أبغا بن هولاكو في أعالي الشام والأناضول (معركة إبلستين ونتائجها) .

محاولات عقد حلف صليبي مغولي :

سبقت الإشارة إلى أن الصليبيين التزموا الحياد إزاء الصراع الإسلامي المغولي ، طمعاً في إنهاك كلا الطائفتين . إلا أن هزيمة المغول في معركة عين جالوت جاءت بنتائج عكسية لدى الصليبيين في بلاد الشام خاصة ، والغرب المسيحي عامة ، إذ أدركوا أن نهاية سيطرتهم على ساحل بلاد الشام آتية لا محالة ، فعاودهم الأمل في الاتصال بالمغول رغم سوء موقفهم بعد هزيمتهم في عين جالوت وطردهم من بلاد الشام نهائياً وطلب التحالف معهم ضد المسلمين ، طمعاً - على ما يبدو - في أحد أمرين ، إما تشجيع المغول على الاستمرار في نزاعهم ضد المسلمين لإشغال المسلمين عنهم ، وإما الحصول على معونة منهم في حالة تعرض الصليبيين على ساحل بلاد الشام للهجمات الإسلامية التي بات شنها ضدهم مؤكداً .

والواقع أن العلاقة بين المغول والغرب المسيحي قد بدأت جذورها منذ بداية القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وذلك عندما اجتاح المغول أوربا الشرقية حتى دقت جيوشهم أبواب ألمانيا . إذ أدرك الغرب المسيحي خطر هذا الجنس الغريب . فكان من نتيجة ذلك ما دبره البابا جريجوري التاسع (٦٢٤ - ٦٣٩ هـ) (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) من محاولة تكتيل الغرب الأوروبي في حملة صليبية لا ضد المسلمين في هذه المرة وإنما ضد المغول . إلا أن صراعه مع الأمبراطور الألماني فردريك حال دون تنفيذ ذلك العمل الانتقامي الذي كانت البابويه تزمعه ضد المغول . كما تبين لجريجوري أنه لا جدوى عملية تُنْتَظر من الإنجليز الذين اكتفوا بالعطف على حركته تلك دون أن يتجاوزوا هذا الحد . لذلك أخذت هذه الحركة بعد أن فشل البابا في حسمها بالقوة ، اتجاهاً جديداً قائماً على محاولة التقريب بين المغول والغرب المسيحي ، وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد عاملان ، أولهما ما كان من عدم معارضة المغول لحركة التبشير بين رعاياهم وحرص المسيحيين على ذلك ، وثانيهما الرغبة الأكيدة في تكوين تآلف حربي بين المغول والمسيحيين لمواجهة المسلمين عدوهم المشترك[1] .

---

(١) جوانفيل ، القديس لويس ، مقدمة المترجم ، ص ١٧ .

وكان من أكبر المحبذين لفكرة التحالف مع المغول البابا أنوسنت الرابع (٦٤١ ـ ٦٥٢ هـ) (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤ م) معاصر لويس التاسع ملك فرنسا زعيم الحملة الصليبية السابعة التي كانت في طريقها إلى المشرق الإسلامي . فقد أرسل البابا أنوسنت سفارتين من قبله قبل سنوات قلائل من حملة لويس التاسع على مصر إلى كيوك خان المغول في قراقورم ، وذلك في سنة ٦٤٣ هـ ـ ١٢٤٥ م ، كانت الأولى برئاسة الأخ الفرنسيسكاني (Pandil Carpire) التي وصلت إلى بلاد كيوك بعد خمسة عشر شهراً وذلك في ربيع الأول ٦٤٤ هـ أغسطس من سنة ١٢٤٦ م . وبالغ خـ [illegible] في إكرام رسل البابا ، ويبدو أنه أبدى تجاوباً مع الرسل ، إلا أنه اشترط أن يعترف أمراء الغرب المسيحي بسلطانه عليهم . ثم عادت هذه السفارة إلى أوروبا حاملة معها رد المغول كما صحبت معهم رسولين مغوليين إلى البابا في روما . وتلقاهما أنوسنت الرابع في مستهل عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م . ولم يحمل هذا الاتجاه المغولي البابا على اليأس من الاستعانة بالمغول بعقد حلف معهم ضد المسلمين ، فانفذ سفارة ثانية برئاسة الاخ الدومنيكاني اسلين (Ascelin) اللّمباردي الذي التقى في تبريز بالقائد المغولي بيتشو (Baichu) الذي أبدى استعداداً مغولياً للتحالف مع الغرب المسيحي ضد المسلمين ، وأعاد الرسول ومعه اثنين من بلاطة ليؤكدا للبابا حسن نوايا المغول فيما يطمع فيه[1] .

والذي يجدر ذكره هنا أن هذه الإتصالات بين المغول والغرب المسيحي جرت أثناء مسير لويس التاسع ملك فرنسا على رأس حملته إلى المشرق الإسلامي ، وهنا يبدو أن المغول قد فطنوا آنذاك إلى أنه من الأفضل لهم الاتصال بلويس الذي أصبح يمثل الجانب العملي في الصراع مع المسلمين . فأوفدوا إليه في قبرص وهو في طريقه إلى مصر

---

(١) جوانفيل ، القديس لويس ، مقدمة المترجم ، ص ١٧ ـ ١٨ ، وتبريز : من أشهر مدن أذربيجان (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

رسولين مغوليين يعرضان عليه رغبة الخان الأعظم في محالفته واستعداده لمساعدته على تحقيق هدفه الأسمى استخلاص بيت المقدس من المسلمين[١] .

وفي مقابل ذلك بالغ الملك لويس في إكرام وفادة رسل المغول وأنفذ بالتالي سفارة من لدنه إلى خان المغول عادت بعد عامين ، وأرسل معهم هدية ثمينة إلى الخان المغولي ، ذكر جوانفيل أنها عبارة عن خيمة على هيئة كنيسة ، وقال بأنها خيمة غالية لأنها مصنوعة بأكملها من القماش القرمزي الجميل الرائع ، أراد الملك (لويس) أن يرى ما إذا كان في قدرته اجتذاب أولئك التتار للإيمان بديننا (يقصد الدين المسيحي) فأمر بنقش الخيمة بصورة تمثل بشارة سيدتنا العذراء بالمسيح ، وجميع أسس عقيدتنا ، وأرسل الملك هذه الأنباء جميعها بصحبة أخوين من الجماعة المبشرين يعرفان لغة التتار ويستطيعان هداية المغول وتعليمهم السبيل إلى الإيمان[٢] .

على أنه ليس من المعروف على وجه الدقة أبلغت هذه السفارة بلاط كيوك خان أم أنها اكتفت بالوصول إلى معسكر جغطاي خاله ، فذلك ما لم ينص عليه جوانفيل في مذكراته ـ حسب قول الدكتور حبشي ـ والذي رجح في الوقت نفسه أن رسل الملك لويس واصلوا رحلتهم حتى بلغوا بلاط الخان الأعظم الذي كان قد مات فتلقاهم أخيراً الخان الجديد منكو الذي لم يمنعه ترحيبه بالسفارة من اعتبار هديتها دليلاً كافياً على تبعية لويس التاسع له . وحذرهم في الوقت نفسه بأن عدم مبادرتهم إلى هذه الطاعة سيدفعه

---

(١) جوانفيل ، القديس لويس ، ص ٨٥ ، وفي هذا الشأن تساءل الدكتور حسن حبشي عمّا إذا كان ذلك العرض المغولي لمصلحة شخصية أم لا ؟ فذكر أن المغول كانوا في هذه اللحظة يتأهبون لمحاربة الخلافة العباسية في بغداد ، أي أنهم يهيئون سبيلهم لتكوين تحالف مع الصليبيين . أما لويس التاسع فقد نظر إلى المسألة من ناحية أخرى دخل فيها عامل نشأته الأولى ، وتعني بذلك تربيته الدينية وطمعه في أن يحقق للمسيحيين نصراً تطمئن له روحه وذلك بحملة التتار على التنصر ، وإذ ذاك يكون حرباً على المسلمين في الشرق ، ولعلّه فاته أن التتار من جانبهم كانوا يريدون تكوين قوة إرتكاز لهم في هذه المنطقة الحيوية ، كما فاته أيضاً أن عطفهم على المسيحيين كان يماثله عطفهم على بقية الأديان والمذاهب الأخرى التي تعيش في رحابهم : خطة حكيمة ابتدعوها لأنفسهم ، وكانوا بناة دولة (انظر جوانفيل مقدمة المترجم ، ص ١٨ ، ١٩) .

(٢) انظر جوانفيل ، القديس لويس ، ص ٨٥ ، انظر أيضاً حسن حبشي ، الشرق العربي بين شقي رحى ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٤٨ .

إلى محاربتهم . فلما عادت السفارة الصليبية من البلاط المغولي وأفضت بكل ما جرى من خان المغول لام لويس نفسه على إيفاد تلك البعثة[1] .

على أن نهاية تلك السفارة المذلة للويس التاسع لم تصرفه عن معاودة الإتصال بالمغول مرة أخرى ، لا سيما بعد أن وردت إليه بعض الشائعات تقول أن سارتاك أحد خانات المغول اعتنق المسيحية . ورغم أن هذه الشائعات لم يكن لها نصيب من الصحة ، فإن الملك لويس أنفذ وفادة ثانية على رأسها وليم روبروك ـ أحد الرهبان الفرنسيين الذي غادر قيسارية عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م حاملاً معه رسالة خاصة من لويس يرجوا فيها الأذن للمبشرين الكاثوليك بالدعوة للمسيحية في بلاد المغول[2] .

والملاحظ في هذه الوفادة الأخيرة ، أن لويس لم يشر إلى مشروع التحالف مع المغول ، واكتفى بالحرص على نشر المسيحية بين صفوف المغول وأن يكون في هذه الوهلة ، بقرار من الخان الأعظم نفسه يأذن فيه للمبشرين الكاثوليك بنشر المسيحية في البلاد التي يسيطر عليها المغول ، وبناء عليه يبدو أن الملك لويس قطع كل أمل له في الاستعانة بالمغول في صراعه مع المسلمين في الشرق . فالمصادر المعاصرة التي بين أيدينا لم تشر إلى شيء من هذا القبيل . والواقع أن كلا من لويس التاسع والمغول لم يكن في مقدورهم ـ فيما لو نجحت مساعيهم بعقد حلف مغولي صليبي ـ إبراز هذا التعاون بينهما إلى حيّزه العملي . ذلك أن مجيء لويس إلى المشرق صادف الوقت الذي كان المغول قد وصلوا إلى الأراضي الإيرانية . ولا يزال أمامهم الخلافة العباسية في بغداد والأمراء الأيوبيين في شمال العراق وبلاد الشام . وزاد من ذلك أيضاً أن لويس اتجه بقواته إلى الأراضي المصرية مباشرة لمواجهة فرع البيت الأيوبي هناك . وهذا معناه اتساع هوة المسافة بين المغول ولويس التاسع .

ومهما يكن من أمر فإن الملك لويس التاسع لم يتمكن من التوصل إلى أي عمل مقنع للتعاون مع المغول طيلة مقامه في الشرق . أما بالنسبة للصليبيين الغربيين في بلاد

---

(١) جوانفيل ، القديس لويس ، المقدمة ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) جوانفيل ، القديس لويس ، المقدمة ، ص ١٩ ، ٢٠ .

الشام بعده ، فإنهم - كما سبق الإشارة إليه - بالرغم من انضمام إخوانهم المسيحيين الشرقيين من أرمن ونساطره ويعاقبه إلى صفوف المغول ومحاولة هيثوم ملك أرمينية الصغرى الاتصال بأمراء الصليبيين بالشام داعياً إياهم للمشاركة في مشروعه الكبير ، ولكنه لم يجد إستجابة سوى بوهيمند السادس صاحب انطاكيه[1]، قد التزموا مبدأ الحياد تجاه الصراع الإسلامي المغولي ، بل أنهم مالوا بعض الشيء إلى الجانب الإسلامي عندما عرضوا على السلطان قطز المساعدة ضد المغول عند إستعداده لمعركة عين جالوت . وذلك لخوفهم من مستقبل مجهول أمام الغزو المغولي المدمر الذي اتسم بالخيانة والغدر وعدم إحترام العهود والمواثيق . دل على ذلك ما قام به المغول في رمضان من سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م من الإغارة على مدينة صيدا ونهبها وأسر عدد كبير من سكانها[2] .

كان ذلك كله قبل أن تحل الهزيمة بالمغول في موقعة عين جالوت التي يبدو أن هزيمتهم فيها غيرت نوايا الصليبيين تجاه المسلمين رأساً على عقب وباتوا في خوف شديد من تحول جهاد المسلمين ضدهم . ومن الواضح أن الصليبيين في بلاد الشام منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي . كانوا قد بلغوا درجة كبيرة من الجمود ، بعد أن ذبحت الحماسة الصليبية في الغرب الأوربي ، وترتب عليه أن تضاءلت الإمدادات البشرية والمادية التي تصلهم من وطنهم الأم الغرب الأوربي . وهي الامدادات التي كانت تستثير حماستهم بين حين وآخر ، وتجدد نشاطهم ، وتحيي فيهم الروح الصليبية بكل معانيها[3] . وهنا بدأ الصليبيون - الذين كان عليهم أن يواجهوا المسلمين لوحدهم في ذلك الوقت - البحث عن حليف لهم يخفف عنهم وطأة الخطر الإسلامي الذي بات يهدد وجودهم على ساحل بلاد الشام بالزوال . فأخذوا يخطبون ود المغول ، ويتوسلون إليهم طمعاً في إحياء مشروع التحالف معهم . وفي هذا الشأن يذكر

---

(١) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .
(٢) أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٧ .
(٣) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينيه الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٤٤ .

اليونيني صاحب ذيل مرآة الزمان ، أن السلطان الظاهر بيبرس عندما جرد جيوشه سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م لترحيل التتار عن حلب . سارع الصليبيون عند وصول الجيوش إلى غزة إلى مكاتبة المغول يخبرونهم بذلك[١] . كما حدث أيضاً في سنة ٦٦٣ هـ / ١١٦٥ م أن كتب الصليبيون إلى المغول يخبرونهم بأن الوقت ربيع وخيول الإسلام مربوطة ، والعساكر متفرقة في الإقطاعات ، وحرضوهم على انتهاز تلك الفرصة ومهاجمة البلاد الإسلامية ، فاستجابوا لذلك وهاجموا البيره[٢] .

ومحاولة التقارب هذه التي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر تؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن الصليبيين قصدوا بذلك ـ على ما يبدو ـ أحد أمرين : إما جر المغول إلى الاستمرار في ميدان الصراع لتخفيف الوطأة على أنفسهم ، أو محاولة إحياء مشروع التحالف الصليبي المغولي الذي بات ضرورة قصوى تقتضيها الأوضاع السيئة التي آل إليها الصليبيون والمغول على السواء ، عشية ذلك النصر العظيم الذي حققه المماليك المسلمون بكسر المغول وطردهم من بلاد الشام . ومن ثم تضييق الخناق على الصليبيين في ساحل بلاد الشام . بعد أن أصبحت دولة المماليك تضم الأراضي المصرية وبلاد الشام .

والواقع أنه بالرغم من حرص الصليبيين على إحياء فكرة مشروع التحالف مع المغول إلا أنهم كانوا ـ على ما يبدو ـ يدركون بأن وضع المغول السيء بعد معركة عين جالوت ، والذي حدا بهم إلى التقهقر أمام المسلمين وعبور نهر الفرات باتجاه الشرق ، لم يكن ليفيدهم بشيء خاصة بعد أن أحكمت القوات المملوكية قبضتها على الأجزاء

الشرقية من بلاد الشام . يدلنا على ذلك أن الصليبيين الذين كانوا قد حرضوا المغول على مهاجمة الدولة المملوكية من الشرق ، وأستجاب المغول لتحريضهم بالاعتداء على بلدة البيرة . سارعوا عندما علموا بانسحاب المغول عنها بمجرد سماعهم بمسير العساكر الإسلامية إليهم ، إلى إرسال وسيط من قبلهم إلى السلطان بيبرس لطلب الصلح معه .

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، انظر ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٧١ .

(٢) شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

إذ وصله وهو في طريقه إلى بلاد الشام قسطلان يافا ، وسأله في أن يكون واسطة في الصلح بينه وبين ملوك الفرنج[1] ، فأجابه السلطان بيبرس بقوله « إذا كان هذا من عندك أنا ما أقبله ، وإن كان من عند ملوك الفرنج فعرفني » فرد عليه « بل بسؤال ملوك الفرنج » فقال له السلطان « هؤلاء لهم عندي ذنوب كثيرة منها كتابتهم إلى التتار بقصد بلادي .... ولي ولهم حديث »[2] .

ومهما يكن من أمر فإن الظاهر بيبرس رأى أنه لابد من مواجهة ذلك التقارب بين المغول والصليبيين ، الذي قد يؤدي نجاحه وقيام حلف بينهم إلى تورطه في القتال على جهتين متباعدتين ، لذا عقد العزم على مواجهة ذلك الخطر بعقد تحالف مع قوى خارجية تساعده على الوقوف في وجه المغول في المشرق ، والصليبيين على ساحل بلاد الشام . فاتجه نحو بركه خان زعيم مغول القبجاق أو القبيلة الذهبية ، الذي كان قد اعتنق الإسلام واشتهر بعدائه لمغول فارس وزعيمهم هولاكو خان . ففي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م كتب السلطان الظاهر بيبرس إلى بركه خان ، يعلمه أنه ما دام قد اعتنق الإسلام فإن جهاد الكفار واجب عليه . لإغرائه بقتال هولاكو خان[3] . فرد عليه برسالة مضمونها « أنت تعلم أني محب لهذا الدين ، وهولاكو قد تعدى على المسلمين ، واستولى على بلادهم ، وقد رأيت أن تقصده من جهتك ، وأقصده من جهتي ، ونصدمه صدمة واحدة فنقتله أو نطرده عن البلاد التي استولى عليها »[4] .

---

(١) يبدو أن الصليبيين قد نما إليهم أن السلطان الظاهر بيبرس قد بلغه نبأ مكاتبتهم للمغول فخافوا عاقبة تصرفهم هذا ، وحاولوا بهذه الوساطة امتصاص غضبه عليهم وتهدئة الأمور .

(٢) انظر ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٥ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٦٥ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، شافع بن علي ، المصدر نفسه ، ص ٥١ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٧ ، وبركه خان : هو بركه بن جوجي ، تولى الملك سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ومات سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م (انظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، حاشية رقم ١) .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، انظر ايضاً ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٨ .

وبذلك حقق السلطان الظاهر بيبرس هدفه المنشود ، بإشغال هولاكو عن التحالف مع الصليبيين ، حيث أخذت الرسل تتردد بين بيبرس وبركه إلى أن قام بركه إستجابة لدعوة الجهاد الإسلامي التي وجهها له الظاهر بيبرس وهاجم هولاكو واشتبك معه في معارك حربية ضارية ، وفي هذا يذكر بركه في إحدى رسائله إلى بيبرس قوله « وإنني قمت أنا واخوتي الأربعة لحربه (يقصد هولاكو) من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة وذكر الله والأذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الآئمة والأمة » والتمس بركه في الوقت نفسه من السلطان الظاهر بيبرس ، إيفاد جماعة من عسكره إلى جهة الفرات لقطع الطريق على هولاكو ، كما أوصى بركه السلطان بالاتصال بعز الدين سلطان سلاجقة الروم لطلب المساعدة على هولاكو[١] .

كما ترتب على اتصال بيبرس ببركه خان ، وتفاقم الخلاف بين بركه وهولاكو نتيجة أخرى ، هي أن الاضطراب الذي عمّ بلاد المغول بسبب ذلك الصراع المرير ، أدى إلى هروب جماعات مغولية إلى بلاد الشام ومصر ، وذلك راجع إلى ما سمعوه عن تسامح المسلمين هناك وحسن معاملتهم للوافدين الذين كان السلطان الظاهر بيبرس قد أصدر تعليماته إلى نوابه بالشام ومصر إلى إكرامهم ، وتقديم كل ما يحتاجون إليه وإنزالهم في دور بنيت لهم[٢] . ومن ثم تقطع لهم الإقطاعات[٣] .

وإلى جانب ذلك يمكن القول أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس قد حقق بتعاونه مع بركه خان القبجاق ، نصراً آخر على هولاكو ظهر واضحاً في تلك الجموع

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٧١ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٦٣ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٢٥ ، لمعرفة تفصيل الصراع الذي دارت رحاه بين هولاكو وبركه انظر (رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٦ ، أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٢٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٩ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٦٤ ، دول الإسلام ، ص ١٦٦)

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٧١ .

المغولية الوافدة على دولة المماليك . فالمصادر التي أوردت نبأ وصول هذه الوفود التي كانت ترد إلى الظاهر بيبرس على فترات متقطعة وبأعداد ضخمة ، لم تشر إلى أنهم من عند الخان المسلم بركه ، بل وصفتهم « بالمستأمنين المغول »[1] . وهذا الوصف يؤكد لنا أن هذه الجموع المغولية الوافدة التي جاءت مستأمنة إلى دولة المماليك هي من مغول فارس أتباع هولاكو لا من مغول القبيلة الذهبية « القفجاق » المسلمين أتباع بركه ، وإلا لما كانوا وصفوا بالمستأمنين .

•

وما قيل عن تحالف الظاهر بيبرس مع بركه خان ، يمكن أن يقال أيضاً عن اتصاله بالامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس الثامن ، الذي كان هو الآخر حريصاً على محالفة بيبرس ، وتقديم المساعدة له ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن عبدالظاهر مؤلف السيرة الظاهرية ، أنه في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م وصل كتاب من الأمبراطور البيزنطي إلى الظاهر يقسم فيه بقوله « أنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ، ساعدته بكل ما تقدر سلطتي عليه »[2] .

والواقع أن كلاً من السلطان الظاهر بيبرس ، والامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس كان حريصاً على التقرب من الآخر . فالسلطان المملوكي بيبرس الذي تمكن بتحالفه مع خان القفجاق بركه من الحد من خطورة قيام حلف مغولي صليبي ضد دولته ، كان يخاف نتيجة ذلك أن يقدم الصليبيون في ساحل بلاد الشام على استرضاء الامبراطور البيزنطي وعقد تحالف معه ضده . لذا كان عليه أن يبادر إلى إجراء اتصالات مع البيزنطيين لمنع احتمال قيام ذلك الحلف الجديد . وفي الوقت نفسه كان الامبراطور البيزنطي يحرص هو الآخر أشد الحرص على مصادقة السلطان الظاهر بيبرس ، لاشتراكهما معاً في عداوة الصليبيين ببلاد الشام ، فضلاً عن أن الامبراطور البيزنطي الذي كان يتعرض بين آونة وأخرى لغارات مغول القبيلة الذهبية (القفجاق)

---

(١) انظر ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٣٧ ، ١٧٨ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠١ ، ٥١٠ - ٥١١ ، ٥١٥ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٨ .

كان يرى أن مصادقته للسلطان المملوكي بيبرس حليف بركه خان هو السبيل الوحيد لكف مغول القفجاق عن مهاجمة بلاده . يدلنا على ذلك إقدام الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م على اعتراض رسل السلطان الظاهر بيبرس الذين كانوا في طريقهم إلى الملك بركه ، وذلك لما لحقه من الإغارة والأذى ، وسيّر ميخائيل إلى الظاهر بيبرس رسالة يخبره بذلك ويذكّره بما بينهما من تحالف على الصفاء والصداقة . فكتب بيبرس إلى بركه يوصيه بكف الأذى عن البيزنطيين ، فبادر الامبراطور البيزنطي إلى إطلاق رسل السلطان والإحسان إليهم[١] ، كذلك أرسل الامبراطور البيزنطي في سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م رسولاً من قبله إلى السلطان الظاهر بيبرس يخبره أن غارات بركه قد أضرت ببلاده ، وسأله رده عنه[٢] .

وأياً كان السبب الذي دعا الإمبراطور البيزنطي إلى ذلك ، فإن السلطان الظاهر بيبرس « وكما سبق أن أشرنا ـ أبرم في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م إتفاقية صداقة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس وكذلك الحال بالنسبة لملك صقلية مانفرد بن فردريك الثاني هوهنشاوفن[٣] . كما يُذْكَر أيضاً أنه في شهر رمضان من سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م وصل رسول من الملك شارل ، صاحب مرسيليه ، والذي هو في الوقت نفسه أخو لويس التاسع ملك فرنسا ، وصحبته هدية إلى السلطان الظاهر بيبرس ، وكتاب مضمونه « المحبة والمشايعة »[٤] ، كما أن تلك الاتفاقات الودية مع الغرب شملت كذلك ملك قشتاله الفونسو العاشر ، المعروف بالعَالِم الذي أرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس هدية ثمينة ، عبارة عن خيول عربية أصيلة ، وذلك في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م وردّ عليه بيبرس بهدية مماثلة من بينها زرافة ، وسن فيل ، وتمساح

---

(١) شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٧٩ .

(٢) شافع بن علي ، المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣) راجع ما سبق في الفصل الثاني .

(٤) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢٨ ، انظر ايضاً ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٠١ .
Selctions from Tarik ibn Alfurat. p 83.

محنط لا زال حتى اليوم معلقاً على مدخل الباب الشرقي لكتدرائية اشبيليه ، وتضيف الرواية أن السلطان بيبرس طلب الزواج من إبنة الملك الأسباني الفونسو العاشر ، ولكن طلبه ذلك لم يتحقق[١] .

ويجدر بنا هنا أن نتساءل عن السبب الذي دفع أباطرة وملوك الغرب الأوربي ، وبهذا العدد إلى خطب ود السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذي عُرِف بعدائه لأبناء جلدتهم الصليبيين في بلاد الشام ؟ والذي يبدو لنا هو أن الغرب الأوربي الذي كان يعاني وضعاً سيئاً بسبب المشاكل والخلافات التي كانت سائدة بين حكامه ، هي التي دفعتهم إلى ذلك العمل قاصدين بذلك وبطريقة غير مباشرة استرضاء بيبرس لإثنائه عن مهاجمة بقايا الإمارات الصليبية ببلاد الشام بعد أن أدركوا عجزهم عن تقديم أية مساعدة لإخوانهم هناك . وعليه يمكن القول إن تلك المعاهدات التي أبرمت ، والسفارات التي تبودلت بين السلطان الظاهر بيبرس ، وبين ملوك وأباطرة الدول المحيطة بدولته من الشرق والغرب ، جنبت دولة المماليك المسلمين ، خطراً كان يتهددها من جراء تلك المحاولات التي بذلت لعقد حلف مغولي صليبي ضدها . وأضحى السلطان بيبرس في وضع طيب بعد أن استطاع تجميد النشاط المغولي ضد دولته في الشرق بإشغالهم في حروب داخلية ، وحرمان الصليبيين في بلاد الشام من أية مساعدة خارجية وتمكن بفضل ذلك العمل من توزيع نشاطه على الجبهتين الصليبية والمغولية معاً .

---

(١) راجع العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

Selctions from Tarik Ibn Alfurat, p. 106.

ويذكر أن سبب تسمية الفونسو العاشر بالعالم أو الحكيم لأنه أشرف على كتابة الحولية التاريخية الكبرى في تاريخ أسبانيا .

Primera Gronica Gereral de Espan.

واستعان على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين والمسيحيين واعتمد هؤلاء على عدد كبير من المصادر العربية واللاتينية والبيزنطية وعلى جميع الحوليات الأسبانية السابقة كذلك نشطت حركة الترجمة في طليطلة في عهد هذا الملك الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء (انظر العبادي ، المرجع نفسه) .

استيلاء بيبرس على إمارة أنطاكيه الصليبية ٦٦٦ هـ :

ترجع عداوة السلطان الظاهر بيبرس للصليبيين إلى أيام خدمته للملك الصالح أيوب لتحالفهم أكثر من مرة مع بعض الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام ضد سيده الصالح أيوب في مصر ، حتى أنه في وقت لاحق أنَّبهـم على تصرفهم هذا[١] ، وزاد من عدائه لهم ، الحملة الصليبية التي قام بها القديس لويس على مصر بعد ذلك ، والتي ساهم بيبرس بنفسه مساهمة فعالة في عدم نجاحها . ولا شك أن هذه الحملة الصليبية جعلت الظاهر بيبرس يدرك نوايا الصليبيين ، وطموحاتهم في فرض سيطرتهم على المراكز الإسلامية الهامة في الشام ومصر ، الأمر الذي جعله عندما أصبح رئيساً للدولة المملوكية التي خلفت الدولة الأيوبية في مصر والشام ، يفكر جدياً منذ اللحظة الأولى لحكمه في استئصال شأفة الصليبيين من بلاد الشام ، باعتبارهم دخلاء عليها ، إذ لا سلامة للدولة الإسلامية مع وجودهم . فوضع لذلك مخططاً ، نفذه بحزم وقوة مما جعل عهده يصبح نقطة تحول في الحروب الصليبية[٢] .

وعليه فإن اهتمام الظاهر بيبرس بأمر الصليبيين بدأ منذ اللحظة الأولى لتوليه مقاليد السلطة في الدولة المملوكية ، وذلك أنه في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م بلغه وهو بالاسكندرية أن جماعة من الصليبيين الغربيين ، ومقدمهم الملك شارل أخو ملك فرنسا ، قصدوا ساحل بلاد الشام . فأصدر بيبرس أوامره إلى جيوشه بالتوجه إلى بلاد الشام لملاقاة تلك الحملة الصليبية الجديدة التي كانت وجهتها ـ على ما يبدو ـ عكا ، كما بلغه أيضاً في السنة نفسها أن اثنى عشر مركباً للصليبيين وصلت إلى الإسكندرية ، ونزل من بها في الميناء وأخذوا مركباً للتجار وأستولوا على ما فيه ثم أحرقوه ، وذلك في غيبة رئيس الأسطول في مهمة استدعاه السلطان الظاهر بيبرس بسببها ، ولما بلغ بيبرس ذلك

---

(١) انظر ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٨ .

(٢) الخويطر ، المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

بعث يأمر بألا يفتح أحد حانوتاً بعد المغرب ، ولا توقد ناراً في البلد ليلاً . ثم تجهز بسرعة وخرج صوب دمياط لاحتمال مهاجمة الصليبيين لها في يوم الخميس خامس ذي القعدة ، وفي ذي الحجة من السنة نفسها ، أمر بعمل جسرين أحدهما من مصر إلى الجزيرة والآخر من الجزيرة إلى الجيزة على مراكب لتجوز العساكر عليها ، ثم عاد السلطان الظاهر من دمياط ولم يلق حرباً[1] . إذ يبدو أن الصليبيين عندما سمعوا بمسيرة إليهم عادوا أدراجهم هاربين .

وفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م أغار جيش السلطان الظاهر بيبرس ـ الذي كان قد خرج من دمشق إلى حلب لتأديب الأمير آقوش البرلي الذي رفض الانصياع لأوامر بيبرس ، بالحضور إلى مصر ـ على بلاد أنطاكيه وهاجم عساكرها في البر والبحر ، وعاد محملاً بالغنائم[2] ، كما حدث أيضاً في السنة نفسها أن خرجت العساكر الإسلامية من جهة بعلبك للإغارة على الصليبيين ، فسألوا رجوعها ، وبعثوا رسلهم ومعهم الإقامات إلى السلطان الظاهر بيبرس ، وسألوه الصلح ، فتوقف وطلب منهم أموراً لم يجيبوا إليها فأهانهم ، ثم اتفق أن حل الغلاء ببلاد الشام فتقرر الصلح وتم الاتفاق على إطلاق سراح الأسارى من حين أنقضت الأيام الناصرية وسارت رسل الصليبيين إلى السلطان لأخذ العهود وتقرير الهدنة ، لكونت يافا (Gount of Jaffa) ومتملك بيروت أما بالنسبة للأسرى فيبدو أن السلطان بيبرس اشترط شروطاً رفضها الصليبيون ، فرد عليهم بأن

---

(١) انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، والمقصود بالجزيرة هنا جزيرة الروضة ، التي أنشأ بها الملك الصالح أيوب في سنة ٦٣٨ هـ قلعة عرفت بقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة ، وبقلعة جزيرة الفسطاط ، وبقلعة المقياس ، وبالقلعة الصالحية ، وقد أنفق الصالح في عمارتها أموالاً كثيرة ، حيث بنى فيها الدّور والقصور ، وعمل لها ستين برجاً ، وبنى بها جامعاً ، ثم اتخذها دار ملك وسكن فيها بأهله وأسكن معه بها مماليكه ، الذين عرفوا بالمماليك البحرية نسبة إليها (انظر المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ ، ١٨٣ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٢٠) .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١١٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

أمر بنقل اسراهم من نابلس إلى دمشق ، واستعملهم في العمائر هناك ، وتعلل الصليبيون بالعوض عن زرعين فأجيبوا « بأنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية مرج عيون وقايضتم صاحب تبنين والمقايضة في أيديكم ، فكيف تطلبون العوض مرتين فإن بقيتم على العهد ، وإلا ما لنا شغل إلا الجهاد »[١] .

ويبدو أن هذا الاختلاف بين السلطان الظاهر بيبرس ورسل الصليبيين حول اطلاق سراح الأسرى ، ومطالبتهم العوض عن زرعين ، جعل السلطان يشك في صدق مهادنتهم ، فجرد فرقة من جيشه بقيادة أحد أمرائه في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م أغارت على بلاد الصليبيين وعادت سالمة غانمة وبلغ السلطان بيبرس في الوقت نفسه أن جماعة من عرب زبيد قد كثر فسادهم ، وأنهم خالطوا الصليبيين ، ودلوهم على عورات المسلمين ، فساق جماعة من البحرية كان قد كتم خبرهم إليهم لتأديبهم[٢] . كما عمل في السنة نفسها على تأديب صاحب انطاكيه الأمير بوهيمند السادس (Bohemond vl of Antioch) الذي وصفه ابن عبدالظاهر مؤلف السيرة بأنه « كان مستمراً على ما هو عليه من التخوف من المهابة السلطانية » حيث جرد إليه العساكر الإسلامية صحبة الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، وسير معه الملك الأشراف صاحب حمص ، والملك المنصور صاحب حماه ، ونازلوا انطاكيه وهاجموا ميناءها وأحرقوا المراكب بعد أن غنموا ما بها ، ثم حاصروا السويداء واستولوا عليها ، وعادت الجيوش الإسلامية إلى مصر ومعها سنقر الرومي حيث دخلت القاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م فاستقبلهم السلطان احسن استقبال ، وسير الخلع إلى الملكين الأشرف والمنصور في بلديهما[٣] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١١٨ ، ١١٩ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٣ ، وزرعين : قرية تقع قرب مدينة الناصرة بفلسطين : Lastrange Palestine under the moslems. p.441. ومرج عيون : بلدة بسواحل الشام ، وتبنين : بلدة في جبال بني عامر ، المطلة على بانياس بين دمشق وصور (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢ ، والسويداء : قرية بحوران من نواحي دمشق . والسويداء أيضاً بلد بديار مضر قرب حران ، بينها وبين بلاد الروم (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

والملاحظ هنا ان السلطان الظاهر بيبرس قد اتبع حتى هذا الوقت في جهاده ضد الصليبيين أسلوب المباغته والهجمات الخاطفة إذ أنه ببراعته الحربية وحنكته السياسية لم يرد الدخول مع الصليبيين في معارك كبيرة ، لأنه لم يكن قد أمن جانب المغول ، بدليل محاولة المغول أكثر من مرة عبور نهر الفرات ومهاجمة دولته من الشرق[١] . هذا بالإضافة إلى أنه كان على السلطان الظاهر بيبرس أن يخضع حصني الكرك[٢] ، والشوبك[٣] ، اللذين كانا حتى ذلك الوقت مستقلين عن دولة المماليك . فبادر بعد تلك الهجمات السريعة التي كالها للصليبيين ، إلى الالتفات لإخضاع هذين الحصنين الهامين ، وهنا تبدو لنا براعة السلطان بيبرس ، والتي تمثلت في حرصه الشديد على حقن دماء المسلمين وادخارها لجهاد أعداء الإسلام المغول والصليبيين حيث حرص في مشروعه هذا على استمالة من بداخل حصني الشوبك والكرك من المسلمين بالطرق السلمية ، فبذل في الأول الأموال والخلع حتى تسلمه وولى عليه أميراً من قبله[٤] . وكذلك الحال بالنسبة للملك المغيث الأيوبي صاحب الكرك ، الذي كانت أمه قد قدمت على السلطان بيبرس بغزة فأكرمها ، وتحدث معها في حضور إبنها إليه ، وسيّر له معها الإقامات والهدايا وبعث إليه يستدعيه ويعده الوعود الحسنة . وهنا يُذكر أن المغيث عندما وصل إلى القاهرة ، أحضر السلطان بيبرس الملوك والأمراء وقاضي القضاة ، وأطلعهم على كتب

---

(١) راجع ما سبق في الفصل الثاني .

(٢) حصن على مرتفع تحيط بها أودية إلّامِنْ من جهة الربض . وقد حصنه فولك (Fulk) صاحب بيت المقدس حوالي سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م شرق البحر الميت ليكون قوة لبيت المقدس . وقد حاصر نور الدين محمود هذا الحصن بعد حوالي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م كما حاصره أيضاً صلاح الدين الأيوبي في هذه السنة وكذلك في سنتي ٥٧٩ ـ ٥٨٠ هـ / ١١٨٣ ـ ١١٨٤ م ثم استسلم للملك العادل سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٩ م قبيل صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، أبو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٥ حاشية) .

Lanepool. Saladin. p 249 - 250.

(٣) حصن آخر بناه الملك بلدوين (Baldwin) صاحب بيت المقدس سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م جنوب البحر الميت على منطقة عالية ليسهل عليه مهاجمة القوافل التي تتردد على مصر مارة بهذا الطريق (انظر معجم البلدان ، ابو شامه ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٦ حاشية) .

(٤) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٢١ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٤٨ .

الملك المغيث إلى المغول وكتب المغول إليه ، وأخرج أيضاً فتاوي الفقهاء بقتاله ثم أحضر القصاد الذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاكو ، ولما ثبت ذلك أمر بسجنه في قلعة الجبل وأطلق سراح حريمه وحواشيه وأجرى لهم الرواتب[1] .

والواقع أن إخضاع السلطان الظاهر بيبرس لحصني الشوبك والكرك قد تزامن على ما يبدو مع تحالفه مع بركه خان زعيم مغول القفجاق وكذلك الحال بالنسبة للصليبيين الذين حكم عليهم بالعزلة التامة بعد توصله إلى عقد معاهدة صداقة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس ، فضلاً عن اتصاله بمنفرد بن فردريك الثاني وملك صقليه وغيره من ملوك الغرب الأوربي .

إلا أن الصليبيين بالرغم من ذلك ، استغلوا انشغال السلطان الظاهر بيبرس بأمر حصن الكرك ، وحاولوا التنصل من الهدنة بمعاودة الحديث في أمر الأسرى وزرعين ، ووصلت إلى السلطان بيبرس كتب النواب يشكون من الصليبيين . وأنهم اعتمدوا أموراً تفسخ الهدنة ، وأن رسلهم ترد بندمهم على الهدنة وطلب فسخها[2] .

ولما فرغ السلطان الظاهر بيبرس من أمر الملك المغيث صاحب الكرك ، أمر بإحضار رسل البيوت الصليبية وقال لهم « ما تقولون ؟ » قالوا « نتمسك بالهدنة التي بيننا » فرد عليهم رداً غليظاً وذكر لهم بأن ذلك كان ممكناً قبل مسيره إليهم وإنفاق الأموال التي وصفها بأنها « لو جرت لكانت بحاراً » في سبيل الوصول إليهم ، إضافة إلى تذكيره إياهم بإقدامهم على بناء سور على ربض أرسوف ، الذي كان من شروط الهدنة عدم تجديده ، فضلاً عن امساكهم رسل السلطان بيبرس المسيرين إلى جهة سلاجقة

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦٠ هـ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ ، انظر أيضاً ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٤٨ ، ٥٦ ، ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٠ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٥٧ .

الروم ، وارسالهم إلى جزيرة قبرص ، ومنعهم الميره والجلب[1] عن عساكر المسلمين عند توجهها إلى بلاد الشام ، وكذلك عدم إنفاذهم أسرى المسلمين في الوقت الذي كان السلطان بيبرس قد أنفذ أسراهم من نابلس إلى دمشق ، كما ذكرهم بما تم الاتفاق عليه بينهم وبين الملك الصالح إسماعيل من أن يسلم لهم صفد والشقيف مقابل مساعدتهم على الملك الصالح أيوب ، وحيث أن تلك المملكة قد تلاشت وبيبرس ليس في حاجة إلى مساعدتهم ، فقد طالبهم برد تلك البلاد إلى المسلمين كما أنبهم في الوقت نفسه على ما قدموه من مساعدة للويس التاسع عند مهاجمته الأراضي المصرية[2] .

وبالرغم من أن رسل الصليبيين عندما سمعوا كلام السلطان بهتوا وقالوا « نحن لا ننقض الهدنة ، ونطلب مراحم السلطان في استدامتها ، ونحن نزيل شكوى النواب جميعها ، ونفك الأسرى ، ونستأنف الخدمة »[3] ، إلا أن السلطان الظاهر بيبرس عاد مرة أخرى ورفض تضرعهم إليه باستمرار الهدنة ، لعلمه - على ما يبدو - أنهم إنما قالوا ذلك عندما شعروا بمسيره إليهم . وأنه في حالة ابتعاده عنهم يستأنفون تنصلهم وخداعهم . فوجد في مخالفاتهم تلك تبريراً كاملاً لمهاجمتهم ، فعزم على ضربهم في الصميم بمهاجمة مدينة عكا ، حيث سار يوم السبت رابع جمادى الآخرة من سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م ونزل على المدينة وأحاط بها من ناحية البر ، وندب فرقة من عسكره لمحاصرة أحد أبراجها الهامة فشرعوا في نقبه ، واستمر السلطان في حصار المدينة

---

(١) المقصود بالجلب هنا : هو ما تجلبه البلاد من الأطعمه للجيوش النازلة بقربها ويتضح هذا المعنى من عبارة استقاها الدكتور / محمد مصطفى زياده ، من كتاب النهج السديد لمفضل بن أبي الفضائل ص ١٠٨ نصها « فأرسل الله سبحانه من الأمطار ما منعت الجلب فغلت الأسعار ولحق العسكر مشقة عظيمة (راجع المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٥ حاشية رقم ١) ، وأرسوف مدينة على ساحل الشام بين يافا وقيساريه (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) انظر ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٣ - ١٥٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٤ - ٤٨٧ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٥٧ ، وصفد : مدينة في جبال عامله المطلة على حمص والشام وهي من جبال لبنان ، والشقيف : بلدة تعرف بشقيف أرنون عبارة عن قلعة قرب بانياس من أرض دمشق (انظر ، ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ١٥٦ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٧ .

إلى قريب المغرب ، وكان قصده من ذلك الهجوم ، كشف المدينة التي كان الصليبيون يزعمون أن أحداً لا يستطيع الإقتراب منها لحصانتها ، وفي صباح اليوم الثاني نظّم السلطان هجوماً آخر أقوى على مدينة عكا ، فوجد أن الصليبيين قد حفروا خندقاً حول تل الفضول وأقاموا معاثر[1] في الطريق ، ووقفوا صفاً واحداً على التل ، فلما أشرف عليهم السلطان بيبرس رتب عسكره ، وأخذ المسلمون في التهليل والتكبير ، والسلطان يحثهم على الإكثار من ذلك حتى ارتفعت أصواتهم . ثم أمر غلمان العساكر ، ومن حضر معه من الفقراء المجاهدين بردم الخنادق ، وصعد المسلمون فوق تل الفضول ، وانهزم الصليبيون أمامهم إلى داخل المدينة ، ثم امتدت أيدي المسلمين إلى ما حول عكا ، فهدموا الأبراج وأحرقوا الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها ثم استغلوا ذلك وتقدموا إلى الأبواب وهاجموا بضراوة من وجدوا عليها من الصليبيين ، والسلطان بيبرس واقف على رأس التل يصدر توجيهاته لأمراء عسكره الذين حملوا على أبواب المدينة واحداً بعد الآخر ، حتى آخر النهار حيث ساق السلطان بنفسه على البرج الذي كان المسلمون قد نقبوه حتى تعلق وانهدم ، وأسر منه أربعة من الفرسان ، ونيف وثلاثين رجلاً . وبات المسلمون ليلتهم على ذلك ، ولما أصبحوا عاودوا الهجوم على المدينة حتى كشفوها ، يتقدمهم السلطان بيبرس الذي عَبَرَ على الناصرة حتى شاهد خراب كنيستها وقد سُوّي بها الأرض ، ثم عاد بجيشه إلى الصفة التي كان قد بناها على الطور ، واستراح بها إلى يوم الاثنين الثالث عشر من الشهر نفسه ، ثم سار إلى القدس وتفقد أحوالها وما يحتاج إليه المسجد من العمارة ، ونظر في الأوقاف وكتب بحمايتها ورتّب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم[2] .

---

(١) يبدو أن كلمة معاثر جمع عاثور ، وهو ما يعد في الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيها المارة ، وتأتي أيضاً بمعنى المهلكة من الأرض ، وبمعنى البئر (انظر ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ ، حاشية رقم ٢) .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦١ هـ ، إبن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، إبن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٨ - ١٦٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٧٩ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٥٧ ، الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ص ٨٦ .

Selctions from Tarik Ibn Alfurat. P. 78.

وحدث في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م أن أغار هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى على الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ، ولما علم السلطان الظاهر بيبرس بذلك ، أمر عساكره في دمشق وحمص بالخروج إليه ، فانهزم هيثوم وولى الأرمن الأدبار . وأغار المسلمون في طريق عودتهم على انطاكيه وساحل بلاد الشام حتى وصلوا إلى أبواب عكا ، وغنموا غنائم كثيرة[١] .

وفي رمضان من السنة نفسها بلغ السلطان بيبرس أن الصليبيين توجهوا إلى جهة يافا ينوون الإغارة على البلاد الإسلامية المجاورة فأصدر أوامره بمهاجمة قيسارية وعثليث ، فلما سمع الصليبيون بذلك خافوا وعدلوا عما كانوا ينوون عليه[٢] .

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس لم يشأ أن يطيل هجومه على هذه المناطق في هذه السنة ، ولعل ذلك كان بسبب سماعه بهجوم المغول في بداية سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م على البيره ، حيث وجه همه نحو المناطق الشرقية من دولته فأصدر أوامره إلى جيوشه في الشام بالمسير إلى البيرة وصد المغول عنها[٣] . ولما تم له ذلك عاود مهاجمة قيسارية مرة أخرى وذلك في تاسع جمادى الأولى من السنة نفسها ، حيث أمر بإحضار المنجنيقات والسلالم ، وأمر جيوشه بالتقدم من عيون الأساور باتجاه مدينة قيسارية ، لفرض الحصار عليها وردم خنادقها وخرب أسوارها بالمنجنيقات ، ومن ثم نصب السلالم على الأسوار ، وصعد إلى داخل المدينة ، وفي الوقت نفسه تمكنت المنجنيقات من خرق الأبواب فاندفع المسلمون إلى الداخل ، ولجأ من بداخل المدينة من الصليبيين إلى قلعتها

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١١ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦٢ هـ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٠٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٢ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٨ ، الحريري ، الإعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين ، ورقة ١٤١ ب ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٧٨ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٠ .

Selctions. opcit. p 82.

وقيسارية : بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام ، وعثليث : اسم حصن بسواحل الشام كما يعرف بالحصن الأحمر (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٥ .

التي كانت تعرف بالخضراء وهي من أحصن القلاع وأحسنها ، وزحف المسلمون عليها بالمنجنيقات والدبابات ، والزحافات[1] ورشقوها بالسهام ، واستمروا في حصارها وضربها إلى ليلة الخميس منتصف شهر جمادي الأولى ، حيث شعر من بداخل القلعة من الصليبيين بعجزهم عن الاستمرار في الدفاع عنها ، فسلموها للسلطان الظاهر بيبرس بما فيها من المؤن والعتاد ، فدخلها المسلمون من أعلاها وأسفلها بتسلق أسوارها وخرق أبوابها وأذّنوا لصلاة الصبح عليها ، ثم صعد إليها السلطان بيبرس بنفسه ومعه كبار الأمراء ، وأمر بهدم القلعة كلها وشارك في هدمها بنفسه ، ولما قارب الفراغ من هدمها ، بعث الأمير سنقر الرومي ، والأمير سيف الدين المستعرب على رأس فرقة من عسكر المسلمين فهدموا قلعة كانت للصليبيين عند الملوحة بالقرب من دمشق[2] .

وفي غمرة ذلك الانتصار العظيم أمر السلطان الظاهر بيبرس جيوشه في السادس والعشرين من جمادى الأولى بالتوجه إلى عثليث ، وسيّر في الوقت نفسه فرقة من جيشه لمهاجمة مدينة حيفا ، التي ما أن سمع من بها من الصليبيين بذلك حتى هجروا المدينة إلى المراكب في البحر ، فدخلها المسلمون وهدموا أسوارها وقلعتها وعادوا محملين بالغنائم . أما السلطان بيبرس فقد وصل بالجيش الرئيسي إلى عثليث حيث فرض عليها حصاراً شديداً ، وقطع أشجارها وخرب أبنيتها في يوم واحد ، ثم عاد إلى قيسارية وأكمل هدمها حتى لم يبق لها أثر[3] .

---

(١) عن هذه الأسلحة أنظر ما يلي في الفصل الخامس .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٨٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٢ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٧٢ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ ، ابن إيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ١٠٧ .
Selctions From Tarik Ibn Alfurat. P. 89.

(٣) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٧ .
Selctions from Tarik Ibn Alfurat. p 86.

وفي التاسع والعشرين من جمادي الأولى رحل السلطان من قيسارية وسار إلى أرسوف ، ونزل عليها في مستهل جمادى الآخرة ، وفرض حصارها ثم أمر بجمع الأخشاب والأحطاب حول سورها ، فعملت منه الستائر والسلالم كما أمر بحفر « سرابين » من خندق المدينة إلى خندق القلعة ، وسُقِفت هذه السرابين بالأخشاب ، ولما فرغ من ذلك سلم السرابين إلى عدد من إمرائه إلا أن الصليبيين كشفوا ذلك وتمكنوا من إشعال النيران في الأخشاب ، ولما رأى السلطان ذلك أمر بالحفر من باب السرابين إلى البحر ، وعمل سروبا تحت الأرض يكون حائط خندق الصليبيين ساتراً لها وعمل في الحائط أبواباً لكي يُرْمى التراب منها فينزل من السروب حتى يساوي أرضها أرض الخندق ، وأحضر المهندسين لتقرير ذلك العمل الذي أشرف السلطان بنفسه عليه ، وشارك جيشه في الحفر وجرّ المنجنيقات ، ورمي التراب ، ونقل الأحجار ، كما حضر للمشاركة العبّاد والزهاد والفقهاء ، حتى النساء الصالحات كن يسقين الماء في وسط القتال . ولما أتم المسلمون ذلك العمل بدأوا الزحف على مدينة أرسوف وذلك في ثاني رجب ، ولم يشعر الصليبيون إلا بالمسلمين قد تسلقوا الأسوار ونزلوا إلى داخل المدينة ، وأُحرقت أبوابها ، وتدافع المسلمون إلى داخل البلد وصعدوا إلى القلعة ، ورفعوا الأعلام الإسلامية على الباشورة إيذاناً بسقوط أرسوف في أيديهم[1] .

ويبدو أن تلك الانتصارات العظيمة التي حققها السلطان بيبرس ضد الصليبيين ، قد أثارت حفيظة البرنس بوهيمند السادس أمير انطاكيه / طرابلس ، الذي بدأ يشعر بأن الدور آت عليه لا محالة ، وأن أعمال بيبرس تلك إنما هي لتمهيد الطريق للوصول

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ ، ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٩ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٨ ـ ٥٣٠ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣٤ (مخطوط) ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٧٢ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٢ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ١٠٧ .

Selctions from Tarik Ibn Alfurat. p 91 - 97.

والباشورة جمعها بواشير : وهي حصن أو مقدم ما في الحصن أو بناية متقدمة على الحصن لإيقاف زحف العدو : وبمعنى أشمل هي الحائط الظاهري للحصون (انظر ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٢ ، ص ١١٦ حاشية) .

إلى إمارته . فقام في أوائل سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م بشن هجوم مباغت على مدينة حمص في شمال الشام ، ساعده فيه الداويه والاسبتاريه ، الذين طلب منهم مساعدته . ولكن حاكم مدينة حمص علم بتحركه ، فاستعد له ووقع اشتباك بين الطرفين في الرابع من صفر من هذه السنة (نوفمبر ١٢٦٥ م) انتهى بهزيمة بوهيمند ، الذي قنع من الغنيمة بالإياب ، فتبعه المسلمون إلى أن توغل في البلاد التي تحت يده ، وعادوا بعد أن غنموا من جيشه غنائم كثيرة[1] .

أدى انكسار بوهيمند السادس إمام جيش حمص بهذه السرعة إلى تشجيع الظاهر بيبرس على محاولة تحقيق المزيد من الانتصارات على الصليبيين في ساحل بلاد الشام . فوجه همته في السنة نفسها إلى الإستيلاء على صفد التي وصفها ابن عبدالظاهر بأنها « الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الإسلام »[2] ، وبدأ بيبرس استعداده لهذا العمل ، بإصدار أوامره إلى عماله على مصر بإحضار العساكر من إقطاعاتهم ، وتجهيزهم بعددهم وعتادهم للخروج إلى بلاد الشام . حيث خرج السلطان الظاهر بيبرس على رأس هذه الجيوش في أوائل رجب من سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م ومضى في طريقه على غزة والخليل والقدس ، حيث صلى الجمعة بالحرم الشريف ورحل إلى عين جالوت ، وأمر عساكره بالتوجه إلى حمص ، وحرص بيبرس على إخفاء حركته ، فلم يخبر عساكره بالوجهة التي يقصدها ، حتى وصلوا إلى حمص ، فورد إليهم كتابه يأمرهم بالتوجه إلى طرابلس ، فهاجموا الصليبيين بها على غرة ، وجاسوا خلال ديارهم وأوديتهم ، وأغاروا على حصن الأكراد ، واستولوا على قلعة عرقة ، وحلباء ، والقليعات ، وهدموها بعد أن غنموا ما بها من العدد والعتاد . ولما ورد الخبر بذلك إلى السلطان بيبرس الذي كان قد وصل إلى جهة عكا . جرَّد عدداً من أمرائه بجماعة من العسكر إلى صور ، فأغاروا عليها ، وغنموا منها كثير من الجمال والبقر والغنم ، ثم انفصل عنهم أحد الأمراء بفرقة من ذلك الجيش وأغار على صيدا أما السلطان فقد أغار بمن معه من الجيش على عكا

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٤٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٣ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٨٦ ، ٨٧ (مخطوط) ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

Selctions from Tarik Ibn Alfurat. p 107.

(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

واستولى على إحدى القلاع القريبة منها . وقام في الوقت نفسه بإرسال الأمراء إلى كافة الجوانب الصليبية ، وعمّت تلك الغارات البلاد التي بأيدي الصليبيين من حدود طرابلس إلى قريب أرسوف[1] .

وبعد ذلك أمر السلطان بيبرس عساكره ، فاجتمعت عنده على عكا ، وأعلن المسير إلى صفد التي كان قد بعث إليها سراً قوة من جيشه لاستطلاع أخبارهم ، وتطويق الحصار عليها ، حتى لاتستطيع طلب النجدة من أحد ، وظل السلطان منتظراً في مكانه في نواحي عكا حتى تكامل وصول جيوشه المغيرة التي كانت موزعة بهدف الإغارة على الصليبيين إلى منطقة صفد[2] ، ولعل ذلك كان بسبب خوفه من هجوم صليبي من عكا على جيشه العائد من صيدا[3] ، واكتمل عقد القوات الإسلامية على صفد في ثامن رمضان من سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م . حيث تحرك السلطان بيبرس من ناحية عكا ونزل على صفد ، وبدأ في حصارها وضربها بالمنجنيقات التي أحضرها من مدن الشام ونصبها المسلمون حول المدينة ، واستمر الحال على ذلك حتى ثاني أيام عيد الفطر المبارك . وهنا يبدو أن السلطان الظاهر بيبرس أيقن أن ذلك الحصار لن يؤثر على صفد بسبب مناعة أسوارها وتوفر المؤن بداخلها ، فأصدر أوامره لقواته بالزحف عليها والاشتباك مع العدو ، وكان قد أمر بأن يعمل من النفط أشياء من السهام المطيبة

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٣ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٤ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣٦ ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٩١ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ١٠٨ ، الحريري ، الأعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين ، ورقة ١٤١ (ب) ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٩ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٨٧ .

Selctions from Tarik Ibn Alfurat. p 107.

وحصن الأكراد هو حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ويقع بين بعلبك وحمص ، وعرقة بلد في شرق طرابلس على سفح أحد الجبال المطلة على البحر ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ويبدو أن حلباء والقليعات قلعتان قريبتان من عرقه .

(٢) Selctions from Tarik Ibn Alfurat. p 113 - 114.

(٣) عبدالعزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ٩١ .

والرماح ، وفرقت على الزراقين الذين دفعوا بها إلى داخل البلد في الوقت الذي كان النقابون قد أوغلوا في نقب الأسوار ، فتهدمت منه مواضع ، فقام المسلمون بتوسيعها والدخول من خلالها إلى البلد ، ودارت بينهم وبين الصليبيين معارك عنيفة . وحاول المسلمون الصعود إلى الباشورة ، وواجههم الصليبيون بإحراق الستائر التي عليها ليمنعوا المسلمين من تسلقها . ولم يهن المسلمون لذلك بل ضربوا « سكك الخيل » في سفحها ، ولما أصبح الصبح كانت السناجق على سور الباشورة من كل جهة ، فاندفع الصليبيون إلى داخل القلعة وسلموا الباشورة للمسلمين وذلك في يوم الثلاثاء الخامس عشر من شوال ٦٦٤ هـ / ٢ يوليو ١٢٦٥ م . وأخذ المسلمون في نقب أسوارها ، فخاف من بداخلها من الصليبيين ، وسيروا رسلهم إلى السلطان الظاهر بيبرس في طلب الأمان . فأجابهم إلى ذلك بشرط ألا يخرجوا منها بسلاح أو نقود ، ولا يتلفون شيئاً من مرافقها بنار أو هدم ، وأن يقوم المسلمون بتفتيشهم عند خروجهم ، فإن وجد مع أحد منهم شيئاً من ذلك انتقض العهد[1] .

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن أخلّوا بشروط السلطان بيبرس ونكثوا العهد ، فقد وجد السلطان أنهم عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم . كما كشف معهم بعض الأسرى المسلمين أخرجوهم متظاهرين بأنهم من النصارى فأخذ بيبرس ما معهم ، وأنّبهم على نقض العهد وضرب أعناقهم على تل بالقرب من صفد

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٤٥ ـ ٢٦٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، الحريري ، الإعلام والتبيين ، ورقة ١٤١ (ب) ، اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٩١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٢٥ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٣ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٦٩ ، العبر في خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٤ .

Selctions, Opcit. p.113 - 119.

وعن الستائر انظر ما يلي في الفصل الخامس .

وهو المكان الذي كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين ، ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذي أسلم وظل في خدمة بيبرس ، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه ، وسمح له بالذهاب إلى عكا ليخبر الصليبيين بها بما شاهده[1] .

والذي يجدر ذكره هنا أن بعض المؤرخين الغربيين عدَّوا ذلك العمل غدراً من جانب السلطان الظاهر بيبرس ، من ذلك قول ميور (Muir) « إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعتهم ، كما أن فريقاً أخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على أن هذه الأسباب لا تمحو عن ذلك الفاتح تلك النقط السوداء التي لصقت بإنسانيته بل بإيمانه »[2] .

كما حاول رنسيمان أيضاً وسْم بيبرس بالخيانة وعدم الوفاء بالعهد حيث لم يذكر في معرض حديثه عن استيلاء السلطان بيبرس على صفد ، تلك الشروط التي شرطها بيبرس على الصليبيين مقابل تأمينهم وخروجهم منها . واكتفى بذكر أن الصليبيين عندما عجزوا عن حماية القلعة أرسلوا جندياً سورياً من عندهم اسمه ليو ، اعتقدوا في ولائه وإخلاصه إلى معسكر السلطان بيبرس ليعرض عليه تسليم الحصن . وعاد ليو بوعد من السلطان بأن تنسحب الحامية إلى عكا دون أن تتعرض للأذى ، غير أنه لما سلّم الداوية القلعة إلى بيبرس وفقاً لهذه الشروط أمر بقتلهم عن آخرهم . وهنا يعود رنسيمان ليتهم ليو الذي اعتنق الإسلام بعد ذلك بالخيانة ، وأنه ربما نقل إليهم كلاماً غير كلام السلطان فيقول في ذلك « وليس محققاً ما إذا كان ليوقد تعمد الخيانة ، غير أن تحوله السريع إلى الإسلام ليس إلا دليلاً على ذلك »[3] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٦٢ ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، يذكر أن الشخص الذي أسلم ودخل في خدمة السلطان بيبرس كان فارساً من الداوية ، أما الثاني الذي ذهب إلى عكا فكان من فرسان الاسبتارية (جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ٧٣ عن ميور .
The Momeluke orsluve dynsty of Egypt. p 22.

(٢) انظر ما نقله الدكتور جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ عن : Muir. opcit.

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥١ .

والواقع أن ما فعله السلطان بيبرس لا يخرج عن كونه جزاءاً طبيعياً لمن حل بهم ذلك العمل . إذ لم يتعد بيبرس بفعله هذا حدود ما أمّنهم عليه وشرطوه على أنفسهم . وهذا العمل كان يعتبر غدراً لو أنه قتلهم بعد التأمين في وقت لم ينقضوا فيه العهد . أما وقد نقضوا العهد فليس فعله إذن من الغدر أو الخيانة في شيء[1] ، كما يمكن الاستدلال مما ذكره ابن عبدالظاهر الذي كان معاصراً للحدث نفسه بأن السلطان بيبرس ضرب رقاب الصليبيين بعد نقضهم العهد وعدم الوفاء بشروطه في نفس المكان الذي كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين . إنه لا يستبعد علاوة على ذلك أن يكون السلطان الظاهر بيبرس قد وجد في ذلك المكان دليلاً مادياً على قيام الصليبيين بقتل أسرى المسلمين عند عزمهم على الخروج من صفد . ولعل مما يؤكد ذلك ما ذكر من أن صليبي عكا أرسلوا عقب ذلك إلى السلطان بيبرس يطلبون منه السماح لهم بنقل جثث القتلى إلى عكا لدفنها عندهم والتبرك بها على اعتبار أنهم شهداء ـ على حد زعمهم ـ فرد عليهم السلطان الظاهر بيبرس بأن أمسك الرسول عنده ، وتوجه بنفسه على رأس فرقة من جيشه وهاجم مدينة عكا على حين غرة من أهلها ، ثم عاد إلى صفد ، وطلب الرسول وقال « عُد إليهم فقد عملنا عندهم شهداء وكفيناهم مؤونة النقل والكلفة »[2] ، إذ يبدو أن هجوم السلطان بيبرس على عكا كان رداً على تجرئهم بطلب نقل جثث أولئك القتلة ناكثي العهد . كما أن هذا الطلب من أهالي عكا يدل في الوقت نفسه على مدى ما وصل إليه الصليبيون في بلاد الشام من ذل وتخاذل وهوان جعلهم يحاولون تقديم المساعدة لإخوانهم أمواتاً بعد أن عجزوا عن تقديمها لهم وهم أحياء .

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان الظاهر بيبرس ، بعد أن تم له الإستيلاء على صفد أمر بتخريب قلعتها ، ثم عاد في السنة التالية وأعاد بناءها ليتخذها نقطة انطلاق للقوات الإسلامية في أعماله الحربية المقبلة ضد المواقع الصليبية[3] .

---

(١) جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٧٣ ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٦ ، ٦٧ .
(٢) ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ١١٨ .
(٣) انظر ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ؛ ص ٦٧ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

وحول هذا النجاح العظيم الذي تحقق للسلطان بيبرس يقول رنسيمان « الواقع أن الاستيلاء على صفد هيأ لبيبرس السيطرة على منطقة الجليل »[1] ، هذا بالإضافة إلى أن صفد بعد استيلاء بيبرس عليها غدت تشكل مركزاً خطيراً للضغط العنيف على المواقع الصليبية القريبة ، ومن بين هذه المواقع مدينة عكا نفسها . وأنه لم يكن لصفد أن تلعب هذا الدور إلا بفضل ما هيأه لها السلطان الظاهر بيبرس من قوة واستعدادات[2]

ظهرت واضحة في العبارات التي كتبها السلطان بيبرس على أسوار قلعة صفد عندما أعاد بناءها ، ومما جاء فيها قوله « أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلّصها من أيدي الفرنج الملاعين وردها إلى أيدي المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين ، فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة ، وجعلها على الكفار خسارة وحسرة ، ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد ، وبدل الكفر بالإيمان ، والناقوس بالآذان والإنجيل

بالقرآن ، ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس . سلطان الإسلام والمسلمين . . . سيد التتار فاتح القلاع والحصون والأمصار ، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين »[3] . كما يذكر أيضاً أن السلطان الظاهر بيبرس صعد إلى قلعة صفد ، وأمر بنقل الأسلحة إليها من الزردخاناه ، وشارك

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥١ ، والجليل : جبل في ساحل الشام ممتد إلى قرب حمص (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٨ ، جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ٧٤ ، انظر أيضاً ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٧ ، يعتبر الظاهر بيبرس أول من تلقب بلقب قسيم أمير المؤمنين ، إذ كان الملوك المسلمون قبل ذلك يلقبون بألقاب تقل عن هذا اللقب مكانة ، مثل مولى أمير المؤمنين (أي عتيقه) أو خادم أمير المؤمنين فإن زيد في تعظيمه لقب ولي أمير المؤمنين ، ثم صاحب أمير المؤمنين ثم خليل أمير المؤمنين ، وهو أعلى ما لقب به ملوك بني أيوب أما لقب السلطان بيبرس « قسيم أمير المؤمنين » فهو أجل من تلك الألقاب (راجع السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٦٦ ، أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، حاشية رقم ٣) .

بنفسه المسلمين في حمل السلاح إلى داخلها ، ثم استدعى الناس من دمشق للإقامة بصفد ، وأقام في القلعة رجالاً وقرر لهم نفقة قدرها ثمانين ألف درهم في الشهر[١] .

وهذا الاهتمام من السلطان بيبرس لم يكن مقصوراً على صفد بمفردها بل إنه شبيه بما سبق وأن أبداه في قيساريه وأرسوف ، وهو يلقي الضوء على أبعاد السياسة الحكيمة التي كان يسير عليها السلطان بيبرس بالنسبة للمناطق التي كانت تشكل نقطة انطلاق للقوات الإسلامية لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام[٢] .

وللبرهنة على فعالية ذلك العمل ، فقد حرص بيبرس على تحقيق المزيد من الانتصارات على الصليبيين ، فاستولى في ذي القعدة من العام نفسه على كل من هونين وتبنين والرملة ، فعمرها لتكون ـ على ما يبدو ـ قاعدة انطلاق أخرى حيث سير إليها الرجال وولى عليها النواب[٣] ، كما بلغه قبل نهاية السنة نفسها أن أهل قرية قارا وهم من النصارى ، كانوا يتعدون على أهل الضياع ويبيعون من يسرقونه من المسلمين إلى الفرنج بحصن عكا . فأمر بيبرس قواته التي كانت قد عادت من غزو سيس بالتوجه إلى قارا لتأديب أهلها ومعاقبتهم على تلك الأعمال الفظيعة التي ارتكبوها ضد المسلمين . فأنزلت بهم قواته خسائر فادحة وأخذت صبيانهم مماليك حيث سيروا إلى مصر ، فتربوا هناك « وصار منهم الأجناد والأمراء »[٤] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٨ ، Selctions Opcit. p 122

(٢) حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(٣) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٠ ، Selctions Opcit p 123
وهونين : بلد في جبال عاملة مطل على نواحي مصر ، والرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٣ ، انظر ايضاً ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٤ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، ابن ايبك الدواداري ، ج ٨ ، الدرة الزكية ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .
Selctions from Tarik Ibn Alfurat. p 126.
وقارا أو قاره : قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

وبتأثير تلك الضربات الموجعة التي أنزلها السلطان الظاهر بيبرس بالصليبيين في هذه السنة ، بادر الإسبتارية إلى إرسال رسلهم إلى السلطان يلتمسون منه إقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الاسماعيلية ، فرد عليهم السلطان قائلاً « ما أجيبكم بهذا إلا بشرط إبطال ما لكم من القطائع على مملكة حماه ، وهي أربعة آلاف دينار ، وما لكم من القطيعة على بلاد بوقبيس ، وهي ثمانمئة دينار ، وقطيعتكم على بلاد الدعوة (طائفة الاسماعيلية) وهي ألف ومائتا دينار ، ومائة ألف مد حنطة وشعيراً نصفين » فرضخ الإسبتارية لشروط السلطان وكتبت الهدنة بينهما ، بعد أن أضاف السلطان شرطاً أخر هو أن فسخ الهدنة يكون بيده ومتى أراد على أن يعلمهم بذلك قبل مدة[1] . وهنا يمكننا القول أن بيبرس حقق إضافة إلى هذا هدفاً آخر أكثر أهمية وهو إدخال الفرقة والانقسام داخل صفوف الصليبيين في بلاد الشام . ذلك أن عقده صلحاً منفرداً مع طائفة الاسبتارية كان بلا شك سيغضب بقية العناصر الصليبية وعلى رأسها جماعة الداوية .

كما حقق بيبرس بهذا الصلح مكسباً مادياً لدولته ، فقد وصلت إليه رسل طائفة الإسماعيلية في جمادى الآخرة من السنة التالية وصحبتهم جملة من الذهب وقالوا له « هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق في المجاهدين »[2] .

ويبدو من هذا أن تحولاً كبيراً طرأ على موقف طائفة الاسماعيلية من حركة الجهاد ضد أعداء الإسلام في القرون الوسيطة . فهذه الطائفة وبالأخص فروعها في بلاد الشام التي كانت تمثل عامل هدم في جدار حركة الجهاد ضد أعداء الإسلام في الشرق الأدنى ، والتي حاول أفرادها أكثر من مرة اغتيال السلطان العظيم صلاح الدين الايوبي أثناء

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٦٦ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ٩١ .
Selctions from Tarik Ibn Alfurat. p 124.
بلاد بوقبيس : ذكره ياقوت على أنه أبوقبيس وهو حصن مقابل شيزر (انظر ، ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) انظر ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٧٤ ، انظر أيضاً :
Selctions. From Tarik Ibn Alfurat. p 127.

جهاده ضد الصليبيين ، تحوّل أفرادها في عهد دولة سلاطين المماليك إلى قوة تحرص على تقديم المساعدة ولو مادياً لهم للإسهام معهم في جهاد أعداء الإسلام المغول والصليبيين ، ومرد ذلك هو أن شعور الاحترام والاعتراف بزعامة دولة سلاطين المماليك للعالم الإسلامي آنذاك قد تطرق بلا شك إلى صفوف هذه الطائفة .

وبهذا فقد تمكن السلطان الظاهر بيبرس في هذه السنة من تحقيق إنجازات عملية عظيمة ضد الصليبيين ، تمثلت في اقتطاع أجزاء هامة من البلاد الإسلامية التي كانت تحت أيديهم ، ولكن هذا المسار ما لبث أن اختلف بعض الشيء في سنة ٦٦٥ هـ ، إذ أن طابع العنف والقتال الذي ساد سنة ٦٦٤ هـ قلَّ في هذه السنة الجديدة ، حيث هدأت حدة الصراع وواكب ذلك أكثر من محاولة في طريق المفاوضات والمهادنات ، والتي كان من الطبيعي أن تبدأ من جانب الصليبيين الذين ذاقوا مرارة الهزائم المتلاحقة في السنة الماضية[١] ، والتي قطع بيبرس من خلالها شوطاً كبيراً في مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام الذي تبناه منذ اللحظة التي تخلص فيها من الخطر المغولي .

وعلى كل فإن السلطان الظاهر بيبرس لم يكن يفكر في شيء من محاولات الهدنة تلك لولا توسل الصليبيين أنفسهم إليه بذلك . يدلنا على ذلك أن نشاط السلطان بيبرس ضد الصليبيين لم ينقطع بنهاية سنة ٦٦٤ هـ ، بل ظل مستمراً ، وبدأ منذ أوائل المحرم من سنة ٦٦٥ هـ بإرسال فرقة من جيشه إلى جبلية حيث هاجمها المسلمون وجاسوا خلال أوديتها ثم عادوا إلى صفد[٢] . كما قام عسكره في الشهر نفسه بمهاجمة عكا ، وتكبيد الصليبيين بها خسائر فادحة ، وذلك رداً على تجرؤ الفرنج بعد أن وصلت إليهم نجدة من قبرص قدرت بنحو ألف ومائة فارس على الإغارة على طبرية[٣] .

---

(١) حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ ، وجبلية يبدو أنها قرية بالقرب من صفد .

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٦٨ ، المقريزي ، المصدر نفسه ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،

Selctions. From Tarik Ibn Alfurat. p 127.

وطبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية في طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها ، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ويقال إن بها قبر نبي الله شعيب ، وقبر ابنته زوج الكليم موسى ، وقبر ينسب إلى نبي الله سليمان بن داود) بجامعها المعروف بجامع الأنبياء ، ويقال أيضاً أنه بالقرب منها جب يوسف ، واسمها مشتق من اسم طيباريوس (Tibeius) أحد قياصرة الروم الأوائل (انظر ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٣٧ ، حاشية رقم ٣) .

ومن هذا الهجوم الأخير ، يتضح لنا مدى ما وصل إليه السلطان الظاهر بيبرس من قوة وارتفاع الروح المعنوية ، فإذا كان الصليبيون قد هاجموا مدينة صغيرة هي طبرية ، فإنه كافأهم بإرسال قواته لمهاجمة أكبر وأعظم مدينة عندهم هي عكا ، هذا بالإضافة إلى أن وصول النجدة من قبرص إلى الصليبيين في الساحل كان ـ على ما يبدو ـ رداً على إقدام طائفة الاسبتارية على عقد هدنة مع بيبرس في محاولة من قبرص للرفع من معنويات إخوانهم في بلاد الشام وعدم الاكتراث بما أقدم عليه الاسبتارية ولكن دون جدوى .

وفي جمادى الآخرة من هذه السنة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بعد أن أمضى بها مدة وجيزة ، ومعه الملك المنصور صاحب حماة على رأس عدد كبير من الجيش المصري ، ونزل السلطان في غزه ، وسار الملك المنصور إلى مملكته بعد أن مضى في طريقه وزار القدس . فخاف الصليبيون عاقبة ذلك التحرك الإسلامي ، وسارعوا بإرسال رسلهم إلى السلطان بغزة ، ومعهم الهدايا وعدد كبير من أسرى المسلمين[1] .

وبالرغم من ذلك التذلل والخضوع الذي أبداه الصليبيون للسلطان بيبرس طمعاً في توقفه عن مهاجمة البلاد التي تحت أيديهم ، فإن هذا القائد المسلم ، بدافع حرصه الشديد على تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام ، كان يرقب بكل دقة أي تحرك للصليبيين مهما كان نوعه لاستغلاله في تأديبهم وإنهاك قواهم ، وفي هذا يذكر المقريزي ، أنه في تلك الأيام التي تلقى السلطان بيبرس فيها رسل الصليبيين ، بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبقى في ظاهر البلد إلى ضحوة النهار ، فسرى بيبرس ببعض عسكره الذين أمرهم بالركوب خفية ، فلم يشعر الصليبيون بعكا إلا وهم على بابها . فأدبهم بيبرس على ذلك الخروج وبات تلك الليلة وأصبح على حاله ثم عاد إلى صفد[2] .

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢٨٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ .
Selctions. From Tarik Ibn Alfurat. p 128.

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٨١ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ١٢١ .

وفي صفد قدم على السلطان بيبرس رسل من صاحب سيس ، ومعهم هدية له . وصادف وصولهم وجود رسل الصليبيين في صفد في تكرار طلب الهدنة من السلطان بيبرس . والذين ردهم بعد أن رفض إجابتهم إلى الصلح بسبب إغارتهم على بلاد الشقيف[1] .

ولم يكتف السلطان بيبرس مقابل إغارة الصليبيين على بلد الشقيف برد رسلهم ورفض طلبهم الصلح ، بل ركب في شعبان من السنة نفسها (مايو ١٢٦٧ م) وخرج معه المسلمون من صفد إلى عكا ، ولم يعلم به أحد إلا وهو على أبوابها فهاجم المدينة ، وأنزل بها خسائر جسيمة في العتاد والأرواح ، ثم أمر رجاله فخربوا الأبنية ، وردموا الآبار وقطعوا الأشجار نكالاً بأهلها وعاد بعدها بقواته إلى صفد[2] .

وأمام تلك الضربات المتتالية التي وجهها المسلمون للصليبيين في عكا سارعت معظم القوى الصليبية بإرسال رسلها إلى السلطان الظاهر بيبرس ، تعتذر وتعلن التوبة والندم ، وتطلب الصلح معه . وهنا استغل بيبرس ذلك الحال ، واتبع سياسة ماكرة وناجحة إزاء تلك القوى ، فلم يرفض طلبها جميعاً في الصلح حتى لا تتكتل ضده ، وفي الوقت نفسه لم يجبها جميعاً إلى ذلك وإنما اختار أن يعقد الصلح مع بعضها دون البعض الآخر حتى يتمكن من القضاء عليها واحدة بعد أخرى[3] .

إضافة إلى أن بيبرس كان ـ على ما يبدو ـ قد سمع بنية المغول الإغارة على حلب وهذا ما حدث بالفعل في أوائل سنة ٦٦٦ هـ[4] قاصداً بذلك أن يتفادى الاشتباك مع

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٨١ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٩ .
Selctions. From Tarik Ibn Alfurat. p 129.
وسيس عاصمة أرمينية الصغرى ، كانت مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة على جبل مستطيل ولها بساتين ونهر صغير وهي الآن بلدة في جنوب آسيا الصغرى (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٩ ، حاشية رقم ٣) .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٥٥٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٥ .
Selctions. Opcit. p 130.

(٣) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٩ ، انظر جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٧٥ .

(٤) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٢٩١ .
Selctions. From Tarik Ibn Alfurat. p 133.

عدوين قويين في وقت واحد ، فوافق على عقد الصلح مع رسل مدينة صور في رمضان من سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م بعد أن وافقوا على دفع دية لغلام له سبق وأن قتلوه . وكذلك بينه وبين الاستبارية على حصن الأكراد والمرقب ، ثم مع ملكة بيروت التي قامت عندما أمَّن أخوها جماعة من التجار في طريقهم إلى قبرص حين احتاج مركبهم إلى إصلاح ، ثم عاد فغدر بهم وأمسكهم ، بإرسال مندوبين من قبلها إلى السلطان بيبرس على صفد ، فطلب منهم السلطان أن يحضروا إليه مال هؤلاء التجار وثمن مركبهم ويطلقوا سراحهم ، فأجابوا طلبه وعقد الصلح معهم[١] .

والواقع أن هذه المهادنات تبين ما كانت عليه القوات الإسلامية آنذاك من رفعة وسؤدد ، في الوقت الذي آلت فيه القوات الصليبية إلى الاستكانة والضعف[٢] . ويبدو ذلك واضحاً من نصوص هذه الهدنة التي يظهر لنا أن بنودها أُعدت كاملة من قبل السلطان الظاهر بيبرس ، بينما اكتفى الجانب الصليبي بالاقرار عليها فقط . وقد نصت أهم بنود الهدنة على أن يكون أمدها بين الطرفين عشر سنين وعشرة أيام وعشر ساعات تبتديء من يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وألا تنقض بموت أحد الطرفين ، وأن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص « بالحبس والإطلاق والجباية » نائب من قبل السلطان بيبرس ونائب من قبل الاسبتار فإن كانوا مسلمين حكم فيهم بحكم الشريعة الإسلامية ، وإن كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية ، أما فيما يختص بالبلدان فقد نصت هذه المهادنة على أن يكون الكثير منها مناصفة بين المسلمين والصليبيين[٣] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٠ ، ورقة ٥٣٤ ، انظر ايضاً ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص ١٢١ .

Selctions. From Tarik Ibn Alfurat. p 132.

(٢) جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٧٦ .

(٣) لمزيد من التفصيل راجع القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣١ - ٣٩ ، وانظر كذلك جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ، ص ٧٦ .

ولعل أهم نتيجة ترتبت على هذه المهادنة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع بعض المعاقل الصليبية في بلاد الشام دون البعض الآخر هي ادخال الفرقة والانقسام داخل صفوف الصليبيين هناك ، ذلك أن بيبرس إذا كان قد هادن الاسبتارية ، فإنه رفض أن يهادن الداوية مما جعله مطلق اليد في مهاجمة الداوية في حصونهم ، وهو آمن من جانب أية مساعدة يقدمها إليهم إخوانهم الاسبتارية ، وكذلك الحال بالنسبة لبيروت وصور التي وافق على مهادنتها ، وحرص في الوقت نفسه على عدم مهادنة عكا وطرابلس وانطاكية . مما أتاح له فرصة كبيرة للعمل ضد الصليبيين في سواحل الشام الشمالية والجنوبية[1] . حيث أضحت بعض المراكز الصليبية ميداناً لجهاد المسلمين ضدها ، في الوقت الذي ظلت البقية الباقية تقف موقف المتفرج بعد أن قيدها السلطان بيبرس بتلك المعاهدات التي تعتبر ـ في حد ذاتها ـ نصراً سياسياً أحرزه عليها .

ولما كانت مدينة يافا واحدة من هذه المراكز التي رفض بيبرس عقد الهدنة معها ـ رغم محاولة أهلها ذلك[2] ـ فقد كانت أولى المدن الصليبية التي هاجمها المسلمون في السنة التالية . ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس ما إن سمع بأن أهل يافا من الصليبيين يحملون الميرة إلى عكا كان حريصاً على منع أي معونة تصلها ، كما أنهم استحدثوا حانة واستخدموا فيها بعض النساء المسلمات قسراً . حتى أمر قواته في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ٦٦٦ هـ / ٧ مارس ١٢٦٨ م بالمسير إليها ومهاجمتها على حين غفلة من أهلها . فوصلها المسلمون وأحاطوا بها من كل جانب ، وتمكنوا من فتح أبواب المدينة ودخلوها ثم زحفوا على قلعتها واستولوا عليها في اليوم نفسه . وحل بها ما حل بسابقتها من الهدم والتخريب ، ثم أمر السلطان بجمع أخشابها ورخامها ونقله عن طريق البحر

---

(١) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) ذكر ابن عبدالظاهر ، أن قسطلان يافا حضر إلى السلطان بيبرس في صفد وسأله استمرار الهدنة مع ولد صاحب يافا بعد وفاة والده ، فامتنع السلطان عن ذلك وقال له « الذي كان معي صلحاً قد مات » انظر الروض الزاهر ، ص ٢٩٣ .

إلى القاهرة ، حيث استعمل الخشب في بناء مقصورة الجامع الظاهري[١] بالحسينية ، والرخام لمحرابه . ثم أمر ببناء الجوامع والمساجد ، وإظهار شعائر الإسلام بها ، وإزالة المنكرات منها ، ورتب الخفراء على سواحلها وألزمهم بحمايتها ، وأمر بأن يصرف المال المتحصل منها على مصالحها ، ثم قسم المدينة واقطعها لعدد من أمرائه[٢] .

ولما كان شقيف أرنون ـ أحد حصون فرسان الداوية ـ ذا موقع هام يشبه صفد في أهميتها لدي السلطان الظاهر بيبرس ، بحكم أن موقعه يجعله يسيطر على جميع المناطق المحيطة به والقريبة منه[٣] . فقد أمر السلطان عساكره بعد استيلائه على يافا بالتوجه إليه للإنضمام إلى القوة الإسلامية التي كان بيبرس قد وجهها في السر منذ خروجه من مصر في السنة الماضية لمحاصرة الشقيف ومنع وصول الإمدادات الخارجية إليه مع تفادي الاشتباك مع من به من الصليبيين[٤] .

---

(١) انشأه السلطان الظاهر بيبرس في ميدان قراقوش خارج باب الفتوح من القاهرة في سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م (انظر المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ وما بعدها) . يقع هذا الجامع بين شارعي الظاهر والعباسية ، وكان من أكبر الجوامع بالقاهرة ، يبلغ مسطحه ١١٨٨٠ متراً مربعاً وهو ما يقارب ثلاثة أفدنة ، ويذكر أن هذا الجامع تعطلت منه إقامة الشعائر من أول القرن العاشر الهجري وذلك بسبب سعته وتعذر الصرف عليه ، ثم تخرب وسقطت قبته الكبيرة التي كانت فوق إيوان المحراب ثم سقطت مئذنته ولم يبق منه إلا جدرانه الخارجية المبنية بالحجر النحيت ، وقد جعل في العهد العثماني مخزناً للمهمات الحربية كالخيام والسروج وغيرها ثم جعل قلعة وثكنة للجنود زمن الحملة الفرنسية ثم جعل مخبزاً للجراية ومعملاً للصابون في زمن محمد على باشا الكبير ثم مذبحاً للجيش في عهد الإحتلال الإنجليزي ، وبطل الذبح فيه من سنة ١٩١٥ م وظل يعرف باسم المذبح ، وفي سنة ١٩١٨ م غرست مصلحة التنظيم أرض صحن الجامع وجعلته متنزهاً عاماً ، وفي سنة ١٩٢٨ م عمرت لجنة حفظ الآثار العربية الجزء الواقع عند المحراب وجعلته مصلى (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦١ حاشية المحقق رقم ٢) .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٩٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، أبو الفدا ، المختصر ج ٤ ، ص ٤ ، ٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، الحريري ، الإعلام والتبيين ، ورقة ١٤١ ب ، ١٤٢ آ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٠ ، الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ ، دول الإسلام ، ص ١٧٠ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، الحنبلي ، الأنس الجليل ، ص ٨٦ ، الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ١٢٤ .

Selctions. Opcit. p 135 - 136.

(٣) عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ٩٨ .

(٤) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

ويبدو أن تلك القوات المرابطة على حصن الشقيف قد اخبرت السلطان بيبرس بعد عودته من يافا إلى صفد لتفقد عمارتها . بما هو عليه من الحصانة والمنعة ، فأمر بيبرس وهو على صفد بأن تحمل المنجنيقات منها إلى الشقيف وفي التاسع عشر من رجب من سنة ٦٦٦ هـ انضم السلطان بنفسه إلى جيشه الذي كان على الشقيف ، وأخذ المسلمون في ضرب أسوار الحصن بالمنجنيقات من كل جانب ، واتفق في ذلك الوقت أن الصليبيين بهذا الحصن كانوا قد سيَّروا مندوباً من قبلهم إلى من بعكا من الصليبيين يعلمونهم بحالهم ، ويذكرون لهم عورات الشقيف . وحدث أن تمكن السلطان بيبرس من الاطلاع على مضمون جواب أهل عكا ، وعلم منه أسماء الصليبيين المقدمين في حصن الشقيف . فكتب لهم « أمانات بأسمائهم[١] » ، وجعلت في السهام ، ورمى بها إلى داخل الحصن . وطلب في الوقت نفسه أحد التراجمة العارفين بلغة الفرنج وطلب منه أن يكتب عوضاً عن أجوبة أهل عكا « وعكس عليهم القضايا » ورمى بها كذلك إلى الداخل ، فوقع الاختلاف بين الصليبيين داخل حصن الشقيف ، وانقسموا على أنفسهم[٢] . وتمكن المسلمون خلال تلك المدة من إكمال نصب المنجنيقات والتي بلغت ستة وعشرين منجنيقاً وأخذت في ضرب الحصن واشتد زحف المسلمين عليه ، فأدرك من بداخل الحصن الذي كان به قلعتان أن عددهم لا يكفي للدفاع عنهما ، فأحرقوا إحداهما ، وأتلفوا ما بها ، فتسلمها المسلمون وتقدموا بمنجنيقاتهم لمهاجمة القلعة الثانية ، فأدرك الصليبيون عجزهم عن المقاومة ، وسألوا السلطان الظاهر بيبرس الأمان على أنفسهم ، وأن يكونوا أسارى لديه ، فأجابهم السلطان إلى ذلك ، ورُفعت أعلام

---

(١) يبدو أن ابن عبدالظاهر يقصد بالأمانات هنا رسائل وعلامات تدل على إعطاء الأمان للقادة الصليبيين داخل الحصن .

(٢) انظر ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ . ذكر الدواداري رواية أخرى تختلف بعض الشيء عن رواية ابن عبدالظاهر ، مفادها أن السلطان بيبرس عندما اطلع على كتاب أهل عكا استفاد منه « امارات بينهم » فاستدعى من كتب له بلغتهم وضمن كتابه بعض تلك الامارات ليوهم الصليبيين داخل الحصن ان الكتاب من أهل عكا . ثم كتب يحذر الكمندور بالشقيف من الوزير المقيم عنده ، ومن جماعة كانت اسماءهم في الكتاب ، وكتب كتاباً أخر إلى الوزير يحذره من الكمندور ، ويأمره إن احتاج إلى مال أن يأخذه من ملك كان اسمه في ذلك الكتاب (انظر الدرة الزكية ، ص ١٢٥) .

Scletions From Tarik Ibn Alfurat. p. 139.

المسلمين على الحصن في يوم الأحد آخر شهر رجب (١٥ ابريل) إيذاناً بسقوط الشقيف في أيديهم ، وسلم الصليبيون أنفسهم ، وأطلق السلطان سراح النساء والأطفال ، وأرسل معهم من أمنهم إلى صور . واستقرت الشقيف بيد السلطان بيبرس ، حيث قام بتوزيع الغنائم على عساكره ، وخلع على الملوك والأمراء الذين كانوا معه ، ثم أمر بهدم قلعة استحدثها الصليبيون بالحصن وأقام على القلعة القديمة نائباً من قبله ، ثم أمر بتجديد عمارة الشقيف(١) .

وباستيلاء السلطان الظاهر بيبرس على شقيف أرنون والإبقاء على قلعته وتجديد عمارته ، بات يملك مركزاً هاماً يمكنه من الضغط على صيدا في الشمال ، وصور في الجنوب . كما أن هذا الحصن وقد اصبح في أيدي المسلمين ، أصبحت عليه مهمة حماية ظهر صفد ، التي اهتم السلطان بيبرس بها لاتخاذها نقطة انطلاق لمهاجمة القوى الصليبية في بلاد الشام . والأهم من ذلك أن فرسان الداوية ، فقدوا بسقوط الشقيف واحداً من أهم معاقلهم(٢) . في الوقت الذي تمكن بيبرس باستيلائه عليه من إضافة نصر كبير إلى مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام الذي بدأه منذ اعتلائه عرش الدولة المملوكية .

وبعد الاستيلاء على الشقيف اتجه السلطان الظاهر بيبرس إلى طرابلس وأغار عليها في منتصف شعبان من سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م ولم يجرؤ بوهيمند السادس على منازلته ، فعمد بيبرس إلى مهاجمة القرى المحيطة بها وغنم منها غنائم كثيرة(٣) ، ثم رحل

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٩٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥١ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٤ ، ٥ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، الحريري ، الإعلام والتبيين ، ورقة ١٤١ ب ، ١٤٢ آ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٣٠ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٨٣ ، دول الإسلام ، ص ١٧٠ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات ، ج ٥ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ١٢٥ .
Selctions From Tarik Ibn Alfurat. p. 104.

(٢) حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٣ ، الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ١٢٥ .

عنها وتلقاه صاحب صافيتا وانطرسوس وقدم له فروض الولاء والطاعة ، وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده ، فشكره السلطان بيبرس ولم يتعرض لبلاده[1] .

ويبدو أن تلك الغارة السريعة التي نفذها السلطان الظاهر بيبرس على ممتلكات بوهيمند السادس في طرابلس وما حولها والتي لم يبد بوهيمند أي مقاومة ضدها ، قد اطلعت السلطان بيبرس على ما كان عليه هذا الأمير الصليبي من الاستكانة والضعف ، فعزم بيبرس على مهاجمته في مقره الرئيسي انطاكيه . ولكن السلطان بيبرس بحنكته السياسية وبراعته الحربية رأى ألا يجاهر بمقصده ذلك لئلا يلجأ بوهيمند إلى طلب المساعدة من القوى الصليبية داخل بلاد الشام وخارجها . فعاد بيبرس بقواته بعد أن أغار على طرابلس وما حولها إلى حمص ونزل بها في السابع والعشرين من شعبان سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م ، وتفقد أحوالها ورسم ببناء مسجد بها ، ثم خرج بقواته منها إلى حماه . ولا أحد يعرف أي جهة يقصد . وهناك قسم جيشه ثلاث فرق ، فأمر الأولى بالتوجه إلى السويدية ، والثانية إلى دربساك ، وسار هو بالثالثة إلى أفامية . ويبدو أنه أوعز سراً إلى قادة هاتين الفرقتين بوجهته الحقيقية فوافاه الجميع بعد أن أغاروا على السويدية ودربساك على انطاكيه في مستهل رمضان من السنة نفسها (١٥ مايوم ١٢٦٨ م)[2] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٠٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، انطرسوس : بلد من سواحل البحر المتوسط وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص (انظر ياقوت ، معجم البلدان) . وصافيتا : من أشهر حصون الداوية في بلاد الشام ، وبه برج يسميه الصليبيون القصر الأبيض ، ويقع إلى الجنوب الشرقي من أرواد ، وتقع كل تلك المناطق على الجبال التي تسمى حالياً بجبال العلويين المشرفة على ساحل الشام فيما بين اللاذقية وطرسوس (انظر جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢٣٥ حاشية ١ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص ٢٦١ حاشية ٤) .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٠٧ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ ، الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ١٢٦ ، ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، والسويدية : من بلاد الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط وهي ميناء لانطاكية (انظر أبو الفدا ، تقويم البلدان) .

وتعتبر انطاكيه من أكثر مدن الشام تحصيناً ، فالمرتفعات تحيط بها من جهتي الجنوب والشرق ، ويكتنفها نهر العاصي من جهة الغرب في حين تكثر الغياض والمستنقعات بشمال المدينة ويحرسها سور بالغ التحصين به ثلاثمائة وستون برجاً ، وتقع قلعة انطاكية على قمة جبل داخل أسوار المدينة . وقد زاد البيزنطيون في تحصين انطاكية خلال فترة بقائها تحت حكمهم (٣٥٨ ـ ٤٧٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١٠٨٤ م) مما جعل اقتحام المدينة عنوة أمراً في غاية الصعوبة[1] . وزاد ذلك ما أضافه الصليبيون فيها من تحصينات بعد فرض سيطرتهم عليها .

ويبدو أن تلك الحصانة التي كانت تتمتع بها أنطاكيه جعلت السلطان بيبرس يأمر طلائعه في بداية الأمر بمناوشة المدينة ، لاشغال الصليبيين ـ على ما يبدو ـ بجهة معينة في الوقت الذي أصدر أوامره إلى قواته بإحاطة المدينة من كل جوانبها . وحدث أثناء ذلك أن اشتبكت طلائع السلطان مع جماعة من الصليبيين ، وأسر المسلمون أحد الكنود الصليبيين الكبار ثم أرسلوه إلى السلطان بيبرس ، فأحسن استقباله وأكرم نزله ، ويبدو أن السلطان كان يرغب في ذلك الوقت وقف تيار القتال حقناً للدماء[2] ، فأحضر ذلك الرجل الصليبي وطلب منه أن يدخل إلى انطاكيه ويتوسط لأهلها بأن يلقوا أسلحتهم ويسلموا المدينة . فوافق الرجل ، وأرسله بيبرس إلى المدينة بعد أن أخذ ابنه رهينة عنده . وتحدث معهم في ذلك فامتنع الصليبيون ، وأبدوا له تصميمهم على الدفاع عن أنطاكيه . وحينئذ أنذر السلطان الظاهر بيبرس المدينة ثلاثة أيام . ثم أمر قواته بعد ذلك بالزحف على المدينة من كل جانب وذلك في يوم السبت رابع رمضان من سنة ٦٦٦ هـ / ١٨ مايو ١٢٦٨ م . وقاتلها المسلمون قتالاً شديداً ، ثم تسلقوا الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ، ونزلوا داخل المدينة حتى لا يفر منها أحد . واجتمع بالقلعة عدد كبير من الصليبيين المقاتلين غير النساء والأطفال . وكانت القلعة ضيقة

---

(١) ابن الشحنة ، الدّر المنتخب ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، حسن حسني ، الحروب الصليبية الأولى ، ص ١١٠ ـ ١١١ ، العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٢٣٤ ، علي الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ١٧٦ .

(٢) جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٧٨ .

فتزاحم الصليبيون بها ، وشح عليهم الماء وقلت الأزواد ، ولما شاهد ثلاثة أشخاص من كبار رجال القلعة ذلك الحال السيء ، هربوا في الليل من القلعة ولاذوا بالجبال ولما أصبح أهل القلعة لم يجدوا منهم أحداً ، فتّ ذلك في عضدهم ، وخارت قواهم ، وبعثوا إلى السلطان بيبرس في ذلك اليوم الأحد يعلنون استسلامهم ويطلبون منه الأمان من القتل ، على أن يؤخذوا أسرى . فقبل السلطان ذلك وأخليت القلعة من الصليبيين ، وتسلم كل أمير جماعة منهم ، وتسلم السلطان القلعة بنفسه ثم سلمها لاثنين من كبار امرائه وأمر بحصر الغنائم وقسمها بين أفراد جيشه[1] . ثم أرسل إلى بوهيمند السادس ـ وكان إذ ذاك مقيماً بطرابلس ـ رسالة تهكم باسلوب لاذع يخبره بما حل بحاضرة ملكه ورجاله من إذلال ، وضمنها عبارات كلها تقريع وسخرية[2] .

وكان استيلاء السلطان الظاهر بيبرس على انطاكيه أعظم فتح حققه المسلمون على حساب الصليبيين في بلاد الشام منذ انتصار صلاح الدين عليهم في معركة حطين واسترداد بيت المقدس منهم في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . لذلك كان لهذا النصر العظيم رنة فرح عظيمة بين المسلمين ، وكتبت البشائر به إلى الأقطار الشامية والمصرية ، حيث أقيمت الزينات والأفراح ابتهاجاً بذلك الفتح . أما بالنسبة للصليبيين ، فقد كان استعادة انطاكية منهم أعظم من مجرد كارثة حربية . فبصرف

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩ ، ٣١٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥١ ، الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٤ ـ ٥ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٣٠ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤ ـ ٩٦ ، مخطوط ، البرزالي ، المقتفي لتاريخ أبي شامه ، حوادث سنة ٦٦٦ هـ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٧ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٣ ، دول الإسلام ، ص ١٧٠ ، الحنبلي ، الأنس الجليل ، ص ٨٦ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ ، ٣١٣ ، العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٠ ، ورقة ٥٣٩ ـ ٥٤٢ ، (انظر نص الرسالة في الملحق رقم ٣) .

النظر عما كان لهذه المدينة من مكانة كبرى في تاريخ المسيحيين بصفة عامة ، فإنه لا يخفى علينا أن انطاكيه كانت من أولى الامارات التي أسسها الصليبيون في الشرق الإسلامي إبان الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م[1] . وانها منذ ذلك الوقت ظلت بمثابة القلعة الكبرى للصليبيين في بلاد الشام . لذلك جاء سقوطها على يد بيبرس في هذه السنة إيذاناً بانهيار البناء الصليبي بالشام[2] .

ولا بد لنا أن نتساءل ، لماذا بدأ السلطان الظاهر بيبرس بالاستيلاء على إمارة انطاكية الصليبية في أقصى الشمال الغربي لبلاد الشام وترك بقية القوى الصليبية القريبة منه في الوسط والجنوب ؟ وللإجابة على هذا يمكننا القول أن بيبرس قصد بذلك ـ على ما يبدو ـ معاقبة الأمير الصليبي بوهيمند السادس ، الذي كان قد انضم إلى صهره هيثوم الأول ملك أرمينيه الصغرى وتحالفا مع المغول ، وساعداهم في اكتساح بلاد الشام . هذا بالإضافة إلى أن بيبرس كان بهذا العمل قد قطع كل أمل للقوى الصليبية في الساحل وبالأخص بوهيمند نفسه الذي كان في ذلك الوقت مقيماً بطرابلس من محاولة الحصول على أية مساعدة خارجية من طرف أرمينيه الصغرى . كما أنه لا يستبعد إضافة إلى ذلك ، أن السلطان الظاهر بيبرس بعد أن لمس تخاذل الصليبيين ، واستكانتهم وضعفهم أراد على سبيل التهكم بهم واحتقارهم أن يصفي تلك الإمارات الصليبية من المشرق الإسلامي الواحدة تلو الأخرى ، حسب تاريخ تأسيسها . فإذا كانت إمارة الرها هي أول إمارة صليبية قامت في المشرق وقد قضى عليها السلطان المسلم عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م[3] . فإن إمارة انطاكيه التي أُسست بعدها قد لقيت نفس المصير على يد السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م .

---

(١) عن تأسيس هذه الإمارة الصليبية ، انظر ، حسن حبشي ، الحروب الصليبية الأولى ، ص ١١٠ وما بعدها .

(٢) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٢ ، العصر المماليكي ، ص ٦٤ .

(٣) لمعرفة تأسيس هذه الإمارة الصليبية وسقوطها في أيدي المسلمين انظر ، عليه الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية ، مسفر الغامدي ، الجهاد ضد الصليبيين في المشرق الإسلامي قبيل قيام الدولة الأيوبية .

ومهما يكن من أمر فقد ترتب على سقوط انطاكيه في أيدي المسلمين أن حلَّ الوجل والخوف بالمراكز الصليبية القريبة منها فاسرعت بعض القوى المجاورة لانطاكية إلى خطب ود السلطان ، باسترضائه وكسب عفوه ، في حين لجأ البعض الآخر إلى الاستسلام له خوفاً أن يحل بهم ما حل بانطاكيه وأهلها . من ذلك أنه وفد على السلطان بيبرس بعد استيلائه على انطاكيه أهل حصن القصير ، فبذلوا له نصف ممتلكاتهم ، وكتب لهم هدنة بعد أن ملك منهم ذلك[1] . أما من بحصن بغراس من الداوية فقد حل بهم الذعر ، ففروا عنه وتركوا الحصن خالياً ، فأرسل السلطان بيبرس فرقة من جيشه استولت عليه في الثالث عشر من رمضان سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م . وغنم المسلمون ما به من الذخائر والأموال ، وتسلم أيضاً حصون ديركوش وشقيف كفردين وشقيف كفر تلميش . وأضحت جميعها في عداد حصون الإسلام[2] .

ولم يقتصر ذلك على المراكز الصليبية المحيطة بانطاكيه ، بل تعداه ، إلى أهم مراكز للصليبيين في بلاد الشام آنذاك مدينة عكا نفسها ، التي حرص من بها من الصليبيين على الاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس وطلب المفاوضة والصلح . وقد تولى أمر هذه المفاوضة هيو الثالث ملك قبرص الذي ولى العرش بها بعد وفاة والده هيو الثاني[3] . إذ يبدو أن تلك الانتصارات العظيمة التي حققها السلطان بيبرس ضد

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٢٥ ، الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ١٢٧ ، البرزالي ، المقتفي لتاريخ ابي شامه ، حوادث سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٥ ، الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ١٢٧ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ١٣٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ، ١٤٧ .

(٣) كان هيو الثاني ملك قبرص ، قد مات في ربيع الآخر عام ٦٦٦ هـ / ديسمبر ١٢٦٧ م وعمره أربعون عاماً ، وكان الوصي على عرشه هو هيو دلوسنان فخلفه على العرش ، وتوج باسم هيو الثالث في ٢٧ ربيع الثاني عام ٦٦٨ هـ / ديسمبر ١٢٦٩ م . (انظر الروض ، ص ٣٣٢ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٦١ ، عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ١٠٢) ولم يلبث هيو الثالث أن توج أيضاً في اجتماع هام عقد بصور ملكاً على مملكة الصليبيين بالشام ، وبذلك تم توحيد المملكتين الصليبيتين بالشرق تحت تاج واحد (انظر سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٤٧ ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٥٠) .

الصليبيين في بلاد الشام اقلقته ، فأرسل إلى صاحب صور ، وطلب منه التوسط في ايجاد جو سلمي بينه وبين السلطان بيبرس . وقد استقبل بيبرس رسل الملك هيو في دمشق فور عودته من انطاكيه وكتب الأسس لمعاهدة تعقد بينهما ، وأرسلها مع رسل من عنده ، ليأخذوا موافقة هيو عليها . وكان من بين الأمور التي عرضها السلطان بيبرس على هيو هو اعترافه للصليبيين بملكيتهم لعكا ومايتبعها من بلاد وهي إحدى وثلاثون ضيعة ، وبقية بلادها مناصفة بينهما ، وأبدى استعداده أيضاً أن يعترف لهم بحيفا وثلاث ضيعات معها . ونصف بلاد الكرمل ، وعثليث وخمس من قراها ، ومن القرين عشر قرى ، وسهل صيدا ، على أن يترك لبيبرس النصف الثاني من حيفا ، ونصف أراضي عثليث ، والباقي من أراضي القرين ، والأراضي الجبلية من منطقة صيدا ، على أن تكون مدة الهدنة بين الطرفين عشر سنوات ، وألا ينقضها قادم من خارج المنطقة ، كأن يأتي ملك من وراء البحار . وأشارت الاتفاقية إلى وجوب إخلاء سبيل الأسرى وفي الختام اشترط السلطان بيبرس أن تدخل قبرص وأراضي الاسماعيلية ضمن هذه الاتفاقية . ولما قدَّم رسل بيبرس مشروع هذه الاتفاقية لهيو في الرابع والعشرين من شوال سنة ٦٦٦ هـ / ٧ يوليه ١٢٦٨ م . لم يوافق هيو على بعض ما ورد فيها . خاصة وأنه رغب في أن يكون لقبرص اتفاقية منفصلة ، وهذا يعني أن بيبرس سوف يضطر إلى التنازل عن امتيازات أخرى . وعن حقه في بعض الممتلكات التي كان يأمل ضمها إلى ممتلكاته . وكان هيو يؤمل أيضاً في أن يخرج الاسماعيلية من هذه المعاهدة ، ولعل السبب في ذلك هو حرمان بيبرس من هذه الممتلكات أيضاً . وقد أصرّ هيو على وجهة نظره ، واعترض على بعض أمور وردت في مشروع الاتفاقية يعتبرها بيبرس جوهرية ، ولهذا لم توقع الاتفاقية[1] .

ويبدو أن من الأسباب التي دفعت هيو الثالث إلى ذلك ما كان يواجهه من ضغط خارجي مصدره فرنسا . يدلنا على ذلك ما ذكره ابن عبدالظاهر الذي انهى حديثه عن

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، عبدالعزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، انظر أيضاً ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧١ ، الكرمل : حصن على الجبل المشرف على حيفا بسواحل البحر المتوسط ، والقرين : اكتفى ياقوت في تعريفه بأنه موضع ذكره الشاعر ذو الرمة بقوله :

بردفن خشباء القرين وقد بدا لهن إلى أرض الستّار زبالها

(انظر ، معجم البلدان) ويبدو لنا أن القرين مجموعة قرى على ساحل البحر المتوسط .

هذه الاتفاقية بأن الملك هيو الثالث كان كلما تكلم في الصلح . يقول « أنا أخاف من الملك جارلا (شارل) اخي ريدا فرنس (لويس التاسع) . ولا أقدر أبت صلحاً خوفاً منه »[1] .

ويبدو أيضاً أن إصرار الملك هيو على رفض توقيع هذه الاتفاقية التي كان صاحب صور قد توسط فيها بين هيو والسلطان الظاهر بيبرس بالإضافة إلى ما ذكر من أن السلطان بيبرس عندما خرج من مصر في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م إلى بلاد الشام ، وافته امرأة فشكت إليه انها وابنتها كانتا اسيرتين لدى صاحب صور ، وأنهما قد فدتا نفسيهما بالمال ولما أطلق سراحهما ، سير أهل صور خلفهما وأجبروا الفتاة على العودة إلى صور ، ولما طالب بيبرس بهذه الفتاة رد عليه صاحب صور بأنها تنصرت كما أقدم الصليبيون بصور على إمساك بعض الرجال المسلمين ، وقتل نفرين منهم . كل ذلك دفع السلطان بيبرس إلى الإغارة على صور في شهر رمضان من هذه السنة ، فأنزل بها خسائر فادحة ، وقطع عنها الميرة نكالاً بأهلها ، وأمر بأن تصادر منتجات الأراضي الزراعية المحيطة بها[2] .

ويبدو أن ذلك النجاح الباهر الذي حققه السلطان الظاهر بيبرس ضد الصليبيين في بلاد الشام ، قد أثار الروح الصليبية ـ التي لم تخمد جذوتها نهائياً ـ في الغرب الأوربي مرة أخرى . ففي المحرم من سنة ٦٦٨ هـ / أول سبتمبر ١٢٦٩ م ، أبحر من برشلونه جيمس الأول ملك ارغونه باسطول قوي قاصداً الشرق . وفي الطريق صادف اسطوله عاصفة عاتية أثارت من الرعب والإضطراب ما حمل الملك جيمس والشطر الأكبر من

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٣٣٣ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٦ ، يذكر العيني في عقد الجمان ج ٢٠ ، المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، أن السبب الذي من أجله أغار بيبرس على مدينة صور أنه عندما خرج من دمشق بعساكره إلى الديار المصرية ، جاءته امرأة في أثناء الطريق وأخبرته بأن ابنها لما دخل إلى صور غدر به صاحبها ، وأخذ ماله فشن بيبرس الغارة على صور وغنم منها غنائم كثيرة (انظر ايضا ، جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٨١ حاشية رقم ١) .

اسطوله على العودة إلى وطنه ، بينما واصل الشطر الآخر الرحلة باتجاه الشرق وعلى رأسه ولدان غير شرعيين للملك هما فرناندوسانكير ، وبدور فرنانديز[1] .

وفي ربيع الأول من سنة ٦٦٨ هـ / أكتوبر - نوفمبر ١٢٦٩ م بلغ السلطان بيبرس نبأ وصول تلك الحملة الصليبية الجديدة إلى عكا ، وأن هناك هجوماً موحداً سوف يشنه الفرنج والمغول على أراضي دولته فخرج بيبرس على الفور على رأس عددا قليل من الجيش المصري قاصداً بلاد الشام ، ودخل دمشق في السابع من ربيع الثاني ٦٦٨ هـ / ديسمبر ١٢٦٩ م[2] .

ويبدو أن وصول هذه الحملة الصليبية الجديدة ، قد رفع الروح المعنوية لدى الصليبيين في عكا ، فخرج أهلها صحبة الفرنج الوافدين وخيموا بظاهرها . ولم يأبهوا بخروج السلطان الظاهر بيبرس من مصر إلى الشام ، إذ لم يتوقعوا مهاجمته لهم لقلة من خرج معه من الجيش المصري[3] . وهنا يتجلى لنا مظهر جديد من صنوف البراعة الحربية التي كان عليها السلطان بيبرس . إذ يبدو أنه تعمد الخروج من مصر بذلك العدد القليل ، ليوهم الصليبيين الذين تجرأوا على نصب معسكرهم خارج عكا بأنه لا ينوي مهاجمتهم آنذاك . في الوقت الذي كان يضمر داخل نفسه كبسهم على غرة بجيوشه المتفرقة في اقطاعاتها في مدن الشام القريبة من عكا . ففي الوقت الذي تظاهر فيه بالخروج في رحلة صيد في المناطق القريبة من دمشق ، أوكل سراً إلى عدد من امرائه بإحضار عِدد القتال وتجميع العساكر الشامية من اقطاعاتها وموافاته في مرج برغوث الذي كان يتظاهر بأنه خرج إليه متصيداً . واكتمل عقد هذه القوات عنده في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني من السنة نفسها . وتقدم بها حتى وصل المرج . وهناك أكمن بتلك القوات . وكان في الوقت نفسه قد أصدر أوامره إلى كل من

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٦٧ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٦٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ١٠٦ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ .

مقدم عسكر عين جالوت ، وعسكر صفد بالإغارة الخاطفة على الصليبيين في معسكرهم في اليوم التالي وهو الثاني والعشرين من الشهر نفسه ، ورسم لهم بأن يتظاهروا بعد هجومهم الخاطف بالهزيمة أمام الصليبيين . وبالفعل فما أن رأى الصليبيون ذلك حتى اندفعوا بعددهم وعددهم خلف المسلمين يتقدمهم الكونت أوليفر (Count Oliver) الفرنسي المعروف « بزيتون » . فاستغل بيبرس اندفاع الصليبيين خلف عسكر عين جالوت وصفد وانقض بقواته وأحاط بالعدو من كل الجهات . ودارت بين الطرفين معركة حامية انتهت بانكسار الصليبيين ، واقتفى المسلمون أثرهم للإجهاز عليهم ، وكان ممن قتل أخو زيتون نفسه ، وابن اخت ملك أرغونه[1] .

وبهذا النصر العظيم تمكن السلطان الظاهر بيبرس من كبح جماح الغرب الأوربي ، الذي كان بعض حكامه ينظرون بين آونة وأخرى بعين العطف لإخوانهم في ساحل بلاد الشام ، وذلك بإرسال المدد والنجدات إليهم لتقوية الروح الصليبية في نفوسهم وتطعيمهم بالدماء الجديدة لتشجيعهم على الصمود أمام ضربات المسلمين المتتالية عليهم . إذ يبدو أن فشل حملة صاحب أرغونه هذه قد أثرت حتى على ملك فرنسا لويس التاسع الذي اختارته البابوية في سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م للخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ، فاختار في هذه المرة أن تكون وجهته تونس[2] ، بعد أن أدرك عجز الغرب بأكمله عن تحقيق انتصار في الأراضي المصرية أو بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الانتصار العظيم الذي أحرزه بيبرس ضد الصليبيين الوافدين إلى عكا ، جعله يسير قدماً نحو تحقيق هدفه الأسمى وهو تصفية ممتلكات

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

(٢) لمعرفة تفصيل حملة لويس التاسع على تونس انظر (جوانفيل ، القديس لويس ، ص ٣١٣ وما بعدها ، انظر ايضاً محمد محمد أمين ، شمال افريقية والحركة الصليبية ، مقالة مستخرجة من مجلة الدراسات الافريقية ، العدد الثالث سنة ١٩٧٤ م ، ص ١٥٨ - ١٦١ ، لوثروب سنودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ، محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ص ٢٢٧ .

بوهيمند السادس الذي كان قد لجأ إلى طرابلس عقب استيلاء المسلمين على انطاكيه ، فبعد أن اطمأن السلطان الظاهر بيبرس على حدود مصر الغربية بعد فشل حملة لويس التاسع على تونس ، غادر القاهرة في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ، قاصداً بلاد الشام حيث دخل دمشق في رجب من السنة نفسها . ومنها خرج للإغارة على طرابلس(١) . ولعله قصد بهذه الغارة الخاطفة اشغال صاحبها بوهيمند بالدفاع عنها وصرفه عن مساعدة الحصون القريبة منها التي كان بيبرس ينوي السيطرة عليها ، ليسهل عليه بعد ذلك احكام الحصار حول طرابلس نفسها(٢) . وبدأ السلطان بيبرس بالاستيلاء على صافيتا التي كانت تابعة للداوية . كما استولى على بعض الحصون والأبراج المجاورة مثل تل خليفة وغيره . وفي رجب من السنة نفسها / فبراير ١٢٧١ م شرع بيبرس في مهاجمة حصن الأكراد ، وهو من أقوى الحصون وأمنعها ببلاد الشام ، وكان تابعاً لفرسان الاسبتارية . وتمكن من أخذ قلعته عنوة في سادس عشر شعبان (أوائل يوليو) ورتب به نائباً من قبله وأمر بإعادة عمارته(٣) .

ولم يكد بيبرس ينتهي من حصن الأكراد حتى وصله مقدم الداوية بانطرسوس يطلب الصلح منه ، كما وصلته رسل الاسبتارية بحصن المرقب للغرض نفسه فصالحهم السلطان بيبرس على أساس الاعتراف بحق الداوية في انطرسوس ، والاسبتارية في المرقب مقابل أن يسلموا له بَلْدة وأعمالها وجميع الأراضي التي كان الداوية والاسبتارية قد استولوا عليها في أيام الملك الناصر يوسف ، وان يتخلوا عن حصتهم في خراج تلك

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ .

(٢) عبدالعزيز الخويطر ، ، الظاهر بيبرس ، ص ١١٠ .

(٣) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ - ٥٩١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، القسم الثاني ، ص ١١٦ - ١١٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ .

الأراضي ، وكان قبل ذلك يقسم بينهم وبين المسلمين ، وألا تجدد عمارة بالمرقب[1] .

ولكي يشدد السلطان بيبرس الخناق على الصليبيين في طرابلس اتجه بعد ذلك إلى حصن عكار شمالي طرابلس ، وهاجمه في رمضان من السنة نفسها (ابريل ١٢٧١ م) حتى اضطرت حاميته للتسليم[2] .

ولم يبق بعد ذلك أمام السلطان الظاهر بيبرس سوى مهاجمة طرابلس نفسها . فأرسل كتاباً إلى الأمير بوهيمند السادس صاحبها يتوعده ويذكره بما حدث لحصن الأكراد وحصن عكار ، ويطلب منه أن يتدبر موقفه ويسلم طرابلس جاء فيه « فنعرِّف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلِّم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب ، وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول أنها عن الضيافة لا تغيب ، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعاً ولا قضت من ريّها بدمائهم الوطر ، وما أطلقوا إلا لما عاقب شرب دمائهم ، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عكر . . . ؟ »[3] .

وبالفعل فقد شرع السلطان الظاهر بيبرس في شوال من سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م في الاستعداد لمهاجمة طرابلس . إلا أن نبأ وصول الأمير ادوارد الانجليزي الذي صار فيما بعد ادوارد الأول ملك انجلترا[4] إلى عكا في رمضان من السنة نفسها ، وصحبته

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٧ ، ٣٧٩ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩١ ، ٥٩٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥١ ، حصن الأكراد : حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ، والمرقب : بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل البحر المتوسط (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ ، ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، القسم الثاني ، ص ١١٦ - ١١٨ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ٢٥٦ ، انظر أيضاً ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٩ .

(٤) كان ادوارد الأول (٦٧٠ - ٧٠٧ هـ / ١٢٧١ - ١٣٠٧ م) رجلاً طموحا وسياسيا محنكا قوي الإرادة صبورا في الحرب . ويعتبر عهده من أكثر العهود نجاحا في تاريخ انجلترا (انظر محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا ، العصور الوسطى ، ص ٢٦٩) .

ثلاثمائة فارس وعدد من المراكب البحرية ، دفع السلطان بيبرس - الذي خاف أن يكون وصول ذلك الأمير إلى عكا ، مقدمة لحملة صليبية كبيرة على بلاد الشام - إلى قبول العرض الذي تقدم به بوهيمند السادس وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يكون بينهما هدنة لمدة عشر سنين[1] .

والواقع أن هذه الاتفاقية التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع بوهيمند السادس صاحب طرابلس ، جاءت بمثابة فصل الختام في حركة الجهاد الكبرى التي بدأها السلطان بيبرس ضد الصليبيين في بلاد الشام[2] ، إذ رأى بعد ذلك أن يتجه لمعاقبة القوى الأرمينية التي كانت قد انضمت إلى جحافل المغول أثناء إكتساحهم للعراق وبلاد الشام . على أمل أن يعود بعد ذلك لإكمال مشروع تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام . إلا أن القدر لم يمهله حيث توفي بعد أن أدب الأرمن وأسيادهم المغول . ليترك أمر ذلك لمن جاء بعده من سلاطين المماليك - كما سنرى - .

جهاد بيبرس في أرمينية الصغرى :

لم يتخل ملوك أرمينية الصغرى عن محالفة أسيادهم المغول حتى بعد هزيمتهم المروعة في عين جالوت . إذ استمر كل من هيثوم الأول وليو الثالث في النيل من المسلمين ، كلما سنحت لهم الظروف .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ١٥٢ .

(٢) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

والواقع أن هذا لم يكن السبب الوحيد الذي دفع السلطان بيبرس إلى ترك مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، والاتجاه لمعاقبة حكام أرمينية الصغرى ، إذ يمكن القول أن السلطان الظاهر بيبرس الذي كان قد كال الضربات المتلاحقة للصليبيين وتوج جهوده بالسيطرة على انطاكية . أدرك ـ على ما يبدو ـ أن نجاحه ذلك قد أحيا من جديد الروح الصليبية التي كادت جذوة نارها تخمد في الغرب الأوربي . وأن وصول الأمير الانجليزي ادوارد الأول دليل على ذلك . لذا رأى بيبرس أن يوجه جهوده نحو مملكة ارمينية الصغرى التي تغص بالمسيحيين الشرقيين الذين عرفوا بالميل فقط إلى بوهيمند السادس زوج ابنة ملكهم هيثوم ، علَّه بذلك يمتص الحماس المتجدد الذي نبت من جديد في غرب أوربا .

كما أن هناك عامل ثالث دفع بيبرس إلى الاتجاه للجهاد ضد ارمينية هو العامل الاقتصادي . ذلك أنه إذا كانت سلطنة المماليك قد بنت قوتها وعظمتها على اساس فكرة احتكار الجزء الأكبر من النشاط التجاري بين الشرق والغرب ، فإنه كان من الطبيعي أن تتأثر تلك السلطنة من أية قوة أخرى تحاول أن تجتذب النشاط التجاري الواسع . إذ أن ذلك سوف يؤثر على دخل دولة المماليك وبالتالي في قوتها . فقد لجأت دولة أرمينية الصغرى على مضاربة سلطنة المماليك في نشاطها التجاري حيث لجأت إلى تطويق نشاط التجارة البرية الواصلة من آسيا إلى مصر عن طريق البر من ذلك ما يرويه أبو المحاسن بن تغرى بردى من أن جماعة من التجار خرجوا سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م من بلاد العجم قاصدين مصر ، فلما مروا بسيس ، منعهم صاحبها هيثوم من العبور ، وأرسل بشأنهم إلى أبغا حاكم مغول فارس ، فطلب منه أبغا الحوطة عليهم وارسالهم إليه ، وعندما بلغ الخبر السلطان الظاهر بيبرس ، بادر بإرسال تعليماته إلى نائبه على حلب يطلب منه الاتصال بصاحب سيس وإنذاره بأنه إذا تعرض لهؤلاء التجار بشيء يساوي درهماً واحداً فسوف يأخذ عوضه « مراراً » فأطلقهم[١] .

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨١ ، سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ٢٤٨ .

كما يذكر كل من ابن عبدالظاهر ، وابن الفرات أنه حدث في سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م أن كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد المسلمين ، وكتب السلطان بيبرس إلى صاحب سيس بذلك فلم تفد فيه المكاتبة ، وصار الأرمن يلبسون زي المغول ، ويخرجون لاعتراض القوافل . الأمر الذي أغضب السلطان بيبرس ، فأصدر أوامره إلى صاحب حلب بالخروج لمهاجمة كينوك والإنتقام من أهلها[١] . ويبدو أن هذا الضرر الاقتصادي لم يقتصر على إعتراض الأرمن لقوافل التجارة ، بل تعداه إلى شيء أهم كان يمثل جانباً كبيراً من دخل الدولة المملوكية إلى جانب كونه خضوعاً أرمينياً لسلطة هذه الدولة حيث يذكر ابن الفوطي ، أن هيثوم الأول الذي كان قد راسل السلطان بيبرس وهادنه على خراج يحمله هيثوم إليه في كل سنة مَطَلَه في سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م الأمر الذي جعل بيبرس يرسل قوة في هذه السنة لتأديبه[٢] .

كما يمكننا القول أنه بعد سيطرة السلطان بيبرس على انطاكيه ، وتطويق الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، أصبحت دولة المماليك تجاور مملكة ارمينية الصغرى التي تقع في جنوب آسيا الصغرى عند الطرف الشمالي الغربي لبلاد الشام ، وأصبح كثير من الثغور الشامية متداخل بين الدولتين ، ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك التجاور بينهما إلى الاحتكاك المباشر ، سيما وأن مملكة أرمينية الصغرى قد مارست دوراً صليبياً كبيراً منذ الحروب الصليبية ، وقامت بدورها الصليبي ، ضد المسلمين خير قيام . ولهذا لا نعجب إذا ما اتجه الظاهر بيبرس لمعاقبة مملكة ارمينية الصغرى ، وتقليم أظافرها حتى لا تبقى شوكة في جانبه أثناء جهاده لاقتلاع جذور الوجود الصليبي في بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر فإن استمرار تعلق الأرمن بمغول فارس ، واستغلال الفرص المناسبة للنيل من دولة المماليك المسلمين ، كان السبب المباشر الذي دفع السلطان

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٤١٧ ، ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٢) انظر ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٥٥ .

الظاهر بيبرس إلى نقل ميدان جهاده إلى تلك المنطقة التي لم يهمل أمرها حتى إبان انشغاله بجهاد الصليبيين في الفترة الماضية . فبالرغم من محاولة ملك ارمينية هيثوم الأول استرضاء السلطان بيبرس بإرسال سفرائه إليه[1] . فإن بيبرس لم يكتف بتحريض نائبه في حلب على مناوشة أهل سيس لاشغالهم عنه اثناء جهاده ضد الصليبيين في انطاكيه[2] . وإنما رأى أن ينتهز فرصة غياب هيثوم عن بلاده عندما خرج إلى المغول في فارس يطلب المساعدة منهم . وقرر مهاجمة ارمينية . حيث توجه بنفسه إلى دمشق سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م للإشراف على تجهيز الحملة التي أزمع توجيهها إلى أرمينية الصغرى ، ويبدو أن الأرمن أحسوا بذلك ، فبادروا بإرسال رسلهم بهدية إلى السلطان الظاهر بيبرس وهو في صفد في محاولة لاثنائه عن مهاجمتهم ، إلا أنه لم يقبلها وقرر مهاجمتهم[3] . ويحتمل أن إصراره هذا كان بسبب ماسبق الإشارة إليه ـ من مماطلة هيثوم للظاهر بيبرس بإرسال الخراج المقرر عليه في هذه السنة[4] .

جهز بيبرس هذه الحملة واسند قيادتها إلى الملك المنصور صاحب حماة ، فخرج وبصحبته الأمير سيف الدين قلاوون ، وتوجها في خامس ذي القعدة من سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م فوصلا إلى الدربساك ومنه دخلا الدربند أرمينية والتقيا مع الجيش الأرمني ، ودارت الدائرة على الأرمن ، وتمكن المسلمون من قتل الأمير ثوروس بن هيثوم ، وأسر أخيه ليو واقتفى المسلمون أثر الجيش الأرمني يقتلون ويأسرون حتى دخلوا مدينة سيس نفسها وخربوها وغنموا منها غنائم كثيرة ، كما أغاروا في الوقت نفسه على

---

(١) شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص ١٠٢ ، سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ٢٤٩ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٦ ، سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٩ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٩ ، أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ، عاشور ، سلطنة المماليك ، ص ٢٤٩ .

(٤) راجع ماسبق ص ٢٠١ .

جهة قلعة الروم وعلى المصيصة وأذنة واياس وطرسوس[1] . كما تمكن السلطان بيبرس خلال المفاوضات التي دارت بينه وبين هيثوم حول اطلاق سراح ابنه المأسور من الحصول على عدد من القلاع التي كان الأرمن قد أخذوها من المسلمين وهي بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد[2] .

وزاد موقف أرمينية سوءاً عندما استولى السلطان الظاهر بيبرس على انطاكيه . إذ انقطعت بذلك صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بالأرمن وتبخرت إلى الأبد فكرة إمكان تحقيق تحالف بين الصليبيين في ساحل بلاد الشام وأرمينية الصغرى والمغول في فارس من أجل ضرب عدوهم المشترك دولة المماليك المسلمين[3] .

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ص ٣١٠ ، ابن عبدالظاهر ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ٢٨ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥١ ، ٥٥٢ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٢٥ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ١١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٧ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٥ ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠١ ، ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ، ابن الشحنة ، الدر المنتخب من تاريخ حلب ، ص ١٨٧ ، الحريري ، الاعلام والتبيين ، ورقة ١٤٢ ب .

الدربساك : يبدو أن المقصود به ما بين طرسوس وبلاد الروم .

قلعة الروم : قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيره بينها وبين سميساط .

المصيصة : مدينة على شاطيء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكيه وبلاد الروم تقارب انطرسوس .

أذنة : بلد من الثغور أيضا قرب المصيصة ، (ياقوت ، معجم البلدان) .

إياس : كانت مدينة ثغرية واقعة على شاطيء البحر المتوسط (انظر السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٧ ، ٦١٨) .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٧ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٣) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص ٢٥٢ .

وهكذا ظل الأرمن متشبثين بمغول فارس بوصفهم القوة الوحيدة القريبة منهم التي يمكن أن تحميهم من ضغط دولة المماليك ، فقبل أن يتخلى هيثوم الأول عن العرش لإبنه ليو الثالث سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م[١] ، اصطحبه إلى بلاط المغول في فارس . ويبدو أن هيثوم قصد بذلك تقديم ابنه إلى إيلخان المغول أبغا لإطلاعه على مدى قدرته وصلاحيته لولاية عرش مملكة أرمينية الصغرى . يدلنا على ذلك ما ذُكِر من أن ليو الثالث اتجه عقب اعتلائه عرش الأرمن إلى أبغا يطلب منه الاعتراف به ملكاً على أرمينية الصغرى[٢] .

وبدأ ليو الثالث حياته السياسية بطموح كبير انصب على محاولة إحياء التحالف الفعلي بين القوى المسيحية في الشرق والغرب ومغول فارس لمواجهة خطر المماليك الذي بات يهدد تلك القوى جميعها . فأرسل عدة نداءات إلى الغرب الأوربي يدعو حكامه إلى تحقيق هذا التحالف . ويبدو أن هذه المبادرة قد تمت بإتفاق أبرم في الخفاء بين ليو وإيلخان المغول أبغا . حيث قام الأخير بإيفاد رسله إلى البابوية في روما وإلى الملك الإنجليزي ادوارد الأول للغرض نفسه . إلا أن انشغال الغرب الأوروبي بمشاكله الداخلية آنذاك حال دون نجاح ذلك المشروع[٣] .

---

(١) اعتزل الملك هيثوم الحكم في ارمينية فعلاً في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م وقضى بقية حياته منزوياً في أحد الأديرة (انظر ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٧٠ ، سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ، ص ٢٥٣) .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ ، وإيلخان : كلمة تركية مركبة من لفظين هما : إيل بمعنى تابع ، وخان بمعنى حاكم أو ملك أو رئيس عشيرة ، وبذلك يكون معنى ايلخان ، الملك التابع أي حاكم إحدى الولايات في الدولة المغولية ويتبع الخان الأعظم في قراقورم الذي يحكم الدولة كلها . وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكو ابتداءاً من أبغا عندما أسند إليهم حكم إيران ، ثم ألصق بحكام المغول في إيران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم (انظر عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية ، ص ٤ ، ٥ حاشية) .

(٣) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ .

على أن هذا العمل العدائي الذي فشل ليو في محاولة توجيهه ضد دولة المماليك في بلاد الشام ، فضلاً عن قطع الهدايا التي كان مقرراً عليه إيصالها إلى الظاهر بيبرس ، ومخالفته لشروط الهدنة التي نصت على ألا يجدد بناء ، ولا يحصن قلعة ، وألا يسمح للأرمن بلبس زي المغول واعتراض القوافل التجارية . وأن يطالع السلطان بيبرس بالأخبار الصحيحة « كما تقرر معه بمقتضى الايمان »[1] . كل ذلك أعتبر نقضاً للعهد الذي كان مبرماً بين الطرفين . وثمة إشارة إلى أن معين الدين البرواناه ، كتب إلى السلطان الظاهر بيبرس يحرضه على مهاجمة سيس في هذه السنة (٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م) وقال له « اقصد هذه السنة سيس ، وفي السنة الآتية أملكك البلاد »[2] .

وفي شعبان من سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م خرج السلطان الظاهر بيبرس على رأس قواته من الأراضي المصرية قاصداً بلاد الشام ، ووصل إلى دمشق في نهاية شعبان ، وخرج منها بقواته في رمضان ، ولما وصل حماة خرج الملك المنصور صاحبها بعسكره لخدمة السلطان بيبرس ، فعهد إليه ومعه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي ، وبيليك الخازندار بقيادة العسكر الإسلامي الزاحف على سيس ، وحملوا معهم المراكب مفصلة على ظهور البغال ليجمعوا أجزاءها مرة أخرى في أرمينية لاستخدامها في عبور الأنهار .

فعبرت قوات المسلمين جسر المصيصة ، واستولت عليها وغنمت ما بها من العتاد والدواب ، ثم لحق السلطان بيبرس بعسكره وهو في تلك المنطقة وسار حتى دخل سيس وعيَّد بها فتحصن أهلها بقلعتها . وأمر بيبرس جيوشه بتخريبها وإشعال النيران فيها .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٤٣٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٨ .

(٢) انظر سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ، ص ٢٥٥ ، نقلاً عن مفضل ابن الفضائل ، النهج السديد ، ص ٢٢٥ .

والبرواناه : لقب فارسي معناه الحاجب ، وهو هنا لقب معين الدين سليمان ، الوصي على السلطان السلجوقي القاصر غياث الدين ووزيره (انظر ، الروض، ص ٣٩٦ حاشية المحقق رقم ٢ ، انظر أيضاً ، ابن تغرى بردى ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٩٩ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥ حاشية رقم ٤) .

ولما فرغ من حرق مدينة سيس وهَدم قصور التكفور[1] بها « وتسوية منظر مناظره ، وهتك ستر ستائره » ، أرسل فرقاً من جيشه لمهاجمة الدربند ، وطرسوس وانبثت الغارات في الجبال وعاد المسلمون محملين بالغنائم . ثم بعث السلطان بيبرس فرقة من عسكره لمهاجمة ميناء إياس ، فوجدوه خالياً فغنم المسلمون ما به . وكان قد فر من أهله نحو الألفين ما بين فرنج وأرمن في مراكب إلى البحر فغرقوا جميعاً . وغنم المسلمون من جراء تلك الغارات غنائم كثيرة ، نقلت إلى مرج انطاكية فملأته طولاً وعرضاً . ووقف السلطان بيبرس عليها بنفسه بعد عودته إلى انطاكية ففرقها على عساكره « ولم يترك صاحب سيف ولا قلم إلا أعطاه ولم يأخذ لنفسه شيئاً » وعاد بعده إلى دمشق فدخلها في منتصف ذي الحجة من السنة نفسها[2] .

والذي يجدر ذكره هنا هو أن أبغا ـ إيلخان مغول فارس لم يهب لمساعدة حلفائه في أرمينية الصغرى وكذلك الحال بالنسبة لبوهيمند السادس حاكم طرابلس . ويبدو أن ذلك كان بسبب تخاذل المغول نتيجة الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم على يد المماليك ، فضلاً عن انشغالهم بحروبهم الداخلية ضد مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) . كما أن السلطان بيبرس لم يهمل أمرهم حتى عند عزمه مهاجمة سيس في هذه السنة حيث جرد أمير العرب عيسى بن مهنا ، والأمير حسام الدين العينتابي إلى جهة البيرة[3] . بقصد مناوشة المغول هناك وإشغالهم عن تقديم أية مساعدة لحلفائهم في أرمينية الصغرى . أما

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٤٣٥ ، ابن الفرات ، تاريخ الفرات ، ج ٧ ، ص ٣٠ ، انظر أيضاً ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ ، ابن الفرات ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٦ ـ ٦١٨ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٩ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٤٨ ، الحريري ، الاعلام والتبيين ، ورقة ١٤٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ١٥٦ ، القلقشندي ، ج ٣ ، ص ٤٣١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩١ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠١ ، دول الإسلام ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٤٣٣ ، ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٩ .

بالنسبة لبوهيمند السادس حاكم طرابلس ، فإن استيلاء السلطان بيبرس على مدينة أنطاكيه وما حولها من المدن والقلاع ، قطع كل الطرق التي كانت تصل بوهيمند بحليفه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى .

وعلى كل فإن السلطان بيبرس تمكن بفضل تلك الضربة القاصمة التي وجهها لمملكة أرمينية الصغرى في هذه السنة من وأد نشوة الشباب التي كانت تلازم ليو الثالث آنذاك والتي كان يشوبها جو من الحقد والكراهية للمسلمين من جراء وقوعه في

أسرهم سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م . والتي حاول من خلالها ضرب ممتلكات دولة المماليك المسلمين في بلاد الشام عن طريق إحياء التحالف الفعلي بين المسيحيين (شرقيين وغربيين) والمغول ليتقوقع ليو بعد ذلك داخل مملكته الجريحة . خاصة بعد أن خذله أقرب حليف له أبغا ـ إيلخان مغول فارس ـ .

انتصارات بيبرس على أبغا بن هولاكو في أعالي الشام والأناضول (معركة إبلستين سنة ٦٧٥ هـ) :

أدرك أبغا بن هولاكو ـ إيلخان مغول فارس ـ أن استيلاء بيبرس على أنطاكية ، وانتصاره على ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى قد حرمه من المساعدات التي كان يتلقاها من تلك المناطق ، كلما أراد النيل من ممتلكات الدولة المملوكية في بلاد الشام . فأخذ

يفتش عن قوة جديدة يقحمها في ذلك الصراع مع دولة المماليك . فوقع اختياره على سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي كانت خاضعة للحماية المغولية منذ وصول حاكمها إلى هولاكو عقب استيلائه على مدينة بغداد وتقديم فروض الولاء والطاعة له

هذا بالإضافة إلى أن أبغا أراد بذلك ـ على ما يبدو ـ أن يجرب اقتحام حدود بلاد الشام من تلك الناحية ، بعد أن عجز عن تحقيق أي نجاح في اقتحام حدودها الشمالية الشرقية عن طريق عبور نهر الفرات .

والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس الذي كان يدرك ضعف إيلخانية مغول فارس ، التي لم يجروء حاكمها على تقديم أية مساعدة إلى حليفه الأرمني ليو الثالث ، قد عزم ـ على ما يبدو ـ عقب انتصاره على الأرمن وتدمير مدينة سيس أن يوجه لطمة أخرى مباشرة إلى مغول فارس لمعاقبتهم على تلك الأعمال العدائية التي مارسوها ضد ممتلكاته خلال انشغاله في الفترة الماضية بالجهاد ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام .

أضحى في استطاعة السلطان الظاهر بيبرس أن ينفذ مشروعاته ضد المغول للإنتقام منهم دون تدخل أية قوة خارجية لمساعدتهم . وقد لاحت الفرصة للسلطان بيبرس عندما استدعى أبغا ـ إيلخان مغول فارس ـ معين الدين البرواناه وزير سلطان سلاجقة الروم ، وممثلي المغول في بلاد الروم ، عقب انتصار بيبرس على أرمينية الصغرى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م ، ولا بد أن أبغا قد بحث مع البرواناه وممثليه في بلاد الروم ، نجاح السلطان بيبرس في غزو تلك المنطقة وسبل مواجهته ، ويبدو أن الاتفاق وقع بينهما على مهاجمة البيرة . ففي الثامن من شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٧٤ هـ / نوفمبر ١٢٧٥ م وصلت القوات المغولية ومعها عدد كبير من قوات سلاجقة الروم يقودهم البرواناه نفسه إلى البيرة لمحاصرتها حيث نصبوا عليها عددا من المنجنيقات . ولكن حصارهم لها لم يدم طويلا إذ خرج أهل البيرة على المغول ومساعديهم في الليل وأحرقوا منجنيقاتهم ، وفي الوقت نفسه سمع العدو بمسير السلطان الظاهر بيبرس على رأس عدد كبير من قواته إليهم ، فانسحبوا عنها خائبين في السابع عشر من الشهر نفسه[1] . ويمكن إرجاع هذا الإنسحاب المغولي السريع إلى أن المغول وأعوانهم أدركوا نتيجة سماعهم بمسير جيش بيبرس إليهم أن أملهم في التغلب علي مدينة حصينة كالبيرة كان يتطلب سرعة وجيشاً كبيراً يضرب ضربته بسرعة ، قبل وصول النجدات الإسلامية التي عادة ما تصل إليها من المدن الشامية القريبة منها . وهذا بالطبع يستلزم من القوات المغولية

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١١٢ ـ ١١٧ ، ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص ١٥٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦١٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٢٨ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٥ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٧ .

المهاجمة أن تحصل على مؤونة ضخمة لا تتناسب مع خفة تحركاتهم التي تمكنهم عادة من الانسحاب عند اقتراب النجدات الإسلامية السريعة ولعلهم في ذلك الوقت أدركوا أن محاولة السيطرة على البيرة يحتاج إلى وقت أطول ، وتموين أكثر مما كان باستطاعتهم توفيره آنذاك[١] . هذا بالإضافة إلى أن المغول كانوا ـ على ما يبدو ـ قد اكتشفوا مراسلة البرواناه للسلطان الظاهر بيبرس ، الذي وعد بيبرس بالهجوم على فرق المغول القريبة منه بمجرد أن تبدو طلائع الجيش المملوكي . وهذا كاف لانسحاب المغول عن البيرة[٢] .

ويمكننا القول أيضاً ، أنه لا يستبعد أن أبغا ـ إيلخان مغول فارس ـ لم يكن يهدف بتلك الغارة علي البيرة محاولة السيطرة عليها ، وإنما قصد من وراء تلك الغارة مجرد اقحام سلطنة سلاجقة الروم في هذا الصراع لتوجيه انظار الظاهر بيبرس إلى منطقة الأناضول ، التي بات الطريق إليها ممهداً بعد كسر شوكة الأرمن في العام الماضي . وحماية حدود اقليم فارس الغربية من هجوم المماليك المنتظر .

ولا يمكننا أن نهمل ما كان يقوم به مغول القبيلة الذهبية « القفجاق » من دور فعّال في الضغط على إيلخانية مغول فارس ، خاصة وأن علاقتهم بالمماليك ازدادت توثقاً بعد أن أقدم بيبرس على الزواج من ابنة بركة خان القفجاق . ومن ثم حرص خليفته منكوتمر على الاستمرار في محالفة السلطان الظاهر بيبرس[٣] .

وعلى كل فإن هجوم المغول على البيرة في هذه السنة ومساعدة سلاجقة الروم لهم فتح المجال أمام السلطان الظاهر بيبرس لتقليص نفوذ المغول في المشرق . فبعد أن حرم بيبرس المغول من مساعدة حلفائهم المخلصين الأرمن . رأى في غارة المغول على البيرة ، ومراسلة البرواناه له فرصة لضرب الأناضول لزيادة إحكام العزلة على المغول في فارس .

---

(١) عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٩ ، نقلاً عن ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر بيبرس ، الجزء الثاني ، لوحة ٧٤ (مخطوط بالمكتبة السليمانية بادرنة) .

(٢) ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، عبدالعزيز الخويطر المرجع نفسه .

(٣) انظر عبدالعزيز الخويطر ، المرجع نفسه ، ص ٥١ ، ٥٢ .

وقد ساعد السلطان بيبرس على تحقيق هذا الهدف أن البرواناه بالرغم من مشاركته المغول في مهاجمة البيرة سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فإنه أدرك ـ على ما يبدو ـ بعد أن كشف المغول مراسلته للظاهر بيبرس ، أنه لم يعد يأمن على نفسه منهم . فرأى أن يسير قدماً في مشروع استدعاء المماليك وحسَّن لهم القدوم إلى بلاد الروم في تلك السنة ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس رد عليه معتذراً عن المسير إليه في هذه السنة ووعده أن يكون التوجه إلى بلاد الروم في العام المقبل وذلك بحجة نقص المياه في الآبار التي على الطريق(١) .

ويبدو أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي جعل بيبرس يمارس سياسة الحذر في إجابة طلب البرواناه بالمسير إلى بلاد سلاجقة الروم ، بل أن هناك أسباباً أخرى منها أنه لم يشأ أن يقدم على مخاطرة قد تؤدي إلى نكبة تكون على حساب السمعة والمكانة الكبيرة التي بناها بحكمته وحسن تدبيره في السنوات الماضية . فاستراتيجياً وجد أنه من المستحيل أن يرسل إلى بلاد الروم جيشاً كبيراً يكون الأرمن في مؤخرته ويكون هو تحت رحمتهم . وسياسياً بعض قادة السلاجقة في بلاد الروم لم يشاركوا في قبول اقتراح معين الدين البرواناه ذلك . واقتصادياً ليس من صالح السلطان بيبرس أن يُبقي جيشاً كبيراً في تلك المنطقة دون أن يتأكد من ضمان وصول الإمدادات إليه ، وحتى الطقس في هذا الوقت من السنة لم يكن مشجعاً على إرسال جيش إلى مكان ناء كبلاد الروم(٢) .

ويمكننا أن نضيف أن السلطان الظاهر بيبرس الذي كان على علاقة طيبة مع البيزنطيين تردد في ذلك الوقت في القيام بعمل حربي في منطقة الأناضول لما قد يؤدي إليه ذلك من تأثير على صداقته بهم . إذ من الطبيعي ان البيزنطيين بالرغم من مصادقتهم للمماليك كانوا يفضلون بقاء دولة سلاجقة الروم مجاورة لهم على أن تجاورهم دولة قوية كدولة سلاطين المماليك المسلمين لما قد يترتب على ذلك من منافسة بين الدولتين القويتين في المجالات السياسية والإقتصادية على وجه الخصوص .

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٤٢ ، انظر ايضاً اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٦٥ ، شافع بن علي ، حسن المناقب السرية ، ص ١٦٣ ، ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، لوحة ٧٥ .

(٢) عبدالعزيز الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٠ .

والمهم في الأمر أن معين الدين البرواناه بات في موقف حرج ، فأبغا - إيلخان مغول فارس - كاتبه يستدعيه للحضور إليه ، والسلطان المملوكي بيبرس اعتذر عن المسير إليه في هذه السنة . واضطر البرواناه أخيراً إلى إجابة طلب أبغا ، وسار إليه « يقدم رجلاً ويؤخر أخرى » - على حد تعبير ابن الفرات -[1] ينتظر ما قد يتجدد من جهة السلطان الظاهر بيبرس من أخبار وصوله إلى بلاد الروم ، ليعود إليه على وجه السرعة ، وكان قد أوصى أحد أمراء الروم المقربين إليه بأن تظل الكتب متواترة إليه بخبر السلطان الظاهر بيبرس إذا قصد بلاد الروم ليعود إليهم على وجه السرعة . وهنا سارع كبار الأمراء في سلطنة سلاجقة الروم ، وعلى رأسهم الأمير شرف الدين مسعود بن الخطير - على ما يبدو - إلى مكاتبة السلطان الظاهر بيبرس وحثه على تسيير قوة من عنده إلى بلاد الروم . ويبدو أنهم قصدوا بذلك استعادة البرواناه بأي وسيلة كانت ، ولا يستبعد أن يكون السلطان بيبرس قد استجاب لنداءاتهم ، ووعدهم بإرسال قوة من عنده إلى بلاد الروم . فسارع هؤلاء الأمراء بمكاتبة البرواناه وهو لا يزال في طريقه إلى أبغا - إيلخان مغول فارس - وأخبره بأن السلطان بيبرس قاصد بعساكره البلاد ، وإنه إن لم يسرع بالعودة فإن بلاد الروم مأخوذة لا محالة ، فأرسل البرواناه تلك الكتب إلى أبغا لإطلاعه على الوضع ، فأعطاه أبغا دستوراً بالعودة من الطريق وجرد معه ثلاثين ألفاً من أعيان المغول لمساعدته[2] .

ويبدو أن تلك القوة المغولية التي جردها أبغا مع البرواناه لم تكن بقصد مساعدته بقدر ما هي بهدف ضمان عدم انحيازه إلى السلطان بيبرس . لذا فإن البرواناه لم يستطع - على ما يبدو - تنفيذ ما كان يجول بخاطره نحو التنصل من سلطة المغول والانضمام إلى طلائع الجيش المملوكي الوافد على بلاده ، الأمر الذي أدى إلى اختلاف الأمراء السلاجقة حول ذلك الأمر ، وسار جماعة منهم إلى الظاهر بيبرس ، وسألوه أن يرسل معهم عسكراً لإحضار السلطان غياث الدين وبقية الأمراء المؤيدين لهم ، وكان البرواناه وعسكر المغول حالوا بين ذلك الجيش المملوكي الذي بعثه السلطان الظاهر بيبرس وبين

---

(١) ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

السلطان غياث الدين فرجع هؤلاء الأمراء إلى السلطان الظاهر بيبرس فأحسن استقبالهم وجهزهم وحريمهم إلى الديار المصرية[1] .

ومن المحتمل أن محاولة هؤلاء الأمراء إحضار السلطان غياث الدين إلى الظاهر بيبرس في بلاد الشام كان بمساعدة البرواناه نفسه ، ولكن حرج موقفه بحكم وجود قوة مغولية كبيرة معه جعله يحول دون ذلك . كما لا يستبعد أن تكون محاولة نقل السلطان غياث الدين إلى بلاد الشام كانت بموافقة السلطان غياث الدين نفسه ، إذ من المحتمل أنه كان يفضل الإنضواء تحت لواء المماليك المسلمين والتخلص من حماية المغول الوثنيين .

وعلى كل فإن إصرار أمراء سلاجقة الروم على الاتصال بالسلطان بيبرس وحثه على المسير إلى بلادهم ، قضى على كل الشكوك التي كانت تراوده تجاه إخلاص البرواناه له . وبدأ يفكر جدياً في تلبية طلبهم بالاستعداد لغزو الأناضول . فأرسل في أوائل سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م أحد أمرائه وبصحبته ألف فارس إلى بلاد الروم ومعه كتاباً منه إلى أمراء الروم يحثهم على إخلاص النية والإنقياد له ولما وصل هذا الأمير إلى الابلستين استقبله جماعة من أمراء الروم أحسن استقبال ، ووعدوه المساعدة على المغول[2] .

أما بالنسبة لمعين الدين البرواناه ، فإنه ظل ـ على ما يبدو ـ مضطراً إلى مصانعة المغول وتنفيذ أوامرهم . في الوقت الذي وآلى فيه كبار أمراء الروم مراسلتهم وحضورهم إلى السلطان الظاهر بيبرس فتلقاهم بيبرس بنفسه في بلاد الشام وأكرم نزلهم وكتب إلى ابنه الملك السعيد وجماعة من الأمراء يستشيرهم في إرسال العساكر إلى بلاد الروم[3] .

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٤٢ ، ٤٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥٢ ، ٦٢٦ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٦٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧١ .
وابلستين : مدينة ببلاد الروم اسمها الحالي البستان وهي قريبة من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ، جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٩٨ حاشية) .

(٣) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

وفي يوم الخميس ثالث صفر من سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م توجه السلطان بيبرس من دمشق إلى حلب فوافاه عليها ضياء الدين محمود بن الخطير ، وسنان الدين بن الأمير سيف الدين طرنطاي ، وسبب وصولهما أن شرف الدين بن الخطير كان لما وردت كتب السلطان الظاهر بيبرس على أمراء سلاجقة الروم شرع في تفريق العسكر السلجوقي ، وأذن لهم في نهب من يجدونه من المغول وقتله[١] .

وأمام هذه الانتفاضة التي أحدثها هؤلاء الأمراء داخل بلاد سلاجقة الروم . عمد البرواناه ومقدموا المغول هناك إلى عقد إجتماع عام . وأحضروا السلطان غياث الدين ومن وافقه من الأمراء على الانقياد للسلطان الظاهر بيبرس . وقالوا له « ما حملك على ما فعلت من خلع طاعة أبغا وركونك إلى صاحب مصر » فقال « أنا صبي وما علمت الصواب ، ولما رأيت أكابر دولتي قد فعلوا ذلك خفت أن يسلموني إذا لم أوافقهم »[٢]

فنهض البرواناه إلى أحد الأمراء وقتله بيده . ثم أحضروا كبار الأمراء وسألوهم عن سبب انفاذهم إلى السلطان الظاهر بيبرس ، فأجابوهم بأن ذلك كان بأمر شرف الدين بن الخطير ، فأحضروا شرف الدين وسألوه فقال للبرواناه « أنت حرضتني على ذلك » وذكر له المكاتبات التي كاتب بها المظفر ، واتفاقه معه إلى التاريخ الذي عزم شرف الدين فيه على قصد السلطان الظاهر بيبرس . فأنكر البرواناه ما ادعاه شرف الدين ، ثم سأل المغول شرف الدين عن بقية الأمراء هل كانوا موافقين بذلك ، فأنكر وأكد بأنه هو الذي كلفهم وألزمهم بإرسال الرسل إلى الظاهر بيبرس ، فأمر مقدم المغول بضربه بالسياط ، فاعترف ببعض من كان معه من الأمراء ، وهنا أدرك البرواناه ، بأن اعترافه ذلك سيؤدي إلى قتلهما معا[٣] ، فطلب البرواناه من شرف الدين أن يرجع عن اعترافه ذلك ، بأن يعتذر بأن اعترافه كان من ألم الضرب ، ففعل شرف الدين « وطُولع أبغا بصورة الحال » فأمر بأن يضرب كل يوم مائة سوط إلى أن

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٦٧ .
(٢) اليونيني ، المصدر السابق ، ص ١٧١ ، انظر أيضاً ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٦٧ .
(٣) ذكر اليونيني ، أن البرواناه قال لشرف الدين « متى قتلوني لم يبقوك بعدي » .

يعاود الإعتراف مرة أخرى ، فلما اعترف أمر بقتله وذلك في آخر ربيع الآخر من سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧ م وقتل معه جماعة من الأمراء الذين أقر بأنهم كانوا معه(١) .

والمهم في الأمر أن هذا الخلاف بين شرف الدين والبرواناه يؤيد ما سبق أن أشرنا إليه من أن البرواناه كان يضمر داخل نفسه الإخلاص بالإنقياد للسلطان الظاهر بيبرس ، وأن معاداته له في الظاهر كانت ـ على ما يبدو ـ بسبب خوفه من فتك المغول به . بدليل ما كشفه شرف الدين بن الخطير هنا من مراسلات تمت في السرّ بينه وبين الظاهر بيبرس .

ومهما يكن من أمر فإن السلطان الظاهر بيبرس رأى ـ على ما يبدو ـ بعد قتل شرف الدين ومعه جماعة من الأمراء ، أن الأوضاع قد ساءت داخل الأناضول ، وأن الفرصة أصبحت مواتية لضرب المغول في تلك المنطقة ، فخرج من قلعة الجبل بالقاهرة(٢) . على رأس قواته يوم الخميس العشرين من شهر رمضان من سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م . ودخل دمشق يوم الأربعاء سابع عشر شوال ، ثم خرج منها متوجهاً إلى حلب يوم السبت العشرين منه ، ودخل حلب يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وخرج منها يوم الخميس إلى جيلان . وفيها تقدم إلى نائبه على حلب أن يتوجه إلى الساجور ويقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب لحفظ معابر الفرات من هجمات المغول ، وهناك انضم إليه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا أمير العرب . ولما بلغ نواب

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٦٧ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) يبدو أن السلطان بيبرس قد عاد إلى القاهرة في أوائل هذه السنة بعد أن استقبل في شهر صفر منها في حلب من وَفَدَ إليه من أمراء الروم بزعامة الأمير شرف الدين بن الخطير .

المغول بالعراق نزول تلك القوة الإسلامية على الفرات جهزوا جماعة من عرب خفاجة لكبسهم ، فركب إليهم نائب حلب والتقى بهم وكسرهم وغنم منهم غنائم كثيرة[١] .

أما السلطان بيبرس فقد ركب من جيلان يوم الجمعة ثالث ذو القعدة وسار إلى عين تاب ، ثم إلى دلوك ، ثم خرج إلى الديباج ومنها إلى كينوك ، ثم عبر النهر الأزرق إلى أنحاء الدربند فوصله يوم الثلاثاء وسيطر بذلك على كل المسالك المؤدية إلى بلاد الروم . ثم أمر الأمير سنقر الأشقر بأن يتقدم على رأس فرقة من العسكر ، فوقع على كتيبة للمغول عددها ثلاثة آلاف فارس فهزمهم وأسر منهم طائفة ، وذلك يوم الخميس تاسع ذو القعدة من السنة نفسها[٢] .

ثم وردت الأخبار إلى الظاهر بيبرس بأن عساكر المغول بقيادة تتاون والروم بقيادة البرواناه قد اصطفت على نهر جيحان استعداداً لملاقاته ، فتقدم بيبرس بقواته وصعد بها على جبال تشرف على صحراء إبستلين ، فشاهد المغول وقد رتبوا قواتهم أحد عشر كتيبة ، في كل كتيبة ألف فارس[٣] . وعزلوا عسكر الروم وجعلوه كتيبة بمفرده خوفاً أن

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٨ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٩ ، اليافعي ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٧٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٩ .
والساجور : نهر بمنبج (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) اليونيني ، المصدر نفسه ، ص ١٧٦ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٧١ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٦ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٦٨ ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، لوحة ١٠٩ ، عبدالعزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ٧٣ ، ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٨ ، انظر أيضاً ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيرس ، ج ٢ ، لوحة ١٠٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧١ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٦ .
جيحان : نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ، ومنبعه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفربيا ، بإزاء المصيصة وعليه عند المصيصة ، قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة ، فيدخل منها إلى المصيصة وينفذ منها فيمتد أربعة أميال ثم يصب في البحر المتوسط (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

يكون مخامراً عليهم فيفاجئهم أثناء نشوب المعركة بالإنضمام إلى عسكر المسلمين[1] . ثم تقدم العدو فانصبت الخيول الإسلامية عليهم من الجبل انصباب السيل ، ووقف المسلمون أمام عدوهم وقفة رجل واحد ، وقدم السلطان بيبرس عدداً من مماليكه وخواصه ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، ثم أردفهم بنفسه وحملت العساكر معاً حملة واحدة ، فترجل المغول عن خيولهم « وقاتلوا قتال من يطلب الموت » حتى أثخن القتل فيهم ، فخارت قواهم وهربت فرقة منهم واعتصمت بالجبال ، وانهزم البقية وتفرقت جموعهم ووقع عدد كبير منهم في الأسر[2] .

أما بالنسبة للبرواناه زعيم الروم ، فإنه نجا بنفسه ، حيث انهزم باصحابه وسار إلى قيصرية فوصلها بكرة الأحد ثاني عشر ذي القعدة وأشار على السلطان غياث الدين كيكاوس بن كيخسروا وجماعة من الأمراء بالخروج منها لأن المغول المنهزمين متى دخلوا قيصرية قتلوا من فيها حنقاً على المسلمين ، ثم أخذ البرواناه السلطان غياث الدين وجماعة من أعيان البلد وسار بهم إلى توقات التي بينها وبين قيصرية مسيرة ثلاثة أيام[3] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٢٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٦٨ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٦ ، ابن كثير البداية والنهاية ، خ ١٣ ، ص ٢٧١ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ابن تغرى بردى ، ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٦٨ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٩ ، ١٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٦ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٩ ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، لوحة ١١٠ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٥١ ، ٥٢ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٩ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٦٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

قيسارية أو قيصرية : اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطوريتهم بالشرق وشمال افريقيه وأسبانيا أيضاً ومن هذه قيصرية بفلسطين الواقعة على الشاطيء على مسافة أربعة وعشرين ميلاً جنوبي حيفا ، ومنها قيصرية الروم وهي المقصودة هنا وتقع على نهر قارصو أحد فروع نهر قزل أرمك بآسيا الصغرى (انظر معجم البلدان ، جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ٩٩ حاشية)

أما السلطان الظاهر بيبرس فقد سار إلى المنزلة التي هزم فيها العدو فوجد من ضمن القتلى تتاون مقدم المغول ، أما الأسرى فكان عددهم كبير ، وكان من ضمنهم أم البرواناه وابنه مهذب الدين علي وابن إبنته[1] . ثم جرد بيبرس الأمير سنقر الأشقر مع جماعة لمطاردة من هرب من المغول والتوجه إلى قيصرية ، وكتب معه كتاباً بتأمين أهلها والسماح لهم بالخروج إلى الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية ، ثم رحل السلطان بيبرس بنفسه قاصداً قيصرية وفي طريقه مر بعدد من القرى والقلاع فأذعنت لطاعته ، ونزل ليلة الأربعاء خامس عشر الشهر بقرية قريبة من قيصرية ، وأصبح وقد رتب عساكره ، فخرج إليه أهل قيصرية مستبشرين بلقائه وقد أعدوا له الخيام لنزوله بوطأة تعرف بكيخسروا ، فلما اقترب السلطان بيبرس منها ترجل وجوه الناس حسب طبقاتهم ، ومشوا بين يديه إلى أن وصلها . وفي يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة خرج بيبرس لصلاة الجمعة فدخل قيصرية ، ونزل دار السلطنة السلجوقية ، وجلس على تخت[2] الملك بها ، وحضر بين يديه القضاة والفقهاء والصوفية والقراء ، وجلسوا في مراتبهم على عادة سلاطين سلاجقة الروم ، فأقبل عليهم ومد لهم سماطاً فأكلوا وانصرفوا » ثم حضر الجمعة بجامع قيصرية ، وخطِب له ، ولبس شعار السلطنة السلجوقية ، وأحضرت بين يديه الدراهم التي ضربت باسمه . وبعث إليه معين الدين

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٥ .

(٢) يقال له السرير وهو ما يجلس عليه الملوك في المواكب ، ولم يزل من رسوم الملوك قديماً وحديثاً ، رفعة لمكان الملك في الجلوس عن غيره حتى لا يساويه غيره من جلسائه (انظر ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٨٨ ـ الملاحق) ويصفه ابن خلدون بأنه عبارة عن أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مترفعاً عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد (انظر المقدمة ، ج ٢ ، ص ٧٠٠) .

البرواناه يهنئه بالجلوس على التخت ، فكافأه السلطان بيبرس بأن كتب إليه يطلب منه الوفود عليه ليوليه مكانه على سلطنة الروم[١] .

وهنا تذكر بعض المصادر والمراجع ، أن معين الدين البرواناه رد على السلطان بيبرس يطلب منه مهلة خمسة عشر يوماً . وكان مراده أن يصل إلى أبغا ـ إيلخان مغول فارس ـ يحثه على المسير ليدرك الظاهر بيبرس في بلاد الروم ، وان السلطان بيبرس لما علم بذلك ترك قيصرية وخرج منها في الثاني من ذي القعدة سنة ٦٧٥ هـ / ابريل ١٢٧٧ م[٢] .

ويبدو لنا أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي جعل السلطان بيبرس يترك قيصرية ويعود إلى بلاد الشام . كما أن البرواناه لم يكن يقصد مماطلة الظاهر بيبرس حتى يصل أبغا إلى بلاد الروم . بدليل أن تلك المدة التي حددها البرواناه لبيبرس لم تكن كافية لوصوله إلى بلاط أبغا في فارس وحثه على الوصول إلى بلاد الروم للإطباق على القوات الإسلامية بقيصرية ، هذا بالإضافة إلى ما ذكره اليونيني بعد ذلك من أن السلطان الظاهر بيبرس عندما نزل بقيرلو في طريق عودته من قيصرية ورد عليه رسول جديد من جهة البرواناه « يستوقفه عن الحركة »[٣] .

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٨١ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٠ ، ٦٣١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٥٤ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٩ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٦ ، شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص ١٦٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٩ ـ ١٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٢) اليونيني ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣١ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٧٣ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٢ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

وعليه يمكن القول أنه لا يستبعد أن يكون المغول قد أخذوا على البرواناه رهينة عندهم ، لضمان عدم انضمامه إلى الظاهر بيبرس . وإلا فإن الحوادث التي ذكرت كانت كافية لإظهار نوايا البرواناه بالإنضمام إلى جيوش المماليك المسلمين .

أما بالنسبة لرحيل السلطان الظاهر بيبرس عن قيصرية ، فإن سببه يتضح لنا من رده على رسالة البرواناه الأخيرة ، حيث كان جوابه عليها قوله « إن معين الدين ، ومن كانت تأتيني كتبهم شرطوا شروطاً لم يفوا بها وقد عرفت الروم وطرقه ، وما كان جلوسنا على التخت رغبة فيه إلا لنعلمكم أن لا عائق لنا عن شيء نريده بحول الله وقوته ، ويكفينا أخذنا أمه ، وابنه وابن بنته »[1] .

كما أنه لا يمكننا أن نهمل ما ذُكر من أنه من الأسباب التي منعت بيبرس من البقاء ببلاد الروم ، أن جيشه كان كبير ويحتاج إلى مؤنة كبيرة لا يمكن بيبرس حمله معه من بلاده إلى تلك المنطقة بسهولة[2] . فلو لم ينسحب لشح تموين جيشه . كما أن اخبار هزيمة المغول لا بد وأنها وصلت إلى أبغا ، مما قد يحمله على أن يأتي ومعه نجدة ، فيواجه السلطان بيبرس صعوبات جديدة لكونه سيخوض معركتين متتاليتين . كما أن بقاء بيبرس هناك قد يشجع المغول على مهاجمة ممتلكاته في الشام عن طريق العراق ، وهناك سبب داخلي ربما كان يشغل بال السلطان بيبرس وهو أنه ترك ابنه الملك السعيد في مصر وليس معه سوى خمسة آلاف جندي[3] . مع وجود عدد من القادة الطموحين حوله ، وبُعْد بيبرس في تلك المناطق قد يغريهم بإثارة فتنة ضده[4] .

وعلى كل ، فإن أبغا ـ وكما توقع بيبرس ـ وصل إلى بلاد الروم بعد رحيل السلطان بيبرس عنها ، وحاول أن يرسل خلف الظاهر بيبرس جيشاً لعله يدركه قبل أن

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ، انظر أيضاً ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٤٦٨ ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، لوحة ١١٤ ، عبدالعزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ٧٦ .

(٢) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، لوحة ١١٤ ، الخويطر ، المرجع نفسه ، ص ٧٦ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٦٨ .

(٤) الخويطر ، الظاهر بيبرس ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

يصل إلى بلاد الشام ، إلا أن أبغا عندما تبين له أن بيبرس قد عبر بجيشه الحدود أمر جيشه بالعودة ، والجيش الذي أرسله أبغا لتعقب بيبرس كان خفيفاً ولعله قصد أن يتمكن ذلك الجيش من العودة بسرعة بعد أن ينزل ضربة سريعة بجيش بيبرس . إلا أنه يئس من تحقيق شيء من ذلك بعد أن وصل السلطان بيبرس إلى دياره ، واستقر في معسكره ، حيث المعدات الثقيلة ، والمؤن الوافرة ، والجند الذي لم يرهقه السفر المتواصل في الوقت الذي كان جيش أبغا مجهداً بعد السفر الطويل ، فاقداً لبعض خيله التي لا بد أن تموت بعد هذا الإجهاد من السفر المتواصل[١] . كما أن السلطان بيبرس لما بلغه خبر هذه القوة المغولية ، استعد لها ، ولم يهمل التصدي لها إلا بعد أن علم أن أبغا أمر بعودتها[٢] .

وانتشر جنود أبغا بعد ذلك في بلاد الروم ، وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين انتقاماً ، واعتبر أبغا أن البرواناه قد غرر به عندما لم يخبره بحقيقة حجم جيش السلطان الظاهر بيبرس ، ولم يقبل عذره في أنه نفسه لم يكن يعرف ذلك ، فلم ينج البرواناه هذه المرة من سخط أبغا ، فلاقى حتفه بعد أن عاد مع أبغا إلى بلاطه[٣] .

ولقد كان لمعركة ابلستين نتائج عظيمة الأهمية أهمها أن سلطنة سلاجقة الروم ، لم تعد دولة مستقلة ، وإنما أصبحت ولاية تابعة للمغول يتولاها أحد قادتهم كنائب عن الإيلخان في فارس ، فقد أرسل أبغا الخواجة شمس الدين إلى بلاد الروم لإدارة الأمور

---

(١) ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، لوحة ١١٧ ، انظر أيضاً اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨٠ ، ٨١ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٤ .

(٢) ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، لوحة ١١٧ ، الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص ٧٦ .

(٣) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، لوحة ١١٧ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٤ ، رشيد الدين جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٩ ، ١٠ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٥ .

باسمه هناك[١] . وبذلك انتقلت الإدارة الداخلية لبلاد الروم إلى يد المغول وسرح الجيش السلجوقي وأصبح الأمراء والجند الذين فقدوا وظائفهم مصدر قلاقل وشغب ، وزاد ذلك أن المغول فرضوا على الشعب كثيراً من الضرائب التي لم تكن موجودة من قبل كضريبة « التمغة » مثلاً[٢] .

وبالرغم من السيطرة المغولية على بلاد الروم ، فإنه يمكن القول أن ما حل بالجيش المغولي من القتل والأسر ، لدرجة أن أبغا بكى عندما شاهد قتلى المغول مكدسين في مكان المعركة[٣] . كان له الأثر البالغ على إضعاف دولة مغول فارس نفسها . هذا بالإضافة إلى تهور أبغا وإقدامه فور وصوله إلى مكان المعركة على الانتقام من سكان بلاد الروم بقتل أعداد كبيرة منهم ، حيث يقال أنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على مائتي ألف نفس ، ولم يقتل أحد من النصارى[٤] . أدى إلى حرمانه من المساعدة التي كان سيحصل عليها عند الحاجة من تلك الجهة .

والأهم من ذلك أن السلطان بيبرس بانتصاره على المغول في الأناضول قضى على الآمال التي كانت تراودهم ـ على ما يبدو ـ باقتحام بلاد الشام من تلك الناحية ، بعد أن فشلوا في اقتحامها من جهة معابر الفرات .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٦ هـ ، رشيد الدين جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، ص ١٤٠ .

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، ص ١٤٢ .

والتمغة أو الطمغة : كلمة مغولية معناها خاتم ، ودخلت التركية في صيغة (تمغة) ومنها أخذت العربية تمغة أو دمغة . وكان هذا الخاتم مربع الشكل ، يحمل كتابة صينية يستخدم في مكاتبات حاكم الصين إلى حاكم الفرس ، وكانت الرسائل تتكون من ورق يلصق بعضه ببعض ويتمغ عند كل التحام باللون الأحمر وهو اللون الامبراطوري في الصين (انظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٦ ، حاشية رقم ٢ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٨٥ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨٠ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٤ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٧٦ .

(٣) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧٢ .

كما يمكن القول أيضاً أن هذا النصر العظيم قد زاد من إخماد جذوة نار الروح الصليبية في الغرب الأوربي . إذ لا يستبعد أن ملوك الغرب الأوربي بعد عجز المغول وحلفائهم الأرمن المسيحيين عن صد هجوم المماليك عن أرمينية والأناضول قد فقدوا الأمل في نجاح أي محاولة أخرى من جانبهم فيما لو حاولوا إرسال المساعدة إلى المشرق . لذا التزموا الصمت تجاه انتصار بيبرس في أرمينية الصغرى والأناضول بالرغم من معرفتهم التامة بأن عاقبة ذلك النصر سيكون وبالاً على من بساحل الشام من الصليبيين أبناء جلدتهم .

وأخيراً . . فإن السلطان الظاهر بيبرس الذي تمكن من خلال نجاح تنفيذ خططه الرامية إلى ضرب المغول وحلفائهم في أرمينية الصغرى والأناضول من تأمين جانبه من اخطار تلك الجهات . لم يمهله القدر ليواصل ما بدأه من جهود ضد الصليبيين في بلاد الشام ، حيث توفى في سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ، بعد أن وضع الأسس الصحيحة لمن أتى بعده من سلاطين المماليك الذين ساروا على نهجه ، فأخلصوا النية لله تعالى ، وأنزلوا بالصليبيين ضربات متلاحقة لم يفيقوا منها حتى تم طردهم نهائياً من بلاد الشام سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م - كما سنرى - .

الفصـل الرابع

جهـاد أسرة قلاوون ضـد المغول والصليبيين

(أ) ضـد المغول :

- فشل محاولات أبغا الاستيلاء على حلب وحماه وحمص
- اعتناق المغول الإسلام ونتائجه

(ب) ضـد الصليبيين :

- سقوط إمارة طرابلس الصليبية سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م
- إستيلاء الأشرف خليل على عكا ونهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام

محاولات أبغا الاستيلاء على حلب وحمص وحماه :

توفى السلطان الظاهر بيبرس بدمشق يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ هـ / يوليه ١٢٧٧ م ، إثر انتهائه من معركة ابلستين التي هزم فيها جيوش المغول ، وخلف من الأولاد الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة ، والملك نجم الدين خضر ، والملك بدر الدين سلامش فنصب الأمراء ابنه الأكبر الملك السعيد بركة مكانه ، وكان لا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره[١] .

والواقع أن السلطان بيبرس ، حرص بعد أن وطد سلطته في مصر والشام على أن يكون الحكم فيها وراثياً في ابنائه ، وقد مهد لذلك أن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة والولاء لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ، ثم ما لبث أن ولاه عهداً بالسلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم المغول إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م ، لينوب عنه في الأراضي المصرية أثناء اشتغاله بمحاربة المغول ، وأقام لذلك احتفالاً كبيراً ، قريء فيه عهد تفويض السلطنة للملك السعيد بركة[٢] .

ولما توفى والده جدد الأمراء البيعة له بالسلطنة ، كما سارع سائر الناس وعلى رأسهم أمراء الجند والقضاة والأعيان إلى مبايعته ، ودعا له الخطباء على المنابر في السابع والعشرين من صفر سنة ٦٧٦ هـ / يوليه ١٢٧٧ م[٣] .

---

(١) انظر ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٦ هـ ، ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٤٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٥٩ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٩٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧٤ ، ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ١٦٠ ، جمال الدين سرور ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ، ص ١٢٨ ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ١٩ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٩٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٠ - ١١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٧٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ ، ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢١٩ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ١٩ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١١ .

ولكن الملك السعيد ما لبث أن تغير على هؤلاء الأمراء وقرب إليه جماعة من المماليك « الأحداث » الذين سرعان ما ازداد نفوذهم عليه ، وتحكموا في دولته وصاروا يتدخلون في تعيين نواب السلطنة وعزلهم ، ولم يقف الأمر بهم عند هذا الحد ، بل تدخل هؤلاء المماليك حتى في توزيع الاقطاعات ، الأمر الذي أدى إلى قيام نزاع بين السلطان الملك السعيد ، ونائب السلطنة سيف الدين كوندك الساقي[١] ، الذي تمكن بدوره من ضم جماعة من كبار الأمراء إلى جانبه لمواجهة السعيد وأعوانه ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل أدى تحيز السلطان السعيد لمماليكه المقربين ، واطلاق يدهم في إدارة شئون الدولة ، وإغداق الأموال الوفيرة عليهم إلى استياء الأمراء الصالحية منه وخاصة الأمير سيف الدين قلاوون ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير علم الدين سنجر الحلبي وغيرهم ، وكان هؤلاء جميعاً يرون أنهم أحق بالسلطنة ليس من الملك السعيد فحسب ، بل من والده السلطان الظاهر بيبرس[٢] .

ويبدو أن الملك السعيد أدرك نواياهم تلك ، فازداد نفوره منهم ، وعوّل على التخلص منهم قبل أن يستفحل خطرهم عليه ، فقبض على بعضهم وأودعهم السجون فكان لهذا العمل أسوأ الأثر في نفوس بقية الأمراء الموالين لهم وعلى رأسهم خاله بدر الدين محمد بن بركة خان الذي دخل على أخته أم السلطان الملك السعيد وقال لها « قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثل هؤلاء الأمراء الأكابر ، والمصلحة أن تَرُدِيه إلى الصواب ، لئلا يفسد نظامه ، وتقصر أيامه » . فلما حدثته أمه في ذلك الأمر ، اعتقل خاله ، ثم أفرج عنه ومعه الأمراء المسجونين ، بعد تدخل والدته مرة ثانية ولكن يبدو أن عداوة الملك السعيد قد تمكنت من قلوب الأمراء ، ولم يعودوا يثقون في تصرفاته ، فاجتمعوا وأتباعهم ومن انضم إليهم من العساكر بإيوان القلعة ، وبعثوا إليه رسالة هددوه بأن استمرار سياسته تلك ستؤدي بهم إلى الانتقام منه ، ومما قالوا له « إنك قد

---

(١) كان الأمير سيف الدين كوندك الساقي قد ولى نيابة السلطنة بعد وفاة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار. وذلك في سنة ٦٧٦ هـ (انظر ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٩٤) .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢١٩ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١١ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ١٩ ، ٢٠ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١١ .

أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن » وظلت الرسل تتردد بين السلطان والأمراء حتى انتهى الأمر بإقرار الصلح بينهم ، بعد أن أقسم السعيد لهم بأنه لا يريد بهم شراً[1] .

على أن خواص الملك السعيد و« مماليكه الشباب » على حد تعبير ابن الفرات ما لبثوا أن عادوا إلى إثارته مرة أخرى ضد أكابر أمراء دولته ، فأشاروا عليه عندما خرج من القاهرة في ذي القعدة من سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٩ م ودخل دمشق في ذي الحجة من السنة نفسها ، بإقصاء الأمراء الصالحية عنه ، وذلك بإرسال العساكر صحبتهم لغزو سيس وبلاد سلاجقة الروم ، فاستجاب لهم وسير فرقة من الجيش صحبة الأمير سيف الدين قلاوون ، وفرقة صحبة الأمير بدر الدين بيسرى[2] ، « والضغائن من الملك السعيد كامنة في النفوس ، والحقائد قد أثمرت منها الغروس »[3] ، ولم يكتف أمراء السعيد بذلك بل أوعزوا إليه بالقبض على هؤلاء الأمراء الصالحية عند عودتهم من الغزو ، وتوزيع اقطاعاتهم على فريق منهم[4] . هذا والأمير سيف الدين كوندك مطّلع

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٩٧ ، انظر ايضا ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٥ ، ابن ايبك الدوادار ، الدرة الزكية ، ص ٢٢٠ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٠ ، فايد حماد عاشور ، تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١١ .

(٢) هو الأمير بيسري بن عبد الله الشمسي الصالحي ، كان من أعيان الأمراء بالديار المصرية ، وكان أحد المرشحين للسلطنة بعد مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، توفي سنة ٦٩٨ هـ ، وبيسري اسم مركب من لفظة تركية وأخرى أعجمية وصوابه « باى سرى » فباى بالتركية بمعنى السعيد ، وسرى بالأعجمية الرأس ، ومعناه « الرأس السعيد » انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٥ ، حاشية) .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م ٧ ، ص ١١٧ ، انظر أيضاً ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ٣١٢ .

(٤) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ١٤٠ ، المقريزي ، السلوك ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٠ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٦٥ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١١ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٢٤ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٠ ، فايد حماد عاشور ، تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١١ .

عليهم ، ولم يأبه الملك السعيد بذلك بل استمر « في خلواته مستغرقاً في لذاته » وأحتوت مماليكه الخاصكية على عقله ، وصار يطلق لهم إطلاقات مفرطة بخلاف ما كان يفعله أبوه[1] .

ثم وقع بين المماليك الخاصكية الملازمين لخدمة الملك السعيد ، وبين الأمير سيف الدين كوندك نائب السلطنة منافرة ، فلما عاد الأمراء الصالحية من سيس خرج الأمير كوندك إلى لقائهم ، وأخبرهم بموقف الخاصكية العدائي إزاءهم ، فحرك ذلك كوامن الغضب من نفوس هؤلاء الأمراء ، وأقاموا بالمرج ، ولم يدخلوا دمشق ،

وأحضروا المصاحف وتحالفوا لبعضهم البعض ، ودارت مفاوضات بينهم وبين السلطان الملك السعيد ، فاقترحوا عليه إبعاد الأمراء الخاصكية عنه ، فلم يستطع السلطان إجابه طلبهم ، وعاد إلى مصر واستقر بقلعة الجبل ، فسار الأمراء بجموعهم خلفه ،

وحاصروه في القلعة ، ولما اشتد حصارهم للقلعة أرسل السلطان إلى الأمراء يعرض عليهم نزوله لهم عن بلاد الشام ، فأبوا إلا أن يخلع نفسه من السلطنة ، فالتمس منهم أن يعطوه الكرك ، فأجابوه إلى ذلك ، وخلع نفسه من السلطنة في السابع من ربيع الآخر سنة ٦٧٨ هـ / أغسطس ١٢٧٨ م ، وسافر إلى الكرك ومعه أخوه نجم الدين خضر ، بعد أن اتفق الأمراء على أن يأخذ الأخير الشوبك ، ثم أجلس المماليك أخاهما

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٧ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٤٠ .
أما الخاصكية فيذكر الدكتور محمد جمال الدين سرور نقلاً عن الخالدي (المقصد الرفيع المنشأ في صناعة الانشا) تعريف لها نصه « جعل ذلك (الاسم) علماً عليهم لأنهم يحضرون على الملك أوقات خلواته وفراغه ، وينالون من ذلك ما لا يناله أكابر المقدمين ، ويحضرون طرفي كل نهار في خدمة القصر ، والاسطبل ، ويركبون ركوب الملك ليلاً ونهاراً ، ولا يتخلفون في قرب ولا بعد ، ويتميزون عن غيرهم في الخدمة بحملهم سيوفهم ، ولباسهم الطرز الزركشي ، ويدخلون على الملك في خلواته بغير إذن ، ويتوجهون في المهمات الشريفة ، ويتأنقون في ركوبهم وملبوسهم) (انظر دولة بني قلاوون في مصر ، ص ١٩ ، ٢٠ حاشية) .

بدر الدين سلامش على العرش خلفاً للملك السعيد وجعلوا الأمير سيف الدين قلاوون اتابكاً له ومدبراً للمملكة[١] .

والجدير بالذكر أن بعض المصادر تذكر أنه عندما تم خلع الملك السعيد بركة عرض كبار الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون ، فامتنع عن قبولها رغبة منه في الاحتفاظ بها لذرية السلطان الظاهر بيبرس[٢] . والواقع أن سيف الدين قلاوون لم يقصد بذلك احترام مبدأ وراثة العرش ، بل رأى أن أغلبية الجيش كان من الظاهرية ، انصار الظاهر بيبرس ، فخشي ثورتهم ضده ، لو قبل ولاية السلطنة في ذلك الوقت ، كما أن أكثر البلاد كان يتولى إدارتها أمراء موالون لأسرة بيبرس ، لذا عوَّل على عدم قبول السلطنة إلا بعد اقصاء هؤلاء الأمراء عن مناصب الدولة[٣] .

ويبدو أن الأمراء الموالين لقلاوون حبذوا هذا الرأي ، فاتفقوا معه على تولية بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس ـ وعمره سبع سنين ـ سلطنة مصر ولقبوه بالملك العادل[٤] . ليسهل عليهم تنفيذ ما يبيتونه من نوايا . وبالفعل فقد بدأ الأمير سيف الدين قلاوون يستغل منصبه كأتابك للسلطان العادل الصغير ، فأمر بأن تنقش السكة باسميهما ، وأن يخطب لهما على المنابر . كما استغل صغر سن السلطان ، وقبض

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ حوادث سنة ٦٧٧ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٤١ ، ١٤٤ ـ ١٤٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٢٦) ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١١ ، ١٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٤ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢١ ، فايد حماد عاشور ، تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) بيبرس الدوادار ، المصدر نفسه ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٨ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٢٧ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٧ .

(٣) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٨ هـ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢١ .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٤٨ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٨ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٦ ، ٦٥٧ .

على زمام الأمور ، وتحكم في دولته ، وبدأ يمهد لنفسه لتولي السلطنة بمصر فقبض على أعيان الأمراء الظاهرية وزج بهم في السجن ، ثم أقدم على عمل هام وهو القبض على الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام ، وعين بدلاً منه سنقر الأشقر أحد الأمراء الصالحية ، وأغدق على بقية هؤلاء الأمراء الأموال والاقطاعات واستمالهم إليه(١) .

ولما تحقق له ذلك جمع الأمراء في العشرين من رجب سنة ٦٧٨ هـ / نوفمبر ١٢٧٩ م ، وتحدث معهم في صغر سن السلطان العادل سلامش وقال لهم « قد علمتم أن المملكة لا تكون إلا برجل كامل » فاتفق رأيهم على خلع السلطان الصغير سلامش وتولية الأمير سيف الدين قلاوون مكانه(٢) .

وهكذا زال الملك من بيت بيبرس على يد الأمير سيف الدين قلاوون الذي كان بيبرس قد قربه منه وارتبط معه برباط المصاهرة حيث زوج ابنه الملك السعيد من ابنة قلاوون سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م ، غير أن قلاوون هذا سرعان ما طمع في ولاية العرش على أثر وفاة الظاهر بيبرس بعد أن أدرك ـ على ما يبدو ـ عجز إبنا الظاهر بيبرس عن حمل راية الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين المغول والصليبيين . فانتهز فرصة ضعف الملك السعيد ، وصغر سن الملك العادل سلامش ، وعمل على خلعهما ليحل

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٢ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٨ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٥٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٨ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ابن الوردي تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٩٢ ، ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٢ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٢٢ .

محل أسرة بيبرس في السلطنة . ولم يكتف بذلك بل أقصى إبنا الظاهر بيبرس عن الأراضي المصرية[1] . وبذلك صفا له الجو واستطاع أن يؤسس من بيته أسرة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان[2] . حملت خلاله لواء الجهاد وطهرت بلاد الشام من أخطر احتلال تعرضت له في القرون الوسيطة .

على أن ذلك النجاح الذي حققه قلاوون باعتلائه عرش السلطنة المملوكية ، حيث جلس على عرش السلطنة في مصر ، يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ٦٧٨ هـ / نوفمبر ١٢٧٩ م ، وحلف له الأمراء وارباب الدولة ، وتلقب بالملك المنصور وصار اسمه يذكر في الخطبة على المنابر[3] . لم يقابل بالرضا من بعض الأمراء . فقد خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطنة بدمشق ، وامتنع عن مبايعته . واعلن استقلاله بمدن الشام ، ودعا الأمراء هناك إلى طاعته ، واستحلفهم لنفسه ، وتلقب بالملك الكامل ثم ركب بشعار السلطنة وأبهة الملك بدمشق في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٨٠ م ، وقبض على من رفض طاعته من الأمراء وعلى رأسهم الأمير حسام الدين لاجين نائب قلعة دمشق ، ثم جهز أحد الأمراء

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٥٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٥٧ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٢ ، انظر أيضاً سعيد عاشور ، مشر والشام في عهد الأيوبيين المماليك ، ص ١٩٢ .

(٢) جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٢ ، انظر ايضاً سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٥٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٩٢ ، اليافعي ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٨٩ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

التابعين له إلى ساير الممالك الشامية والقلاع ليحلّف من بها من النواب وغيرهم ويولي فيها من جهته من يريد[1] .

ولما وصلت المطالعة بذلك إلى الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، كتب إلى سنقر الأشقر ، وكتب معه الأمراء يقبحون عليه فعله ويحضونه على الرجوع إلى الطاعة .

ومع ذلك لم يصغ سنقر الأشقر إلى قولهم . الأمر الذي اضطر الملك المنصور إلى انفاذ جيش لمحاربته وذلك في أوائل سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م والتقى الفريقان بغزة ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة سنقر وجيشه وتراجعهم أمام القوات المصرية إلى الرملة[2] .

ويبدو أن هذه الهزيمة التي مُني بها الجيش الشامي الموالي لسنقر الأشقر ، قد زادت من حنقه وحقده على السلطان قلاوون فتوجه إلى الرحبة واتفق هو وأمير العرب عيسى بن مهنا على مراسلة أبغا ـ ايلخان مغول فارس ـ وحسنا له الإغارة على بلاد الشام ،

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٨ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٨٠ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ١٧٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٩٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٩ ، اليافعي ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ١٨٩ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٣ ، ابن الوردي تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٣٢٤ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٣ ، البرزالي ، المقتفي لتاريخ أبي شامة ، حوادث سنة ٦٧٨ هـ .

(٢) زبدة الفكرة ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ ، ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٦٣ ، ٦٤ ، ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ١٦٨ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧٥ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٩٥ ، ابن ايبك الدواداري ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ .

ووعداه الإنحياز إليه وتقديم المساعدة له[1] .

وأمام ذلك الخطر الداهم ، أسرع السلطان المنصور قلاوون إلى الخروج إلى بلاد الشام على رأس قواته ، ودخل دمشق لأول مرة منذ وليّ السلطنة فرحب به أهلها واحتفلوا بمقدمه ثم أنفذ فريقاً من جيشه للقضاء على سنقر الأشقر . الذي ما إن علم بمسير عساكر قلاوون التي خرجت في طلبه ، حتى فارق حليفه عيسى بن مهنا ، وتوجه بمن معه من العسكر في البرية إلى صهيون وتحصن بها وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م[2] .

والمهم في الأمر ان اختلاف كلمة المسلمين آنذاك أفاد المغول في فارس . فقد أدت مراسلات سنقر الأشقر والأمير عيسى بن مهنا لهم إلى دفعهم لغزو بلاد الشام في هذه

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٦٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٧٢ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٣ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧٧ ، ابن خلدون . العبر . ج ٥ ، ص ٣٩٦ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٤١٢ .
والرحبة : مدينة تقع على الفرات بين الرقة وبغداد ، وكانت محط القوافل بين العراق والشام (انظر ابو الفدا ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٦٨ ، ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ١٧٢ ، ابن العبري ، المصدر نفسه ، ص ٥٠٣ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ ، أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٩٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٣٧ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٢ ، فايد حماد عاشور ، تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١٣ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ٢٢٣ .
وصهيون : حصن منيع من أعمال سواحل البحر المتوسط من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر وكان قلعة حصينة مكينة في طرف جبل خنادقها أودية واسعة عميقة ، لم يكن لها خندق محفور إلا من جهة واحدة « هو نقر في حجر » (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

السنة . في محاولة منهم للإنتقام لهزيمة جيوشهم في معركة ابلستين ، حيث جهز أبغا العساكر ، وخرج المغول قاصدين البلاد الشامية ، وافترقوا ثلاث فرق ، فرقة من جهة بلاد سلاجقة الروم ومقدمهم صمغار وتنجي وطرنجي ، وفرقة من جهة الشرق ومقدمهم بيدو ابن طرغاي بن هولاكو ، وصحبته صاحب ماردين[1] ، والفرقة الثالثة فيها معظم العسكر وشرار المغول صحبة منكو تمر بن هولاكو . ووردت الأخبار بذلك إلى الشام في أوائل جمادي الآخرة من سنة ٦٧٩ هـ / أكتوبر ١٢٨٠ م ، واستعد المسلمون لصدهم ، فخرج من كان بدمشق من العساكر المصرية والشامية ، يتقدمهم الأمير ركن الدين اياجي[2] ، ولحق بالعساكر الذين كانوا على شيزر[3] وكانوا قد تأخروا عنها ونزلوا ظاهر حماة ، حيث اجتمعوا بالعسكر الواصل من الديار المصرية بزعامة الأمير بدر الدين بكتاش النجمي[4] وارسلوا كشافة إلى المغول لاستطلاع اخبارهم ، وبعثوا في الوقت نفسه إلى الأمير سنقر الأشقر يقولون له « قد دهمنا هذا العدو وما سببه إلا الخلف فيما بيننا ، وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط والمصلحة أن نجتمع على دفعه » فكان لهذا النداء أثره على نفس الأمير سنقر ، فأمر عسكره بالنزول من صهيون

---

(١) لعل المقصود بصاحب ماردين هنا هو الملك المظفر بن الملك السعيد الذي قدَّم للمغول فروض الولاء والطاعة عقب وفاة والده (راجع ما سبق في الفصل الأول) .

(٢) أحد الأمراء المماليك توفي سنة ٦٨٦ هـ (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ حاشية ٢) .

(٣) كانت شيزر لا تزال ـ على ما يبدو ـ تابعة للأمير شمس الدين سنقر الأشقر قبل الاتفاق معه (انظر فايد حماد عاشور ، تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١٥) وهي : هضبة صخرية منتصبة على ضفة نهر العاصي الغربية إلى الشمال من مدينة حماه والنهر يحيط بها من ثلاث جهات ، بحيث اصبحت شبه جزيرة مرتفعة ، ومما زاد في مناعتها وحصانتها وقت الحرب وجود خندق محفور في الصخر يصل شبه الجزيرة بالبر (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، أسامة بن منقد ، كتاب الاعتبار ، مقدمة المحقق ، ص . ت) .

(٤) هو بكتاش بن عبدالله الفخري النجمي ، أمير سلاح ، والفخري نسبة إلى فخر الدين بن الشيخ (انظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ حاشية) .

ورفيقه الحاج أزدمر من شيزر ، واجتمعت كل طائفة تحت قلعتها . وبالرغم من أنهم لم يخالطوا جيش السلطان ، فإنهم اجمعوا على « اتفاق الكلمة ودفع العدو »[1] .

وفي العشر الأوسط من جمادي الآخرة من السنة نفسها وصل إلى دمشق وبعلبك خلق كثير من أهل حلب وحمص وحماه وغيرها من البلاد الشامية جافلين من المغول ، ولم يتخلف إلا من عجز عن الرحيل ، وأخليت حلب من العساكر والتحقوا بحماه . وزاد هلع الناس ، فعزم من تجمع بدمشق وما حولها من البلاد الشامية على التوجه إلى الديار المصرية ثم وصلت طوائف كثيرة من جيوش المغول إلى حلب في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة بعد أن ملكوا في طريقهم عين تاب ، وبغراس والدربساك[2] ودخلوا حلب دون مقاومة لخلوها من العساكر ، فقتلوا من تأخر بها من المسلمين ونهبوا وأحرقوا الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء وارتكبوا بها الفظائع والفساد على عادة أفعالهم القبيحة . وأقاموا بها يومين على هذه الصورة ، ثم رحلوا عنها يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر نفسه (اكتوبر ١٢٨٠ هـ) راجعين إلى بلادهم بعد أن حملوا معهم من الأسلاب والغلات الشيء الكثير[3] . ويضيف ابن ايبك الدواداري أن أهل سيس حملوا معهم المنبر ورجعوا إلى ديارهم سالمين[4] .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٩ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٤٤ ، انظر ايضاً ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٩٨ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢ - ٤ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٤ .

(٢) عين تاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكيه ، وتعد من أعمال حلب ، وبغراس : مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكيه أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى انطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرطوس (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٧٩ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٨٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٨١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٥٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٤) ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٣٨ ، يذكر الذهبي أنهم أحرقوا المنبر ولم يحملوه (انظر دول الإسلام ، ص ١٨١) .

وكان سبب رجوع المغول عن حلب بهذه السرعة ، ما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين على دفعهم . ولما بلغهم من اهتمام الملك المنصور صاحب حماة وخروجه بالعساكر من الديار المصرية للإنضمام إلى بقية الجيوش الإسلامية ببلاد الشام لكبس المغول داخل مدينة حلب[1] .

كما أن بعض من عجز من المسلمين عن الرحيل من حلب قبل وصول المغول إليها ، واستتر بها ، يئس عن نفسه من الحياة ، فصعد منارة الجامع وكبر بأعلى صوته على المغول وقال « جاء النصر من عند الله » وأشار بمنديل كان معه إلى ظاهر البلد ، على أن اشارته إلى عسكر المسلمين ، وكأنهم قادمون إلى حلب ، وأخذ يصيح بأعلى صوته « اقبضوهم من البيوت مثل النساء » فتوهم المغول من ذلك وخافوا وايقنوا بالهلاك ، فاسرعوا بالخروج من البلد وهم يتخبطون خوفاً على أنفسهم[2] .

ولعل من أسباب رجوعهم أيضاً علمهم بخروج السلطان قلاوون بقواته من مصر لقتالهم . حيث كان قد جمع العساكر بمصر وأنفق على الأمراء والجند ، ثم استخلف على الأراضي المصرية ابنه الملك الصالح ، وسار إلى غزة وبقي بها إلى العاشر من شعبان من سنة ٦٧٩ هـ / ديسمبر ١٢٨٠ م ، فلما سمع نبأ عودة المغول إلى بلادهم عاد إلى مصر بعد أن غاب عنها خمسين يوماً[3] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشرف الأيام والعصور ، ص ٧٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٨٦ ، اليونيني ، الذيل ، م ٤ ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ٢٩٩ ، والملاحظ هنا أنه كان لخروج الملك المنصور صاحب حماه على رأس القوات المصرية أثره البالغ على نفوس المغول ، لما عرفوه عنه من مواقف مشرفة ضدهم .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٩٩ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ١٩٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٢ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٤ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٨١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، فايد حماد عاشور ، تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

ويمكننا أيضاً أن نضيف سبباً آخر وهو أنه لا يستبعد أن يكون المغول عند دخولهم حلب خافوا على ممتلكاتهم في اقليم فارس من تهديد مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) حلفاء سلاطين دولة المماليك المسلمين ، فاضطروا للعودة بهذه السرعة لتلافي ما قد يحدث لهم من تلك الجهة من أخطار نظير غيابهم في بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر فإن ما قام به المغول من مهاجمة للأجزاء الشمالية من بلاد الشام ودخولهم مدينة حلب ، قد نبَّه السلطان المنصور قلاوون إلى خطرهم على ذلك الجزء من مملكته . وهنا رأى قبل الاشتباك معهم أن يسير على نفس النهج الذي نهجه سلفاه قطز وبيبرس من قبل وهو مهادنة الصليبيين القريبين على ساحل بلاد الشام ، لضمان عدم تدخلهم في الصراع وإجباره على تقسيم قواته في جهتين متباعدتين . فاستغل وصول رسل الصليبيين إليه بمنزلة الروحاء يسألونه استمرار الهدنة التي كانت معقودة بينهم وبين السلطان بيبرس والزيادة عليها . فوافق على ذلك وتقررت الهدنة بين الملك المنصور قلاوون ، وولده الملك الصالح علي معاً ، وبين مقدم الاسبتارية وجميع الاخوة الاسبتارية بعكا لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . أولها يوم السبت عاشر المحرم من سنة ٦٨٠ هـ / أول مايو ١٢٨١ م . كما توصل أيضاً إلى مهادنة بوهيمند السادس متملك طرابلس لمدة عشر سنين « كوامل متتابعات » أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م[١] .

ولما كان خروج سنقر الأشقر عن الطاعة ، هو السبب المباشر الذي دفع المغول إلى مهاجمة مدن الشام الشمالية سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م ، وان استمرار اختلاف كلمة المسلمين شجعهم على معاودة الهجوم مرة أخرى . فقد حرص السلطان المنصور قلاوون ، بعد أن توصل إلى عقد هدنة مع الصليبيين على الاتصال بالأمير سنقر الأشقر وترددت الرسل بينهما في الصلح ، وذلك في العشر الأوسط من شهر صفر من سنة

---

(١) انظر نص الهدنة في ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ ، انظر أيضاً ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ ، زبدة الفكرة ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، انظر أيضاً :

Stanley lanepoole. A. History of Egypt in the middle ages p. 278, 279 /, Stevenson. The crusaders in the east p. 347.

٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م . وهنا يبدو أن كلا منهما أدرك خطورة تفرق كلمة المسلمين وتكالب الأعداء عليهم ، فتقرر الصلح بينهما مضمونه أن يسلم سنقر الأشقر شيزر لنواب السلطان قلاوون ، ويعوضه عنها الشغر وبكاس وكانتا قد أخذتا منه ، ومعهما أفامية وكفر طاب وأنطاكية وعدة ضياع متفرقة ، وأن يقيم سنقر على ذلك وعلى ما بيده من قبل من البلاد وهي صهيون وبلاطنس وبرزية ، واللاذقية وستمائة فارس لنصرة الإسلام ، وان الأمراء الذين معه ان أقاموا يكونوا من امرائه وإن حضروا إلى السلطان قلاوون يكونون آمنين ولايؤاخذون ، فلما كان يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول من السنة نفسها ، وصل إلى السلطان المنصور قلاوون رسولان بنسخة اليمين على ما تقرر ، فحلف السلطان المنصور على ذلك ، وكتب له تقليداً بالبلاد وسأله سنقر أن ينعت بالملك ، فأبى السلطان ذلك ، وسمح له أن ينعت بالامرة فقط ، وأن يخاطب في المكاتبات بـ« المقر العالي المولوي السيدي العالمي العادلي الشمسي »[1] .

ثم نودي بعد ذلك في دمشق باجتماع الكلمة ، ورجع الذين حضروا من جهة سنقر الأشقر إليه ، وسيَّر السلطان المنصور قلاوون صحبتهم رسولين من قبله ، فحلَّفا سنقر الأشقر وعادا إلى دمشق يوم الاثنين ثاني عشر من الشهر نفسه ، فضربت البشائر بقلعة دمشق وسر الناس بذلك وأرسل السلطان المنصور قلاوون إلى الأمير سنقر الأشقر

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٨٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، انظر أيضاً ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

الشغر : قلعة حصينة مقابلها قلعة أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق ، بالقرب من انطاكية .

وكفر طاب ، بلدة مشهورة بين المعرة ومدينة حلب .

وبلانطس أو بلاطنس : حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

من الأقمشة والأواني والأنعام شيئاً كثيراً ، وانتظم الصلح والاتفاق بين الطرفين وعادت العساكر الشامية والمصرية من شيزر إلى دمشق « للاستغناء عنهم بالصلح »[1] .

ويبدو أن انتظام الصلح بين السلطان قلاوون والامير سنقر الأشقر قد انعكست آثاره على ابناء السلطان الظاهر بيبرس في الكرك ، حيث وردت إلى السلطان قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية رسل الملك المسعود الخضر بن السلطان الظاهر بيبرس في طلب الصلح والزيادة على الكرك بأن يكون له ما كان للملك الناصر صلاح الدين داود الأيوبي من قبل[2] . ولكن طلبه هذا أثار ـ على ما يبدو ـ غضب السلطان فلم تقتصر إجابته على رفض طلبه ذلك بل أمر السلطان على ضرورة رحيله عن الكرك . فعاود الملك المسعود مراسلة السلطان ، وسأله أن يقر بيده الكرك وأعمالها من حد الموجب إلى الحسا . والتمس من السلطان شروطاً منها ، تجهيز إخوته الذكور والإناث أولاد الملك الظاهر بيبرس إلى الكرك ، ورد الأملاك الظاهرية عليهم ، فأجابهم السلطان المنصور قلاوون إلى ذلك وانعقد الصلح بين الطرفين في العشر الأول من ربيع الأول سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م[3] .

أصبح السلطان قلاوون بعد توحيد كلمة المسلمين في دولته ومهادنة الصليبيين على الساحل ، مستعداً لتوجيه ضربة قاصمة للمغول وحلفائهم للإنتقام مما أنزلوه بحلب في السنة الماضية ، وكان عسكر حلب هم السباقون إلى ذلك ، فقد خرجت من

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٨٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) الناصر صلاح الدين داود ابن المعظم عيسى بن العادل ، وكان الناصر قد خلف والده المعظم على دمشق في سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م ثم استولى الملك الأشرف بن العادل على دمشق سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، وعوض الناصر داود عنها الكرك والبلقاء والصلت والأغوار والشوبك ، ثم تنازل عن الشوبك لعمه الكامل (انظر عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٣) .

(٣) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٨٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢١٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ .
والموجب : بلد بالشام بين القدس والبلقاء ، والحسا . ذكره الياقوت على أنه اسم موضع لم يحدده (انظر معجم البلدان) ويبدو لنا أنه من أعمال الكرك الجنوبية .

حلب سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م فرقة من « الغيّارة » ذكر ابن عبد الظاهر أنهم كانوا في ستمائة راكب أو سبعمائة راكب إلى بلاد الروم ، وأنهم صادفوا قافلة تقدر بمائتي جمل خارجة من بلاد سيس إلى الروم فنهبوها وكانت موسقة سكراً وصابوناً وفستقاً ورصاصاً وقطناً . فخرج إليهم أكبر أمراء الروم المعروف بابن قطني ومعه ثلاثمائة راكب فقتلوه وقتلوا وجرحوا جماعة من أصحابه . ووصلوا إلى أركلنا فهرب النائب بها . وحضر إليهم جماعة من أصحاب ابن قرامان فاجتمعوا وساقوا إلى جبل بلغار فوق مندس وعادوا سالمين بين الجبال ، بين طريق سيس وبلاد الروم[1] .

تألم أبغا - إيلخان مغول فارس - من ذلك الهجوم الإسلامي المباغت فسيّر أخاه منكوتمر في جمادى الآخرة سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م على رأس قوات مغولية إلى بلاد سلاجقة الروم ، فنزل منكوتمر بجيوشه بين قيسارية والابلستين . ولما علم السلطان المنصور قلاوون بذلك ، بعث كشافة من عنده لاستطلاع اخبار العدو وتحركاته ، فلقوا طائفة من المغول ، وأسروا منهم شخصاً بعثوه إلى السلطان بدمشق ، فأنسه واستماله إليه ، وسأله أخبار المغول فذكر أنهم في عدد كثير يزيدون عن ثمانين ألف فارس وانهم يريدون مهاجمة بلاد الشام في رجب من السنة نفسها ، فاهتم السلطان بالأمر واستدعى العساكر من اقطاعاتهم استعداداً لملاقاة العدو[2] .

---

(١) انظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٩ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٨٢ ، وأركلنا : يبدو أن المقصود بها « أرك » وهي مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر وعرض ذات نخل وزيتون (انظر ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ١ ، حاشية رقم ٦) ، أما ابن قرامان فهو صاحب دولة بني قرامان (Karaman oyhlu) التي تأسست بجهات أرمناك وقسطموني بجنوبي آسيا الصغرى ، في أواسط القرن السابع الهجري ، ومن أهم الدول التركمانية التي نشأت زمن التفكك في دولة الروم السلاجقة ، ومؤسسها كريم الدين قرامان بن نور صوفي المتوفي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م وقد تولاها بعده ابنه محمد بن قرامان (انظر السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٣٠ ، حاشية ، ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٢ حاشية) .

(٢) زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٠ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٩١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٤ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٨٢ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٨١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٤ .

ثم وردت الأخبار إلى السلطان بأن المغول ركبوا من منزلتهم ، وإن فرقة منهم على رأسها أبغا نفسه توجهت إلى الرحبة ، فسير السلطان كشافة إليها لاستطلاع أخبار أبغا . وكثرت الأراجيف بالأجزاء الشمالية من بلاد الشام وخلت مدينة حلب من أهلها الذين نزحوا منها خوفاً من هجوم المغول إلى جهة حماة وحمص[1] .

وأمام ذلك الخطر الداهم ، سارع السلطان المنصور قلاوون ، بالخروج على رأس جيوشه التي احتشدت في دمشق قاصداً حمص فنزل عليها حادي عشر رجب من السنة نفسها وراسل الأمير سنقر الأشقر ، يطلب منه الحضور بمن معه من الأمراء والعساكر فنزل سنقر من صهيون ووافى السلطان ومعه الأمراء على حمص ، فأكرمهم قلاوون وأنعم عليهم وفرح المسلمون بحضورهم[2] .

أما بالنسبة للمغول فقد تقدموا إلى أطراف حلب في العشر الأخيرة من جمادي الأولى ، ونازل أبغا بقواته الرحبة بثلاثة آلاف فارس كانوا بصحبته وسار منكوتمر بقواته التي كانت مكونة من المغول والكرج والروم والأرمن وغيرهم[3] إلى عين تاب ، ومنها تقدم إلى حماة ، فأفسد نواحيها وضرب جوسق الملك المنصور صاحب حماة وبستانه[4] .

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢١٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٩١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ٢١٤ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩١ ، اليونيني ، المصدر نفسه ، م ٤ ، ص ٩٢ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٤ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٤٢ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ١٥ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ٨٢ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .

(٣) كانت فئة الأرمن من ذلك الجيش بقيادة ملكهم ليو ، والكرج بقيادة ملكهم ديمتري الثاني وهم نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير ، قويت شوكتهم حتى ملكو مدينة تفليس ، ولهم ولاية تنسب إليهم (ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ١٦٣ ، حاشية) .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٦٩١ ، ٦٩٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص ٢٩٥ .

وعين تاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكيه وتعد من أعمال حلب (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .
والجوسق : الحصن ، وقيل شبيه بالحصن والجوسق أيضاً القصر ، وهو لفظ معرب وأصله كوشك بالفارسية (انظر ، ابن منظور ، لسان العرب مادة جسق) .

ولما علم السلطان قلاوون بذلك ، وبأن مملوكاً لأحد الأمراء هرب إلى المغول ودلّهم على عورات المسلمين ، وأخبرهم بعددهم ، وأن منكو تمر بن هولاكو - الذي أوكل إليه أخاه أبغا - ايلخان مغول فارس - مهمة قيادة الجيوش المغولية - قد تقدم من حماة لملاقاة الجيوش الإسلامية التي احتشدت في حمص . استنفر قواته واستعد لمنازلة المغول واتفق في تلك الأثناء أن شخصاً من معسكر المغول دخل حماة وقال للنائب بها « أكتب الساعة إلى السلطان على جناح طاير ، وعرفه بأن القوم ثمانون ألف مقاتل ، في القلب منهم أربعة وأربعون من المغل ، وهم طالبون القلب ، وميمنتهم قوية جداً ، فيقوى ميسرة المسلمين ويحترز على السناجق[1] .

فلما قرأ السلطان الكتاب رتب عساكره ، وذلك في صباح يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م ، فجعل في الميمنة الملك المنصور صاحب حماة والعسكر الحموي ، وعلى رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ومعهما عدد آخر من كبار الأمراء ، وجعل في الميسرة الأمير سنقر الأشقر ومن معه من الأمراء الظاهرية بالإضافة إلى عدد آخر من كبار أمراء السلطان نفسه ، وجعل على رأس الميسرة التركمان بجموعهم ، وعسكر حصن الأكراد . وعلى الجاليش وهو مقدمة القلب الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بالديار المصرية « ومن معه من مضافيه » والأمير ركن الدين اياجي والحاجب بدر الدين بكتاش بن كرمون ، والمماليك السلطانية . ووقف السلطان تحت السناجق ومعه خاصته وأرباب الوظائف[2] . ويضيف المقريزي

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢١٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٢٩٢ .
والسناجق : مفردها سنجق : لفظ تركي معناه الرمح والمراد هنا العلم الذي هو الراية ، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل في أعلى الرمح عبر بالرمح نفسه عنها ، ويقال لحامله السنجقدار (انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨ ، ابن الأثير ، الباهر ، ص ٩٣ حاشية ، الأسنوي ، طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٩٩) .

(٢) بيبرس الدوادار ، المصدر نفسه ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، التحفة الملوكية حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات ، المصدر نفسه ، م ٧ ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٥ ، وحسام الدين : هو طرنطاي بن عبدالله المنصوري توفي سنة ٦٩٩ هـ (انظر ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ حاشية) .

أن السلطان اختار مائتي فارس من مماليكه ، وانفرد عن العصائب ، ووقف على تل فكان إذا رأى طلباً قد اختل أردفه بثلاثمائة من مماليكه[1] .

ومهما يكن من أمر فقد أشرفت كراديس[2] المغول وكانوا ضعف عساكر المسلمين ، والتحم القتال بين الفريقين بوطأة حمص قريباً من مشهد خالد بن الوليد ، وذلك يوم الخميس رابع عشر شهر رجب فصدمت ميسرة المغول ميمنة المسلمين ، فثبت المسلمون أمامهم ، وحملوا على ميسرة المغول فانكسرت إلى القلب الذي فيه قائدهم منكو تمر ويبدو أن هجوم المغول قد جاء في وقت واحد حيث صدمت ميمنة المغول في الجهة الأخرى ميسرة المسلمين ، فلم تستطع ميسرة المسلمين مقاومة تلك الجهة ، وساق المغول خلف المسلمين حتى أشرفوا على حمص ، فلما وجدوا أبوابها مغلقة وقعوا على السوقة والعامة والغلمان بظاهرها فقتلوا منهم خلقاً كثيراً . ولم يكن من بالميسرة من المسلمين يعلم ماتهيأ لميمنتهم من النصر ، وكذلك الحال بالنسبة لميمنة المغول الذين ساقوا خلفهم لم يعلموا ما حل بميسرتهم من هزيمة . حيث انسحب بعض من انهزم من ميسرة المسلمين إلى دمشق وبعضهم إلى قرب صفد ، ومنهم من وصل إلى غزة . وظن من ساق وراءهم من المغول أن النصر قد تحقق لجيشهم بكامله فنزلوا عن خيولهم من المرج الذي عند سد حمص وأكلوا الطعام ونهبوا الأثقال والخزائن انتظاراً لوصول بقية الجيش المغولي إليهم . فلما أبطأوا عليهم أرسلوا من يكشف أخبارهم ، فعاد الكشافة وأخبروهم بهزيمة ميسرتهم وأن قائدهم منكو تمر هرب من المعركة فداخلهم الخوف وكروا راجعين . هذا ما كان من ميمنة المغول ، وميسرة المسلمين . أما ميمنة المسلمين التي كانت قد نجحت في كسر ميسرة المغول ، ووصلت إلى القلب ومنكو تمر

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٣ ، والعصائب : مفردها عصابة : وهي ما بين العشرة إلى الأربعين (انظر ابن منظور ، لسان العرب مادة عصب) ، أما المقصود بها هنا : فهي راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمه (انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٦٠ حاشية) .

(٢) مفردها كردوس : ويقصد بها الفرقة الحربية الراكبة ، أو الجماعة العظيمة من الخيل ، (انظر أبو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٨ حاشية) .

وأجبروه على الهروب بمن معه فقد ساق من بها من المسلمين خلف المغول الهاربين ، بعد أن تعاهدوا وتحالفوا على الجهاد . أما ميمنة المغول التي كسرت ميسرة المسلمين ، فإنها لمّا رجعت من مرج حمص بعد سماعها بهزيمة منكوتمر . لم يجرؤ من بها من المغول على منازلة السلطان قلاوون أثناء مرورها من أمامه . فلما تقدموا قليلاً باتجاه إخوانهم المنهزمين ساق السلطان خلفهم بفرسانه ، فانهزموا لا يلوون على شيء[1] .

وبعد انفصال الحرب عاد السلطان إلى منزلته ، وكتب البشائر بالنصر وبات ليلة الجمعة إلى السحر ، فسمع المسلمون صياحاً ظنوه المغول قد عادوا فاستعد المسلمون للقائهم على الفور . فتبين لهم بعد ذلك أن العساكر الإسلامية التي تتبعت المغول المنهزمين قد عادت ظافرة منتصرة ، بعد أن ألحقت بالعدو خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد ، وأجبرت الكثير منهم على الاختفاء بجانب الفرات فأرسل السلطان من أضرم النيران بالأوزار[2] التي على الفرات ، فاحترق من العدو طائفة كبيرة وهلك كثير منهم في الطريق الذي سلكوه إلى سلمية ، ثم رحل السلطان يوم الجمعة خامس عشر من رجب

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٨ ، ٩ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٦٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة ، لوحة ٧٦ ، ٧٧ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ١٥ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٤٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٥ .

(٢) الأوزار أو الأزيار : جمع زاره وهي الأجمة ذات الماء والحلفاء والقصب (انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة زأر ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٥ حاشية) .

من السنة نفسها من ظاهر حمص إلى البحيرة ليبعد عن الروائح التي انبعثت من جثث القتلى[1] .

وبعد ذلك الانتصار العظيم رحل السلطان قلاوون إلى دمشق فوصلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب ، فكان يوماً عظيماً ، عظم فيه سرور الناس وكثر فرحهم ، وامتدحه الشعراء وأكثروا المديح والتهنئة بهذا النصر العظيم[2] .

ولما استقر بدمشق جرد فرقة من عسكره مع الأمير بدر الدين الايدمري إلى الرحبة لتتبع أبغا ومن معه من المغول ، وبعث في الوقت نفسه إلى نائبها يخبره بما منَّ الله عليه من النصر . فلما سمع أبغا بذلك رحل عنها وقصد بغداد . ووصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى حلب وبعث في طلب المغول على الفرات فعبروا الفرات خوفاً وغرق منهم خلق كثير ، وتوجهت طائفة منهم إلى قلعة البيرة فقاتلهم أهلها ومنعوهم من دخولها . كما توجهت فرقة أخرى وفيهم صاحب سيس وأقاربه إلى بغراس ، فخرج عليهم أهلها واثخنوا فيهم قتلاً وأسراً ، أما الفرقة التي كانت قد توجهت إلى سلمية ، فقد خرج عليهم أهل الرحبة وطردوهم منها ، فلحق من بقي من المغول بابغا وهو في طريقه إلى بغداد ، وفيهم أخوه منكوتمر وهو مجروح فغضب عليه وعلى من معه من كبار المغول وقال له « لِمَ لا مت أنت والجيش ولا انهزمت » . فلما دخل أبغا بغداد مكث بها فترة

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢١٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٩٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٠٦ ، ويبدو أن المقصود بالبحيرة هنا بحيرة قبرس وهي قريبة من حمص بينها وبين جبل لبنان ، وتنصب فيها مياه تلك البلاد ، ثم تخرج منها فتصير نهراً عظيماً ، وهو نهر العاصي الذي عليه مدينتي حماه وشيزر ، (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، المقريزي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٦ حاشية) .

(٢) أورد بيبرس الدوادار كثير من هذه القصائد في زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

قليلة وسار منها إلى جهة همذان ، أما منكو تمر فقد توجه إلى بلاد الجزيرة ، فنزل بجزيرة ابن عمر ، وكانت الجزيرة لأمه قد أعطاها إياها أبوه هولاكو لما أخذها[1] .

وبهذا تمكن السلطان المنصور قلاوون من إفشال محاولة المغول السيطرة على مدن الشام الشمالية ، وطهر بلاد الشام منهم مرة أخرى ، بعد أن أثخن في جيوشهم قتلاً وأسراً ، ولقنهم درساً لن ينسوه . ليتفرغ بعد ذلك لمواصلة مشروع تصفية الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي الذي بدأه أسلافه زعماء الجهاد الإسلامي عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين والظاهر بيبرس .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، وجزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل ، تحيط بها مياه دجلة (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

اعتنـاق المغول للإسلام :

توفى أبغا ابن هولاكو في أواخر سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م همّاً وحسرة بسبب ما ناله من خوف ورعب ، عقب كسرة جيوشه في معركة حمص التي ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من جيوشه . وتوفى بعده قائده منكوتمر متأثراً بجراحه في المحرم من سنة ٦٨١ هـ / ابريل ١٢٨٢ م . ووقع الخلاف بعد وفاة أبغا فيمن يلي إيلخانية مغول فارس فرأى أغلبية أمراء المغول اقامة تكدار الذي كان قد اعتنق الدين الإسلامي وأتخذ لنفسه اسم أحمد . واتفقوا على إقعاده في تخت الملك . وما هان على بعض أمراء المغول جلوس أحمد لأنه أدعى الإسلام . فحضر أخوه قنغرطاي وقال لأخيهما أرغون بن هولاكو الذي نافس ـ على ما يبدو ـ أخاه أحمد على ولاية عرش الإيلخانية ، « إن أبغا شرط في الياسة أنه إذا مات ملك ما يقعد عوضه إلا الأكبر من أولاده . وقد رتبنا أحمد ، ومن خالف يموت » فأطاعوه ، وسيروا الرسل ليحضروا الملوك ليكتبوا خطوطهم بالارتضاء بالإيلخان الجديد أحمد(١) .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٣ ، ٤ ، انظر أيضاً ، رشيدالدين ، جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٠٤ ، ابن حبيب الحلبي ، الفوائد المنتقاه من صاحب حماه ، ورقة ١٤٩ ب ، الغياثي ، تاريخ الغياثي ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٤١٧ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ١٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣١٠ ، الدليل الشافي ، ج ١ ، ص ٩٥ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٥ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ١٦ .

والياسة : هو القانون الذي أصدره جنكيز خان سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م عقب انتخابه خاناً أعظماً للمغول ، وضمنه مجموعة من القوانين التي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الاستبس ، لكي يربط أقاليمه معاً في ظل حكم موحد ، وهذا القانون الذي صدر مجزءاً طول حكم جنكيز خان حدد ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات ، وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية ، وغيرها من الخدمات وقواعد نظام الضرائب ، فضلاً عن القانون الجنائي والمدني والتجاري ، ومع أن جنكيز خان يعتبر الطاغية الأكبر فإنه قصد أن يلتزم هو واخلافه بالقانون . وباختصار يمكن القول أن هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض . كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع . وتتلخص أحكام الياسة في أمور ثلاثة هي : الخضوع لجنكيز خان والاتحاد في قبيلة واحدة والعقاب الصارم لكل مخطيء وقد أمر جنكيز خان بأن يستمر هذا النظام في اخلافه ولم يعرف عن أحد منهم مخالفته (لمزيد من التفاصيل ، راجع المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢١٢ ، الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٤١) .

استهل السلطان أحمد عهده باظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي ، وهنا يذكر ابن عبد الظاهر أن السلطان أحمد تحدث مع كبار أمراء المغول في مستقبل علاقتهم مع المسلمين ، فوقع الاتفاق بينهم على « أن قدرتهم قد ضعفت ورجالهم قتلت ، وأن المسلمين كلما راحوا في قوة ، وإنه لا حيلة في هذا الوقت أتم من إظهار الإسلام والتقرب إلى مراضي مولانا السلطان (قلاوون) واكتفاء بأسه بذلك »[١] .

والواقع أن أحمد تكدار الذي يقال أنه تشرف باعتناق الإسلام في حياة والده هولاكو[٢] كان ـ على ما يبدو ـ حريصاً كل الحرص على أن يبدأ عهده بفتح صفحة جديدة في العلاقات المغولية المملوكية قائمة على أساس احترام مباديء الدين الإسلامي الحنيف ومواجهة أعدائه يدلنا على ذلك الرسالة التي بعثها إلى نوابه على بغداد طالبهم فيها بإظهار شعائر الدين الإسلامي وتنفيذ أحكامه ، وضرب الجزية على أهل الذمة مضمونها بـ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وانا جلسنا على كرسي الملك ، ونحن مسلمون فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى ، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجوه البر ما كان يعتمد في أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس ، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية ، وأنتم يا أهل بغداد مسلمون . وسمعنا عن النبي ﷺ أنه قال : لا تبرح هذه العصابة الإسلامية مستظهرة إلى يوم القيامة . وقد عرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح ورب واحد أحد فرد صمد ، فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها »[٣] .

---

(١) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ١٤١ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٥ ، انظر أيضاً ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨١ هـ .

ويبدو أن السلطان أحمد تكدار ، اختار أهل بغداد ، لأولى رسائله المعبرة عن اعتناقه للدين الإسلامي ، لكي يثبت للمسلمين وخاصة المماليك في مصر والشام صدق نواياه نحو مصادقة المسلمين وذلك لما كان يكنه مسلمو المغول من احترام لحاضرة الخلافة العباسية بغداد ، يؤيد ذلك موقف الملك المسلم بركة خان القفجاق العدائي من ابن عمه هولاكو بسبب ما اقترفه الأخير من جرائم ضد هذه المدينة وقتل خليفة المسلمين بها[1] .

ومهما يكن من أمر فإنه لا يستبعد أيضاً أن السلطان أحمد تكدار كان يبيت ـ في السر ـ تعاطفه مع سلاطين دولة المماليك المسلمين منذ حياة والده هولاكو وعهد أخيه أبغا ، بدليل أننا لم نسمع عنه أي مشاركة في الصراعات الدامية التي دارت رحاها بين المسلمين والمغول في أعالي الشام والأناضول ، بالإضافة إلى أن السلطان المسلم أحمد تكدار كان هو البادىء بمراسلة السلطان المملوكي قلاوون ، حيث شرع في سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م بعد توليه العرش المغولي بقليل في تجهيز رسله إلى السلطان المنصور قلاوون . الذي ما إن علم بوصولهم إلى البيرة ، حتى أصدر أوامره إلى نوابه في تلك المناطق بالاحتراز عليهم ، وان يمنعوا من رؤية الناس لهم ، والحديث معهم ، ولا يُسار بهم إلا في الليل[2] ، حيث دخلوا تحت الحراسة إلى حلب في ليلة السبت الحادي والعشرين من جمادي الآخرة من السنة نفسها ، وأُنزلوا بها خفية من غير أن يعلم بهم أحد ، ثم أُحضروا إلى دمشق ، ومنها إلى مصر ، حيث دخلوا قلعة الجبل ليلاً ، وأُحضروا بين يدي السلطان وسلموه كتاب السلطان تكدار ، ومضمونه أن أحمد تكدار المسلم قد تولى حكم المغول ، وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس في بلاده ، وحث الناس على المسير إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ، وطالب في رسالته باجتماع كلمة المسلمين وأن ذلك يتأتى بإقرار السلام والوفاق بين الدولتين المغولية والمملوكية .

---

(١) راجع ما سبق في الفصل الثاني .

(٢) يبدو أن السلطان المنصور قلاوون ظن في بداية الأمر أن ذلك خدعة من جانب المغول ، بقصد التجسس على ديار المسلمين ، بدليل احترازه على الرسل وحجبهم عن انظار الناس ، والسير بهم إليه ليلاً .

ولما أنهى الرسل رسالتهم عادوا وقد أكرمهم السلطان المنصور قلاوون إلى ديارهم على الصورة التي حضروا عليها تحت الحوطة والاحتراز من غير أن يعلم الناس، بدخولهم ولا خروجهم. فوصلوا إلى حلب في سادس شوال من سنة ٦٨١ هـ / ٨ يناير ١٢٨٣ م، ثم عبروا الفرات عائدين إلى ديارهم، ومعهم رد السلطان قلاوون الذي كان يتضمن التهنئة باعتناق تكدار للإسلام، وإجابته إلى طلب الصلح واستقرار الأمن بين الدولتين[1]. وهنا يبدو أن السلطان قلاوون لم يكن مع ذلك قد أمن غائلة المغول فكان مما قاله للرسل « إنني لا أثق إلا بكلام الشيخ عبد الرحمن لما أعلم من دينه ومن حكمه على الملك أحمد أغا سلطان، وعلى وزيره صاحب ماردين، وجماعة كثيرة نحو مائتي ألف فارس وراجل واتباعهم وغيرهم[2].

وبالفعل فقد استجاب الإيلخان أحمد تكدار لطلب السلطان المنصور قلاوون. فجهز الشيخ عبدالرحمن وصحبته جماعة من الأمراء منهم زين الدين صاحب ماردين، وأرسلهم إلى السلطان المنصور قلاوون. فلما وصلوا إلى البيرة تلقاهم أحد النواب بتلك المناطق ومنعوهم من حمل السلاح وعدلوا بهم عن الطريق المسلوك إلى أن دخلوا بهم حلب، ومنها ساروا بهم إلى دمشق فدخلوها في ليلة الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة من سنة ٦٨٢ هـ / مارس ١٢٨٣ م وانزلوا بقلعة دمشق من غير أن يراهم أحد، واستقروا بالقلعة إلى أن وصل السلطان المنصور قلاوون إلى دمشق في سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤ م

---

(١) انظر نص الخطاب ورده في بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج ٩، حوادث سنة ٦٨١ هـ، ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٦ ـ ١٦، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٥٠٦ ـ ٥١٨، انظر ايضاً ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م ٧، ص ٢٤٨، ٢٤٩، المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٠٧، ٧٠٨، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، م ٤، ص ١٤٥، ١٤٧، بيبرس الدوادار، التحفة الملوكية، حوادث سنة ٦٨١ هـ، أبو الفدا، المختصر ج ٤، ص ١٦، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٢٨، ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٣٩٩، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٤٩ ـ ٢٦٠.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م ٧، ص ٤٩، أما الشيخ عبدالرحمن فلم أقف له على تعريف سوى ما ذكره ابن الفرات في تاريخه عند ذكر خبر وفاته والذي أطلق عليه « عبدالرحمن رسول أحمد أغا ملك التتر » توفي في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٨٣ هـ في قلعة دمشق ودفن بمقابر الصوفية (انظر تاريخ ابن الفرات، المجلد الثامن، ص ١٣).

حيث طلب إحضار الشيخ عبدالرحمن ومن معه إلى حضرته فأدوا الرسالة التي جاءوا لأجلها من عند الأيلخان أحمد تكدار فسمعها السلطان قلاوون منهم وأعادهم إلى مكانهم ، ثم استحضرهم ثانية وثالثة لسماع مقالتهم حتى استوعب ما عندهم من الأخبار[1] . ثم أعلمهم في المرة الثالثة أن مرسلهم أحمد تكدار قد قتل ، وملك مكانه ابن أخيه أرغون بن أبغا بن هولاكو . ومن ثم أمر بنقلهم إلى مكان آخر داخل قلعة دمشق ، وإجراء الرواتب الكافية لهم ، ثم ما لبث أن مات الشيخ عبدالرحمن في رمضان من سنة ٦٨٣ هـ / ديسمبر ١٢٨٤ م[2] .

والواقع أن هذه المكاتبات التي تُبودلت بين إيلخان مغول فارس المسلم أحمد تكدار ، والسلطان المملوكي المنصور قلاوون الذي كان يعتبر بحق الممثل الحقيقي للقوة الحامية للإسلام آنذاك . كان من الممكن أن توقف العداء بين الدولتين الجارتين ، ليتحقق للإسلام والمسلمين من خلالها فترة من التقدم والانتشار والوقوف في وجه الأعداء . فيما لو استمر الإيلخان أحمد تكدار فترة طويلة من الزمن على العرش الإيلخاني . ولكن وفاته في سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م قضت على تلك الآمال حيث أقدم الإيلخان الجديد أرغون بن أبغا على اضطهاد المسلمين في بلاده ، وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمال . كما حرم عليهم الظهور في بلاطة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أمعن وزيره سعد الدولة اليهودي في الكيد للإسلام والتآمر عليه والحط من شأنه[3] .

---

(١) يبدو أنه نمى إلى السلطان قلاوون نبأ تمرد أرغون ابن أبغا على عمه أحمد تكدار ، لذلك عمل على مماطلة الرسل انتظاراً لما ستسفر عنه تلك الخلافات من نتائج .

(٢) ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، أنظر أيضاً ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٢ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ٢٦١ .

(٣) لمعرفة تفصيل خروج أرغون بن أبغا على عمه أحمد تكدار ، انظر رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، وما بعدها ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٣ ، ٤ ، ابن ايبك الدواداري ، المصدر نفسه ، ص ٦٣ ، وما بعدها ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥١٨ ، وما بعدها ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٢٦ .

ولم يكتف أرغون بن أبغا بذلك العداء السافر والاضطهاد للمسلمين بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو السير على نهج أسلافه في محاولة عقد حلف مع الصليبيين ، لوضع المسلمين في الشام بين شقي رحى . فراسل ملوك الغرب وباباوات روما في هذا الشأن ، وعرض عليهم حق الاتجار والتنقل في دولته ، بقصد اضعاف تجارة المماليك ، والقضاء على قوتهم . وزاد على ذلك بأن أعلن استعداده للتنصر[1] . إلا أن محاولاته تلك باءت - على ما يبدو - بالفشل كسابقتها لانشغال الغرب الأوربي آنذاك بمشاكله الداخلية .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نستطيع أن نؤكد بأن خروج أرغون على عمه أحمد تكدار ، واضطهاده للمسلمين لم يؤثر على انتشار الإسلام بين صفوف مغول فارس . إذ يبدو أن جموع المغول الوثنيين نتيجة اختلاطهم بالمسلمين الأصليين في اقليم فارس وجدوا ضالتهم في الدين الإسلامي الحنيف ، فأقبلوا على اعتناقه ، وأصبح الإسلام ديناً رسمياً لدولتهم في فارس . يدلنا على ذلك إقدام عدد من إيلخاناتهم الذين خلفوا أرغون على اعتناق الدين الإسلامي وتطبيق أحكامه داخل دولتهم[2] .

---

(١) فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٢) انظر عبدالسلام فهمي ، تاريخ الدولة المغولية في ايران) .

ثانياً ـ جهاد أسرة قلاوون ضد الصليبيين :

حرص السلطان المنصور قلاوون ، منذ بداية عهده على تقوية أواصر الصداقة مع حلفاء المماليك زعماء القبيلة الذهبية (القفجاق) . فأرسل إلى منكو تمر خان مغول القفجاق يخبره بارتقائه العرش المملوكي ، وجدد معه علاقة الود والصداقة ، وحرضه على الاستمرار في مناوئة عدوهما المشترك مغول فارس[1] . ولما اعتلى السلطان المسلم أحمد تكدار عرش المغول في فارس لم يغتر السلطان قلاوون بذلك الحدث ، بل حرص على استمرار مراسلته لحكام القفجاق . وزادت الحاجة لهم عندما نسف أرغون ابن أبغا التقارب الذي تم بين السلطان أحمد تكدار والسلطان المملوكي قلاوون إذ كان من الطبيعي أن يحرص الأخير على تقوية روابط الصداقة مع مغول القفجاق وتحريضهم على قتال أعدائه مغول فارس لكي يتفرغ هو لمشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام .

ولما كان السلطان الظاهر بيبرس قد توصل إلى مصادقة الأمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس الثامن (٦٦٠ـ ٦٨١هـ / ١٢٦١ ـ ١٢٨٤ م) فقد حرص السلطان قلاوون على تأكيد تلك الصداقة ، ليستعين به على الصليبيين ، لما عُرف عنه من معاداة للغرب الأوربي الذي كان يوالي امداداته إلى الصليبيين ببلاد الشام . فبعث إلى الامبراطور البيزنطي نفسه رسالة يعلمه فيها بتوليه السلطنة المملوكية ، ويمد إليه يد الصداقة والحلف ، فأرسل إليه الأمبراطور كتاباً يطلب فيه مودته ، ويظهر استعداده لتسهيل السفر على رسله التي تمر ببلاده ، وسأله أن يبعث إليه يميناً يتمسك بها ، فأرسل إليه السلطان المنصور قلاوون نسخة يمينية كما سير إليه رسلاً من قبله لتحليفه[2] .

ولما ولي الأمبراطور اندرونيكس الثاني (٦٨١ ـ ٧٢٩ / ١٢٨٢ ـ ١٣٢٨ هـ) عرش الدولة البيزنطية سار على سياسة أبيه ميخائيل الثامن في التماس ود سلطان

---

(١) انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٠٣ ، حاشية ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٥٩ ، فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ٢٦٠ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ .

المماليك ، فأرسل إلى السلطان قلاوون هدية ثمينة عبارة عن حمل من الحرير الأطلسي ، وأربعة أحمال من البسط ، فحازت على قبول السلطان قلاوون ، وغمر الرسل بعطاياه[1] .

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاوون وبعض الإمارات المسيحية بأسبانيا . فقد أرسل الفونس صاحب قشتاله Alfonso of Castile سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م رسولين إلى السلطان المنصور قلاوون ، ومعهما هدية من الخيل والبغال ، فأحسن السلطان ضيافتهما وأجزل لهما العطايا[2] . ولم تقتصر العلاقة بين السلطان قلاوون والفونس صاحب قشتاله على تبادل الرسل بل أبرمت بينهما معاهدة دفاعية في السنة نفسها[3] .

وكانت إمارة أرغونه أيضاً من بين الإمارات الاسبانية المسيحية التي ارتبطت بعلاقات ودية مع السلطان المملوكي المنصور قلاوون فقد عقد ملكها وملك صقلية اللذان كانا أخوين معاهدة سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م تعهدا فيها بمساعدة السلطان قلاوون ضد أي حرب صليبية ، وضد اللاتين بسورية إذا نقضوا الهدنة التي أبرموها معه[4] .

وإلى جانب ذلك فقد حرص جيمس الثاني ملك أرغونه على تكوين صداقة قوية مع السلطان المنصور قلاوون من أجل رعاية شئون المسيحيين في الشرق وتنمية موارد بلاده بفتح أسواق تجارية لها في مصر[5] .

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٨٥ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٥٤ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، حوادث سنة ٦٨١ ، ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ ، جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٢ .

(٣) جمال الدين سرور ، المرجع نفسه نقلاً عن :

Muir, the mameluke or slave Dynasty of Egypt p. 38.

(٤) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٥٦ .

Stovenson, The crusaders in the East. p 351.

جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٦٢ .

(٥) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، مقدمة المحقق ، ص ٥٠ .

وكان حرص سلاطين مصر على تنشيط تجارة مصر باعثاً لهم على الترحيب بالتجار الإيطاليين في الموانيء المصرية . فقد كانوا حملة التجارة الشرقية إلى أوربا ، يحملونها إلى جمهورياتهم ومنها توزع إلى أوربا عن طريق الممرات الكثيرة التي تخترق جبال الألب . فإذا كان الظاهر بيبرس قد عقد معاهدات تجارية عدة مع جنوة ، ومنح البنادقة عدة امتيازات سهلت عليهم سبل المتاجرة ، فكانت لهم في الاسكندرية خاناتهم التي تخزن فيها تجارتهم ، بل كان لهم حراسهم وقناصلهم ، كما حرص سلاطين المماليك على منح تجارهم حق التقاضي أمام قناصلهم وفقاً لقوانينهم الخاصة . فإن السلطان المنصور قلاوون قد عقد اتفاقات مماثلة مع البندقية وجنوة وبيزا ، فأصبح لهذه الجمهوريات قناصل في الاسكندرية ودمياط ورشيد ، مسؤولة عن سلامة مواطنيهم وعن تنفيذهم لقوانين التجارة ، فكان التجار الأجانب الذين يفدون إلى مصر يسجلون اسماءهم في مكاتب قنصلياتهم من أجل سهولة تمتعهم بما نصت عليه المعاهدات المعقودة من امتيازات[1] .

ومن جانب آخر فقد أدت هذه المعاهدات إلى إثارة غضب البابوية على هذه الجمهوريات المسيحية . التي كانت تحاول إثارتهم من وقت لآخر في سبيل نقض هذه المعاهدات والانضمام إلى صف العالم المسيحي في صراعه ضد المسلمين ، فكانت بعض هذه الجمهوريات وبالذات الإيطالية تنضم إليه في بعض الأوقات وتحارب في صفه إلا أن منافعها الإقتصادية لا تلبث أن تدفعها إلى العودة إلى صداقة سلاطين المماليك ، حيث كانت أسواق القاهرة والاسكندرية تزخر بمواد التجارة القادمة من الهند[2] .

وكذلك عقدت معاهدات صداقة بين السلطان المنصور قلاوون وبين فيليب الرابع (٦٨٤ ـ ٧١٤ هـ / ١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) ملك فرنسا ، والامبراطور رودلف

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، مقدمة المحقق ، ص ٥١ ، انظر أيضاً عفاف صبره ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٥٧ .
ورشيد : بليدة على ساحل البحر المتوسط والنيل قرب الاسكندرية (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .
(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، مقدمة المحقق ، ص ٥١ ، انظر ايضاً عفاف صبره ، العلاقات السياسية بين الشرق والغرب ، ص ٥٧ .

امبراطور النمسا . فقد كان الملك فيليب الرابع يرمي إلى غرضين ظاهرين ، أولهما القضاء على سلطة النبلاء في بلاده ليجعل من الحكومة المركزية قوة كبيرة يكون على رأسها ، وثانيهما إبعاد كل أثر لنفوذ أجنبي في ايطاليا ليستخلصها لنفسه فعمل على ابعاد سلطة البابا ، ولم يتورع عن محاربة البابا بونيفاس الثامن وكان عداؤه للبابا يحتم عليه أن ينضم إلى أعدائه ، ولو كان هؤلاء الأعداء من المسلمين[1] .

سقوط إمارة طرابلس الصليبية :

سبق أن ذكرنا أن السلطان المنصور قلاوون عندما توجه لمحاربة المغول . عمل على مهادنة الصليبيين على ساحل بلاد الشام ، حتى لا يفاجأ بخروجهم عليه وهو يحارب المغول . فجدد الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع الفرسان الاسبتارية بحصن المرقب ، كما عقد معاهدة أخرى مماثلة مع الفرسان الاسبتارية بعكا ، وثالثة مع بوهيمند السابع أمير طرابلس[2] .

ولما تحقق للسلطان المنصور قلاوون الغرض بطرد المغول من بلاد الشام ، لم يتجه لمحاربة الصليبيين مباشرة ، لالتزامه معهم بمعاهدة أمدها عشر سنين . لذا أثر استغلال الفرصة بالعمل على تحصين ثغور المسلمين على شاطيء الفرات الغربي ، لمواجهة أي اعتداء متجدد من قبل المغول على تلك المناطق . فاتجه بتفكيره إلى الاستيلاء على قلعة قطينا التي كانت تمثل ضرراً على حصن كركر الواقع على الضفة الغربية لنهر الفرات فجرد إليها عسكراً من حصن كركر ، فنازلوها وفرضوا عليها حصاراً شديداً ومنعوا دخول المدد إليها ، حتى ضاق الحال بمن داخلها ، فحصلت منهم الإجابة إلى التسليم ،

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، مقدمة المحقق ص ٥٢ .

(٢) راجع ماسبق ص ٢٣٧ .

وتسلم نواب السلطان منهم ذلك الثغر في يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م[١] .

كما اهتم في الوقت نفسه بحصن الكختا الواقع على الشاطيء الغربي لنهر الفرات بالقرب من حصن كركر ، والذي وصفه ابن عبدالظاهر بأنه « من أعظم الحصون واشمخها واسمقها واحصنها واتقنها ، على صخر شاهق في الهواء ، لا يلحقه رام ، وإذا رمى من تحته رام لا يصل سهمه إلا إلى بعض الصخر ، وهو من سائر جوانبه حصين ، وله باشورة لاصقة به » وأصدر السلطان قلاوون أوامره إلى نوابه في تلك المناطق ، ببذل الوعود الجميلة لمن بداخل الحصن ، فاتفق جماعة منهم على قتل النائب المغولي به ، وجهزوا ثلاثة أنفار إلى نائب السلطان بحلب ، فتقرر الحال معهم على الانضواء تحت لواء السلطان قلاوون ، الذي اهتم بالأمر وبعث رسلاً من قبله لتحليفهم على السمع والطاعة ، فشملهم بانعامه ، واقطع من يستحق منهم الاقطاعات ثم جهز إليها نائباً من قبله وذلك في جمادى الأولى من سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م[٢] .

كما عمد السلطان قلاوون إلى تأديب مملكة أرمينية الصغرى ، فأصدر أوامره إلى نائبه على حلب بالتوجه إلى بلاد سيس لمعاقبة ملكها ليو الثالث لما ارتكبه في حلب من إعتداء على جامعها وإحراقه ، فخرج العسكر الإسلامي من حلب في صفر من سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، وعبروا الحدود الأرمينية قاصدين مدينة إياس فوجدوا أهلها قد حصنوا المدينة ، وخرجوا إلى ظاهرها استعداداً لمواجهة الجيش الإسلامي الزاحف عليهم ، فحمل عليهم المسلمون وكسروهم وحشروهم إلى الميناء ، ثم أقتحموا الأبواب ودخلوا المدينة وخربوا مرافقها وغنموا منها غنائم كثيرة ، ولما عزموا على الخروج منها سيروا الكشافة إلى المناطق القريبة منها ، فأخبروهم بأنهم شاهدوا « سواداً عظيماً » من جهة تل حمدون وكان أولئك العسكر قد وصلوا إلى باب الاسكندرونه ، فإذا عسكر

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٣ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٧٣ .

(٢) بيبرس الدوادار ، المصدر نفسه ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٣ هـ ، ابن عبدالظاهر ، المصدر السابق ، ص ٢٨ - ٣٠ ، ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

سيس قد أقبل لمهاجمتهم ، فاحترز المسلمون ووقفوا بالقرب من باب الاسكندرونة ، وتناوشوا معهم القتال ، فكسرهم المسلمون وأسروا جماعة من خيالتهم ، وساقوا خلفهم إلى تل حمدون ، فلما حل المساء توقف العسكر الإسلامي عن القتال ، وتبعت فرقة منهم جماعة من الأرمن ، فوقفوا على طُلّب منهم تقدير خمسمائة مقاتل فلما رأى الأرمن المسلمين خلف اصحابهم وهم منهزمين أمامهم ، انهزموا معهم . وبات العسكر الإسلامي ليلته على باب الاسكندرونه ولما أصبحوا شدوا رحالهم عائدين إلى حلب محملين بالغنائم « ولم يعدم أحد من العسكر المنصور »[1] .

ويبدو أن ذلك النجاح الباهر الذي حققه السلطان المنصور قلاوون ضد المغول وحلفاءهم الأرمن ، قد انعكست آثاره على بقايا الصليبيين داخل مملكة عكا نفسها ، حيث سارع صاحبها[2] إلى مراسلة السلطان قلاوون ، يلتمس عقد هدنة معه . وهنا يبدو أن السلطان قلاوون رأى أن من الأفضل ما دام قد ارتبط بمعاهدة منفردة مع طائفة الاسبتارية بعكا ، ان تكون تلك المعاهدة شاملة لبقية الطوائف الصليبية بها ، فضلاً عن مدينتي صيدا وعثليث وبلادها . فاتفق الطرفان على عقد هدنة بينهما أمدها عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات وذلك في صفر من سنة ٦٨٢ هـ / ٣ يونيه ١٢٨٣ م[3] .

ولما زالت مخاوف السلطان من جهة المغول وحلفائهم ، عوَّل على اتمام مشروع تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام ، فهاجم فجأة حصن الاسبتارية بالمرقب سنة

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٣٠ ـ ٣٢ .
والاسكندرونة : مدينة في شرقي انطاكية على ساحل البحر المتوسط بينها وبين بغراس أربعة فراسخ (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) كانت عكا وصيدا وعثليث من بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية ، وملكها في تلك السنة هو Charlez of Anjou وقد تولى نائبه ببلاد الشام أودو بو الشيان Pollechien مفاوضة السلطان في الهدنة (انظر جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون نقلاً عن King. The Kinghts Hospitollers in the Holyland. p 284.
(انظر ايضاً ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٣٤ ، حاشية رقم ٥) .

(٣) انظر نص الهدنة في ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٣٤ ـ ٤٣ ، ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٦٢ وما بعدها ، انظر ايضاً ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٨٥ ، ومابعدها الملحق رقم ٨ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٥٢ ومابعدها .

٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م رغم المعاهدة التي عقدها معهم لمدة عشر سنين ، وذلك بسبب اعتراضهم قافلة من التجار المسلمين . وفرض عليه حصاراً شديداً استمر ثمانية وثلاثين يوماً . رأى بعدها الصليبيون عجزهم عن المقاومة ، فتوسلوا إلى السلطان في طلب الأمان وتسليمه له ، فوافق السلطان على ذلك رغبة منه في المحافظة على أسوار الحصن الذي وصِفَ بأنه كان « غاية في العلو والحصانة »[١] وانتهى الأمر بإجلاء الحامية الصليبية منه إلى طرابلس تحت حراسة جند السلطان ، وسمح لهم بنقل مايستطيعون حمله من أموالهم[٢] .

ولما فرغ السلطان قلاوون من الاستيلاء على حصن المرقب اتجه إلى حصن مرقية الذي كان « بارتليموا » صاحب حصن المرقب قد خرق الهدنة وبناه بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس ، وأعانه على بنائه بوهيمند أمير طرابلس ، وأمده الاسبتارية في حصن المرقب وغيره بالمساعدات ، وكان نواب السلطان المرابطون بحصن الأكراد بعد أن عجزوا عن منع الصليبيين من بنائه ، قد أقاموا برجاً بالقرب منه بقرية « ميعار » وجعلوا به خمسين رجلاً يستبدلون كل فترة ، فلم يجد ذلك العمل نفعاً ورأى السلطان ألا سبيل إلى انتزاع هذا الحصن من الصليبيين بالقوة ، وان حصاره لايمكن لكونه في البحر فلجأ إلى سياسة التهديد والارجاف ، وأرسل إلى بوهيمند يتوعده بقوله « إن العساكر قد تفرقت وما بقي لها إلا أنت ، وهذا البرج أنت الذي عمرته في الحقيقة . ولو لا إعانتك

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ ، كما وصفه كل من ابن تغرى بردى وابن الفرات بأنه « من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وهو كبير جداً » (انظر النجوم ، ج ٧ ، ص ٣١٧ ، تاريخ الدول والملوك ، ج ٨ ، ص ١٧ ، أما ابن حبيب فقد وصفه بقوله « وهو حصن شامخ الطور ، باذخ السور ، محكم البنيان ، مكين الأركان ، شديد الامتناع في غاية العلو والارتفاع » انظر درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٨ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٢٤١ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، حوادث سنة ٦٨٤ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٧ - ٨١ ، ابن الفرات ، المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ١٧ ، ١٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣١٧ ، أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٨٠ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٨ .

Stevenson, The crusaders in the Middle ages p 281.

ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٢ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٢٠ - ٢٤١ .

لما بني ، وأنت المؤاخذ به ، فإما أن يهدم ، وإلا أخذنا قبالته من بلادك ما لا ينفعك في الدفع عن صاحب مرقية ، وتندم حيث لا ينفع الندم ، ويكشف الغطاء » . فتيقن بوهيمند من عزم السلطان قلاوون على مهاجمة بلاده ، فأجاب إلى تسليم الحصن للمسلمين بعد هدمه ، وأرسل شخصاً من أعيان أصحابه ليتولى هدمه . وأطلق سراح المسلمين الذين كانوا في الأسر وأرضى صاحبه « بارتليموا » بمبلغ من المال وملّكه بعض الضياع . وبعث إلى السلطان قلاوون بهدية ، وصالحه على ألا يترك عنده أسيراً ولا يتعرض لتاجر ولا يقطع الطريق على مسافر . وكلف السلطان أحد أمرائه بالمشاركة في الهدم ، فهدم حصن مرقيه « حجراً حجراً »[1] .

وكان استيلاء السلطان قلاوون على حصني المرقب والمرقية قد أثر على صاحبة صور مارجريت (Marguerite, fillede Airehenri) فتوسلت إلى السلطان فعقد معها هدنة لمدة عشر سنين[2] ، بعد أن تنازلت له عن نصف دخل صور السنوي وتعهدت بعدم تجديد تحصيناتها[3] .

ويبدو أن هذا النجاح الذي حققه السلطان المنصور قلاوون ضد الصليبيين على ساحل بلاد الشام ، قد أثار شمس الدين سنقر الأشقر مرة أخرى ، حيث امتنع عن الحضور لمساعدة السلطان عند حصاره حصن المرقب القريب من حصن صهيون الذي كان سنقر مقيماً به . الأمر الذي أثار حفيظة السلطان قلاوون وتنكر لذلك ، وبالرغم من أن سنقر الأشقر حاول إرضاء السلطان بإرسال ابنه ناصر الدين صمغار إلى خدمته ، إلا أن السلطان منعه من العودة إلى أبيه وأرسله إلى الديار المصرية ومن ثم

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، انظر ايضاً المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٤٧٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٧ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٨ ، عمر عبدالسلام تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ٢٤١ .

ومرقبة : قلعة حصينة من أعمال حمص (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ،

(٢) انظر نص الهدنة في ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٠٣ وما بعدها .

(٣) جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٨ .

Lancpoole. Ahistory of Egypt in the Middle ages p 281.

أصدر أوامره إلى الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بمصر بتجهيز العساكر والخروج بها إلى الشام لمهاجمة سنقر بحصن صهيون ، حيث نازلها طرنطاي وراسل سنقر في تسليمها وأخبره بوعود السلطان له . فامتنع سنقر عن اجابته ، فضايقه ونصب المنجنيقات على الحصن حتى أشرف على أخذه عنوة ، فلما رأى سنقر عجز موقفه ، أرسل في طلب الأمان والايمان ، فحلف له حسام الدين طرنطاي أن السلطان لا يضمر له سوءاً . فنزل سنقر إلى الأمير حسام الدين وسلم إليه الحصن ، ورتب فيه نائباً من قبل السلطان وذلك في سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م[١] .

ولما فرغ حسام الدين من أمر صهيون عدل إلى جهة اللاذقية ونقل إليها المنجنيقات من صهيون والمرقب ، وكانت مدينة حصينة وصفها ابن عبد الظاهر بقوله « وهذا البرج شمم في أنف تلك الجهات ، وآفة من الآفات ، طالما أصبح وأمسى حسرة في قلب المسلمين ، وذخيرة لأعداء الدين ، وذلك أنه في وسط البحر ، لا تسلك إليه طريق من بر ولا ينقب له سور »[٢] . ولكن حدث في تلك الآونة أن وقعت زلزلة عظيمة في جهة اللاذقية هدمت أكثر برجها الذي في وسط البحر ، فاستغل عسكر حسام الدين طرنطاي ذلك ، وأخذوا في عمل الثقوب من جهة الأمكنة التي هدمتها الزلزلة ، وكشفت المدينة من جهة البحر ، فخاف من بداخلها وسلموا المدينة

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٦ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٨٦ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ص ١٤٨ ، ١٥٠ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٤٩ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٣٤ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٩ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، حوادث سنة ٦٨٦ هـ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٠٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٩٩ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٣ ، وحسام الدين : هو طرنطاي بن عبدالله المنصوري توفي سنة ٦٩٩ هـ (انظر ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ حاشية) .

(٢) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٥١ ، أما أبو الفدا فقد ذكر بأنه كان بها برج للصليبيين يحيط به البحر من جميع جهاته ، انظر المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

لحسام الدين ، فأمنوا على الخروج بنفوسهم وأموالهم[١] . وكانت اللاذقية آخر بلد تبقى من امارة انطاكية الصليبية[٢] .

لم يبق أمام السلطان المنصور قلاوون بعد ذلك سوى مهاجمة طرابلس التي تردى موقف الصليبيين بها عقب وفاة بوهيمند السابع سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م دون أن يترك وريثاً للعرش بها ليضع بذلك المسمار الأخير في نعش الصليبيين بطرابلس وما حولها . إذ أعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام قومون ـ أي حكم بلد مستقل ـ[٣] في طرابلس ، في الوقت الذي وصلت فيه الأميرة لوسي أخت بوهيمند السابع أمير طرابلس ووريثته ، فاستنجدت بالاسبتارية حلفاء أخيها في محاولة لاستعادة حقها الشرعي في حكم طرابلس[٤] ورد قومون طرابلس على ذلك بالاستنجاد بالجنوية . بل يذهب المؤرخ ابن تغرى بردى إلى أن « بارتليموا أمبر ياتشوا » صاحب جبيل ، ورئيس القومون الجديد لم يتردد في الاستنجاد بالسلطان المملوكي المنصور قلاوون ، ووعده إذا تمكن من تحقيق أطماعه ، فإنه سيقتسم معه طرابلس[٥] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧١ ، ويبدو أنه لا صحة لما رجحه Stevenson op cit. p 350 n,1. من أن اللاذقية كانت تابعة لسنقر الأشقر ، وان المدافعين عنها كانوا من المسيحيين وأن الأمير طرنطاي استولى عليها بعد استيلائه على صهيون وبرزية ـ بدليل ما ذكره المؤرخ أبو الفدا الذي كان معاصراً للحوادث وشارك بنفسه بعد ذلك في الاستيلاء على طرابلس من أن اللاذقية كان بها برج للفرنج ويحيط به البحر من جميع الجهات (انظر المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٢) كما أن سنقر الأشقر قد انضم إلى حسام الدين طرنطاي عقب تسليمه حصن صهيون ، ولم يلتفت بعد ذلك بتاتاً إلى اللاذقية والذي يمكن قوله هنا هو أنه لا يستبعد أن يكون سنقر كان على علاقة طيبة مع الفرنج باللاذقية قبل انضوائه تحت لواء السلطان قلاوون في تلك السنة (أي سنة ٦٨٦ هـ) .

(٣) انظر محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ص ٢٩٤ .

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧١ ، نقلاً عن
King, The Kinght, Hospiallers p 288.
عمر عبد السلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٧٩ .

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٧٢ ، عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٧٩ .

وحدث أن استجابت جنوه لنداء أهل طرابلس بإرسال بعض سفنها لمساعدتهم ، يحدوها إلى ذلك الطمع في تحقيق مكاسب تجارية من جراء السيطرة على مدينة طرابلس ، فضلاً عما في ذلك من أهمية في النزاع والتنافس بينها وبين البندقية . ولم يلبث أن عقد بارتليموا أمبر ياتشو اتفاقية مع جنوه ، أصبحت طرابلس بمقتضاها تحت حماية الجنوية الذين حصلوا على كثير من الشوارع والأسواق في المدينة[1] . وكتب أهل طرابلس بما تم مع جنوة إلى الأميرة لوسي التي كانت في عكا ، ولم يعلم الجنوية بهذا الاتصال الذي تم بين أهل طرابلس ولوسي إلا عن طريق لوسي نفسها ، التي أدركت أنه لا فائدة من عمل اتفاقية مع أهل طرابلس دون موافقة الجنوية ، وفي المقابلة التي تمت بين رئيس الجنوية والأميرة لوسي في صور ، أبرمت اتفاقية بين الطرفين ، وافقت لوسي بمقتضاها على جميع ما حصل عليه الجنوية من امتيازات في طرابلس ، كما أقرت الحقوق التي حصل عليها القومون ، مقابل موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على طرابلس[2] .

وكان أن أحس بارتليمو صاحب جبيل أنه خرج من الصفقة خاسراً ، وأن الغنيمة قسمت بين الجنوية والاميرة لوسي دون أن يكون له نصيب منها ، خاصة وأنه كان يطمع في الحصول على إمارة طرابلس ، بوصفه صاحب جبيل . الأمر الذي دفعه إلى الاتصال بالسلطان قلاوون طالباً التأييد منه لتحقيق أطماعه في طرابلس[3] .

ومن جانب آخر فإن اتفاق الأميرة لوسي والجنوية وما أدى إليه من توطيد أقدام الجنوية في طرابلس . وهو ما لا يمكن أن يرضى عنه البيازنة والبنادقة فضلاً عن مقدمي

---

(١) انظر ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٧٢ ، عمر تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٧٩ ، نقلاً عن :

Heyd, Hist Ducommerce Levant, I p 356.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ، نقلاً عن :

Heyd, Opcit, I. p 356.

انظر ايضاً ، عمر تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٧٩ .

(٣) انظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

الداوية والاسبتارية والتيتون ، يؤيد هذا ما أشارت إليه بعض المراجع الصليبية المعاصرة من ذهاب اثنين من الصليبيين ـ يرجح كونهما من البنادقة ـ إلى القاهرة ، حيث قابلا السلطان المنصور قلاوون وحذراه من أن بقاء الجنوية في طرابلس يهدد تجارة الاسكندرية ويجعل لها السيطرة على مياه الشرق الأوسط[1] .

وهكذا اثبت الواقع مرة أخرى بأن تاريخ الصليبيين في بلاد الشام في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، لم يكن سوى عملية انتحارية طائشة[2] . فقد غدت إمارة طرابلس بعد وفاة بوهيمند السابع في وضع يرثى له . فأمرها أصبح في يد إمرأة بسيطة تحيط بها طوائف صليبية متنافرة كل همها تحقيق مكاسب اقتصادية حتى لو كان ذلك على حساب استقرار ما تبقى لهم من وجود داخل بلاد الشام .

ولا شك أن السلطان المنصور قلاوون كان يرقب الوضع في طرابلس وأدرك بأن الاستيلاء عليها بات ميسوراً ، ورغم أن المماليك لم يكونوا في حاجة إلى تحريض على ذلك العمل ، وذلك منذ أن قام بوهيمند السادس سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م باستدعاء المغول إلى الشام وتحالفه معهم وحثهم على التنكيل بالمسلمين . فإن ارتباط السلطان قلاوون مع صليبيي طرابلس بمعاهدة أمدها عشر سنين كان يحول دون مهاجمته لها رغم ما حل بالصليبيين بها من وهن وضعف نتيجة استمرار النزاع بينهم وعدم تقديرهم لخطورة الموقف .

وفي ذلك الوقت الذي كان السلطان المنصور قلاوون يترقب أي عمل عدائي من جانب الصليبيين يكون حجة له لمهاجمتهم ، وصلته رسالة من الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام تفيد بأن الصليبيين بطرابلس نقضوا الهدنة ، واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين وأسروا عدداً من المسلمين .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، نقلاً عن :
Setton : Ahistory of The crusades, II p 318.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٧٣ .

الأمر الذي أعطاه الحق في مهاجمة مدينة طرابلس فأعلن النفير العام لقواته استعداداً لمهاجمتها[1] .

في ذلك الوقت علم مقدم الداوية ـ عن طريق رشوة أحد أمراء المماليك وهو الأمير بدر الدين بكتاش الفخري ـ بنية السلطان المنصور قلاوون ، فحذر أهل طرابلس من الخطر الذي بات يتهددهم[2] فتناسى الصليبيون خلافاتهم ، وتكتلوا للدفاع عن طرابلس ، واستصرخوا اخوانهم الصليبيين في كل مكان لينجدوهم فأرسل لهم هنري الثاني ملك قبرص أخاه عموري وبصحبته نجدة عاجلة من فرسان الجزيرة على ظهر أربع سفن حربية ، كما اسرع الاسبتارية رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس إلى تقديم المساعدة والمشاركة في الدفاع عن طرابلس . وكذلك تناسى الجنوية والبيازنة والبنادقة خصوماتهم مؤقتاً ، فأرسل الجنوية أربع سفن حربية والبنادقة سفينتين ، والبيازنة بعض السفن الصغيرة لحماية طرابلس من ناحية البحر ، وازدحمت المدينة بالصليبيين والوافدين إليها من كل جهة ، وباللاجئين من سكان القرى التابعة لها ، ومن المدن والقرى التي كان قد استولى عليها السلطان قلاوون من أيدي الصليبيين[3] .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، التحفة المملوكية ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٠١ ، سعيد عاشور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٨ ، عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٠ ، وحسام الدين لاجين هو السلطان حسام الدين لاجين بن عبدالله المنصوري ، الذي ولي السلطنة المملوكية بالأراضي المصرية بعد خلع السلطان العادل كتبغا المنصوري ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م . وأصله مملوكاً للملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز ثم اشتراه السلطان سيف الدين قلاوون بعد خلع الملك المنصور على من السلطنة (انظر ترجمته مفصلة في ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٢٢٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٨٥ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٢٩٢) .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٨٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٣ ، عمر تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٠ ، وبدر الدين هو بكتاش بن عبدالله الفخري النجمي توفي سنة ٧٠٦ هـ والفخري نسبة إلى فخر الدين بن الشيخ (انظر الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ حاشية ٣) .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٨٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥١ ، عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

ولم يأبه السلطان المنصور قلاوون بتلك الاستعدادات الصليبية داخل طرابلس ، بل قرر أن ينهي أمرها ، فخرج بالجيوش المصرية من قلعة الجبل ، وخيم بظاهر القاهرة يوم الخميس العاشر من المحرم سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م . ثم رحل بعد أن أكمل استعداداته ، يوم الثلاثاء خامس عشر المحرم قاصداً بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه كتب إلى جميع النواب بالممالك الشامية والحصون الإسلامية يأمرهم بتجهيز العساكر وارسال المنجنيقات وآلات الحصار إلى طرابلس . ثم وصل السلطان بالجيوش إلى دمشق في يوم الاثنين ثالث عشر صفر من السنة نفسها ، وبعد أن استراح بها اسبوعا ، تكامل خلاله وصول الجيوش الشامية إليه ، رحل منها يوم الاثنين العشرين من صفر على رأس جيوشه متوجهاً إلى طرابلس[1] .

وصل السلطان قلاوون بقواته إلى مشارف طرابلس ، ولم يلق في طريقه أية مقاومة تذكر ، فقد آثر الصليبيون التحصن داخل أسوار المدينة ، ونزل السلطان بقواته على سفح مرتفع أشرف من خلاله على المدينة ، وشرع في محاصرتها من الجهة الشرقية ، ونظراً لكون المدينة محاطة من بقية الجهات بالبحر « وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق وهو مقدار قليل »[2] فقد عمد السلطان قلاوون إلى نصب مزيد من المنجنيقات

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ١٣ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨٠ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٦ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ابن أيبك ، الدرة الزكية ، ص ٢٨٣ ، ابن تغرى بردي ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٢١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٠١ . اختلف المؤرخون في تقدير عدد الجيش المملوكي ، فمنهم من ذكر بأنه كان يتألف من عشرة آلاف فارس وثلاثة وثلاثين ألفاً من المشاة ومنهم من قدره بمائة ألف من المشاة ، ومنهم من قدره بأربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة ، ولم تفصح المصادر العربية المعاصرة عن عدد أفراد الجيش المملوكي ، بل أشارت إلى أنه صحب السلطان قلاوون خلق كثير من المتطوعة (انظر ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣١٣ ، عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٤ ، انظر ايضاً أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ص ٤٦) .

(٢) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ، انظر ايضاً الحميري ، الروض المعطار ، ص ٣٩٠ ، عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٥ .

بلغت تسعة عشر منجنيقاً ، وبدأ الرمي على المدينة في حين واصل النقابون والحجارون والزراقون عملهم وتمكنوا من فتح ثغرات في سور المدينة الشرقي[1] ، واستمر الحال على ذلك وضايق المسلمون المدينة مضايقة شديدة إلى أن تمكنت قذائف المنجنيقات من تهديم برج كبير للصليبيين في الركن الجنوبي الشرقي من السور وكذلك برج الاسبتارية الممتد إلى البحر ، وأمام هذا الحصار الشديد أدرك معظم من بداخل المدينة أنه لا جدوى من المقاومة ، ففر عدد كبير من البنادقة إلى شاطيء البحر وركبوا السفن هاربين بعد أن شحنوها بالأمتعة وقد أحدثت حركتهم هذه خوفاً وريبة لدى أحد أمراء البحر الجنويين ، إذ ظن أن البنادقه يحاولون بذلك سرقة بعض سفنه الراسية في الميناء فاستدعى رجاله وغادروا المدينة بعد أن أخذوا معهم ما كانوا يحفظونه في متاجرهم . الأمر الذي أدى إلى ارتباك المدافعين عن المدينة وفتّ ذلك في عضدهم ونتج عن ذلك أن غادر الأمير عموري ومعه عدد كبير من القادة الصليبيين المدينة هاربين إلى قبرص[2] .

استغل السلطان قلاوون ذلك الخلل الذي دب في صفوف الصليبيين بطرابلس ، فشن هجوماً قوياً عليها ، ووجدت قواته طريقاً إلى الداخل عبر السور الشرقي المتهدم . فتدفقت بعددها إلى داخل المدينة . ولما رأى الصليبيون عجز موقفهم بادروا بالهرب إلى جزيرة بمحاذاة طرابلس قريبة من الساحل تعرف باسم جزيرة النخلة[3] . فتبعهم المسلمون حتى لحقوا بهم .

---

(١) ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨٠ ، والزراقون مفردها زراق وهو الذي يقذف النار المشتعلة بالقار وغيره عبر المزاريق (الأنابيب) (انظر ايضاً عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٥ حاشية) .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٨٧ ، انظر ايضاً عمر تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٨٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٣ ، ص ١١٧٤ .

(٣) ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨٠ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، عمر عبدالسلام تدمري ، المرجع السابق ، ص ٥٨٦ ، أما الدكتور سعيد عاشور فيسميها جزيرة القديس نيقولا (انظر الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٥) .

ولنترك المؤرخ أبو الفدا الذي شهد الاستيلاء على طرابلس مع أبيه وعمه الملك المظفر صاحب حماه يصف لنا ذلك العمل البطولي حيث يقول « وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة ، وفيها كنيسة سنطماس ، وبينها وبين طرابلس الميناء ، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة ، وإلى الكنيسة التي فيها، عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر ، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال ، وغنموا ما بها من النساء والصغار ، وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عَبَرْتُ إليها في مركب فوجدتها ملأى من القتلي ، بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى[1] .

وحدث أن جماعة من الصليبيين حاولوا النجاة بأنفسهم واستقلوا مركباً في البحر فالقتهم الريح إلى الساحل فظفر بهم غلمان المسلمين وقتلوا وأسروا منهم عدداً كبيراً وغنموا منهم غنائم كثيرة[2] .

ولما تم للسلطان قلاوون الاستيلاء على طرابلس أمر في البداية بالإبقاء عليها ، وإنزال الجيش فيها ، ثم أشير عليه بأن هدمها أولى من بقائها خاصة بعد أن تهدمت أسوارها وأبراجها ، وتصدعت معظم منازلها بفعل الرمي من المنجنيقات أثناء الحصار . فوافق على هدمها ، ثم أمر بالبدء في بناء طرابلس الجديدة بجوار النهر ، بعيداً عن شاطيء البحر ، لتكون في منأى عن تهديد الأساطيل الصليبية مستقبلاً[3] .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ، وقد ذكر العيني في عقد الجمان ، ج ٤ ، ورقة ٧٢٢ ، وابن الفرات ، م ٧ ، ص ٨٠٠ ، ان البحر انطرد عن الافرنج الفارين إلى الجزيرة المذكورة فانحسرت المياه ، وظهر للعساكر الإسلامية مخاضة فعبروها ما بين راجل وفارس وأوقعوا بمن فيها (انظر ايضاً النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ١٣ ، عمر عبدالسلام تدمري ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧) .

(٢) ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨٠ ، العمري ، مسالك الأبصار ، ج ٨ ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٨ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨١ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٩٥ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٣ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٨٨ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، الحريري ، الاعلام والتبيين ، ورقة ١٤٤ آ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٥ .

وكان من أثر سقوط طرابلس أن أخلى الصليبيون ببلاد الشام مدينتي بيروت وجبيل ، فاستولى عليها السلطان المنصور قلاوون ، وإن كان قد أقر بارتليموا على بلدة جبيل على سبيل الإقطاع ، فإن ذلك جاء مشروطاً بتبعيتها وخضوعها لسلطنة المماليك كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع معظم أموالها للسلطان قلاوون[١] . كما تسلم السلطان حصن أنفة وكان أيضاً لصاحب طرابلس ، فأمر بتخريبه ، ثم تسلم البترون وجميع ما هناك من الحصون[٢] .

ويضيف ابن الفرات أن السلطان قلاوون قد ابقى على الأميرة لوسي أخت بوهيمند السابع صاحبة طرابلس قريتين من قرى طرابلس[٣] .

والغريب في الأمر أن سقوط طرابلس في أيدي المماليك لم يحدث ردود فعل عكسية بشكل قوي لدى الغرب الأوربي كما كان متوقعاً . ففي الوقت الذي كان يأمل فيه بقايا الصليبيين ببلاد الشام أن تلبي أوربا نداء البابا في الإسراع لإنجادهم ، فقد تنصل ملك فرنسا من كل مسؤولية ، كما أن ملك أرغونه وصقلية وقعا معاهدة سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م تعهدا فيها بمساعدة السلطان المنصور قلاوون ضد أية حملة صليبية جديدة ، وضد الصليبيين في الشام إذا قاموا بخرق الهدنة التي أبرموها مع السلطان قلاوون[٤] . وكان الملك الإنجليزي إدوارد الأول هو الوحيد الذي عزم على القيام بحرب صليبية في المشرق . إلا أن الجدال الكبير بين الشرق والغرب انتهى قبل الوقت

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٦ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٢١ حاشية ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٥ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٣٢٩ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ ، وانفة : بليدة على ساحل بحر الشام شرق جبل صهيون (انظر ياقوت ، معجم البلدان)

(٣) انظر ابن الفرات ، المصدر نفسه ، ص ٨١ ، انظر :

Stevenson, The crusaders in The East p 349.

جمال الدين سرور ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ .

(٤) راجع ماسبق ص ٢٥٥ .

الذي حدده للقيام بهذه الحرب[1] . أما العرض الذي تقدم به أرغون ـ خان المغول في فارس ـ فقد ظل قائماً لا يلقي رداً من البابوية ، شأنه شأن صيحات هنري الثاني ملك قبرص الذي أرسل بدوره إلى الغرب الاوربي مستنجداً بهم لإنقاذ ما تبقى للصليبيين من مراكز في ساحل بلاد الشام[2] .

أما بالنسبة لبقايا الصليبيين في بلاد الشام ، فقد خارت قواهم وتمسكنوا داخل المدن المتبقية تحت أيديهم . باستثناء ما ذكره ابن عبدالظاهر من أن أحد أمراء البحر الجنويين ذكر أن اسمه « بنيت زكريا » (Bendito Saccaria) عمد بعد هروبه من طرابلس إلى أعمال القرصنة البحرية ، وقام بمهاجمة مركب تجاري خرج من الاسكندرية ، وقتل من فيه من المسلمين واستولى عليه ، فخاف الجنوية المقيمين في الاسكندرية عاقبة ذلك ، فهربوا منها إلى البحر . ورد السلطان قلاوون عليه بإمساك جميع الجنوية المتواجدين في الثغور الإسلامية . ولما كان الجنويون يخشون أن تضيع تجارة الشرق من أيديهم ، فقد أنكروا على هذا الأمير تعدياته ولاموا فعلته ، ومنعوه من الإلتجاء إلى جنوة ، كما تبرأ منه أهل عكا وجميع الفرنج ، وعقد السلطان معاهدة مع الجنوية في سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م[3] .

---

(١) جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٦ ، أوربا في العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٥٩٥ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٦ .

(٣) انظر نص الهدنة في ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٦٥ ـ ١٦٩ ، ويورد الدكتور عمر عبدالسلام تدمري ، رواية أخرى نقلها عن مؤرخ الحوليات الجنوي « يعقوب دوريا » وذكر Jacopo Doria الذي دوّن أحداث الفترة (١٢٨٠ ـ ١٢٩٣ م) ضمن مجموعة حوليات كفارو : أن المدعو باولينو دوريا Paolino Doria قنصل الجنوية في مستعمرة كافا Caffa على البحر الأسود ، هو الذي هاجم المركب القادم من الاسكندرية انتقاماً لسقوط طرابلس إذ أنه عندما سمع بحصار المدينة أعد ثلاث سفن وشحنها بالمقاتلين والميرة لانقاذها ، وعندما وصل إلى قبرص سمع خبر سقوطها ، حزن وعاد وفي طريق عودته التقى بالمركب الاسكندري فهاجمه (انظر تاريخ طرابلس ، ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ حاشية) .

والواقع ان استيلاء السلطان المملوكي قلاوون على طرابلس ، يعد انجازاً عظيماً في مشروع تصفية الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي يضاف إلى تلك الانجازات الرائعة التي حققها زعماء الجهاد الإسلامي من قبله . ولا غرو ، فلقد كانت طرابلس قاعدة رئيسية وعاصمة لإمارة صليبية في الشرق الإسلامي أقام بها الصليبيون قرابة قرنين من الزمان . لذا فقد أحدث سقوطها في أيدي المسلمين دوياً هائلاً خفقت له قلوب المسلمين بعد أن ارسلت البشائر بذلك الفتح العظيم إلى كافة الآفاق الإسلامية فزينت المدن ، وعملت القلاع[1] في الشوارع ، وسر الناس بهذا النصر سروراً عظيماً ، وتبارى الخطباء والشعراء في وصفه والتهنئة به[2] .

---

(١) القلاع : جمع قلعة ، والراجح أن المقصود بها هنا قلاع خشبية زينت بها الطرقات ، احتفالاً بهذا النصر العظيم . وفي (Dozy supp ' Dict. Ar) أن القلاع ـ وجمعه أقلع ـ هو قماش يغطي صحن الجامع Piece do toile gui couvrele صحن d, unemosques وربما كان المقصود هنا قماشاً شبيهاً بهذا ، نصبه الأمراء على جوانب الطرقات لاستكمال زينتها وبهجتها ، (انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٠١ حاشية) .

(٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٨٠ ـ ١٨٢ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ج ١٢ ، ص ٢ ـ ٦ ، العيني ، عقد الجمان ٧ ج ٢٠ ، ص ٧٢٢ ـ ٧٢٤ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ٩٩ ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ج ٨ ، ص ٢٨٧ ، وما بعدها ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٦٦ ـ ٣٧٠ ، عمر عبدالسلام تدمري ، تاريخ طرابلس ، الملاحق) .

إستيلاء الأشرف خليل على عكـــا :

غدا موقف الصليبيين ، فيما تبقى لهم من معاقل في ساحل الشام في وضع سيء للغاية ، خاصة بعد أن رفض حكام أوربا تلبية نداء ملك قبرص في الإسراع لنجدتهم[١] . الأمر الذي حتم على من تبقى منهم داخل بلاد الشام مواجهة مصيرهم المحتوم لوحدهم . وهنا يبدو أن البنادقة رأوا بعد توصل الجنوية إلى عقد معاهدة منفردة مع السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م[٢] أن الفرصة قد سنحت لهم للدفاع عن مدينة عكا . لإثبات وجودهم ، ومنافستهم الجنوية الذين عجزوا عن الدفاع عن مدينة طرابلس .

وقد أرجع البعض ذلك التناقض بين البنادقة والجنوية إلى أن موقف البنادقة السلبي من طرابلس الهدف منه الانتقام من منافسيهم الجنوية الذين تولوا مهمة الدفاع عن طرابلس إذ عز على البنادقة أن يستولى أعداؤهم الجنوية على طرابلس ويمتلكون ذلك المركز الإقتصادي والحربي الفذ على ساحل بلاد الشام . ولما سقطت طرابلس في أيدي المماليك . رأى البنادقة الذين كانت لهم السيادة في عكا أن تعرضها لأي خطر يهدد مصالحهم التجارية الكبرى في بلاد الشام كلها . لذلك حرصوا على بقائها وعقدوا العزم على الدفاع عنها . وتجنيبها ما حل بطرابلس[٣] . وكان أن استجاب البنادقة لدعوة البابا نيقولا الرابع ، فأسهموا في إعداد حملة مكونة من ألف وستمائة مرتزقا على شاطيء الادرياتيك في صيف سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م لإنقاذ عكا ،

---

(١) راجع ماسبق ص ٢٧٠ .
(٢) راجع ماسبق ص ٢٧٠ .
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٧ ، نقلاً عن :
Stoon, opcit. p 593 —

وخرجت الحملة في عشرين سفينة تحت قيادة دوق البندقية نفسه ، ومعه عدد كبير من البنادقة ، فضلاً عن متطوعة بقية المدن الإيطالية[1] .

والواقع أن هذه الحملة كانت المؤشر الحقيقي الذي خول السلطان المنصور قلاوون مهاجمة عكا في ذلك الوقت . بالرغم من أنه لم يكن ـ على ما يبدو ـ ينوي مهاجمتها آنذاك بسبب ارتباطه معها بمعاهدة لم ينته أمدها . فضلاً عما تم بينه وبين الجنوية في هذه السنة[2] . والذي ترتب عليه أن أخذت العلاقات التجارية تعود إلى مجاريها الطبيعية بين الصليبيين في عكا وصور وبيروت من جهة ، وبقية البلدان الإسلامية داخل بلاد الشام من جهة أخرى ، فانتضمت القوافل بين دمشق وبيروت ، وأستأنف الفلاحون في القرى الإسلامية القريبة من عكا نشاطهم في فلاحة أرضهم وترقب محصولها[3] .

ولكن ذلك الاستقرار لم يدم طويلاً . إذ عد المسلمون وصول هذه الحملة الصليبية الجديدة التي تبناها البنادقة إلى بلاد الشام خرقاً للهدنة التي كان السلطان قلاوون عقدها مع الصليبيين . خاصة وأن هذه الحملة الإيطالية ضمت في ركابها عناصر همجية ، مشحونة بالحماسة الدينية ، لا خبرة لهم بشئون السلم والحرب ، ما إن وطأت أرجلهم أرض عكا حتى عبَّروا عن حماستهم الدينية بارتكاب الجرائم الفظيعة ضد الفلاحين المسلمين في اقليم عكا . ثم عادوا بعد ذلك ودخلوا المدينة ليذبحوا كل من بداخلها من تجار المسلمين الذين كانوا قد قصدوا عكا في ظل الأمان المعطي لهم بعد

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٧ ، نقلاً عن :
Cam. med Hist. Vol. 5, p318.

(٢) راجع ماسبق ص ٢٧٠ .

(٣) انظر ، سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٧٧ ، ١١٧٨ .

عقد الصلح بين السلطان قلاوون والصليبيين بها[١] . ولم يسلم المسيحيون السريان من جهل أولئك الايطاليين الوافدين إذا اختلط عليهم الأمر وحسبوهم مسلمين[٢] . الأمر الذي أذهل أهل عكا من تلك الأعمال الهمجية ، وخشوا عاقبة ما فعله الصليبيون الجدد ، فأرسلوا إلى السلطان قلاوون يعتذرون عما حدث ويتعهدون بمعاقبة المذنبين[٣] .

والواقع أن السلطان قلاوون لم يكن في حاجة إلى إعتذار صليبيي عكا عن تلك الجرائم التي ارتكبها الصليبيون الوافدون إذ كان في ذلك الوقت بحكم قوة موقفه ، وحرصه الشديد على مواصلة مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، حريصاً كل الحرص على ترقب أي عمل صليبي يخل بشروط الهدنة المعقودة مع عكا ليتسنى له مهاجمتها ، يشاركه في ذلك جموع المسلمين المتعطشة للجهاد في سبيل الله . التي سارعت بإحضار ملابس الضحايا إليه ملطخة بالدماء ، ومعبرة عن استيائها من تلك الجرائم الصليبية . وأمام ذلك الدليل المادي ثارت همة السلطان قلاوون ، وأقسم أن ينتقم لهم من الصليبيين . وهنا يبدو أن السلطان قلاوون أراد أن يخول نفسه مقاتلة كافة الصليبيين داخل مدينة عكا . فشرط على أهلها تسليم المذنبين فوراً إليه . مقابل قبول اعتذارهم فعقد الصليبيون بعكا مجلساً لبحث هذا الأمر . واقترح مقدم الداوية الموافقة على شرط السلطان قلاوون بأن يتم القبض على المتهمين في ذلك العدوان ، وتسليمهم إلى السلطان قلاوون ليقتص منهم بنفسه ما دام سيؤدي ذلك إلى عدوله عن الانتقام منهم[٤] .

---

(١) الحريري ، الاعلام والتبيين بذكر خروج الفرنج الملاعين ، ورقة ١٤٤ آ ، انظر ايضاً المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١٠ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٨٨ ، ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٧٨ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤٠ .

(٢) انظر سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١١٧٨ .

(٣) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧٨ .

(٤) Stevenson. op. cit. p 352.

سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٧٩ .

ولكن هذا الاقتراح الذي كان السلطان قلاوون ـ على ما يبدو ـ يدرك مسبقاً بأنه لن يقابل بالإرتياح من معظم الأوساط المسيحية بعكا ، نظراً لضخامة عدد الصليبيين المذنبين ، وصعوبة القبض عليهم وتسليمهم إليه ، قُوبل بالرفض من الرأي العام المسيحي بعكا ، واكتفى من بداخلها بتقديم إعتذارات شكلية تضمنت إن ما جرى كان من فرنج الغرب ، وقد شنقوا منهم جماعة[1] .

وعندئذ تحقق للسلطان قلاوون ما كان ينشده . ورفض اعتذارات الصليبيين بعكا « ولا سمعها منهم ، وتوكل على ربه وأذن الأعداء بحربه »[2] ، بعد أن شاهد أن كل الأمور تسير في صالحه ، فالصليبيون نقضوا الهدنة التي كان قد أبرمها معهم . وقواته تتمتع بمعنوية عالية .

كما أن أحوال الصليبيين داخل عكا ذاتها كانت تسير من سيء إلى أسوأ إذ تجمعت بها فلول الصليبيين المتشتتة التي هربت من انطاكية وطرابلس وغيرها من المراكز والمدن الصليبية التي استردها المسلمون من الصليبيين . وأضحت عكا تعج بمزيج غريب غير متجانس من الصليبيين ، حتى صار بداخلها سبع عشر جالية كل منها تؤلف قوموناً مستقلاً بذاته[3] . فضلاً عما كان بها من ممثلين لمنظمات الفرسان وملوك انجلترا وفرنسا وقبرص والمدن الإيطالية التجارية وكذلك البابوية وكل من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص ويفكر بطريقته الخاصة وينظر إلى الأمور من وجهة نظر المصدر الذي يمثله دون أن يحاول التعاون مع غيره لتوحيد الجهود ضد الخطر المنتظر[4] . بل ظلت هذه المدينة ملجأ تتخذ جميع مساويء المسيحية طريقها إليه بعد أن أهملت بها فروض الدين

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٧ ، ويذكر الدكتور عاشور نقلاً عن :- King op cit. p 239 ان الصليبيين بعكا تقدموا إلى السلطان باعتذارات شكلية فحواها « ان العدوان قام به صليبيون أجانب أغراب خارجون عن سلطة حكومة عكا ، ولذلك فإن هذه الحكومة غير مسئولة عن أعمالهم (انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٧٩) .

(٢) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٧ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤٢ .

(٤) سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ١١٨٠ ، نقلاً عن :
Archer, The crusades p 415 — 416.

والقانون والفضيلة حتى أصبحت في أواخر أيامها محطاً لمن أراد من المسيحيين الانغماس في الترف والرذيلة[١] .

ولم يكن يشفع لبقايا الصليبيين بعكا سوى ما كانت عليه من الحصانة العالية ، إذ كانت دفاعاتها تتألف من اثني عشر برجاً ، وقد شيدت هذه الأبراج على أبعاد متساوية ، وعند زاوية الإنحراف على خليج عكا ، والاتجاه صوب الغرب نحو البحر كان يوجد برج على السور الخارجي يقابل البرج « الملعون » على السور الداخلي ، وكان الملك هنري الثاني هو الذي عمر هذا البرج ، وقبالة هذا البرج كان يوجد برج آخر عند مدخل الحصن من تشييد الملك هيو والد هنري الثاني ، وهذه الزاوية بأكملها من برج هنري الثاني إلى برج الملك هيو كانت أضعف النقاط في خط الدفاع عن عكا . ولذا فقد تقرر أن يتولى الدفاع عنها جنود الملك هنري بقيادة أخيه عموري[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان المنصور قلاوون لم يكن يهمه سوى ما كان يمليه عليه دينه الإسلامي الحنيف من وجوب التمسك بما قطعه على نفسه مع أعدائه . أما وقد خرق الصليبيون بمحض اختيارهم الهدنة ، التي كانت مبرمة معهم[٣] . فقد شرع السلطان في الاستعداد للإستيلاء على عكا . ولكن القدر لم يمهله ليحقق ذلك الحلم الذي لم يعد سوى مسألة وقت يختاره لدك آخر معقل صليبي في بلاد الشام ، إذ لم يكد يفرغ من إكمال استعداداته الحربية ، ويغادر القاهرة حتى فوجيء بوعكة صحية ،

---

(١) جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤٢ ، نقلاً عن :
Archer. Op cit p 414.

(٢) انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ، انظر ايضاً خريطة عكا .

(٣) ذكر الدكتور محمد جمال الدين سرور نقلاً عن ميور .Muir, op. cit p 39 أن السلطان المنصور قلاوون دعا القضاة وأخبرهم بإعتداء الصليبيين على التجار المسلمين بالقرب من عكا ، فأفتوه بأن ما لحق بالتجار المسلمين من الإهانات مبرر كاف لاعلان الجهاد على الصليبيين (انظر دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٠) .

تزايدت آلامها وتوفي على أثرها في ذي القعدة من سنة ٦٨٩ هـ / نوفمبر ١٢٩٠ م[١] .

ولم يكن لوفاة السلطان المنصور قلاوون في هذا الوقت أي أثر في تبدل موقف المماليك إزاء عزمهم على طرد بقايا الصليبيين من آخر معقل لهم في عكا . فبالرغم من أن الصليبيين استبشروا بذلك ، وظنوا أنها إرادة الله تدخلت لإنقاذ عكا خاصة بعد أن سمعوا أخبار الخلافات التي دبت بين أمراء المماليك حول ولاية العرش ، وذلك عندما حاول الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة تدبير مؤامرة لإقصاء الأشرف خليل بن قلاوون عن منصب السلطنة بعد وفاة والده . إلا أن حلمهم ذلك ما لبث أن تبدد بعد أن نجح الأشرف خليل في التغلب على هذه المؤامرة ، وتهدئة الأمور داخل السلطنة المملوكية ، ومن ثم الشروع مباشرة في إتمام مشروع والده طرد الصليبيين من عكا[٢] .

أدرك الصليبيون أن الخطر بات محدقاً بهم ، فحاول امراؤهم التوسل إلى السلطان الأشرف خليل ، بأن ارسلوا إليه رسلهم يطلبون منه العفو « فلم يقبل منهم ما اعتذروا به »[٣] . وأخذ في إكمال الاستعدادات التي كان والده قد بدأها لحربهم فأصدر أوامره لنوابه ببلاد الشام باتخاذ الاهبة ، وتجهيز وسائل النقل لحمل الذخائر وآلات الحصار إلى أسوار عكا . وفي هذا يقول ابن الفرات « فجهزت أعواد المجانيق من دمشق المحروسة وبرزت إلى ظاهرها في مستهل شهر ربيع الأول من السنة المذكورة (٦٩٠ هـ) ، وتكامل ذلك في ثاني عشر من ربيع الأول الشهر المذكور ، وتوجه بها الأمير علم الدين سنجر الدواداري أحد الأمراء بالشام ثم فرقت على الأمراء مقدمي الألوف ، فتوجه كل

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٣٨ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٥٥ ، ابن حبيب ، الفوائد المنتقاة من أخبار صاحب حماة ، ورقة ١٤٨ آ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٥٥ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٠٣ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٩٧ ، الذهبي ، دول الإسلام ، ص ١٨٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٢٥ ، الحريري ، الاعلام والتبيين ورقة ١٤٤ أ .

(٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٥٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٨٠ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ج ٣ ، ص ٢١٤ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٢ .

أمير ومضافيه منها بما أمر بنقله ثم توجه الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بدمشق المحروسة في آخر الجيش ببقية العسكر في العشرين من شهر ربيع الأول الشهر المذكور . وندب الملك الأشرف أيضاً الأمير سيف الدين طغريل الايغاني إلى الحصون والممالك يستحثهم على سرعة تجهيز المجانيق والآلات ، فبادر النواب إلى ذلك ، ووصل الملك المظفر صاحب حماة إلى دمشق في ثالث عشر شهر ربيع الأول الشهر المذكور بعسكر حماة وصحبته مجانيق وزردخاناه ، ووصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بالفتوحات بعساكر الحصون وطرابلس وما معها بالمجانيق والزردخاناه في رابع عشر شهر ربيع الأول الشهر المذكور . ووصل سائر النواب بالممالك الشامية وعساكرها إلى عكا . هذا ما كان من أمر نواب الشام المحروس ، وأما ما كان من الملك الأشرف ، فلما كان يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول من هذه السنة نزل السلطان الملك الأشرف من القلعة المحروسة وتوجه بالعساكر المنصورة إلى جهة الشام ، وجهز أدره العاليه إلى دمشق المحروسة فوصلوا إلى قلعتها في يوم الاثنين سابع شهر ربيع الآخر من هذه السنة . وفي يوم الخميس شهر ربيع الآخر الشهر المذكور وصل السلطان الملك الأشرف إلى المنزلة بعكا في ثالث ساعة من النهار ووصلت المجانيق إلى عكا في اليوم الثاني من وصول السلطان وهي اثنان وتسعون منجنيقاً فنصبت وتكامل نصبها في أربعة أيام واقيمت الستائر »[1] .

كما أصدر السلطان الأشرف في الوقت نفسه أوامره إلى نائبه على الكرك الأمير بيبرس الدوادار بتجهيز العساكر وأدوات الحصار إلى عكا . وفي هذا يقول بيبرس عن نفسه في كتابه زبدة الفكرة « وكنت حينئذ بالكرك فلما بلغني أمر هذه الغزاة ووردت عليّ مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات تاقت نفسي إلى الجهاد ، وحنت إليه حنو الأرض الضامئة إلى صوب العهاد ، فطالعت السلطان بذلك ، وسألته أن أصير إلى هنالك ، لأساهم في ثواب الغزو وأشارك . فأذن لي في الحضور وسمح بالدستور ،

---

(١) ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١١ ، ١١٢ ، انظر ايضاً المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٥ ، عن الستائر انظر ما يلي في الفصل الخامس .

فكنت كمن فاز أمله بنجاحه ، وانجلى ليله بصباحه فجهزت من الزردخانات المانعة والآلات النافعة ، والرجال المجتهدين ، والرماة والحجارين ، والغزاة والنجارين وتوجهت ملاقياً السلطان فوافيته وقد وصل غزة ، فلقيت منه إكراماً وابتساماً ، وسرت في ركابه إلى عكا . . . . »[1] .

وبعد أن اكتملت استعدادات السلطان الأشرف خليل أمام عكا . بدأ هجومه الكاسح على المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادي الأولى سنة ٦٩٠ هـ / ابريل ١٢٩١ م . حيث أخذت قواته في مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمنجنيقات وقذفها بالحجارة الثقيلة وقدور النفط المشتعلة حتى تمكنت من إحداث ثقوب في الأسوار الخارجية[2] . في الوقت الذي والى الرماة فيه رشق المدينة بالسهام بشكل فعال . مما أثر على المدافعين الصليبيين داخلها ، وأمام ذلك الهجوم حاول فرسان الداوية مهاجمة قوات الملك المظفر صاحب حماة للحد من هجومها إلا أن هجومهم باء بالفشل الذريع . كما لقي الاسبتارية المصير نفسه عندما حاولوا تكرار ما فعله الداوية . واستمر حصار المسلمين للمدينة حتى تداعت تحصيناتها ، وكان أول الأبراج انهياراً هو البرج الذي أقامه الملك هيو وبعده دمر المقاتلون المسلمون البرج الانجليزي ، وبرج « كونيه بلوا » ، كما أخذت تنهار أمامهم الأسوار القائمة عند باب القديس أنطون ، وعند برج القديس نيقولا وكان آخر الأبراج سقوطاً هو البرج « الملعون » الواقع في زاوية الحصن[3] .

ولم تجد محاولة الملك هنري الثاني ملك قبرص ، الذي وصل إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان ، وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات في انقاذ

---

(١) زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

(٢) بيبرس الدوادار ، المصدر نفسه ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١٢ ، الحريري ، الإعلام والتبيين ، ورقة ١٤٤ ب ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٥ ، ٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٨١ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٠١ ـ ٧٠٤ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، انظر الخريطة ص ٥٣٩ .

ما تبقى من تحصينات عكا ، فحاول التفاهم سلمياً مع السلطان الأشرف خليل . وهنا تجلت عظمة السلطان وثقته بنفسه وبقواته فواجه رسل الملك هنري ملك قبرص قائلاً « ألم تحضروا ومعكم مفاتيح عكا ؟ » وبعد أن ابلغوه رسالة الملك هنري وعدهم بتأمين خروجهم جميعاً من عكا ومعهم أموالهم إذا هم استسلموا ولم تؤخذ المدينة منهم عنوة[١] . وهنا يبدو أن الملك هنري لم يكن يملك حق التفاوض باسم أهل عكا جميعاً وأنه اختلف مع بعض زعمائهم حول قبول ما شرطه السلطان عليهم ، يدلنا على ذلك ما ذُكر من أن هنري عندما اخفقت محاولاته في مفاوضة السلطان ، حاول المشاركة في الدفاع عن عكا ، ولكنه سرعان ما فقد الأمل في انقاذها بسبب انحلال أمر الصليبيين واختلاف كلمتهم ، فعاد أدراجه إلى قبرص ومعه جميع قواته[٢] . ولا شك أن ذلك كان له أسوأ الأثر في نفوس بقية الصليبيين المدافعين عن عكا[٣] .

استغل السلطان ذلك الخلل وقذف بكل قواه في المعركة ، واندفعت كتائب عسكره على المدينة الواحدة بعد الأخرى ، ولم يلبث المسلمون ان شقوا طريقهم إلى المدينة من خلال الثغرات التي احدثتها المنجنيقات في اسوار المدينة[٤] . وبذلت حامية عكا الكثير من الجهد في سبيل الدفاع عنها إلا أن ذلك لم يُجْد أمام حماس المسلمين وإصرارهم على اقتحام المدينة . الأمر الذي ولّد كثير من الهلع والخوف في نفوس الصليبيين المدافعين عن المدينة ، فالتجأ كثير منهم إلى الأبراج المتبقية ، كما أبحر عدد كبير منهم بالسفن التي كانت راسية في المرفأ باتجاه قبرص ، يضيف المؤرخ أبو الفدا الذي شارك في المعركة بنفسه أنه « لما هاجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب ، وكان داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من

---

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٨٢ .
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٦ ، انظر ايضاً الحريري ، الإعلام والتبيين ، ورقة ١٤٤ ب .
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٨٢ .
(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٠٣ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

الفرنج ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ، ولم يتأخر منهم أحد »[1] .

واعتصم الداوية بدارهم التي كانت بارزة في البحر في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، واستعدوا للمقاومة ولما رأى السلطان الأشرف حصانة موقعهم ، عرض عليهم اتفاقاً مشرفاً يقضي بالسماح لهم بالإبحار إلى جزيرة قبرص بكل أمتعتهم بشرط أن يستسلموا له[2] . وهنا ظن الداوية أن القوات الإسلامية لن تستطيع الوصول إلى موقعهم مهما كان الأمر ، وأرادوا خداع السلطان الأشرف ، بإعلان الموافقة للتشفي منه ، حيث وافق السلطان الأشرف وأرسل جماعة من عسكره إلى ذلك المعقل الصليبي للتفاوض مع الداوية في الأمر ، فأقدم الداوية على ذبحهم عن آخرهم . الأمر الذي أثار غضب السلطان وهمته فأصدر أوامره إلى قواته بمهاجمتهم في موقعهم ، وأحاطت القوات الإسلامية ببرجهم إحاطة السوار بالمعصم ، وتمكن النقابون من نقبه.وتعليقه ، وبعد قتال ضار بين الطرفين انهار البناء وسقط البرج ، وبانهياره سقط آخر معقل من معاقل المقاومة الصليبية بعكا[3] .

وهكذا سقطت عكا في أيدي المسلمين بعد حصار طويل دام أكثر من أربعة وأربعين يوماً وبعد أن ظلت في أيدي الصليبيين أكثر من مائة عام منذ أن تمكن الصليبيون من إستعادتها من صلاح الدين سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٠ م الذي كان قد استردها منهم سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م[4] . وبهذه المناسبة يبدو أن السلطان الأشرف

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٢) ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١٢ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٠٨ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣، ص ٢٢١ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٦ ، ٧ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٠٩ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ص ٢٢١ .

(٤) لمعرفة تفصيل ذلك انظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ ، ومابعدها ، العماد ، الفتح ، ص ٧٩ ، ومابعدها ، أبو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٦ ، ومابعدها ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٤ ومابعدها ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ومابعدها ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٥ ومابعدها ، ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٦ ب ، الاصفهاني ، البستان الجامع ، ورقة ١٢٩ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٧ ، ص ١١١ ومابعدها .

قد أفاد مما حدث بعكا في عهد صلاح الدين فأصدر أوامره عقب سقوطها إلى قواته بتدميرها ، حيث أشعلت النيران في مرافقها ، وهدمت دورها إلى الأرض « ودكت دكاً »[١] ، ليقطع بذلك كل أمل للصليبيين ، فيما لو حاولوا استخدامها كرأس حربة لإعادة الوجود الصليبي إلى الشرق الإسلامي[٢] .

والواقع أن السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون وصل باسترداد عكا عاصمة مملكة بيت المقدس وآخر المعاقل الصليبية إلى قمة المجد السياسي والعسكري ، وتوج بعمله هذا الجهود المضنية التي بذلها زعماء الجهاد الإسلامي على مدى قرنين من الزمان ، ليضع نفسه في عدادهم . فضلاً عما أدى إليه ذلك الحدث العظيم من مظاهر الابتهاج والسرور التي عمت العالم الإسلامي ، بعد أن سارع السلطان بارسال البشائر بذلك إلى كافة الأقطار الإسلامية والذي ظهر واضحاً في القصائد التي قيلت في مديحه والإشادة بجهوده التي اثمرت استرداد عكا من أيدي أعدائه الصليبيين[٣] .

وبالرغم من أن معركة عكا كانت هي الحاسمة في قصة الصراع الإسلامي الصليبي ، إلا أنه كان يوجد إلى جانب عكا عدة مواقع صليبية كان من الضروري على السلطان الأشرف تصفيتها حتى يصح القول بأن العمل الإسلامي ضد الصليبيين قد وصل غايته[٤] . ولعل أهم هذه المراكز كان مدينة صور ، تلك المدينة التي يمكن القول أنها ظلت بأيدي الصليبيين منذ وصولهم إلى الشرق الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي حتى هذا الوقت . وذلك لما كانت تتمتع به من حصانة طبيعية ، حيث يصفها المؤرخون المسلمون بأنها مدينة حصينة متوسطة في البحر

---

(١) ابو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٥ ، انظر ايضاً ، بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٥ ، رنسيمان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٠٩ .

(٢) حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٣) انظر على سبيل المثال ما أورده بيبرس الدوادار في زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

(٤) حامد غنيم ، المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

كالسفينة . ليس لها طريق إلى البر إلا من مكان واحد له سبعة أبراج[١] . فضلاً عما كانت تتمتع به من أسوار عالية ، وما قام به الصليبيون من تعميق خندقها الذي أوصلوه من البحر إلى البحر حتى صارت المدينة « كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها »[٢] .

ويبدو أن السلطان الأشرف خليل عندما وصلت جيوشه إلى أسوار عكا وبدأت حصارها ، تنبه لخطورة مدينة صور الحصينة ، فأنفذ فريقاً من جنده لحفظ الطرق المؤدية إليها والتضييق عليها . تحسباً لتكرار ما حدث من الصليبيين عقب معركة حطين وسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م[٣] . وبالفعل فقد تمكنت تلك القوة الإسلامية من الحيلولة دون دخول المراكب المحملة بالصليبيين المنهزمين من عكا إلى صور ثم شددت القوات الإسلامية حصارها على صور ، حتى اضطر أهلها إلى طلب الأمان ، فأمنهم المسلمون على أنفسهم وأموالهم وتسلموا صور منهم[٤] .

---

(١) العماد : الفتح ، ص ١٩٨ ، أبو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٣ ، انظر ايضاً ، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ورقة ٤١ ، ابوشامه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٣) كان صلاح الدين قد سمح للصليبيين بعد استرداد بيت المقدس منهم سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م باللجوء إلى صور ، فتجمع بها أعداد كبيرة منهم ، حتى أن المؤرخ ابن الأثير حمَّل صلاح الدين مسئولية ما حدث للمسلمين بعد ذلك من متاعب عليها ، وعزا ذلك إلى افراط صلاح الدين في التسامح مع خصومه الصليبيين (انظر الكامل ، ج ١ ، ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، كما ذكر المؤرخ سبط ابن الجوزي ، ان صلاح الدين ضيَّع الفرصة على المسلمين بتسيير العساكر الصليبيين إلى صور وأنه كان من الواجب عرضهم على الإسلام ، فإن أسلموا وإلا ضربت رقابهم (انظر مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٨) .

(٤) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، التحفة الملوكية ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، أبو الفدا ، المختصر ج ٤ ، ص ٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٨ - ١٠ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١٣ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢١ ، الذهبي ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤٣ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧١٠ ، حسين أمين ، الحروب الصليبية ، ص ٣٦٩ .

وفي إطار تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام ، أوكل السلطان الأشرف بعد استيلائه على عكا إلى أحد أمرائه مهمة الزحف على صيدا التي كانت معقلاً للفرسان الداوية ، الذين شيدوا بها قلعة على جزيرة قريبة من الشاطيء . اعتصموا بها إلا أن هذا الإعتصام لم يغن عنهم شيئاً إذ أنهم لما رأوا المهندسين المسلمين قد شرعوا في إقامة جسر يصل الشاطيء بالجزيرة فقدوا الأمل وهربوا إلى انطرسوس . فسيطرت القوات الإسلامية على القلعة والمدينة معاً وذلك في منتصف رجب من سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٠ م[١] .

وشجع ذلك النجاح القوات الإسلامية على مواصلها زحفها صوب الشمال وبدأت بمدينة بيروت ، فأدرك من بها عجزهم عن المقاومة ، فتخلوا عن المدينة ولاذوا بالفرار ، فدخلها المسلمون وهدموا أسوارها وحطموا قلاعها وذلك في آخر رجب من السنة نفسها وقد انعكس ذلك النجاح على بقية المعاقل الصليبية حيفا وانطرسوس وعثليث التي استسلمت للسلطان الأشرف دون قيد أو شرط[٢] .

ولاذ بعض فلول الصليبيين بجزيرة أرواد ، واتخذوها قاعدة يشنون منها الغارات على الموانيء الشامية ، ويذكر ابن إيبك أنه في العشر الأول من شعبان سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م قصد جمع من الصليبيين ساحل بلاد الشام في مراكب قدرت

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، التحفة الملوكية حوادث سنة ٦٩٠هـ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٧٦٥ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٢١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ص ٢٥ ، ابن حبيب ، درة الأسلاك ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص ٣٢١ ، الذهبي ج ٥ ، ص ٣٦٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ص ٨ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ص ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٧١١ .

(٢) بيبرس الدوادار ، المصدرين نفسهما ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١٣ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٥ ، أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣١ ، ابن الوردي ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، ابن حبيب ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، الذهبي ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ، ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ١٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٨٣ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤٣ ، حامد غنيم ، المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، رنسيمان ، المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٧١٢ .
Stevenson, Op. cit. p 355.

بثلاثين بطشة في كل بطشة مائة نفر ، بهدف الإغارة على المسلمين في السواحل الشامية . فلما قارب دخولهم الساحل أرسل الله عليهم ريحاً ، أغرقت معظم مراكبهم ، ورجع من سلم منهم خائباً[1] . فقرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ـ الذي خلف أخاه الأشرف خليل على عرش السلطنة المملوكية (٦٩٣ ـ ٦٩٤ ، ٦٩٨ ـ ٧٤١ هـ) ـ احتلال تلك الجزيرة ، فأعد المراكب وشحنها بالمقاتلة ، وأبحر ذلك الاسطول الإسلامي سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م ، متجهاً إلى جزيرة أرواد وتمكن المسلمين من تحطيم أسوارها والاستيلاء عليها[2] .

وهكذا وبانتهاء القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، انتهى الوجود الصليبي كلياً من بلاد الشام ، وتحققت بذلك آمال سلاطين المماليك ، الذين حملوا لواء الجهاد الإسلامي منذ بزوغ نجم دولتهم الفتية ، واستطاعوا بفضله طرد المغول من بلاد الشام ، ومن ثم تصفية الوجود الصليبي منها . ليكتبوا بذلك الإنجاز العظيم صفحات تاريخهم المجيد وليمكنوا دولتهم الفتية من الاستمرار في مسرح الوجود كأعظم قوة في الشرق الأدنى لأكثر من قرنين من الزمان . تلك الدولة التي استطاعت أن تحقق أعظم فتح إسلامي إبان العصور الوسطى ، والذي تمثل في اعتناق المغول في فارس للدين الإسلامي . والذي انعكس أثره ـ على ما يبدو ـ وبصورة واضحة على وطنهم الأم في أقاصي شرق آسيا . ولعل ما نسمعه اليوم من وجود مسلمين وبأعداد ضخمة في تلك المناطق يعود الفضل فيه إلى تلك الجموع المغولية المسلمة التي استقرت في اقليم فارس ، وكانت بلا شك تتردد في حركة مستمرة بين موطنها الجديد اقليم فارس ووطنها الأم مقاطعة منغوليا .

---

(١) انظر الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، ص ١٢ .

(٢) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٧ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٨ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، أحمد مختار العبادي ، عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، وأرواد جزيرة صغيرة في الجهة الشمالية من طرابلس الشام على بعد خمسين كيلو متراً ، وفي الجنوب الغربي من أنطرسوس على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريباً ، طولها ٨٠٠ متر ، وعرضها ٥٠٠ م معظم سكانها من المسلمين ، يمتهنون الملاحة واستخراج الأسفنج الأحمر من البحر (انظر النجوم ، ج ٨ ، ص ١١ حاشية المحقق) .

الفصل الخامس

مقومات حركات الجهاد الإسلامي عند المماليك

- المماليك وتجديد حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين .
- نظام الإقطاع الحربي في عهد المماليك .
- ديوان الجيش المملوكي .
- الجيش المملوكي وتنظيماته .
- أساليب التعبئة والقتال .
- الأسطول المملوكي .

المماليك وتجديد دعوة الجهاد ضد المغول والصليبيين

جاء سلاطين المماليك ليحققوا ذلك الحلم الذى بدأه زعماء حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، وصلاح الدين من بعدهما . بالعمل على توحيد كلمة المسلمين ووقوفهم صفا واحدا لإنقاذ العالم الإسلامي من الخطر المغولي المدمر ، ومن ثم تصفية بقايا الوجود الصليبي من بلاد الشام . والباحث في تاريخ الدول الثلاث الزنكية والصلاحية والمملوكية يدرك أن قيامها كان صحوة إسلامية استهدف إيقاظ العالم الإسلامي من سباته العميق الذى استغله الغرب الأوربي ، ممثلاً في الحملات الصليبية ليفرض سيطرته على أجزاء منه ، وكذلك الحال بالنسبة للغزو المغولي القادم من الشرق . فإذا كان عماد الدين زنكي قد تمكن من القضاء على كل ما يعكر صفو الوحدة الإسلامية ، وتوج ذلك بالقضاء على امارة الرها الصليبية التى كان الصليبيون قد أسسوها في أعالي العراق[١] فإن ابنه نور الدين محمود من بعده قد عمل على مواصلة جهوده وتمكن من إفشال مهمة الحملة الصليبية الثانية التى جاءت إلى المشرق الإسلامي كإجراء انتقامي لسقوط إمارة الرها ، كما تمكن في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م من القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة التى كانت تنافس الخلافة العباسية السنية في بغداد ، ليعيد بذلك للعالم الإسلامي وحدته المذهبية[٢] . وقام صلاح الدين من بعده بتتويج تلك الجهود باستعادة بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى نبينا محمد ﷺ وذلك في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م[٣] ليضع بذلك العمل الجليل الأساس الصحيح لمن جاء بعده من

سلاطين المماليك المسلمين الذين ساروا على نهجه وأخلصوا النية لله وحده ، وجددوا دعوة الجهاد ضد أعداء الإسلام حتى تمكنوا من قهر المغول والصليبيين معا .

---

(١) أنظر ، محمد محمد الشيخ ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي .

(٢) أنظر ، حسن حبشي ، نور الدين محمود والصليبيون ..

(٣) أنظر ، عبدالله الغامدى ، صلاح الدين والصليبيون .

والواقع اننا إذا تتبعنا أعمال سلاطين دولة المماليك في هذا المجال . ندرك أن الدافع الأساسي لهم كان الجهاد في سبيل الله للذود عن ممتلكات المسلمين . ولما كان ذلك لا يتأتى الا بتوحيد كلمة المسلمين ، فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك . فبدأوا جهودهم بتجميع القوى الإسلامية التى فرت من وجه العدوان المغولي وحشدها داخل الأراضي المصرية وخرج السلطان المظفر قطز على رأس تلك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها وأشعل الحماسة في صفوفها إلى بلاد الشام وتمكن من كسر المغول في

معركة عين جالوت التى تعتبر بحق بداية النهاية للوجود المغولي في بلاد الشام . ترتب عليها إعادة الوحدة مرة أخرى بين مصر والشام ، ليمهد الطريق لمن أتى بعده من السلاطين لمواصلة الجهاد ضد المغول والصليبيين ، ذلك الجهاد الذى كان يعد في نظرهم فرض عين على كل مسلم لا يقل عن كونه ركنا من أركان الإسلام . ومن الأدلة على ذلك ما جاء في نص تقليد الخليفة العباس المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م في هذا الشأن حيث قال « ومما يجب تقديم ذكره الجهاد الذى

أضحى على الأمة فرضا »[١] وكذلك ما ورد في خطبة الخليفة الحاكم بأمر الله بجامع القلعة والتى قال فيها « أيها الناس أعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام . . فشمروا عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد »[٢] ومنها أيضا ما ذُكِر من أن السلطان الظاهر بيبرس عندما تواتر إليه أن بركة خان القفجاق قد أعتنق الإسلام ، كتب إليه في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م يغريه بقتال ابن عمه هولاكو ، على اعتبار أن ذلك العمل واجب عليه ما دام قد أعتنق الإسلام[٣] . كما يذكر

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٠٧ : اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ١٠٢ : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ : شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٤٢ : القلقشندى ، مآثر الانافه ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه د ص ١٤٣ ، ١٤٤ : اليونيني ، المصدر نفسه ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ : المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٧٨ : ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣١٥ : ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ ، ٨٩ : اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ، ص ١٦٥ .

ابن عبد الظاهر أن المغول جهزوا « ركبا إلى الحجاز » في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م بقصد كشف تلك الطرقات والتلصص على جهاتها وكان السلطان الظاهر بيبرس قد عزم في تلك السنة على الحج ، فبلغته هذه الأخبار قبل التوجه إلى الحجاز « فاقدم وتقدم وعزم على الجمع بين الحج والجهاد »(١) .

ويبدو من اقتران فرضية الجهاد بالحج أن المماليك كانوا يعتبرون الجهاد في حكم الحج أى أنه واجب على المسلم المستطيع شأنه في ذلك شأن الحج .

وإلى جانب ذلك فإن سلاطين دولة المماليك قد اتبعوا أساليب عدة ، دلت على اهتمامهم البالغ بتجديد دعوة الجهاد الإسلامي ، ودفع المسلمين إلى أداء هذا الواجب فإلى جانب اهتمامهم بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة والذى كان الهدف من ورائه إضفاء صفة الشرعية الكاملة على دولتهم . ومن ثم استغلال سلطة الخليفة الروحية لحث الناس على جهاد أعداء الإسلام ، فإن مجالسهم كانت لا تخلو من الحديث عن الجهاد والاهتمام بشئونه وذكر فضائله وأساليب التأهب والاستعداد له . يدلنا على ذلك قول السلطان المظفر قطز في أحد مجالسه لمن تردد من أمرائه في الخروج معه لملاقاة المغول في عين جالوت « ياأمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون . وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين »(٢) فكان لذلك أثره البالغ على نفوس المجتمعين ، فأجمعوا على مرافقته ، فأمر باجتماعهم في مجلس آخر حضهم فيه على قتال المغول وذكرهم بما وقع للأقاليم الإسلامية التى سيطر عليها المغول من القتل والسبي والحريق وخوفهم من وقوع مثل ذلك في الأراضي المصرية ، وحثهم على استنقاذ الشام من المغول واعادته إلى حوزة الإسلام والمسلمين « وحذرهم عقوبة الله فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد »(٣) كما يذكر أيضا

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٩ .
(٣) المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

أن السلطان الظاهر بيبرس سمع في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م بأن عدة من المغول ومن الأتراك والبغاددة قصدوا البلاد مستأمنين فأمر بجمع الأمراء وأعلمهم بذلك وقال « أخشى أن يكون مجيئهم من كل جهة ما يستراب منه ، والرأى أن نخرج اليهم ، فإن كانوا طائعين عاملناهم مما ينبغي ، والا فنكون على أهبة . ومن احتاج من العسكر إلى شيء أعطيته وما أنا الا كأحدكم يكفيني فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولمن يجاهد في سبيل الله »[1] .

كما اتبع المماليك إلى جانب ذلك أسلوبا آخر لتجديد دعوة الجهاد الإسلامي . فقد اتخذوا من خطباء المساجد وسيلة للدعاء لجيوشهم بالنصر وحث المسلمين على الجهاد في سبيل الله . يدلنا على ذلك ما ذكره ابن عبد الظاهر من أنه حدث أثناء حصار المسلمين لصفد سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م ، أن دعا خطيب دمشق عقب خطبة الجمعة للمجاهدين « ودعا الناس ، وكشفت الرؤوس ، وخشعت الأصوات ، فاستجاب الله منهم »[2] كما حدث سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م عندما عزم المغول على مهاجمة مدن أعالي الشام « أن قنت الخطباء والأئمة بالجوامع والمساجد في الصلوات وغيرها »[3] كذلك حدث في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م عندما جاءت الأخبار إلى السلطان المملوكي المنصور قلاوون أن الصليبيين بعكا قاموا بقطع الطريق على المسافرين من المسلمين في البر والبحر فلما تحقق السلطان من ذلك أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن يخطب في جامع القلعة ويحرض الناس على قتال الصليبيين « فلبس السواد وخطب بالناس في جامع القلعة خطبة بليغة في معنى ذلك »[4] .

وكان للفقهاء والقضاة دور كبير في ترغيب الناس في الجهاد ، وإرشادهم إلى فضائله ، وفي هذا الشأن يذكر ابن كثير ، انه حدث في يوم الجمعة سابع عشر شوال من سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٩ م ، أن عمل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية « ميعاداً » في

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .
(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٦١ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٩٤ .
(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٨ : أنظر أيضا ، ابن كثير ، المصدر نفسه ، جـ ١٣ ، ص ٣٢٧ .

الجهاد حرض فيه ، وبالغ في ذكر أجور المجاهدين[1] . كما حرص سلاطين المماليك على أن يصحب الجيش المؤذنون والقراء ، والوعاظ لإشعال الحماس في نفوس المقاتلين أثناء القتال ، وحثهم على الجهاد والتشويق للجنة فمن العبارات المألوفة التى كان يرددها هؤلاء « يامجاهدين لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم ﷺ »[2] .

وصفوة القول فإن خير دليل على اهتمام سلاطين المماليك بهذا الأسلوب حرصهم الشديد على شن معاركهم ضد اعدائهم أيام الجمع ، وذلك ـ على ما يبدو ـ تبركا بدعاء الخطباء على المنابر .

كما اهتم سلاطين المماليك أيضا باشعال الحماس في نفوس المسلمين أثناء اشتداد الأزمات وسير المعارك حيث كانوا كثيرا ما يسيرون بين صفوف الجيوش ويحثون المقاتلين على الجهاد . من ذلك ما حدث في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م عندما كاد الجيش الإسلامي يهزم في بداية المعركة . فصرخ السلطان قطز صرخة عظيمة سمعه معظم عسكره وهو يقول « واسلاماه » ثلاث مرات « يا الله انصر عبدك قطز على التتار »[3] .

كما يبدو أنه كان للمحتسبين دور كبير في حث الناس على النفير للجهاد . يدلنا على ذلك ما ذكره ابن العديم في معرض حديثه عن ثغر طرطوس من أنه وقت النفير كان المتولى للحسبة ورجاله بين يديه ينادون بأعلى أصواتهم « النفير يا أصحاب الخيل والرجال » ويظل المحتسب ورجاله يطوفون الشوارع كلها ، فإذا كان الوقت نهاراً أنضم اليهم الصبيان يساعدونهم على النداء بالنفير وحض الناس على المسير مع الأمير للجهاد[4] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص ٣٥٢ .

(٢) المقريزى السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٣ : عبدالمنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، جـ ١ ، ص ١٦٠ .

(٣) المقريزى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣١ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٢ : أنظر أيضا عليه الجنزورى ، الثغور البرية الإسلامية ، ص ١٥٩ .

وخلاصة القول ، فإن ما ذكرناه من الأدلة التى سقناها على سبيل المثال لا الحصر يدل دلالة واضحة على أن سلاطين المماليك قد قاموا بدور فعّال ، جددوا فيه الدعوة إلى الجهاد المقدس ، في وقت كان العالم الإسلامي يمر فيه بمرحلة خطيرة بعد أن تكالب عليه الأعداء من الشرق والغرب ، وشجعوا المسلمين على الدفاع عن ممتلكاتهم ومقدساتهم . مؤكدين أن الجهاد فرض مقدم على كل عمل ، وأنه واجب لا فسحة فيه . ولعل مما يؤيد ذلك ما قاله السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م عندما

وافق على مهادنة صاحب يافا ومتملك بيروت ، ثم تعلل الصليبيون بالعوض عن زرعين حيث أجابهم « بأنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية مرج عيون وقايضتم صاحب تبنين والمقايضة في أيديكم ، فكيف تطلبون العوض مرتين ، فإن بقيتم على العهد ، وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد »[١] وكذلك ما حدث سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م عندما كتب إلى صاحب اليمن كتابا ينكر عليه أموراً يقول فيه « الملك هو الذى يجاهد في الله حق جهاده ، ويبذل نفسه في الذب عن حوزة الدين ، فإن كنت ملكا ، فاخرج التق التتار »[٢] .

والذى يجدر ذكره هو أن وجوب الجهاد في نظر سلاطين المماليك لم يكن مقصورا على أهل تلك البلاد التى وحدوا كلمتها تحت رايتهم . بل أن ذلك يشمل العالم الإسلامي بأكمله . فبالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا اليه من مخاطبة السلطان الظاهر بيبرس لبركة خان زعيم القفجاق ، وحثه على قتال ابن عمه هولاكو على اعتبار أن ذلك فرض واجب عليه . فقد أورد ابن عبدالظاهر أن بيبرس نفسه جهز في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م أحد أمرائه إلى المغرب لإعلام تلك الجهة بما من الله من الفتح « ليشتد أزر المسلمين على الفرنج »[٣] كما يذكر المقريزى ، أن السلطان بيبرس نفسه كتب في سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م إلى صاحب تونس ينكر عليه التظاهر بالمنكرات ،

---

(١) راجع ما سبق في الفصل الثالث .
(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .
(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٧ .

واستخدام الفرنج وكونه لم يخرج لملاقاتهم لما نازلوه ، وكان مما قاله فيه « مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين »[1] .

ولم يكن سلاطين المماليك وحدهم هم الذين تبنوا دعوة الجهاد . بل كان لقادتهم وعامة جيشهم دور كبير في إحياء هذه الفريضة . يدلنا على ذلك تلك الاجتماعات التي كانت تعقد بينهم يتذاكرون فيها فرائض الجهاد وفضائله ، لاستنهاض عزائم الناس وترغيبهم في الخروج في سبيل الله[2] . وكان قادة المماليك يتباشرون ويتسابقون على معسكر سلاطينهم لمجرد علمهم بعزمهم على الجهاد ، ولاشك انهم بذلك يؤثرون على

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠١ : وصاحب تونس هو أبو عبدالله محمد بن يحيى بن عبدالواحد عمر الأمير المستنصر بالله الهنتاني البربرى ، الموحدى المغربي توفى سنة ٦٧٥ هـ ، أنظر ، ابن شداد ، تاريخ الظاهر بيبرس ، جـ ٢ ، لوحة ١٢٣ : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٢٠١ حاشية : لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، م ٢ ، جـ ٣ ، ص ٢١٣ .

(٢) راجع ما سبق ذكره في الفصل الثاني . ونظراً لمكانة الجهاد الهامة في الإسلام ، عنى الكثيرون من أئمة الدين وعلمائه بدراسته وبحثوا فيه وصنفوا وواصلوا جهودهم في تدوين ما ورد فيه من الآيات وتفسيرها والأحاديث والأثار وشرحها ـ فنرى مدونات السنة وموسوعاتها تخصص له بابا منفردا ، ثم إن بعض المصنفين أفردوه في مؤلف خاص مستقل ومن هؤلاء :

١ ـ ابن المبارك المتوفي سنة ١٨١ هـ .
٢ ـ أبو سليمان داود بن على بن داود الأصفهاني الظاهرى المتوفي سنة ٢٧٠ هـ .
٣ ـ أحمد بن عمر بن الضحاك الشيباني ، أبو بكر ، المعروف بابن أبي عاصم المتوفي سنة ٢٧٨ هـ .
٤ ـ ثابت بن نذير القرطبي المالكي المتوفي سنة ٣١٨ هـ .
٥ ـ إبراهيم بن حماد بن اسحاق الازدى المالكي المتوفي سنة ٣٢٣ هـ .
٦ ـ أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ .
٧ ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ .
٨ ـ تقى الدين عبدالغني بن عبدالواحد بن على الجماعيلي المقدسي المتوفي سنة ٦٠٠ هـ وسماه « تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين » .
٩ ـ أبو محمد قاسم بن على بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر المتوفي سنة ٩٠٠ هـ .
١٠ ـ عز الدين على بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ .
١١ ـ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد المتوفي سنة ٦٣٢ هـ .
١٢ ـ عماد الدين إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤ هـ « الاجتهاد في طلب الجهاد » .
١٣ ـ على بن مصطفى علاء الدين البوسنوى الشهير (على دده) المتوفي سنة ١٠٠٧ هـ .
١٤ ـ حسام الدين خليل البرسوي الرومي ، المتوفي سنة ١٠٤٢ هـ ، كما عنيت مدونات الفقه الإسلامي ببيان أحكام الجهاد وآثاره وأفردت له بابا خاصا ، أما الكتب الحديثة التى تناولت موضوع الجهاد فهى كثيرة جدا (أنظر ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، مقدمة المحقق ، ص ٤٠ ـ ٤٢) .

غيرهم من المسلمين ، فيجعلونهم يتوافدون على الجهاد في سبيل الله زرافات ووحدانا . من ذلك ما فعله الأمير بيبرس الدوادار المنصورى الذى كان واليا على الكرك . الذى ما إن سمع بمسير السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م بقصد الاستيلاء على عكا من أيدى الصليبيين ، حتى سارع بالخروج على رأس جيشه وعتاده لملاقاة السلطان عليها(١) .

وختاما هناك حقيقة هامة لا يمكن إغفالها كان لها الأثر الأكبر في جعل دولة المماليك دولة جهادية منذ نشأتها . ذلك أن هؤلاء المماليك جُلِبوا إلى ديار الإسلام أطفالا صغارا فنشأوا وسط بيئة إسلامية خالصة . وتعلموا منذ نعومة أظفارهم اللغة العربية ، وتلقوا أصول الديانة الإسلامية على أيدى مجموعة مختارة من الفقهاء والمشايخ المسلمين فشبوا لا يعرفون دينا غير الإسلام ، ولا وطنا غير الوطن الإسلامي فصاروا جزءاً لا يتجزأ من المحيط الإسلامي الكبير . وأخذوا يحسون الأحاسيس نفسها التى شعر بها معاصروهم من المسلمين نحو الأخطار الكبرى التى هددت العالم الإسلامي في ذلك الوقت . فوضعوا أيديهم في أيدى أبناء مصر والشام وسار الجميع تحدوهم فكرة الجهاد في سبيل الله والوقوف صفا واحدا في وجه أعداء الإسلام المغول والصليبيين(٢) .

ثانياً : الإقطـــاع الحربي :

نشأ نظام الإقطاع الحربي في الشرق الإسلامي في عهد الدولة السلجوقية ، التى كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامي حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، الحادى عشر الميلادى حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات التى كانت تصرف للجيش إلى تفكير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالاقطاعات من الأراضي وتوزيعها على مختلف عناصر الجيش(٣) .

---

(١) راجع ما سبق في الفصل الرابع .

(٢) أنظر ، السيد الباز العريني ، المماليك ، ص ٣ ، وما بعدها : أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص ٩٤ ، وما بعدها : فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، جـ١ ، ص ٣٠٠ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٩٥ : نظير حسان سعداوى جيش مصر ، ص ٢ ، ٣ .

ومن المعروف أن الأراضي المصرية شاهدت في العصر الفاطمي نظاما إقطاعيا في بعض الأحيان . ولكنه لم يكن اقطاعا حربيا . ولكن هذه الإقطاعات غير الحربية ما لبثت أن حدث لها بعض التغييرات في طبيعتها ، وذلك عندما منحت هذه الإقطاعات لأمراء جيش نور الدين ، إذ ارتبطت هذه الإقطاعات بالخدمة الحربية حسب النظام الإقطاعي الزنكي ، الذى كان إقطاعا وراثيا . فقد كان من عادة نور الدين محمود عندما يموت أحد الأمراء المقطعين منح إقطاع الأب المتوفي لابنه . وفي حالة صغر سن الأبن كان السلطان يعين من يدير الإقطاع حتى يكبر . وكان هذا هو السبب الذى جعل الأمراء يبرزون قدراتهم الحربية في المعارك . وكان نور الدين قد اعتاد أخذ الإقطاع من أى أمير يهمل في واجباته ، فقد حدث سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م عندما كان غالبية أمراء نور الدين مترددين في محاربة الفاطميين والصليبيين عند البابين في صعيد مصر . هدد الأمير شرف الدين انهم إذا رفضوا القتال فسوف يسترد السلطان نور الدين إقطاعاتهم ويطلب منهم إعادة الموارد التى أخذوها منها ، ولهذا حاربوا بشجاعة حتى انتصروا[١] .

أما الإقطاع الأيوبي الذى أحدثه صلاح الدين بعد سقوط الدولة الزنكية وقيام الدولة الأيوبية ، فلم يكن يتطابق مع نموذج الإقطاع الزنكي . فالإقطاع الأيوبي كان يُمنح كما هو الحال في الإقطاع الزنكي إلى الأمراء والأجناد مقابل الخدمات الحربية . غير أنه لم يكن إقطاعا وراثيا . ولا يمنح المقطع أى سيادة على أراضي الإقطاع . إذ من المعروف أن طبيعة نظام الإقطاع ورغبة السلطان المستمرة في تحسين فعالية النظام الحربي . كان لا يسمح بتوريث الإقطاع مطلقا . فقد كان صلاح الدين يعرف أن توريث الإقطاع سوف يؤدى إلى نتائج عكسية بالنسبة للخدمات الحربية في عدة حالات . وذلك عندما يموت المقطع ويترك طفلاً صغيراً ، أو عدداً من الأطفال ، ويصبح الحاصل على الإقطاع ليس في سن تؤهله لحمل السلاح ، ولا يستطيع الاشتراك في حملات عسكرية كما أن توزيع الإقطاع بين عدد من الأطفال كان يؤدى بالتالي إلى نوع من الفوضى في الإقطاع[٢] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ص ٣٢٥ ، أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٥ ، Hassanein Rabie. The Financial Systeme of Egypt. pp. 20-30. ، عن تفاصيل معركة البابين وأسباب انتصار جيش نور الدين فيها (أنظر حسن حبشي ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ١١٤) .

(٢) Rabie. op CIT. pp. 59-60.

ومن هذا نخلص إلى حقيقة هامة هي أن منح الإقطاع بواسطة السلطان ، ليس معناه منح ملكيات الأراضي الزراعية لهذا المقطع ، وليس معناه أيضا تمتع المقطع بمتحصلات الإقطاع لفترة طويلة ، بل أن منح الإقطاع يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه ولأجناده مجموعة معينة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التى كان ملزما بأدائها[١] .

أما بالنسبة لنظام الإقطاع الحربي الذى اتبعه المماليك في دولتهم فإنه - على ما يبدو - لم يكن يختلف عن النظام الذى كان سائدا لدى أساتذتهم الأيوبيين . يدلنا على ذلك قول المقريزى في كتابه الخطط « وأما منذ أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا ، فإن أراضي مصر كلها ، سارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده »[٢] ولم يقتصر توزيع الإقطاعات الحربية في عهد المماليك على أراضي مصر ، بل تعدى ذلك إلى كل البلاد التى تمكن المماليك من ضمها إلى دولتهم . يدلنا على ذلك ما ذكره النويرى من أنه كان هناك إقطاع في مصر وآخر في بلاد الشام[٣] . وكذلك ما ذكره ابن الفرات في معرض حديثه عن الأمير بدر الدين بيليك الخازندار مملوك السلطان الظاهر بيبرس بأنه كانت له الإقطاعات العظيمة بالديار المصرية والبلاد الشامية[٤] .

وقد اتبع سلاطين المماليك أساليب عدة لتوزيع الإقطاعات على أمرائهم وأجنادهم ، منها ما كان الغرض منه تثبيت أقدامهم في الأراضي التى أصبحت خاضعة لهم ، مثلما حدث مع شجر الدر التى سارعت بمجرد اعتلائها العرش بعد وفاة زوجها الملك الصالح أيوب إلى توزيع الأراضي المصرية كاقطاعات على الأمراء المماليك[٥] . وكذلك ما حدث سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م عندما استولى السلطان المظفر قطز على سائر بلاد الشام حيث أقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام[٦] .

---

(١) Rabie. op CIT. p. 57.

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٩٧ : والذى يجدر ذكره هنا أن المؤرخ المقريزى . توفي سنة ٨٤٥ هـ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٢٠٩ .

(٤) ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٩٣ .

(٥) أنظر الباز العريني ، المغول ، ص ٢٣٩ .

(٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٣ .

كما استخدم المماليك توزيع الإقطاعات وسيلة لتحقيق الوحدة الإسلامية . يدلنا على ذلك ، ما حدث سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م عندما فارق الأمير ركن الدين بيبرس الأمراء الناصرية ، وقَدِم إلى القاهرة ، فخرج السلطان المظفر للقائه وأنزله دار الوزارة بالقاهرة وأقطعه قصبة قليوب[١] . وكذلك ما حدث سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م عندما خرج السلطان الظاهر بيبرس ودخل دمشق في يوم الأثنين سابع ذى القعدة وقدم عليه بها الملك الأشرف الأيوبي صاحب حمص ، فخلع عليه واعطاه ثمانين ألف دينار وحملين ثيابا وزاده على ما بيده من البلاد تل باشر . كما قدم عليه في الوقت نفسه الملك المنصور صاحب حماه ، فخلع عليه أيضا وأعطاه ثمانين ألفا وحملين ثيابا ، وكتب له توقيعا بالبلاد التي تحت يده[٢] . كما قدم إلى مصر في السنة نفسها أولاد صاحب الموصل وهم الملك الصالح اسماعيل ، وأخوه الملك المجاهد اسحق صاحب جزيرة ابن عمر ، ثم أخوهما الملك المظفر على صاحب سنجار ، فأحسن السلطان بيبرس اليهم وأعطاهم الإقطاعات الجليلة بالديار المصرية[٣] . كما حدث أيضا في سنة ٦٨٦ هـ عندما قدم الأمير سنقر الأشقر إلى السلطان المنصور قلاوون بمصر طائعا « أن أنعم عليه وأقطعه الإقطاعات العظيمة »[٤] .

كما كان سلاطين المماليك يمنحون رجالهم الإقطاعات مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة . ويدلنا على ذلك ما حدث سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م عندما رحل السلطان الظاهر بيبرس من غزة وهاجم كل من قيسارية وحيفا وأرسوف حيث قام بتقسيم ما ملكه في هذه الغزاة من القرى والضياع على من كان معه من الأمراء وعاد هو إلى مصر[٥] . وكذلك ما حدث سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م عندما استولى على صفد ثم

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ : ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٠١ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١١٤ : وتل باشر قلعة حصينة وكورة واسعة شمالي حلب ، بينهما وبين حلب يومان (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٣ : وسنجار بلد صغير بالقرب من الموصل بأرض الجزيرة (أنظر ياقوت ، معجم البلدان : القزويني ، أثار البلاد وأخبار العباد) ، ص ٣٩٣ .

(٤) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٨٥ .

أمر بتعميرها وتحصينها ونقل الذخائر والأسلحة اليها « وأقطع بلدها لمن رتبه لحفظها من الأجناد »[1] .

كما يلاحظ أن سلاطين المماليك في توزيعهم للإقطاعات قد راعوا الجوانب الأمنية في دولتهم . فقد حدث في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م أن أوقع السلطان الظاهر بيبرس بعرب زبيد « لكثرة فسادهم » ثم أحضر أمراء العربان وأقطعهم الإقطاعات ، وسلمهم « درك البلاد » والزمهم حفظ الدروب إلى حدود العراق . وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا[2] .

كما جعل المماليك توزيع الإقطاعات وسيلة لاجتذاب المستأمنين من المغول والصليبيين إلى معسكرهم . ففي يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م وصلت طائفة من المغول إلى القاهرة مستأمنين فغيّر السلطان زيهم وأقطعهم إقطاعات وأنفق فيهم وأضاف كل جماعة منهم إلى مقدم « ثم تواتروا بعد ذلك طائفة بعد أخرى » حيث وصلت إلى القاهرة طائفتان منهم في سنة ٦٦١ هـ / ١٦٦٢ م ، فخرج السلطان بيبرس لتلقيهم ، وأنعم عليهم بالإقطاعات[3] . ولم يقتصر الأمر على معسكر المغول ، بل وفد على السلطان في سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م جماعة مستأمنين من جهة الصليبيين ، فأعطاهم الإقطاعات وأحسن إليهم[4] . وحضر إلى السلطان منصور قلاوون بظاهر طرابلس ابن صاحب جبيل الصليبي الذى كان أمير طرابلس قد قتل اباه في سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م فأخلع عليه السلطان وأقر جبيل عليه على سبيل الإقطاع ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ[5] .

وفي مقابل الموارد المتحصلة من الإقطاع ، كان على المقطع مجموعة من الالتزامات التى كان يجب عليه أن يؤديها وهي التزامات حربية مثل تقديم العساكر وقت الحرب ،

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ : أنظر أيضا ، ابن خلدون ، العبـــر ، جـ ٥ ، ص ٣٨٣ : شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٦٢ .

(٣) اليونيني ، المصدر نفسه ، م ٢ ، ص ١٥٦ ، ١٩٥ .

(٤) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٥ .

(٥) راجع ما سبق في الفصل الرابع .

فضلا عن عدد من الواجبات غير الحربية . ونظرا للجهاد الذى اتصف به العصر فقد كانت الواجبات الحربية للمقطع دون شك أهم الواجبات . فقد كان المقطع مسئولاً مسئولية كاملة عن نفقات عساكره وقت الحرب . فكان عليه أن يعد عسكره الإعداد الكامل لكي يلحق بالسلطان في كل حملة حربية ويكون مكلفا بالإنفاق عليها ، والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر . ما حدث سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م عندما عزم السلطان الظاهر بيبرس الاغارة على طرابلس في هذه السنة ، حيث طلب الأجناد من إقطاعاتهم فحضروا « بأجمعهم »[١] وكذلك ما حدث عندما عزم السلطان المنصور قلاوون على فتحها سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م حيث خرج بنفسه على رأس العسكر المصرى ، وكتب إلى النواب بالممالك الشامية والحصون الإسلامية بتجهيز العساكر ، وإنفاذ المنجنيقات وآلات الحصار إليها[٢] . وكذلك الحال عندما عزم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الاستيلاء على عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م حيث ندب العساكر اليها من الديار المصرية وساير الممالك والحصون ، وأمر نواب السلطنة بالممالك الشامية والساحلية ونواب القلاع والحصون بتجهيز « الزردخانات وأعواد المجانيق والحجارين وغيرهم »[٣] .

وإلى جانب ذلك كان على صاحب الإقطاع أن يقوم بمراقبة الأعداء وصد غاراتهم المفاجئة من ذلك ما حدث في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م عندما ورد الخبر إلى السلطان بيبرس بأن الصليبيين أخذوا « أخيذة كبيرة للمسلمين ، فكتب إلى نوابه على الشام بالاجتهاد في ردها »[٤] كما وقع بين الأمير علم الدين سنجر الباشقردى نائب السلطان الظاهر بيبرس بحمص وبين البرنس بوهيمند أمير الصليبيين بطرابلس وقعة في صفر من

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٨٧ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ١٢ : أنظر أيضا ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٨٠ ـ ٨١ : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٧ ، ٧٤٨ .

(٣) النويرى ، المصدر نفسه ، جـ ٢٩ ، ص ٥٥ ، ٥٦ : ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١٠ ، ١١١ : المقريزى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٣ ، ٧٦٤ .

(٤) المقريزى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٣ .

سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م انهزم فيها الصليبيون[١] . وحدث في سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م عندما علم السلطان المنصور قلاوون بأن ملك قبرص قصد الساحل ، أن أمر « النواب بحفظ الأماكن جميعها » فاهتموا بأمره ولما وصل إلى جهة بيروت كمنوا له كمينا في أحد الجبال وقتلوا وأسروا عددا من جماعته « ولولا أنه ركب في البحر لكان أسيرا أو قتيلاً »[٢] .

كما كان على المقطع أن يقوم ببعض الأعمال الحربية الكبيرة ضد مراكز الأعداء القريبة من إقطاعه : مثال ذلك ما حدث سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م حيث أغار الأمير شمس الدين سنقر الرومي على انطاكية ومعه الملك الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور صاحب حماة ، ونازل صاحبها بوهيمند السادس ، وأحرق الميناء بما فيها من المراكب ، ثم حاصر السويداء وكبدها خسائر فادحة وغنم منها غنائم وميرة[٣] .

وكذلك ما حدث سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م فقد أغار الأمير ناصر الدين القيمرى على قيسارية وعثليث ، وكبد الصليبيين بها خسائر فادحة في العتاد والأرواح وكان الصليبيون قد قصدوا مهاجمة يافا فلما سمعوا بذلك الهجوم خافوا ورجعوا عنها[٤] . وفي سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م استأذن الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بحصن الأكراد ، السلطان المنصور قلاوون في الإغارة على بلد المرقب لما اعتمده أهلها من الفساد عند وصول المغول إلى حلب في هذه السنة ، فأذن له السلطان بذلك[٥] . وقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على الشام بالاستيلاء على صيدا وطرابلس وذلك عقب استيلاء السلطان الأشرف على عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م[٦] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٣ .
(٢) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢ : أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢١٤ .
(٤) المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٥١٣ .
(٥) أبو الفدا ، المصدر نفسه ، ص ١٤ .
(٦) ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١٢١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٠ .

هذه أهم واجبات المقطع الحربية ، أما الواجبات غير الحربية التى كان على المقطع أداؤها ، فتشمل المراسيم السلطانية التى كان السلطان المملوكي يصدرها ، وإقرار الأمن داخل الإقطاع والنظر في مصالح الرعية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان على المقطع عدد من الواجبات المدنية أهمها ما يختص برى وزراعة الإقطاع ، وبعض الخدمات الخاصة بالسلطان . فضلا عن قيام المقطع وموظفيه بتوزيع التقاوى السلطانية ، بين المزارعين في الإقطاع ، وكانت هذه التقاوى تمنح من السلطان للمقطع مع الإقطاع لضمان سلامة المحصول . وكان من الواجب على المقطع أن يترك التقاوى في الإقطاع ليضمن محصولا طيبا لمن يخلفه على هذا الإقطاع[1] .

وكان الإقطاع أحيانا يحتوى على أراضي مستصلحة نتيجة شق قنوات وجسور ، وكان على المقطعين أن يبذلوا كل جهدهم لكي يحسنوا هذه الأراضي المستصلحة ، فضلا عن قيام المقطع بإقامة الجسور البلدية وصيانتها (وهي السدود الزراعية الصغيرة) التى كان لها أهمية كبيرة في رى الإقطاع . أما عن الجسور السلطانية (وهي السدود الزراعية الكبيرة التى شيدت لمنفعة الأقاليم) ، فلم يكن المقطع مسؤولا عنها من الناحية النظرية . ولكن من الناحية العملية كان المقطعون يساعدون السلطان في تشييد هذا النوع من الجسور وذلك بإمداده بالرجال والبقر والآلات وغيرها . يضاف إلى ذلك أيضا أن المقطع كان يشترك في حفر وتطهير الترع والقنوات[2] .

ولما كان السلطان المملوكي هو المصدر الأصلي لمنح الإقطاعات فقد كان يستطيع الغاءه في أى وقت من الأوقات وذلك متى تقاعس المقطع عن أداء واجبه ، أو بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية ، من ذلك ما حدث سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م عندما أهتم السلطان بيبرس بأمر الغزو في هذه السنة وسيّر إلى أعمال مصر بإحضار الجند من إقطاعاتهم ، فتأخروا فارسل « سلاح داريته » فعلقوا الولاة بأيديهم ثلاثة أيام تأديبا لكونهم ما سارعوا إلى إحضار الأجناد[3] . وكذلك ما حدث سنة

---

(١) إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ١٩٧ ، ٢٠٢ : Hassanin Rabie. Opcit. p.32 : سعيد عاشور ، المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك . ص ٢٠ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ : حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، أنظر أيضا ، محمد حمدى المناوى ، نهر النيل في المكتبة العربية ، ص ١٣٤ - ١٣٨ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٤٤ .

٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م ، حيث أعاد السلطان المنصور قلاوون إقطاع الأمير سيف الدين أيتمش السعدى اليه ، وكان قد قطعه عنه عند إنضمامه إلى سنقر الأشقر[١] ثم عاد السلطان وقبض عليه وعلى الأمير كشتغدى الشمسي لخلل ظهر منهما على ما يبدو واحتاط على إقطاعهما[٢] . كما يذكر ابن كثير أنه في أثناء حصار السلطان الأشرف خليل لعكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م وقع « تخبيط » من نائب الشام حسام الدين لاجين ، فتوهم أن السلطان يريد مسكه ، فحاول الهرب ولكن أحد الأمراء أعاده إلى السلطان ، فطيب قلبه وخلع عليه ، ثم أمسكه بعد ثلاثة أيام وبعثه إلى قلعة صفد « واحتاط على حواصله[٣] .

وكان نظام الإقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع متى قصر في شيء منها كفيلا بإخلاص الجند واستماتتهم في القتال وتحقيق الانتصارات العظيمة ضد الأعداء . مثال ذلك ما ذكره المقريزى من أنه حدث في سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٩ م عندما خرجت العساكر الإسلامية لمهاجمة تل حمدون ، شرط عليها السلطان المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦ - ٦٩٩ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٨ م) بأن لا ترجع إلا بعد فتح تل حمدون وإن عادت من غير فتحها فلا إقطاع لها بالديار المصرية . وذلك لما بلغه من خلاف داخل صفوفهم أثناء توجههم إليها[٤] .

والواقع أن نظام الإقطاع الحربي كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة للجيش المملوكي ، حيث كان ذلك النظام دافعا لهم على التوسع في الفتوحات للاستزادة منه . يدلنا على ذلك ما أورده ابن عبدالظاهر في حوادث سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م من ان السلطان الظاهر بيبرس « زاد الأمراء الناصحين له في إقطاعاتهم وأمّر من يستحق الإمرة »[٥] .

والذى يجدر ذكره هنا أن المقريزى الذى ذكر في كتابه الخطط أن أراضي مصر كانت منذ عهد السلطان صلاح الدين تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده - كما سبقت الإشارة إليه - ذكر بعد ذلك في كتابه نفسه أن تطوراً حدث في هذا المجال في عهد السلطان

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٢٢٨ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق ٣ ، ص ٨٣٩ .

(٥) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٧٠ .

المنصور حسام الدين لاجين حيث قال « لما أفضت السلطنة إلى المنصور لاجين راك البلاد وذلك أن أرض مصر كانت أربعة وعشرون قيراطا ، فيختص السلطان منها بأربعة قراريط ، ويختص الأجناد بعشرة قراريط ، ويختص الأمراء بعشرة قراريط ، وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ، فلا يصل إلى الأجناد منها شيء ، ويصير ذلك الإقطاع في دواوين الأمراء ، ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ، ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصير مأكله لأعوان الأمراء ومستخدميهم ، ومضرة على أهل البلاد التى تجاورها ، فأبطل السلطان ذلك ورد تلك الإقطاعات على أربابها . . وجعل السلطان في هذا الروك للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطا »[1] .

وحدث في العهد الثالث للسلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤١ م) روك آخر تناوله المقريزى بشيء من التفصيل فذكر أن السلطان الناصر رأى سنة ٧١٥ هـ أن إقطاعات المماليك البرجية كثيرة ، ففكر هو والقاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك البلاد ومن ثم تقسيمها إلى إقطاعات ، فقسم البلاد إلى مناطق أرسل إلى كل منطقة منها أميرين . ومعهما كاتب من كتاب الديوان ، ومستوفين وقياسين ، ليتولوا مسحها ومعرفة ما تحويه من أرض مزروعة ، وبور ومستبحرة ، وعبرة كل ناحية ، وانتهى روك البلاد في مدة خمسة وسبعين يوما وقدمت الكشوفات « بحال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها ،

وما يتحصل من كل قرية من عين وغلة وصنف » وقد خص السلطان نفسه بعشرة قراريط ، ووزع الأربعة عشر قيراطا الباقية على الأمراء والأجناد وذلك في المحرم من

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٨ ؛ أنظر أيضا ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٨٢١ ، ٨٢٢ ؛ محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ٢٩٩ ؛ والروك : مصدر الفعل الثلاث (راك) ، وهي كلمة من أصل قبطي معناها مسح الأرض لتقدير خراجها ثم اتسع معناها حتى شملت أيضا تعداد القرى وعدد سكانها وما فيها من ماشية (أنظر ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٤٥٥ فهرس الاصطلاحات المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٨٤١ ، محمد حمدي المناوي نظام الروك في مصر الإسلامية ، ص ١ ، نهر النيل في المكتبة العربية ، ص ١٨٣ حاشية) .

سنة ٧١٦ هـ . ثم قرر للمتقدمين في السن والعجزة من الجند رواتب بدلا من الإقطاعات[١] .

كما حدث روك ثالث في عهد السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) وذلك في شوال من سنة ٧٧٧ هـ ، وقد أفرد له ابن الجيعان ، كتابا خاصا اسماه « التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية » ذكر فيه أقاليم مصر وما بها من بلدان مرتبة على حروف المعجم وعبرة كل بلد[٢] .

وقد اختلفت الآراء بالنسبة لهذا الروك ، فالبعض يؤكد انه تم فعلا في عهد السلطان الأشرف[٣] بينما يرى البعض الآخر أن هذا الروك هو الروك الناصرى نفسه[٤] ، حجتهم ما ذكره المقريزى من أن الروك الناصرى ظل العمل به إلى ما بعد زوال دولة بني قلاوون سنة ٧٨٤ هـ[٥] .

وعلى كل فليس هناك ما ينفي أو يؤكد نسبة هذا الروك للسلطان الأشرف شعبان ، ولكن لما كان ابن الجيعان مستوفيا لديوان الجيش فلا يستبعد أنه عثر بين الأوراق الرسمية ما يفيد بأن الأشرف قام بروك البلاد[٦] .

وروك رابع حدث في عهد السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢١ - ١٤٣٧ م) تحدث عنه قاضي المنزلة في كتابه « عجائب الأخبار عن مصر الأمصار » ذكر أن السلطان الأشرف برسباى أمر كتاب الدواوين والجيوش المصرية

---

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٨ ؛ أنظر أيضا ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ؛ محمد حمدي المناوى ، نظام الروك في مصر الإسلامية ، أو نظام مساحة الأرض ، بحث لم يطبع ، ص ٨ ، والعبرة من الناحية النظرية هي متوسط المتحصل السنوى من الإقطاع ، بأن يجمع إيراد أحسن سنة وأسوأ سنة ثم يقسم على أثنين ، ومن الناحية العملية فإن العبرة والمتحصل الفعلي من الإقطاع لا يمكن أن يتطابقا . لمزيد من التفصيل أنظر ، Hassanene Rabie. Opcit. pp. 47-48 .

(٢) طبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٨٩٨ م مع مقدمة بالفرنسية بقلم الدكتور مورتيز مدير دار الكتب المصرية وقتئذ .

(٣) أمين باشا سامي ، تقويم النيل ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .

(٤) مورتيز في مقدمته لكتاب ابن الجيعان ، عمر طوسون ، مالية مصر ، ص ٢٥٠ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ص ٩١ .

(٦) محمد حمدى المناوى ، نظام الروك في مصر الإسلامية ، ص ٩ .

بضبط واحصاء قرى مصر كلها قبليها وبحريها ، فكانت الفين ومائتين وسبعين قرية ، ولم يذكر المؤرخ تاريخاً لهذا الروك[١] .

ومن هذا يتضح لنا أن نظام الإقطاع الحربي ، كان يعد من أولى موارد الدولة المملوكية ، لأنه المصدر الدائم اللازم للصرف على الجيش السلطاني وجيوش الأمراء الإقطاعيين ، فضلا عن النفقات العسكرية اللازمة للجيش المملوكي على أختلاف عناصره زمن الحرب ، وبهذا يمكن القول أن سلاطين المماليك بتطبيقهم لنظام الإقطاع الحربي في دولتهم ، قد وفروا على أنفسهم مهمة تزويد جيوشهم بما تحتاجه من السلاح والعتاد والمؤن . فقد كان على صاحب الإقطاع أن يأتي بجيشه إلى ساحات القتال وهو مزود بكل مستلزمات القتال ، هذا فضلا عما كان يساهم به المقطع من أموال وعتاد ومؤن لخدمة الجيش السلطاني الملازم للسلطان نفسه .

ثانياً : ديوان الجيش المملوكي :

وكان ديوان الجيش المملوكي مشرفا ومسؤولا عن توزيع هذه الإقطاعات على الأمراء والأجناد ومتابعتها . فقد كان هذا الديوان هو الأساس لتوزيع هذه الإقطاعات على الأمراء المقطعين ، ومن أهم مهامه إثبات أسماء أصحاب الإقطاعات على إختلاف فئاتهم ، ومن ثم الإشراف على تلك الإقطاعات التى كانت تخضع للزيادة والنقصان نظير ما يقدمه الأمير المقطع من خدمات للسلطان . كما قام ديوان الجيش بتقدير المبالغ المسماه « الغيبانات » وهى الأموال التى تخصم من الجندى نتيجة غيابه عن الخدمة بدون إذن ، حيث يقوم الديوان بعملية الخصم عن هذه المدة . وفي هذا المعني يذكر ابن مماتي[٢] أنه إذا كان قد قرر للجندى ستمائة دينار واشتغل بقرار ذلك أول السنة ، ثم غاب في أثنائها بغير أذن مدة شهرين اقتطع منه مائة دينار[٣] .

---

(١) مخطوط الأزهر ، ص ٧ أ ، ٧ ب .

(٢) أبو المكارم أسعد بن الخطير بن مهذب بن زكريا ابن مماتي وكان ناظرا لبعض الدواوين المصرية أيام صلاح الدين وابنه الملك العزيز عثمان ، وأسرته مسيحية الأصل دخلوا في الإسلام أيام شيركوه ، وقد هرب الأسعد إلى الشام أيام العادل ونزل على الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب وخدمه . وتوفي ابن مماتي سنة ٦٠٦ هـ (أنظر قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال ، أبو شامة كتاب الروضين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٤ حاشية (٤) .

(٣) ابن مماتي قوانين الدواوين ، ص ٣٥٥ .

ومن الوظائف التى قام بها ديوان الجيش تسجيله للأموال المعروفة بالفواضل ، والتى فسرها ابن مماتي بضربه مثلا عليها ، ذكر فيه أنه إذا كانت عبرة ناحية من النواحي خمسة آلاف دينار ، وفيها جماعة مقطعون بما مبلغه إربعة آلاف وثمانمائة دينار رسمي ، ما بقي من عبرتها فاضلا وهو مائتا دينار[١] .

وما قيل عن الفواضل يمكن أن يقال عن المتوفر ، والذى هو عبارة عن جملة من الأموال تتوفر بسبب وفاة الجندى إذ جرى العرف بأن يكون راتبه من أول السنة إلى يوم وفاته لورثته ، وما كان مقررا بقية السنة ، صار من المتوفر ، وإذا لم يكن له ورثة ، جعل الديوان جميع ما قرر له متوفرا[٢] .

كما يبدو أن ديوان الجيش كان يقوم بتسجيل العمليات المعروفة بالتفاوت والتي يمكن تعريفها بأنها عبارة عن أموال الفروق الناتجة عن تغيير مرتبة الجندى بانتقاله من فئة أصحاب الجوامك والرواتب إلى فئة ذوى الإقطاعات ، أى أنه إذا انتقل جندى إلى إقطاع جديد للمرة الأولى ، فإنه يأخذ دخل إقطاعه من تاريخ تعيينه عليه لا من أول السنة[٣] .

ومن اختصاصات ديوان الجيش ، إصدار احصاءات دورية بعدد الجند ، والمبالغ المقررة لهم ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن عبدالظاهر ، من أن السلطان الظاهر بيبرس عرض العساكر سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م « وجلس لذلك كل يوم خميس وأثنين » وأي جندى اشتكى من مخدومه أمر بانصافه[٤] . وما ذكره أيضا في حوادث سنة

---

(١) ابن مماتي ،قوانين الدواوين ، ص ٣٥٥، أنظر أيضا Hassanein Rabie. Opcit. pp. 47-48. عن العبرة أنظر ما سبق ، ص ٣٠٦ .

(٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٥٥ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٠ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر ، ص ٦٣ .

(٣) أنظر حسنين ربيع ، المرجع نفسه ، ص ٦٣ ؛ والجوامك مفردها جامكية ، وهي رواتب خدام الدولة ، واللفظ مركب من جام أى قيمة ومن كي وهي أداة النسبة ، فارسي معرب ويعني في الاصطلاح المملوكي رواتب الجند (أنظر الأسنوى ، طبقات الشافعية ، جـ ٢ ، ص ٥٩٦ ، ٥٩٧) .

(٤) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٨٢ .

٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م من أن السلطان نفسه جلس في هذه السنة لبعض العساكر وهم لابسين عدة الحرب وكتاب ديوان الجيش بين يديه « يجيبون عما يسألون »[١] .

وإلى جانب ذلك ، يبدو أن ديوان الجيش قام أيضا بالإنفاق العام على الحاميات والحصون والقلاع ، التى كان سلاطين المماليك يهتمون بها أثناء جهادهم لاقتلاع بقايا الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام .

ويذكر النويرى ، أن موظفوا ديوان الجيش كانوا يقومون بتسجيل أسماء أرباب الإقطاع على إختلاف طبقاتهم ، وعدد الجند التابعين لكل مقطع داخل إقطاعه ، وأمام اسم كل مقطع عبرة إقطاعه « رمزا لا تصريحا » ولعل ذلك كان من باب الحذر والسرية التى توخاها موظفوا الديوان . لذا تجنب الديوان ذكر عبرة الإقطاع أو متحصلة إلا بناء على مرسوم من السلطان نفسه[٢] .

كما كان من مهام ديوان الجيش ضمان عدم التلاعب في الإقطاعات ، فكانت به سجلات مقابلة عرفت باسم جرائد الإقطاع ، خصص لها موظفون يقومون بتسجيل إقطاعات كل إقليم ، وما يتضمنه كل إقطاع من كفور وضياع وغير ذلك ، والعبرة المالية لكل إقليم ، وقيمة ما يتحصل منه ، وانتقال الاقطاع من شخص إلى آخر . كما جرت العادة في ديوان الجيش على أن تحرر جريدة أخرى باسماء العسكر الذين كانوا يتقاضون أجورهم نقدا لا إقطاعا[٣] .

وحرص ديوان الجيش على متابعة الأحوال الزراعية في الإقطاعات ومراقبتها ، وإعادة النظر كل ثلاثة أعوام في الأموال المفروضة على أصحابها وتسجيل ما يطرأ عليها من تعديلات[٤] . وكان رئيس الديوان يكلف بعض الموظفين كل عام بالحصول على نسخة من قوانين رى البلاد ، لمعرفة الزيادة والنقص في الأراضي المزروعة والحصول على نسخة من سجلات الأقاليم لمعرفة ما يتعلق بأمور مواردها المالية[٥] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢١١ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٨ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٦٢ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب جـ٨ ، ص ٢٠٢ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، طلال العصيمي ، الإقطاع الحربي في العصر الأيوبي ص ١٨٣ ؛ رسالة ماجستير لم تطبع .

(٤) Poliak : Feud alism in Egypt, Syria, Palestine, and Lebanon, p. 22.

(٥) النابلسي ، لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية ص ٢٣ .

كما أهتم ديوان الجيش بتسجيل التقادم ، التى كانت مقررة على أرباب الإقطاعات لتقديمها للسطان ، ولو تعطلت غضب عليهم . ويطالبهم بها . ومن هذه التقادم ما هو سنوى ومنها ما هو طارىء بحكم الظروف والمناسبات المختلفة كحج السلطان أو زواجه أو نحو ذلك من الحفلات وكذلك إذا خرج السلطان للصيد أو زار أميرا في إقطاعه ، فإن الأمير المقطع مكلف في هذه الحالة بتدبير أمر الضيافة فضلا عما يقدمه من التقادم والغالب أن يخلع السلطان على الأمير نظير تقدمته . وتحتوى التقادم على خيول وقماش وأثواب مختلفة الألوان والأنواع وكذلك الأسلحة ، وبعض أنواع الحيوانات والطيور ، العادى منها والغريب وأصناف التحف ، ومن التقادم ما يرى المقطع تخصيصه للسلطان ومنه ما يرى تخصيصه لحريمه وأولاده . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره المؤرخ أبو الفدا صاحب حماة من أنه قدم في سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م بتقدمته على السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكانت عبارة عن خيول وقماش ومصاغ[١] .

أما أهم موظفي ديوان الجيش ، فيشمل الناظر ، ويعد المسئول الأول عن كل ما يجرى في هذا الديوان ، وليس لأحد من الموظفين التابعين له أن ينفرد عنه بشيء من الأمور التى ينظر فيها الديوان . ولا بد من توقيعه الرسمي على جميع الأوراق الرسمية التى تجرى في الديوان ، فضلا عن إحاطته بجميع ما يرد على الديوان من معاملات . وإشرافه الكامل على ما يرد اليه وما ينصرف منه ، حيث كانت تقدم اليه بيانات كاملة بالمتحصلات والمصروفات والبواقي والفوائض والمتأخرات . لأنه يعد المسئول الأول عما يحدث في ذلك من خلل[٢] .

ويلي الناظر ، موظف آخر يدعى متولي الديوان ، ومهمته الإشراف على تنفيذ تعليمات الناظر[٣] . وليس له أن يزيد على ذلك ، وان أضاف شيئا لزمه ما يترتب عليه من تبعه ، وكان هذا الموظف يقوم بالتصديق على التصاريح التى تسمى التذاكر ، فضلا

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٤ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ؛ ولمعرفة المزيد من هذه الأمثلة ، أنظر ما أورده الدكتور إبراهيم طرخان في كتابه « النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطي » ، ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٢٩٨ ؛ أنظر أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٢٩٩ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٠ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر ، ص ٨٤ .

(٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٢٩٨ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠ .

عن الاستدعاءات وكذلك الإشراف على الموظفين عند مباشرتهم ، وذلك بالكتابة على تواقيعهم وتحريراتهم[1] .

أما الموظف الثالث في الديوان فهو المستوفي ، ووظيفته مطالبة الموظفين بما يجب عليهم رفعه من الحساب في أوقاته كما يقوم بتبليغ متولي الديوان بما يجب تحصيله من الأموال في مواعيده المحددة ، وإقامة السجلات والتأكد من كمال ما يرد على الديوان ، وإخراج ما يجب تخريجه منه ، ومتى ظهر تقصير في شيء من ذلك كانت عليه مسئوليته ، الا في حالة عدم وجود توقيعه عليه . ويأتي بعد ذلك المعين ، وهو الموظف الرابع في الديوان ، ويذكر ابن مماتي انه عبارة عن كاتب بين يدى المستوفي . مهمته مساعدته في الأعمال المنوطة به ، وليس عليه مسئولية شيء من ذلك الا فيما يحرره من جرائد الديوان من غير أن يشهد عليه أحد ، ليمضي عليه الوقت فتصبح الجريدة شاهدة عليه ، أما الناسخ فهو كاتب وظيفته نسخ التوقيعات والمكاتبات الصادرة من الديوان والواردة اليه ، ومتى ظهر منه تحريف في شيء من ذلك تحمل مسئوليته ، والموظف السادس في الديوان هو المشارف . ويذكر ابن مماتي « أن أمره جار على أمر الناظر » ويبدو من هذا أن وظيفته هي تكرار عمل الناظر لتأكيده ومن ثم مراقبة تنفيذه وتدقيقه ، ويزيد على ذلك أن جميع المتحصلات المالية بعد الختم عليها تكون في عهدته وتحت حيطته . يلي ذلك الموظف السابع وهو العامل ومهمته القيام بعمل الحسابات اللازمة ورفعها ، والكتابة بالموافقة على ما يرفعه غيره من المعاملات ، فضلا عن قيامه ببيان البواقي لمن عليه شيء من أموال الدولة ، بسبب الإنصراف من الخدمة . ويجرى مجرى العامل موظف آخر عرف بالكاتب ، مهمته الإلمام بما يتأخر في البلاد من مال وغلال مما يستعان به عند تقدير إيرادات الدولة[2] .

أما الجهبذ فهو الموظف التاسع في الديوان ، مهمته كتابة المتحصل من الأموال وقبضه ، وكتابة الوصولات ، فضلا عن عمل المخازيم والختمات ، وما يتبعها ،

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٤ .

(٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ - ٣٠٣ ؛ أنظر أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٣٠١ - ٣٠٣ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٥ .

بالإضافة إلى أنه مطالب بما يقبض من الأموال ، وبإخراج ما يترتب عليها من خراج . أما الموظف العاشر ، فهو الشاهد ، وعمله تحقيق وضبط ما يشاهده من أوراق رسمية وغيرها ، ثم إثبات الحساب الموافق لتعليقه . ويلي ذلك عدد من موظفي ديوان الجيش منهم النائب وقد ذكر ابن مماتي في تعريفه أنه « كاتب يستخدم نائبا عن الديوان مع المستخدمين » وعليه يمكن القول أنه من المحتمل أن تكون مهمته القيام بمراقبة الموظفين أهل الديوان إذ يذكر المصدر نفسه بعد ذلك أن هذا الموظف لا يلزمه شيء من رفع الحسابات ولا الكتابة عليها . ثم الأمين الذى يشبه النائب في عمله ، فضلا عن مشابهته الشاهد في بعض الأعمال . ثم الخازن وعمله قبض الغلات وخزنها وإخراجها . وأخيراً الحاشر ويبدو أن مهمته كانت حفظ أرث من توفي وليس له ورثة ، وعليه تقع المسئولية فيما قد يقع في ذلك من نقص بخيانة أو بغيرها[1] .

الجيش المملوكي وتنظيماته الحربية :

واكب قيام الدولة المملوكية ، ابتلاء العالم الإسلامي بخطرين في وقت واحد . وكان على هذه الدولة الفتية لكي يكتب لها البقاء . أن تقوم بانقاذ ما تبقي من العالم الإسلامي من خطر الغزو المغولي المدمر . ومن ثم تخليصه من بقايا الوجود الصليبي ، الذى لا زال حتى ذلك الوقت جاثما على المناطق الساحلية من بلاد الشام . ولما كان ذلك الأمر يتطلب استعدادا كبيرا ، فإن سلاطين المماليك ، وبالذات الأوائل منهم عمدوا إلى تكوين جيش كبير ذى عناصر متعددة استطاعوا به تحقيق ذلك الهدف . وعناصر هذا الجيش العسكر السلطاني ، أو المماليك السلطانية وكانت مهمتهم مقصورة على ملازمة السلطان والجهاد معه ، وجند الأمراء ، أو مماليك الأمراء الذين يستدعون من إقطاعاتهم وقت الحرب ويسرحون بعدها فضلا عن المتطوعة والقوات المساعدة .

---

(١) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ ؛ أنظر أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٥ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٣٣ ، ٣٤ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٥ ، ٨٦ ؛ حامد زيان ، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك ، ص ٣٣ .

فالجيش السلطاني : هو الجيش الذى كان ملازما للسلطان ويعتمد عليه في صد غارات الأعداء التى تحدث أثناء ابتعاد أجناد الأمراء عنه ، حتى يتمكن من استدعائهم للمجيء اليه . يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزى من أن السلطان الظاهر بيبرس كانت عدة عسكره اثنى عشر ألفا « ثلثها بمصر ، وثلثها بدمشق ، وثلثها بحلب ، وكان هؤلاء خاصته » فإذا غزا خرج معه أربعة آلاف يقال لهم جيش الزحف ، فإن احتاج استدعى أربعة أخرى ، فإن أشتد به الأمر استدعى الأربعة آلاف الثالثة[١] .

وإلى جانب المماليك السلطانية ، كانت هناك فرقة أخرى عرفت باسم « المماليك الخاصكية » يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغارا ، فيجعل منهم حرسه الخاص ، ويكلفون بالقيام بالمهمات الشريفة[٢] . ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان يتولى تربيتهم وعتقهم ، كما أنهم يلازمون السلطان في خلواته[٣] . ولا شك أن هذه الطائفة كانت تقوم بدورها في الجهاد معه وقت الحرب شأنها شأن المماليك السلطانية[٤] .

ويجرى مجرى ذلك أجناد الحلقة ، ويتكون أفرادها من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم وهي أقرب الطوائف إلى نظام الجندية في العصور الحديثة وهم على هذا الاعتبار جيش الدولة الذى لا يتغير بتغير السلطان[٥] . وكان تنظيمهم في غاية الدقة والاتقان يشرف على كل ألف منهم أحد أمراء المئين ، ولكل مائة منهم

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٨ .

(٢) العيني ، السيف المهند ، ص ٢١٠ حاشية .

(٣) على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٤٦ ؛ إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ١٨٠ حاشية .

(٤) راجع ماسبق في الفصل الرابع .

(٥) على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٤٦ ؛ مصر في العصور الوسطي ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

« نقيب » ولكل أربعين « مقدم » وكانت مرتباتهم تصرف من ديوان الجيش[1] . ووصفهم القلقشندى بأنهم « عدد جمّ وخلق كثير »[2] ومن الأدلة على مرافقتهم للسلطان ما ذكره المقريزى في حوادث سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م من أن السلطان الظاهر بيبرس عندما توجه للحج في هذه السنة أصطحب معه « ثلاثمائة مملوك وأجناد الحلقة »[3] .

أما جند الأمراء ، فقد اقتضت ضرورة تطبيق نظام الإقطاع الحربي في الدولة المملوكية ، بقاء معظم الجيش مفرقا بين أجزاء الدولة . وكان السلطان المملوكي ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ يقطع الإقطاعات لأمرائه ، مقابل التزامهم بواجبات عدة منها أن على كل أمير إعداد فرقة حربية تتكون من عدد محدد من الجند ، وتأمين لوازمها ، فإذا ما نشبت الحرب خرج هذا الأمير بجنده إلى ميدان القتال ، وإذا انتهت الحرب أو توقفت لحلول فصل الشتاء ، عاد بهم إلى إقطاعه على أن يعود عند تجددها . والأدلة على ذلك كثيرة ، منها : ما حدث سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، عندما عزم السلطان المظفر قطز على محاربة المغول ، حيث نادى بالنفير العام للجهاد في سبيل الله ، وأرسل إلى عربان الشرقية والغربية فاجتمع عنده من عساكر مصر نحو أربعين ألفا[4] . ومنها أيضا ما حدث سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م عندما استغل الصليبيون حلول أيام الربيع وكون العسكر الإسلامي « متفرق في إقطاعاته » وكاتبوا المغول لقصد البلاد الإسلامية[5] . وكذلك ما حدث سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م حيث ضرف السلطان المنصور قلاوون « العساكر إلى أماكنهم » وذلك بعد أن تمكن من هزيمة المغول في معركة حمص ، وإجلائهم من بلاد الشام[6] . وما ذكره أبو الفدا من أن السلطان قلاوون لما

---

(١) العمري ، مسالك ابصار ، جـ ٥ ، ص ١٦٦ ؛ على إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشي ، جـ ٤ ، ص ١٦ ؛ والنقيب في اللغة كالأمين والكفيل أو الضمين ، وجمعها نقباء : وهو كالعريف على القوم أو المقدم عليهم يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم (أنظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة « نقب ») .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٠ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٥ .

(٥) شافع بن على حسن ، المناقب السرية ، ص ٨٧ .

(٦) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٩٧ ؛ أنظر أيضا ، أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٤ ، ص ١٥ .

فرغ من الاستيلاء على طرابلس عاد إلى الديار المصرية وأعطي صاحب حماه « الدستور » فعاد إلى بلاده[١] .

وإلى جانب ذلك ، كانت هناك فرق الغزاة المتطوعة الذين كانوا يعرفون قبل العهدين الأيوبي والمملوكي بالأحداث المتطوعة . وذلك منذ العهد النورى ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن القلانسي من أن نور الدين محمود أمر بالنداء « في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الفرنج »[٢] أما كلمة أحداث بمفردها فالظاهر انها كانت معروفة منذ ما قبل العهد النورى بدليل ما ذكره ابن القلانسي نفسه من أن نور الدين محمود لم يكن في استطاعته الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م إلا بفضل مراسلته لاحداثها ، واستمالتهم اليه[٣] .

والملاحظ أن كلمة أحداث هذه قد اختفت من المصادر التاريخية اختفاءاً تاماً طوال العهدين الأيوبي والمملوكي ، وحل محلها كلمة « المتطوعة » يدلنا على ذلك ما ذكره العماد من أن صلاح الدين عندما عزم على قصد الصليبيين في مرج عيون سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م لكسبهم في مخيمهم ، وتسامع المسلمون بذلك تباشروا وتسابقوا إلى المسير إليه ، وكان من ضمن الوافدين « متطوعة » دمشق وحوران[٤] . وما ذكره ابن تغرى

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٤ ، ص ٢٣ .

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠ ؛ أنظر أيضا ، نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٥ .

(٣) ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ص ٣١٥ ؛ أنظر أيضا ابن الأثير ، الباهر في الدولة الاتابكية ، ص ١٠٧ ؛ نظير حسان سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ١٥ ؛ ويذكر البعض : أن طائفة الأحداث هذه تكونت في بلاد الشام منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وذلك لمقاومة الحكم الفاطمي ، وهم عبارة عن جماعة من القوات المدنية كانوا يقومون أيضا بحفظ النظام ومكافحة النيران وإغاثة المنكوبين ، بالإضافة إلى إنضامهم إلى القوات النظامية لمحاربة الأعداء وقت الحاجة إليهم (أنظر ، سعيد عاشور ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطي ؛ مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق ص ٤٩ حاشية (٢) ؛ ZAKKAR, The Emirate of Aleppo. p.255-256. Encycl opaedia of Islame, Vol,p.259 .

(٤) العماد ، الفتح ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ومرج عيون : مكان بسواحل الشام (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

بردى ، من أن السلطان الأشرف خليل عندما خرج لمنازلة عكا في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م اجتمع عنده العسكر الإسلامي بأعداد لا تحصى « وكان المتطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة »[١] .

والجدير بالذكر أن أغلب هؤلاء المتطوعة الذين أسهموا في حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول حتى تم تطهير بلاد الشام منهم ، لم يكونوا مقصورين على طائفة الأحداث الشهيرة التي كان مقرها مدينة دمشق ، بل ضمت هذه الطائفة في العهدين الأيوبي والمملوكي ، أعدادا كبيرة من الفقهاء والعلماء ورجال الدين . يدلنا على ذلك ما ذكره ابن كثير من أن صلاح الدين عندما عزم على استعادة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م « قصده العلماء والصالحون تطوعا »[٢] وماذكره ابن عبد الظاهر من أن السلطان الظاهر بيبرس عندما هاجم أرسوف سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م حضر « العباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هذه الغزاة المباركة »[٣] ومن ذلك أيضاً ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م من أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عندما خرج لمنازلة عكا في هذه السنة خرجت معه « العامة والمتطوعة . . حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء »[٤] .

وهناك عنصر آخر من المحاربين أسهم مع سلاطين المماليك في جهادهم لصد العدوان المغولي عن بلاد الشام ، وتصفية الوجود الصليبي منه . هم القوات المساعدة من العربان وغيرهم . والأدلة على ذلك كثيرة منها إضافة إلى ما سبق الإشارة اليه[٥] ما ذكره أبو شامة في حوادث سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م من أن السلطان المظفر قطز عندما عزم على مواجهة المغول في عين جالوت خرجت معه العساكر المصرية ومن انضوى

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٥ ، انظر ايضا ابن كثير البداية والنهاية ج ١٣ ، ص ٣٢٠ .
(٢) ابن كثير البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ .
(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٨ .
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ .
(٥) راجع ما سبق ص ٣٠٠ .

إليهم « من العرب وغيرهم »[١] وما ذكره المقريزي من أن السلطان الظاهر بيبرس سير أحد أمرائه سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م ومعه كثير من « أمراء عربان الكرك » لمهاجمة خيبر فاستولوا على قلعتها[٢] وكذلك ما ذكره ابن عبدالظاهر من أن السلطان المنصور قلاوون عندما عزم على منازلة المغول في معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م . أعد للأمر عدته وجمع جيشاً ضخماً من « المماليك التركمان وبدو الصحراء وعرب الحجاز حتى بلغت عدتهم ثمانين ألفاً »[٣] .

ويبدو أن الخدمة الحربية كانت الزامية على هؤلاء العربان ، وان السلطان المملوكي كان يعاملهم معاملة الأمراء المقطعين ، ويطالبهم بتقديم العساكر ومستلزمات القتال وقت الحرب . يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزي في حوادث سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م من أن السلطان الظاهر بيبرس خلع على أمرائه العربان « من العابد وجرم ثعلبه وضمنهم البلاد ، والزمهم القيام بالعداد وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه[٤] .

أساليب التعبئة والقتال :

لما كانت الدولة المملوكية قد قامت في ظروف عصيبة ، ممثلة في ذلك الصراع الذي كان دائراً بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية ، والذي لم تكد نهايته تقترب ، حتى فوجيء الشرق الإسلامي ، بحركة أخرى أشد هولاً وأقسى وقعاً هي حملات المغول عليه . فقد كان على سلاطين المماليك الذين وجدوا أنفسهم أمام خطرين في وقت واحد . أن يهتموا بالحرب وشئونها والسلاح المستخدم فيها .

---

(١) أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٧ .
(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ ، ٥٢١ .
(٣) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨١ ، والعداد : زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية (انظر المقريزي ، المصدر نفسه ، حاشية رقم ٦) .

والواقع أن سلاطين المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين استخدموا من الأسلحة ما هو كفيل بتحقيق غرضهم الذي كانوا ينشدونه . ويأتي في مقدمتها المنجنيقات ، والتي تعتبر أعظم آلات الحصار في العصور الوسطى وقد وصف القلقشندي المنجنيق « بأنه آلة من خشب له دفتان قائمتان ، بينهم سهم طويل ، رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى اعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه »[١] .

وقد ذكر الطرسوسي في كتابه « تبصرة أرباب الألباب »[٢] . أن المنجنيقات كانت على ثلاثة أنواع ، هي العربي وهو الذي يمتاز بدقة صناعته وجودة إستخدامه ، والتركي الذي يعد أقل أنواع المنجنيقات كلفة في صناعته وأرخصها مؤونة ، أما النوع الثالث فهو الفرنجي وقد وصفها وصفاً دقيقاً وبين كيفية استخدامها في القتال ، حيث أوضح أن لذلك أموراً هامة يجب أن تراعى وان عدم مراعاتها يسبب أخطاراً جسيمة لمن يتولى الرمي بها . كما نبه على مراعاة الدقة في وضع الحجر على الكفة ، وأن ذلك له أثره في تحديد المسافة التي يصل إليها الحجر . حيث ذكر أنه متى كان السهم في لين ليس بالمفرط ، كان لذلك أثره في وصوله إلى مسافة أبعد وكان مفعوله أشد نكاية وأقسى وقعا للهدف المقصود ومتى كان السهم يابساً كان دون ذلك . كما ذكر أيضاً أنه يتعين على

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، انظر ايضا ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٦ حاشية ، الأسنوي ، طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ٦١٧ ، صبحي الصالح ، النظم الإسلامية ، ص ٥٠٨ ـ ٥١٠ .

(٢) قام الطرطوسي بتأليف كتابه المسمى « تبصرة الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام والعدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء . وأهداه الى صلا الدين الأيوبي . وقد قام كلود كاهن بنشره في مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ م . ولما كانت الدولة المملوكية قد قامت على انقاض الدولة الأيوبية ، فالذي لا شك فيه أن هذه الأنواع قد استخدمت في العهد المملوكي . ولعل مما يقوي ذلك ما ذكره ابن الفرات في حوادث سنة ٦٩٠ هـ من أن السلطان الأشرف خليل نصب على عكا عند استيلائه عليها اثنين وتسعين منجنيقا « ما بين افرنجي وقرابغا وشيطاني » انظر تاريخ ابن الفرات ، م ٨ ، ص ١١٢ . اذ يبدو لنا من هذا أن كلمة قرابغا هي لفظ تركي ربما قصد به النوع التركي والشيطاني فهو لفظ عربي قصد به النوع العربي .

الرامي بالمنجنيق أن يباعد بين رجليه ويضبط الكفة بيده ويقعد مع كل جرة بنفسه مع الكفة[1] .

أما بالنسبة لحجم الحجارة التي كانت تقذف بواسطة المنجنيقات فقد وصفها العماد الأصفهاني بأنها « مثل قلوب الرجال ووجوههم »[2] كما يبدو لنا أن هذه الحجارة كانت تختار من النوع « الأملس » يدلنا على ذلك ما ذكره ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار من أن هذه الحجارة كانت « كالرؤوس المحلقه »[3] .

ولم يقتصر عمل المنجنيقات على القذف بالحجارة بل استخدمت في الرمي بسلاح آخر كان للمسلمين دور كبير في استخدامه وتطوير صناعته في العصور الوسطى ، هو سلاح النفط . يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزي في حوادث سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م عندما حضر ابن اخت ملك النوبة متظلما منه حيث جرد السلطان الظاهر بيبرس معه أحد امرائه على رأس فرقة حربية ضمت في مجموعها « الزراقون والرماة ورجال الحراريق »[4] وما ذكره أيضاً في موضع آخر أنه حدث في سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م أن اجتمع الأمراء بدمقله لعرض العساكر وتدريبها على فنون القتال في البر والبحر « وزينت الحراريق في البحر ولعب الزراقون بالنفط »[5] .

---

(١) الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ٢٥٥ .

(٣) العمري ، مسالك الأبصار ، ج ٧ ، ورقة ٢٩٨ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢١ ، انظر ايضـــا ، ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٥٢ . يبدو لنا أنه كانت هناك فرق متخصصة في جيوش المسلمين في العصور الوسطى مهمتها عمل سلاح النفط والرمي به ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن شداد من أن الخليفة العباسي بعث في سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م إلى صلاح الدين حملا من النفط ومعه جماعة من الذين لهم خبرة بهذا السلاح عرفوا « بالنفاطين » (انظر النوادر السلطانية ص ١١٨). ولايستبعد أن تكون هذه الفرقة تمارس عملها هذا حتى في العهد المملوكي . أما الزراقين فقد فسرهم البعض بأنهم جماعة مهمتهم رمي النفط من الزراقات التي هي عبارة عن أنابيب خاصة يرسل فيها النفط ، فتنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان ، فتحرق السفن في الماء (انظر ابن الفرات ، م ٤ ، ص ٢١١ حاشية) . كما يبدو لنا أيضا أن كلمة نفاطين كانت تطلق على الذين يعملون بالنفط في الحروب البرية ، أما الزراقين فربما قصد بها أولئك الذين يشتغلون بهذا السلاح في البحر ، ولعل اقتران كلمة النفاطين بالزراقين في بعض المصادر (انظر ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ١١٨ ، ١٢٠ ، أبو شامه كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢) ، عند تطرقها للحديث عن سلاح النفط خير دليل على ذلك ، هذا بالاضافة إلى ما ذكره ابن النديم في الفهرست ص ٤٣٧ ، من أنه رأى بنفسه كتاب يوضح العمل بالنار والنفط والزراقات في الحروب ، ودمقله : مدينة كبيرة في بلاد النوبة (انظر ياقوت ، معجم البلدان) .

ولم يقتصر إستخدام المسلمين لهذا السلاح على الرمي به بواسطة المنجنيقات ، فقد أشار الطرسوسي إلى طرق عدة لإستخدامه في القتال فذكر أن منه ما كان يُرمى به من على ظهور الخيل أو بواسطة النشاب[1] ومنه ما يوضع في قشر البيض بعد إخراج ما فيه ثم يرمى به على الهدف ومنه ما يقذف بواسطة قوس عمل خصيصا لذلك وللنفط المعمول في قوارير[2] . فضلا عن تمكن المسلمين من صناعة نوع خاص منه يستطيع المشي على الماء دون أن ينطفيء مهمته إحراق مراكب العدو[3] .

أما كيفية صناعته فقد ذكر الطرسوسي . أن المسلمين برعوا في صنع أنواع عدة من النفوط ، وأن هناك عناصر عدة تدخل في تركيبه . منها الزيوت ، والنورة المطفاة وغير المطفاة ، والنفط والصمغ ، والكبريت وخل الخمر الحاذق ، والقطران ، وشحوم الحيوانات ، ونخالة الحنطة ، وبعض النباتات وغيزها التى كانت تخضع لعمليات كيميائية دلت على براعة المسلمين آنذاك في هذا العلم لإنتاج هذا السلاح[4] . ومن ثم إستعماله ضد أعدائهم بطرق مذهلة ، إلى حد أنهم توصلوا إلى طريقة كانوا يلقونه بها مشتعلا حتى وقت سقوط المطر أو إشتداد الريح[5] .

---

(١) النشاب : النبل وهو سهم مصنوع من الغاب أنظر ، نبيل عبدالعزيز ، خزانة السلاح في الإسلام ، ص ٥٥ .

(٢) يبدو أن حملة هذه الأقواس هم الذين كان يطلق عليهم آنذاك الجرخية جمع جرخي ، والجرخ آلة حربية كانت تستعمل لرمي السهام والنفوط والحجارة (أنظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٩٥ حاشية ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ١٠٣ ، حاشية ؛ أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ حاشية) .

(٣) الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٤) أنظر الطرسوسي ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ - ٣٢ .

(٥) عبدالمنعم ماجد ، نظم سلاطين دولة المماليك ، ص ١٧١ ، نقلا عن حسام الدين لاجين الرماح ، عمدة المجاهدين في ترتيب الميادين ، ورقة ١٤ ب ، ١٥ أ ؛ أحمد عدوان ، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ص ٦٩ .

ويبدو أن إستعمال المماليك لسلاح النفط في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، وتطوير صناعته وطرق إستخدامه ، قد دفعهم إلى اكتشاف « البارود » الذى ترتب على اختراعه ظهور المدافع أو المكاحل . والتى وُصفت على أنها آلة نحاس أو رصاص أو حديد يوضع فيها الحجر أو البندق وهو من الحديد فينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود[1] .

ومن الأسلحة التى استخدمها المماليك في جهادهم ، الدبابات التى وُصِفت بأنها « آلة سائرة تتخذ من الخشب الثمين ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب ، ودبّر فيها هذا التدبير وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر »[2] أما الطرسوسي ، فقد اكتفى بمجرد الاشارة اليها عند حديثه عن المنجنيقات بقوله « ومما يضاف إلى ذلك (أى المنجنيقات) وان كانت هي ليست منها . وإنما هي آلة تقرب من هيولاها[3] . يستعان بها في نقب الأسوار وما شابهها وهي الدبابات »[4] ويبدو ان استخدامها يكون بادخال

---

(١) ظهر البارود لأول مرة على أيدى المماليك ، وذلك قبل أن يعرفه الغرب ، بدليل أن كلمة بارود انتقلت إلى اللغات الأوربية ، ففي الانجليزية «Powder» وفي الفرنسية «Poudre» ، ومما يؤكد أيضا أن البارود أول ما استعمل في مصر أن مادته الأساسية وهي « النطرون » توجد بها (عن النطرون ، أنظر القلقشندى ، صبح الأعشي ، جـ ٣ ، ص ٤٦٠ ، ٤٦١) ولذلك فلا صحة لما ذكر من أن الصينيين أو الأوربيين هم الذين اخترعوا سلاح البارود ، بدليل أن المغول الذين سيطروا على الصين لم نسمع عن إستخدامهم هذا السلاح في حروبهم ضد المسلمين ، وكذلك الحال بالنسبة للأوربيين (أنظر عبدالمنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ١٧٢) .

(٢) الحسن بن عبدالله ، آثار الأول ، ص ١٩٢ ؛ أنظر أيضا ، ابن الفرات ، م ٤ ، جـ ٢ ، ص ٧ حاشية ؛ أبو شامه ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٩ حاشية ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، جـ ٣ ، ص ٣١٥ حاشية ، الرويشدى ، إمارة الموصل ، ص ١١٥ حاشية ؛ صبحي الصالح ، النظم الإسلامية ، ص ٥١٠ ، ٥١١ .

(٣) يبدو أن الطرطوسي ، قصد بهذا التعبير أن الدبابة كانت تشبه إلى حد كبير المنجنيقات في تصميمها وشكلها .

(٤) الطرسوسي ، المصدر نفسه ، ص ١٨ .

الرجال داخلها ، ومن ثم دفعها حتى تقترب من الأسوار والحصون ليقوم من بداخلها بمهمة النقب في حين تقيهم هى شر ما يرمون به من فوقهم[1] .

أما الستائر فهي من أهم معدات الحرب التى استخدمها المسلمون في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، وكانوا يتخذونها من الجلود واللبود المبللة بالخل والشب والنطرون ، لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط كما كانت تستعمل إلى جانب ذلك لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب والسفن من قذائف النفط[2] . ومنها نوع يستخدم أيضا في وقاية الجنود الذين يستعان بهم في جر المنجنيقات وما شابهها[3] .

ومن وسائل الدفاع التى استخدمها المسلمون للغرض نفسه ، ما عرف باسم المثلثات أو الحسك الشائك ، وهى التى وصفها الطرطوسي بقوله « هذه المثلثات من ألطف الآلات وأبدع المصنوعات ، وأسرعها تأثيرا في النكاية وهى مكيدة تُرمي في الأرض التى تعلم أن العدو يسلكها اليه ويسرع فيها للهجوم عليهم ، فإذا ساحت الخيل عليها ، ووطئت شوكتها القائمة فيها عقرتها أشد عقر ، وأثرت فيها أعظم تأثير فتسقط الخيول بمن عليها ، وتهلك بما أصابها من تلك النكاية » وسلاح الحسك هذا على نوعين منه المثلث الذى هو عبارة عن شوكة قائمة وشوكتين على الأرض ومنه المسدس ويتكون من ثلاث شوكات قائمة ، وثلاث ثابتة على الأرض[4] .

---

(١) عبدالرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، ص ٢٤ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ حاشية ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٠٢ ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٤ حاشية .

(٣) أنظر الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٤) الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٩ ، ٢٠ ؛ كان المسلمون في أول أمرهم يصنعون هذا السلاح من حسك السعدان وهو شوك صلب ذو ثلاث شعب تنثر منه شعبتان على الأرض وتبقى الثالثة بارزة لتعطب بها حوافر الخيل وأقدام العدو المغير . ويبدو أن المسلمين طوروا صناعة هذا السلاح فيما بعد من أصابع حديدية مدببة ذوات شعب ثلاث وبثوه حول الخنادق والأسوار وفي الطرق التى يسلكها العدو ليمنع تقدم الخيل والرجال (أنظر صبحي الصالح ، النظم الإسلامية ، ص ٥٠٢) .

ومن الأسلحة التى استخدمها المماليك في جهادهم ، القسى بأنواعها والتى تحدث عنها ابن القيم إمام الجوزية في كتابه (الفروسية) فذكر انها في الأصل نوعان : قوس يد ، وقوس رجل ، وقوس اليد ثلاثة أصناف ، عربية وفارسية وتركية . والعربية نوعان ، حجازية وكانت تصنع من عود النبع أو الشوحط ، وهي قضيب أو قضيبان ، ويسمونها « شريحية » ومنها ما هو من فرع واحد وهي أجودها . وواسطية وهي مصنوعة من أربعة أشياء ، الخشب ، والعقب ، والقرن ، والغراء . ولها سيتان ومقبض ، وسميت واسطية لتوسطها من القسى الحجازية والفارسية ، وليست نسبة إلى مدينة واسط ، لأنها كانت موجودة قبل بناء واسط ، وتسميها العرب « منفصلة » لانفصال أجزائها قبل التركيب ، وهي أجود القسي عندهم ، وتحت هذين النوعين أصناف كثيرة تجاوز العشرة .

أما الفارسية والتركية فقد اكتفى ابن القيم إلى مجرد الإشارة اليها بقوله « والقوس الفارسية فهي قسي العساكر الإسلامية في هذا الزمان في الشام ومصر وما يضاف اليهما »[1] وأما القسى التركية ، فهي مثل قسى الفرس ، غير انها أغلظ منها وكثير منها بل أكثرها له قفل ومفتاح وتسمى الأنثي والذكر ، ويجعلون لها ركابا في طرف مجراها ، فإذا أراد أحدهم أن يوترها أدخل رجله في ركابها فأوترها » .

وأما قوس الرجل فذكر انها نوعان أحدهما هذه التركية ، والثاني قوس الجرخ ، وهي قوس لها جوزة ، وأن أهل المغرب يعتنون بها كثيرا ويفضلونها . ويستطرد ابن القيم في المفاضلة بين هذين النوعين ، فيذكر ان قوس اليد أنفع في وقت مصافة الجيوش ، وملاقاة العدو في الصحراء . وأما قوس الرجل فأنفع وقت حصار القلاع والحصون ، ثم وصف كيفية استخدامها وصفا مفصلا[2] .

---

(١) يبدو أن ابن القيم قصد بهذا دولة المماليك نفسها ، بدليل انه عاش في القرن الثامن الهجرى ، حيث انه توفي سنة ٧٥١ هـ .

(٢) انظر ابن القيم إمام الجوزية ، الفروسية ، ص ١٣٩ وما بعدها .

ومن القسى التى استخدمها المسلمون في العصور الوسطي نوع آخر عرف باسم « الزنبوركات » يدلنا على ذلك ما ذكره ابن الأثير عند حديثه عن فتح حصن صهيون سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . إذ يقول « ودام رشق السهام من قسى اليد والجرخ والزنبورك والزيار »[١] إذ ورد ذكر الزنبورك والجرخ هنا على أنهما نوع من أنواع القسى ، وجاء في العماد « وتوتير الجروخ والزنبوركات »[٢] فالتوتير لا يكون الا للقوس كما جاء في الروضتين أيضا « ومراكب وحراريق وفيها رماة الجروخ والزنبوركات »[٣] لهذا كان المقصود بها القسي لا السهام بدليل قول ابن شداد « واطلقوا (أي المسلمين) عليهم سهام الجروخ وأحجار المنجنيق »[٤] فالحجر يطلق من المنجنيق ، والسهم يطلق من القوس .

ومما يمكن الحاقه بالقسى المقلاع أو المحدفة ويعد أبسط أنواع الآلات القاذفة ، يستعان فيها بقوة الطرد المركزية ، وذلك بجعل القذف في طرفها بين حبلين يجمعان في يد القاذف من الطرف الثاني فيديرها ثم يخلى أحد الطرفين فينبعث المقذوف بعيدا[٥] . ويبدو أن المسلمين استخدموا المقلاع في جهادهم ضد المغول والصليبيين لقذف أعدائهم بقوارير النفط لإحراق منشآتهم ، يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ الصليبي المعاصر جوانفيل في مذكراته حيث قال « حدث ذات ليلة من ليالي حراستنا الأبراج المغلقة أن جلب المسلمون آلة تعرف بالمقلاع لم تكن لديهم من قبل ذلك الحين ، ووضعوا النار الإغريقية في حمالة لالة . . . فلما أخذوا في إطلاق النار انطرحنا أرضا على معاصمنا . . . وكانت النار الاغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون ببرميل من القار ذات ذنب يقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كدوى الرعد ، وكأنها طائر في الجو ، تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء كأنه في وضح النهار[٦] . . . .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص ١١ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٣٤٥ .
(٣) أبو شامة ، الروضتين ، جـ٢ ، ص ١١٩ .
(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٨ .
(٥) عبدالرحمن زكي ، الجيش المصرى في العصر الإسلامي ، ص ٩١ .
(٦) أنظر ، جوانفيل ، القديس لويس ، ص١٠٩ ، ١١٠ ترجمة حسن حبشي .

ويبدو أن هذا السلاح الذى استخدمه المسلمون في القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى شبيه بالقنابل « الفسفورية » المضيئة التي تضيء ساحات القتال ، والتى تستخدمها الجيوش المتحاربة في عصرنا الحاضر . وهذا معناه أن المسلمين قد توصلوا إلى ابتكار هذا النوع من السلاح منذ أكثر من ثمانية قرون مضت .

ومن الآلات الحربية التى استعان بها المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، أبراج الحصار أو القلاع المتحركة التى كانت تصنع من الخشب المتين وتغطى بالحديد والجلد ، وكان الغرض منها الإقتراب من حصون العدو وأسواره لاقتحامها ، ولقذف السهام والأحجار أو غيرها من القذائف إلى الداخل وغالبا كان البرج يجر على عجلات خشبية أو حديدية أو يدفع على اسطوانات ، ويتألف البرج من عدة أدوار يعلو بعضها بعضا ويوصل اليها بدرج من الداخل ، وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على جدار الحصن أو السور ليجرى عليها المقاتلون عند الاقتحام[1] . ولعل هذا شبيه بعمليات الإنزال العسكرى في عصرنا الحاضر .

ومنها أيضا الكبش : وهو آلة من الخشب والحديد ، تجر بنوع من الحبال ، وتستعمل لدك الحائط حتى ينهدم ، وأصل الكبش عبارة عن دبابة له رأس في مقدمة مثل رأس الكبش ويتصل هذا الرأس في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها . ويتعاون الجنود الذين يتحصنون في داخل الدبابة وجنود آخرون استتروا بدروعها ووقفوا خلفها ، ليتعاون هؤلاء جميعا على ضرب السور بها حتى يخرقوه ، فيتسللون إلى داخل البرج أو القلعة[2] .

وإلى جانب ذلك فقد استخدم المماليك في جهادهم أنواعا أخرى من الأسلحة الخفيفة التى يكون القتال بها وجها لوجه ، مثل السيوف ، التى ذكر الطرسوسي أن معادنها وأنواعها تختلف باختلاف البلدان التى توجد فيها ، وان منها ما كان يصنع ببلاد

---

(١) عبدالرحمن زكي ، الجيش المصرى ، ص ٩٤ ؛ أنظر أيضا ، على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٥٩ .

(٢) عبدالرحمن زكى ، الجيش المصرى ، ص ٩٥ ؛ أنظر أيضا على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٥٨ .

المغرب والأندلس وبلاد الروم والهند والصين وديار مصر ، كما ذكر أن أردأ أنواع السيوف ما كان بالمغرب والأندلس ، أما أجودها فهو ما كان يصنع بمصر[1] . والسيف سلاح ذو حد يضرب به باليد وهو أنبل الأسلحة البيضاء والتى قدر حقها المسلمون . ومن قبلهم العرب في جاهليتهم[2] . وشاع استعمال السيف المستقيم إلى حوالي القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، ثم بدأ استعمال السيف المقوس ذى النصل الواحد ، وكانت تنقش على نصل السيوف آيات قرآنية أو عبارات تشيد بصولتها ، كما حفرت على بعضها الزخارف الطريفة[3] .

ومن الأسلحة الخفيفة أيضا الرماح التى تعد من أهم الأسلحة التى تستخدم من فوق ظهور الجياد[4] . وهي على أنواع منها الأصم القصير وهو أحسنها طعنا ، ومنها نوع آخر يشق نصفين ويجوف جميعه تجويفا تمشي فيه النشاب وهذا النوع يستخدم كالقوس لرمي السهام[5] . ولرأس الرمح أشكال شتى ، منها المشعب والعريض والرفيع والمموج وغير ذلك وكان يطلق على القصيرة منها « مربعا » وعلى الطويلة « الطوال » ويسمى الرمح أيضا « القناة » ويقال لحامله « رماح » . ومما يمكن الحاقه بها الحربة وهي عبارة عن رمح قصير سهل حمله وإستخدامه[6] .

ومن الأسلحة الهجومية التى استخدمها المماليك الدبوس وهو عبارة عن آلة من حديد في طرفها كتلة صغيرة يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم لاستخدامها في تهشيم الخوذ المعدنية[7] . ومنها أيضا « الطبر » وهو آلة تشبه الفأس وله رأس نصف مستدير ويركب في قضيب من حديد أو خشب متين وكانت تحفر عليه النقوش الإسلامية أو العبارات الدينية وكان حملتها يسمون « الطبردارية » وتستخدم غالبا لحماية السلطان

(١) أنظر الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ٤ .
(٢) عبدالرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، ص ٣٣ .
(٣) عبدالرحمن زكي ، الجيش المصرى ، ص ٩١ .
(٤) عبدالرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، ص ٢٨ .
(٥) أنظر تفصيل ذلك في الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٠ - ١١ .
(٦) عبدالرحمن زكي ، الجيش المصرى ، ص ٨٨ .
(٧) عبدالرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، ص ٢٦ .

حيث يسير حملتها حوله لضرب من يجرأ على التقدم نحوه دون إذن وعددهم عشرة وأميرهم يسمى « أمير طبر » وبمتحف فينا لتاريخ الفنون طبر للسلطان المملوكي قايتباى[1] .

أما الأسلحة الدفاعية التى استخدمها المماليك في جهادهم ، فمنها الدروع وهي عبارة عن أثواب منسوجة من زرد الحديد تلبس في الحرب ، وشكلها ضيق تلبس على الجسم ، لها أكمام قصيرة تصل إلى منتصف الذراع ، وجرت العادة بأن يلبس المحارب ثوبا من النسيج المبطن يكون أشبه بوسادة تحت حلقات المعدن أو صفائحه الرقيقة . ويتكون الدرع الكامل من الجوشن وهو الجزء الذى يقي الصدر ، والبيضة أو الخوذة أو المغفر وهي الأجزاء التي تقي الرأس ثم أجزاء أخرى تقي الساقين والساعدين والكفين[2] . وقد وصلت صناعة الدروع إلى أوجها عند المسلمين أثناء الحروب الصليبية ومن ثم نقلت صناعتها إلى أوربا بواسطة الصليبيين . ولا تزال بعض الخوذ المصرية التى تنسب إلى سلاطين وأمراء المماليك محفوظة بمتاحفها ، منها على سبيل المثال لا الحصر خوذة نقش عليها اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمتحف « بورت دى هال » ببروكسل ، وأخرى للسلطان برسباى (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) نقش عليها اسمه بمتحف اللوفر بباريس[3] .

ويشبه الدروع التراس وهي من أهم معدات الحرب الدفاعية في العصر المملوكي وكانت تصنع من الحديد ومن الخشب الجيد ، ومن الجلود المكسوة بالدهون والأصباغ يتقي بها المحارب الضرب والرمي ، وقد أشار الطرسوسي عند حديثه عنها إلى أنها على أنواع عدة منها المدور وهي التراس ، ومنها الطوارق وهى التى وصفها بأنها « آلة مستطالة إلى أن تستر الفارس والراجل ، وتبدأ مدوره ثم تجتمع أولا إلى أن ينتهي آخرها إلى نقطة محدودة كرؤوس المعاول » أما النوع الثالث من هذه التراس فهي الجنديات والتى وصفها الطرطوسي أيضا بقوله « وهي كالطوارق الا انها غير محدودة الآواخر ، بل

---

(١) أنظر عبدالرحمن زكي ، الجيش المصرى ، ص ٨٩ ، ٩٠ .
(٢) عبدالرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، ص ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) أنظر عبدالرحمن زكي ، الجيش المصرى ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

مقطوعة لتقف على رأس الأرض وهي التي تزحف بها الرجالة للقتال وتكون للصف كالحصن المانع من النبال »[1] وقد تفنن المسلمون في صنع هذه التراس ونقشوا عليها الآيات القرآنية والحكم والعبارات الطريفة ، وتميزت تراس كل بلد بشكل خاص وعرفت باسمه ، فكان منها الترس الدمشقي والعراقي والغرناطي وغيرها[2] .

وإلى جانب ما ذكر من الأسلحة التي استخدمها المماليك في جهادهم ضد المغول والصليبيين ، استخدموا أسلحة أخرى خاصة بنقب الأسوار وطم الخنادق ، وهي التي عرفت بعدد النقوب ، منها القطاعة وهي عبارة عن مطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء[3] هذا فضلا عما هو مشهور من هذه العدد كالمساحي وما شابهها[4] .

وكانت هذه الأسلحة على اختلاف أنواعها تحفظ في دار أطلق عليها « الزردخاناه » أو السلاح « خاناه » ومعناها بيت السلاح ، وقد أفرد لهذه الدار في قلعة الجبل عدة قاعات خصص كل منها لنوع معين من هذه الأسلحة ، ويرأسها أمير أطلق عليه اسم « أمير سلاح » ويعاونه عدد من الموظفين عرفوا باسم « السلاح دارية » وكان يشتغل في هذه الدار جماعة من الصناع المهرة يختص كل منهم بنوع من أنواع السلاح ، يعهد اليهم بأمر صنعه ومهمة إصلاحه إذا أصابه تلف ، وكان عمل هؤلاء الصناع مستمرا سواء كانت البلاد في حالة حرب أو في حالة سلم . وكان لكل أمير من الأمراء زردخاناه خاصة به وبجنوده ولكنها لم تكن مثل زردخاناة النسلطان بالقلعة ، بل صورة مصغرة منها[5] .

---

(١) انظر الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٢ .

(٢) عبدالرحمن زكي ، الجيش المصرى ، ص ٩٣ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٢٦ ؛ عبدالرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، ص ٤٥ .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٤٤٧ ؛ ابن الفرات ، م ٤ ، جـ ٢ ، ص ٨ .

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشي ، جـ ٤ ، ص ١١ ، ١٢ ؛ جـ ٥ ، ص ٤٦٢ ؛ أنظر أيضا ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٢٢ ؛ المقريزى السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٧ حاشية ؛ على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ؛ عبدالمنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ص ١٧٠ ؛ أحمد عدوان ، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ص ٩١ .

ومن هذا يبدو لنا أن السلطان المملوكي كان يقوم بتوزيع المؤن والعتاد على العسكر السلطاني الذى كان ملازما له في كل الأوقات من زردخاناه قلعة الجبل ، أما بالنسبة لعساكر الأمراء ، فكانوا يحصلون على مؤنهم وعتادهم من الزردخاناه التى كانت توجد في حاضرة إقطاعاتهم .

أما عن أساليب القتال في الجيش المملوكي ، فإن تناولها يدفعنا في البداية إلى الحديث عن التعبئة العامة ، وهى في الحقيقة لم تكن تختلف عما سبقها من العهود الإسلامية ، إذ كان الجيش يتألف من عسكر المقدمة ، ثم عسكر القلب حيث يكون السلطان بجنوده ، ثم عسكر آخر من ناحية اليمين عن موقف السلطان وعلى سمته يسمى الميمنة ، وعسكر آخر من ناحية الشمال ويدعى الميسرة ، ثم فرقة أخرى من وراء العسكر كله تدعى الساقة ، وهذه هي الأصول التى أجمع عليها في ترتيب جيوش المسلمين « وتلك الأصول في نظرهم كالفروض الواجبة ، أما الفروع كالطلائع والكمناء ، فهي كالنوافل غير الواجبة لاختلافهم فيها »[1] .

والتعبئة على هذه الصورة ، معناها أن يقف كل عسكر في موضعه ، ويعرف كل أمير منزلته استعدادا للزحف على العدو بحيث تقف الميمنة في مقابلة ميسرة العدو ، والميسرة في مقابل ميمنته ، وتنقسم كذلك كل من الميمنة والميسرة إلى جناحين أيمن وأيسر ، وبالمثل القلب فيقال الذراع الأيمن للقلب ، والذراع الأيسر للقلب ، وتتكون المؤخرة من المطبخ والخزينة ، والفائض من الخيول والأسرى والجرحي وتنطبق هذه الصورة على سبيل المثال لا الحصر على ما ذكرته الرويات المعاصرة عن التعبئة العامة في معركة حمص التى وقعت في سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م بين السلطان المملوكي المنصور قلاوون والمغول عندما هاجم المغول مدن الشام الشمالية في هذه السنة[2] .

وكان السلطان المملوكي يقوم بتعيين قائد مستقل لكل فرقة من هذه الفرق أطلق عليه المقدم فيقال مقدم المقدمة ، ومقدم الميمنة ، ومقدم الميسرة ، ومقدم الساقة أما القلب فقد جرت العادة بأن تكون امرته للسلطان المملوكي نفسه ، ويحاط بالأطباء

---

(١) أنظر الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) عن تفصيل هذه المعركة أنظر الفصل الرابع .

والفلكيين والعلماء والاخصاء ورماة المزاريق المهرة ويقف معه حاملوا العلم وأصحاب الكوسات(١) .

وإلى جانب ذلك كان السلطان يدور بنفسه يوم المعركة بين صفوف الجيش ، يتفقدهم ويحثهم على الجهاد في سبيل الله ، ويعدهم الثواب من الله ويحذرهم من التواني عنه ، يدلنا على ذلك موقف السلطان المظفر قطز من بعض أمراء المماليك الذين ترددوا بادىء الأمر في الخروج للقاء المغول في معركة عين جالوت ، حيث خاطبهم بقوله « ياأمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه »(٢) .

وجرت العادة أن يسبق المعارك في العهد المملوكي حركة استكشاف يقوم بها طائفة من الجيش المملوكي عرفت باسم اليزك أو الطلائع أو الكشافة يمرن أفرادها على تقصي أخبار العدو ومعرفة خططه الحربية وحجم استعداداته . وقد يعهد إلى هذه الطائفة بمهمة مناوشة العدو لاستدراجه إلى معسكر المسلمين ، والأدلة على ذلك كثيرة لعل أهمها تلك الطلائع التى قادها الأمير ركن الدين بيبرس سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م لاستطلاع أخبار المغول واستدراجهم إلى عين جالوت(٣) . ومنها أيضا ما حدث سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م عندما هاجم السلطان بيبرس عكا في هذه السنة حيث أقام يزكه على باب عكا لاستطلاع أخبار الصليبيين ورصد تحركاتهم في الوقت الذى فرق عسكره على البساتين والأبنية التى بظاهرها ، وظل اليزك على ذلك الحال مدة أربعة أيام « حتى تكامل الإحراق والهدم وقطع الأشجار »(٤) كما حدث أيضا في سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م

---

(١) أنظر على سبيل المثال حوادث المعركة نفسها ؛ والكوسات عرفها القلقشندى في كتابه صبح الأعشي ، جـ ٤ ، ص ٩ ؛ بأنها عبارة عن صنوجات من نحاس تشبه الترس ، يدق بأحداهما على الآخر بايقاع مخصوص ويصاحب ذلك طبول وشبابه ، أنظر أيضا ، ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى ، ص ١٥٣ حاشية .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٣) راجع ما سبق في الفصل الثاني ، اليزك لفظ فارسي معناه طليعة الجيش (أنظر ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١٧ حاشية) ؛ وفي الحوادث الجامعة لابن الفوطي ، ص ٢٩ حاشية رقم ٢ « اليزك » عند الترك كالسرية عند العرب .

(٤) المقريزى ، المصدر نفسه ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٩ .

أن خرج السلطان الظاهر بيبرس من ظاهر حماة من غير أن يعلم أحد مقصده ، وسار على طريق حلب ، ثم عبر على شيزر ، وأصبح على حمص ، وتوجه منها إلى حصن الأكراد وحصن عكا وكشف أمورهما استعدادا لمهاجمة الصليبيين بهما[1] . كما يذكر ابن عبدالظاهر انه حدث في سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ان حسام الدين نائب السلطان المنصور قلاوون بالشام لما توالت الأخبار اليه بقصد المغول الرحبة ، سيرَّ جماعة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو في تلك المنطقة[2] .

أما وضع الخطط العسكرية ، فقد وضع سلاطين المماليك لإقرارها والإشراف عليها مجلس مشورة ينعقد كلما دعت الضرورة لانعقاده ، وكان هذا المجلس يجتمع برئاسة السلطان وكبار الأمراء ، ويحضره الخليفة وقضاة المذاهب الأربعة ومشائخ العلماء وذلك قبل الخروج للجهاد ، بغرض التشاور ووضع خطط القتال وتحديد وقته وأخذ رأى القضاه والفقهاء في مشروعيته[3] .

والذى لا شك فيه أن السلطان المملوكي كان يعطي أعضاء المجلس حرية الرأى في صراحة تامة ، وكثيرا ما أخذ برأى أعضائه في كثير من الأمور ، وان كان من المقطوع به أن وجود السلطان كرئيس لهذا المجلس كان يخوله السيطرة عليه ، ولم يحدث مطلقا ان علا صوت أحد الأعضاء الآخرين وانفرد بالمناقشة دونهم . والأدلة على ذلك من الروايات المعاصرة كثيرة ، منها ما حدث سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م عندما تواترت الأخبار بعبور المغول الفرات وقصدهم البلاد الشامية حيث جمع الأتابك قطز الأمراء وشاورهم في الأمر ، فأشاروا عليه بعقد مجلس مشورة ، فجمع القضاة ومشائخ العلم والأعيان ، وكان المشار اليه في المجالس شيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام . الذى أفتى بجواز جمع الأموال من الأغنياء والتجار ، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٩٩ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٤٦ .

(٣) عن مشروعية القتال أنظر (محمد بن ناصر الجعوان ، القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته ، ص ١٨ وما بعدها) .

السروج والذهب والفضة وغيرها ، فاجمعوا على ذلك[1] . وكذلك ما حدث سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م عندما وصل الخبر إلى السلطان الظاهر بيبرس من البلاد الشامية بأن عدة من التتار ومن الأتراك والبغاددة ، قصدوا البلاد مستأمنين فأمر بجمع الأمراء وأعلمهم بذلك وقال « أخشى أن يكون في مجيئهم من كل جهة ما يستراب منه والرأى أن نخرج اليهم فإن كانوا طائعين عاملناهم بما ينبغي ، والا فنكون على أهبة »[2] وكذلك ما حدث سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م عندما بلغ السلطان حركة التتار على بلاد الشام وانهم تواعدوا مع الصليبيين بالساحل حيث استشار السلطان الأمراء في توجهه اليهم « جريدة » فاشاروا عليه بأن يخرجوا هم قبله ويبقى السلطان بقلعته[3] . وفي سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م استقبل السلطان الظاهر بيبرس بدمشق عددا من أمراء الروم فأكرمهم وكتب إلى الأمراء يستشيرهم في تسيير عسكر إلى بلاد الروم[4] . وفي سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م تواترت الأخبار إلى السلطان الظاهر بيبرس بأن أبغا ـ خان مغول فارس ـ وصل إلى الابلستين عقب هزيمة جيوشه بها ونظر إلى مكان المعركة وتأسف على من قتل من المغول وأمر بقتل البرواناه ، وانه عزم على قصد بلاد الشام ، فأمر السلطان بجمع الأمراء ، وضرب مشورة ، واتفق معهم على ملاقاته « حيث كان »[5] وفي سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م خرج السلطان المنصور قلاوون قاصدا الشام ، وسار حتى نزل الروحاء ، وأقام قبالة عكا ، فراسله الصليبيون من عكا في تجديد الهدنة التى كانت معقودة معهم ، لانقضاء مدتها ، فأحضر الأمراء واستشارهم فحصل الاتفاق على تجديد الهدنة مع الصليبيين[6] .

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٦١ ؛ والجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها . وقد تستعمل ويراد بها سير السلطان على وجه السرعة دون حشد أو أثقال (أنظر ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى ، ص ٤٨ حاشية ؛ أبو شامه كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٨ ؛ نبيل محمد عبدالعزيز ، الخيل ورياضتها في عهد سلاطين المماليك ص ١٦٥) .

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٥ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٧٤ ؛ ابن الفرات م ٧ ، ص ٨٠ .

(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٠٠ ؛ والروحاء من عمل الساحل (أنظر ابن تغرى بردى ، المصدر نفسه) .

وإلى جانب نظام المشورة ، اتبع سلاطين المماليك أساليب أخرى كان لها الأثر الكبير في إحكام خططهم العسكرية ، منها استغلال المعلومات التى كانت تصلهم من معسكرات العدو ، اما بواسطة الطلائع أو اليزك ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ واما بواسطة الجواسيس أو العيون التى كان السلطان المملوكي حريصا على بثها في معسكرات الأعداء لكشف خططهم ومعرفة مواطن الضعف في صفوفهم . من ذلك ما ذكره ابن عبدالظاهر من ان السلطان الظاهر بيبرس كتب في سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م إلى بعض نوابه على حدود العراق ، يعرفهم بما وصلت به الأخبار عن هولاكو في البر والبحر من كسر بركة له « مرة بعد مرة »[١] وكذلك ما حدث عندما حضر رسل عكا إلى السلطان المنصور قلاوون بعد وفاة السلطان بيبرس سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ، يسألونه استمرار الهدنة على ما كانت عليه في الأيام الظاهرية إذ اتفق أثناء موافقة السلطان قلاوون على طلبهم أن كتب اليه جواسيسه بها يخبرونه بأن جماعة من الصليبيين قتلوا جماعة من المسلمين فكتب السلطان اليهم مستجليا الأمر[٢] . ومنه أيضا ما ذكره المقريزى في حوادث سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م من أن الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج الذى كان في أول أمره « أمير طشت » السلطان جلال الدين خوارزم مشاه . وبعد وفاته ملك قلعة كيران وعدة قلاع من ناحية نقجوان ، ثم وصل بعد ذلك إلى بلاد سلاجقة الروم فاقطع بها « ناحية أقصرا » كان بهادر ابنه يكاتب السلطان بيبرس ويتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار المغول . وذلك قبل فراره من معسكرهم إلى السلطان بيبرس[٣] . ومنه أيضا ما ذكره اليونيني في ترجمته للأمير سيف الدين بلبان بن عبدالله الرومي ، الذى كان من أعيان أمراء السلطان المنصور قلاوون يعتمد عليه ويثق به ، وهو المطلع على أسراره وتدبير أمور « القصاد والجواسيس والمكاتبات »[٤] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٤٩ .

(٢) انظر شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ١٣٨ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦١١ ؛ أمير طشت أو الطشت دار ، مأخوذ من الطشت وهو ما تغسل به الأيدى والثياب في الأصل . وصاحب هذه المهنة مسئول عن لباس سيده وفرشه (أنظر القلقشندى ، صبح الأعشي ، جـ ٤ ، ص ١٠ ، شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٥٧ حاشية المحقق .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٤ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

كما يبدو أن سلاطين المماليك ساروا على نهج من سبقهم في إستخدام الحمام الهوادى ، وذلك كوسيلة للاتصال بجيوشهم التى كانت تتعرض للحصار والتضييق عليها من جانب الأعداء ، لمعرفة أحوالهم ، ومن ثم تنسيق الخطط العسكرية معهم . ولعل ما يؤيد ذلك ما ذكره ابن إياس من أن السلطان الظاهر بيبرس رتب في سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م « خيل البريد » وهى عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق فيها خيول جيدة ومعها رجال يعرفون « بالسواقين »[١] إذ لا يستبعد أن هذه المراكز كانت بها محطات لاستقبال الرسائل عن طريق هذا النوع من الحمام .

أما عن التنظيم في القتال فقد اتبع سلاطين المماليك في معاركهم أساليب كثيرة ومتنوعة ، ففي المعارك المكشوفة التى كانت جيوشهم تشتبك مع عدوهم وجها لوجه وهو ما كان يعرف بالمصاف[٢] . كانوا يقسمون جيشهم إلى تعبئة قتالية تتألف من المقدمة والقلب ، والميمنة والميسرة والساقة ، ويجعلون ميمنتهم مقابل ميسرة العدو ، وميسرتهم مقابل ميمنته . وعند بدء القتال يكتفي السلطان بمنازلة العدو بأحد الجناحين ، على حين يظل الجناح الآخر على أهبة الاستعداد يتقدم للقتال متى أصاب الأول الوهن أو أعياه الضعف أما القلب فوظيفته امداد جناحيه بالأطلاب إذا ما أصابها خلل في حين تقوم المؤخرة بامداد جميع الفرق بالأسلحة والخيول والمؤن[٣] .

ولا يقتصر موقف السلطان في المعركة على القلب بل يطوف على الفرق جميعا يحثهم على الجهاد ويحبب لهم الاستشهاد في سبيل الله ، وإذا ما أشتد القتال طاف بين

---

(١) أنظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٣١ ، ٣٣٢ ؛ والحمام الهوادى ، هو الحمام الزاجل ، أو حمام الرسائل ، وأطلق هذا الاسم على هذا النوع من الحمام لحمله صغار الرسائل ، وقيل إن اسم ورقاء بالعربية أطلق في الأصل على هذا النوع من الحمام ، لحمله ورق الرسائل ، وهو مشهور بسرعة الطيران (أنظر نظير حسان سعداوى ، نظام البريد في الدولة الإسلامية ، ص ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢) .

(٢) المصاف : جمع مصف وهو الموقف في الحرب والاصطفاف للقتال (أنظر أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٦ حاشية) .

(٣) راجع ماسبق ، ص ٣٢٩ ؛ والأطلاب جمع طلب وهو الكتيبة من الجيش ومعناه الأصلي ، الأمير الذى يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، وأطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين . (أنظر أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٤ ، حاشية) .

الصفوف من الميمنة إلى الميسرة ، يدعو الأطلاب إلى التقدم والتمركز في مواقع يعينها لهم ، وذلك على ضوء المعلومات التى تصله عن طريق طلائعه أو جواسيسه والتى توضح له نقاط الضعف في صفوف العدو . ولعل خير دليل على ذلك ما ذكرته الروايات المعاصرة من أن السلطان المظفر قطز ركب بنفسه وطاف بين صفوف جيشه في معركة عين جالوت مرددا بعض الصيحات الجهادية التى كان لها دور كبير في استبسال قواته في جهاد الأعداء حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم الذى غير موازين القوى في العصور الوسطى[١] .

ومن أساليب القتال التى اتبعها سلاطين المماليك في جهادهم ، الحرب الخاطفة ومباغتة العدو ، من ذلك ما ذكره اليونيني من أن السلطان الظاهر بيبرس خرج من مصر سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م قاصدا صفد ، وسار حتى نزل عين جالوت ، ومنها بعث فرقتين من عسكره للإغارة على الساحل فأغاروا على عكا وصور وعرقد وطرابلس وحلبا وحصن الإكراد في يوم واحد[٢] .

كما استخدموا إلى جانب ذلك أسلوب الكر والفر ، ففي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م جرد السلطان الظاهر بيبرس جماعة من العسكر صحبة الأمير شمس الدين سنقر الرومي للإغارة على أنطاكية ، فأغاروا عليها وعادوا عنها محملين بالغنائم[٣] . وفي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م جرد السلطان نفسه جماعة أخرى من عسكره ورسم لهم الإغارة على « بلاد الفرنج فساقوا وكسبوا وعادوا سالمين »[٤] .

ولم تقتصر أساليب سلاطين المماليك القتالية على ذلك ، بل استخدموا أساليب أخرى متعددة منها أسلوب التمويه والخداع منه ما ذكره الحريرى من أن عساكر الإسلام

---

(١) راجع ماسبق في الفصل الثاني .
(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٣٣٧ ؛ أنظر أيضا ، ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٨١ .
(٣) شافع بن على ، حسن المناقب ، ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٤) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

أغارت في سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م على أعمال صور وطرابلس ، ثم نزلوا على صفد ، وحاصروا الصليبيين بها أربعين يوما وأخذت « بالخديعة »[١] .

كما عمل المماليك على بث سراياهم أو « الغيَّارة » في معسكرات العدو وممتلكاته لإضعافها بالنهب والسلب والتخريب ، من ذلك ما ذكره ابن عبدالظاهر في الروض الزاهر ، من أن الغيَّارة توجهت في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م من البيرة إلى جهة كركر ، فأحرقوا بلدها وأخذوا مواشيها[٢] . وما ذكره أيضا في تشريف الأيام والعصور ، من أن الأخبار وردت من حلب بأن الغيَّارة توجهت إلى بلاد الروم ، وكانوا في ستمائة راكب أو سبعمائة ، وأنهم صادفوا قافلة تقدر بمائتي رجل خارجة من بلاد سيس إلى الروم فهاجموها وغنموا منها غنائم كثيرة وذلك في سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م[٣] .

ويبدو أن نشاط جواسيس المماليك وعيونهم في استطلاع أخبار أعدائهم ورصد تحركاتهم ساعدهم على قيامهم بنصب الكمائن لهم وتكبيدهم الخسائر ، من ذلك ما حدث سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م عندما هاجم المغول الشام هذه السنة ، حيث كمن لهم العرب من بني تغلب فتوهم المغول أن عساكر كثيرة قد أحاطت بهم الأمر الذى كان له الأثر في هزيمتهم في هذه السنة[٤] .

كما نلحظ أن المماليك اتبعوا أسلوب الترهيب ، للتأثير على أعدائهم ، من ذلك ما حدث سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م عندما حاول الصليبيون التمرد على الهدنة التى عقدها السلطان بيبرس معهم ، فهددهم بقوله « إن بقيتم على العهد ، وإلا فمالنا شغل إلا الجهاد » فاضطروا للنزول عند رغبته[٥] .

---

(١) الحريرى ، الإعلام والتبيين ، ورقة ١٤١ ب ؛ أنظر أيضا ، الذهبي ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٥١ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١ ، ٢ .

(٤) أنظر ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ .

(٥) راجع ماسبق في الفصل الثالث .

أما فيما يتعلق بحصار المدن والقلاع ، فإن سلاطين المماليك استخدموا لذلك أسلحتهم الثقيلة كالمنجنيقات والدبابات والقلاع المتحركة وغيرها . فإذا وقف السلطان على الحصن المراد حصاره ، تقدم باديء الأمر إلى أصحابه يطلب تسليمه بالطرق السلمية ، فإن أبوا شرع في حصاره بتكتيك بارع ، يبدأ باختبار ذلك السور أو الحصن لتقدير استعداداته ، ومعرفة نقاط الضعف فيه ، وإذا عين ذلك ، بدأ في نصب آلات الحصار ثم أصدر أوامره إلى المنجنيقات بالشروع في الرمي ، وفي الوقت نفسه يقوم المشاة بالتقدم على شكل زحوف مستمرة لمهاجمة الأعداء من البوابات أو من الفتحات التى تحدثها المنجنيقات في حين يقوم النقابون بنقب المواقع الحساسة التى تؤدى إما إلى تعليق السور ثم انهدامه ، وإما إلى عمل ثقوب على شكل سلالم يصعد عليها الجيش ، وإما على شكل ثقوب داخل الأسوار تشعل فيها النيران بعد حشوها . فإذا تمكنوا بإحدى هذه الطرق من فتح ثغرة في السور ، تدافع الجيش إلى الداخل . في الوقت الذى يظل فيه الرماة يطلقون على العدو سهامهم ، حتى لا يستطيع الظهور من أعلى السور وتعريض القوى الإسلامية المندفعة إلى الداخل للأذى[1] .

وصفوة القول ، فإن المماليك اتبعوا في جهادهم أساليب متنوعة دلت على خبرتهم ودرايتهم بفنون القتال ، حسب مجريات الحوادث . كما راعوا إلى جانب ذلك اختيار الوقت والمكان المناسب للاشتباك مع عدوهم ، فقد راعوا عند عزمهم على الجهاد درجة حرارة الجو ، فضلا عن إختيار المكان المناسب الذى ستدور فيه المعركة ، باستدراج العدو إلى المكان المناسب الذى يريدونه هم ، كما راعوا أيضا توفر المواد اللازمة لجيوشهم وخيلهم أثناء القتال كالماء والعشب ، كما حرصوا على مراعاة اتجاه أشعة الشمس ، وذلك بعدم تعريض جيوشهم لأشعتها عند الهجوم ، خاصة في الصباح الباكر أو قبل

(١) أنظر ، ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٣٠ ، ٢٨٢ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٤ ، ص ٢١ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، القسم الثاني ، ص ١١٦ ـ ١١٨ ؛ تاريخ الظاهر بيبرس ، جـ ٢ ، لوحة ٢٢٦ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٣٧٧ ؛ ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٩ ، ٨٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٧ ، ٧٧٨ ، ٨٤٠ ؛ ابن تعرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ : Salections from Tarik Ibn Alfurat. p:87 .

الغروب . ولعل خير دليل على ذلك ما حدث في معركة عين جالوت والاستيلاء على انطاكية وطرابلس وعكا[1] .

وأثناء جهاد المماليك لاقتلاع الوجود المغولي والصليبي من بلاد الشام ، لم يغب عن سلاطينهم القيام بتحصين بعض المناطق الهامة التى كانوا يخشون تعرضها لهجوم مغولي أو صليبي مفاجيء ، فلم ينسوا أطماع المغول في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ، فأمر السلطان بيبرس في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م بتجديد بناء القلاع على الحدود الفراتية لا سيما قلعة البيرة التى جدد بناءها وأرسل اليها آلات القتال والأسلحة والمؤن من مصر والشام بما يكفي لمدة عشر سنين ، لتكون شوكة في جنب المغول[2] . كما أهتم أيضا بالموقع الاستراتيجي والعسكرى الهام الذى يمثله الأردن كملتقى للطرق المؤدية إلى المشرق الإسلامي بصفة عامة وبلاد الشام بصفة خاصة ، وخط دفاعي أمامي للإراضي المصرية في وجه المغول والصليبيين على حد سواء . فما أن تم له السيطرة على قلاع تلك المنطقة وحصونها حتى شرع في ترميمها وتقويتها وشحنها بالرجال والعدد والذخائر كما نقل المنجنيقات إلى عجلون[3] ، ثم وجه إهتمامه بعد ذلك بالصلت[4] فأمر بشحنها بالرجال والمؤن والعتاد . أما الكرك فجعلها خزانته حيث ادخر فيها الأموال والذخائر والمؤن[5] . كما وجه اهتمامه ببقية بلاد الشام ، فأعاد عمارة القلاع والحصون التى خربها

---

(١) أنظر ماسبق ، في الفصل الثاني والثالث والرابع .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٥ ؛ العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) بفتح العين وسكون الجيم ، وضم اللام وسكون الواو ، ونون في آخره / قلعة من جند الأردن مبنية على جبل يعرف بجبل عوف ، وهي محدثة البناء بناها عز الدين بن أسامة بن منقذ أحد أكابر أمراء صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٠ هـ وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون ، فسميت به (أنظر ابن عبدالظاهر ، الروض ، حاشية ٥) .

(٤) بالف ولام لازمتين في أوله ، وفتح الصاد المهملة المشددة وسكون اللام وبعدها تاء مثناه : بلدة لطيفة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي في جنوب (عجلون) أنظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٩٦ حاشية رقم (٣) .

(٥) أنظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٦ ، ص ٤١٩ - ٤٢٧ ؛ يوسف غوانمه ، التاريخ السياسي لشرق الأردن ، ص ٤٥ - ٤٦ .

المغول من حمص إلى حوران ، وزودها بما تحتاج اليه من المؤن والذخيرة وكون بذلك العمل الجليل خطا دفاعيا حصينا أمتد من شرق الأردن إلى نهر العاصي ، هذا بالإضافة إلى الأبراج التى أقامها على الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الصليبيين ومراقبة تحركاتهم[1] . أما في مصر فإن السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخورا عظيمة ليحول دون مرور السفن فيها لو حاولوا مهاجمتها ، كما شيد برجا للمراقبة في رشيد ، وعمر أسوار الأسكندرية وجدد بناء المنار الذى بها[2] .

دور الأسطول في جهاد المماليك :

عنى المسلمون في هذه الفترة ، عناية كبيرة بالأسطول ، فقد اهتم الخلفاء الفاطميون ، وخاصة منذ عهد الخليفة المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ ـ ٩٧٥ م) ، بانشاء المراكب البحرية في الفسطاط والأسكندرية ودمياط ، ومن ثم

---

(١) العبادى ، قيام دولة المماليك ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ؛ غوانمه ، التاريخ السياسي لشرق الأردن ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٩١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٥٧ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ١ ، ص١١١ ؛ ابن الفرات ، م ٧ ، ص ٨٤ ؛ العبادى ، المرجع نفسه ، ص ٢١١ ؛ السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٤٣٦ ؛ والمنار جمعه مناور أو منارات ، وهي عبارة عن أبراج للمراقبة تربط أطراف الدولة بالعاصمة ، يرابط فيها الحراس أو المرابطون ، ليلا ونهارا ، فإذا كشفوا عدوا مقبلا من البر أو البحر ، اشعلوا النار على قمم هذه المناور إذا كان الوقت ليلا أو أثاروا فيها الدخان إذا كان الوقت نهارا . ثم سرعان ما تنتقل هذه الاشارات النارية أو الدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالي إلى أن تصل إلى العاصمة ، وكثيرا ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات متفق عليها للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك . وقد وصفها كل من المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٧٧ ؛ والعمرى في كتابه التعريف ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ؛ (أنظر ، العبادى ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠) .

تسييرها إلى الموانىء الشامية لمنافسة الأساطيل البيزنطية في البحر المتوسط ، حتى اشتهرت هاتان الدولتان قبل الحروب الصليبية بأنهما أقوى دولتين في البحر المتوسط[١] .

ولما دب الضعف إلى جسم الخلافة الفاطمية ، شمل قواتها البحرية حتى عجز أسطولها في أواخر عهدها عن حماية المدن الساحلية الشامية من الاعتداءات الصليبية ، ولم يكد ينتهي القرن الخامس الهجري ، الحادى عشر الميلادى ، الا وقد فقد الأسطول الفاطمي مكانته خاصة بعد أن استولى الصليبيون على القواعد البحرية في ساحل بلاد الشام[٢] .

ولما قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م وأعاد توحيد الجبهة الإسلامية بين مصر والشام ، استعداداً لبدء حركة الجهاد ضد الصليبيين ، اهتم منذ بداية حكمه باعادة بناء الأساطيل المصرية التى تعرضت للتلف الكامل من قبل شاور الذى أمر عندما هاجم عمورى الأول (Amarlic 1) ملك مملكة بيت المقدس مصر في سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م . بإحراق الفسطاط وشمل ذلك الحريق مراكب الأسطول التى دمرت عن آخرها[٣] . وقد تمكن صلاح الدين باصراره على أهمية دور الأسطول في الجهاد ضد الصليبيين من بناء اسطول قوى بلغ أوج عظمته في الفترة الممتدة من سنة ٥٧٥ ـ ٥٨٣ هـ / ١١٧٩ ـ ١١٨٧ م[٤] وهي الفترة التى حقق فيها

---

(١) الباز العريني ، الشرق الأدني في العصور الوسطي ، ص ١٧٠ ؛ جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٥٥ ؛ Ehrenkreutz. The place of Salādin in The naval history of the meditrranean sea, Jaurnal of the American Oriental Sociaty, (1955) p.101 .

(٢) Ehrenkrentz OPCIT. p.101,104 أحمد مختار العبادى ، عبدالعزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر ، ص ٢٧٢ ؛ أرشيبالد لويس ، القوى التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط ، ص ٣٨٢ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٩٤ ؛ وشاور : هو أبو شجاع شاور بن مجير الدين بن نزار بن عشائر بن شاش ، قيل انه عرف بالسعدى نسبة إلى حليمة السعدية (أنظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ٤٣٩ ، العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٧ ، ص ١٢٧) ؛ عبدالرحمن زكي ، الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ص ٣٣ .

(٢) Ehrenkeutz. opcit. p.101-102. ؛ أنظر أيضا ، العريني ، الشرق الأدني في العصور الوسطي ، ص ١٧٠ .

انتصارات عظيمة ضد سفن الصليبيين على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط[١] ، فضلا عما حققه ضد سفنهم في عرض البحر الأحمر[٢] .

ولما ورث المماليك دولة أسيادهم الأيوبيين في مصر والشام . كان التدهور السياسي الذى حل بدولتهم ، قد أدى إلى قلة اهتمامهم بالأسطول وعدم العناية به[٣] . لذلك كان على سلاطين دولة المماليك أن يولوا الأسطول منذ بداية عهدهم جلّ اهتمامهم لما له من دور فعال في جهادهم ضد أعداء الإسلام ، خاصة وان ولادة دولتهم تزامن مع ظهور خطر المغول على المشرق الإسلامي في الوقت الذى كان الصليبيون يحاولون جاهدين توسيع نفوذهم في بلاد الشام مستغلين ذلك الضعف الذى دب في جسم الدولة الأيوبية في آخر عهدها[٤] .

ويشير المقريزى إلى أن السلطان الظاهر بيبرس كان أول من أهتم ببناء الأسطول في دولة المماليك ، لصد الأعداء الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فقد اهتم بدور صناعة السفن في الفسطاط والروضة والاسكندرية ودمياط ، لدرجة انه كان يشرف بنفسه على بناء سفن الأسطول . وحرص على توفير الخشب اللازم لبناء السفن ،

---

(١) أنظر ، سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ١٠١ وما بعدها ؛ العبادى ، عبدالعزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص ٢٠١ وما بعدها .

(٢) أنظر ، حسنين ربيع ، البحر الأحمر في العصر الأيوبي ، مقال بندوة تاريخ البحر الأحمر ، بجامعة عين شمس سنة ١٩٧٩ م .

(٣) يصف المقريزى ، في كتابه الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ ذلك بقوله (فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال في الأسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر في أمره الا عند الحاجة اليه ، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم في الطرقات ، وقيدوا في السلاسل نهارا ، سجنوا في الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم الا شيء قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شيء كما يفعل بالأسرى من العدو ، فصارت خدمة الأسطول عار يسب به الرجال ، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولي غضب غضبا شديدا ، بعدما كان خدام الأسطول ، يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس) .

(٤) أنظر ماسبق « التمهيد » .

فمنع الناس من قطع الأشجار التى تصلح أعوادها لبناء الأسطول[1] ويبدو أن مشروع إحياء الخلافة العباسية في القاهرة الذى تبناه السلطان بيبرس نفسه ، كان له دور كبير في تشجيعه على الاهتمام ببناء الأسطول في مصر . فقد تضمن التقليد الذى منحه الخليفة العباسي للسلطان بيبرس ، الحث على الاهتمام بتحصين الثغور البرية والبحرية وبناء الأسطول فمما جاء فيه « ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبتسم له الثغور ، واحتفال يبدل مادجى من ظلماتها بالنور ، وأجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيد منها كل ما غادره العدو متهدما فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهى على العدو داعية اقتران لا اجتماع وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً ، والعدو له ملتفتا ناظرا ، لاسيما ثغور الديار المصرية . . . وكذلك الأسطول الذى ترى خيله كالأهلة وهو أخو الجيش السليماني . فإن ذاك غدت الرياح له حاملة وهذا تكفلت بحمله المياة السائلة »[2] .

ولا أدل على اهتمام السلطان بيبرس بالأسطول في دولته من تلك الحادثة التى أوردتها المصادر المعاصرة ، مفادها ان السلطان بيبرس أصدر أوامره إلى قادة أسطوله بمهاجمة جزيرة قبرص مستغلا خروج ملكها هيو الثالث إلى عكا وذلك في سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ، وبالرغم من أن هذه الحملة البحرية تعرضت لكارثة طبيعية إذ هبت عليها ريح عاتية حطمت جميع سفنها بالقرب من مدينة ليماسول ، فإن بيبرس لم يأبه بتلك الكارثة بل سارع في نفس السنة بإصدار أوامره إلى دور الصناعة في الأراضي المصرية ببناء سفن جديدة للأسطول عوضا عما ذهب على قبرص فتمكنت هذه الدور في فترة وجيزة من بناء « ضعف ما عُدم »[3] .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ ؛ ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٣٨٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٥٦ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ؛ أنظر أيضا ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ١٠٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ؛ شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٤٣ ؛ القلقشندى ، مآثر الانافه ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٤ ، ص ٦ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٤٥٤ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٣ ، ٥٩٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٥٤ ؛ ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ق ١ ، ص ١١٠ ؛ سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٤٨ .

وواصل سلاطين المماليك بعد بيبرس ، اهتمامهم بالأسطول ، خاصة بعد امتلاكهم لسواحل بلاد الشام ، إذ أن ذلك أدى إلى شعورهم الزائد بمسئولية المحافظة عليها ، فاهتموا بوسائل الدفاع عنها لحمايتها من الخطر الصليبي الذى تركز في الجزر المجاورة في مياة البحر المتوسط ، فقد اهتم السلطان المنصور قلاوون بطرابلس بعد استيلائه عليها ، وجعلها نيابة سلطانية . يحكمها نائب للسلطان بمرسوم سلطاني يصدر بهذا الشأن . وكان من أهم اختصاصاته « شد البحر وشد الشواني » على حد تعبير القلقشندى ، بمواني نيابته وهي طرابلس واللاذقية وأنطرسوس وجبلة[١] .

كذلك حرص السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بعد استيلائه على عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م على إنشاء أسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير الصاحب شمس الدين بن السلعوس[٢] ، الذى اهتم ببناء سفن الأسطول ، حتى اكتملت عدتها ستين مركبا ، فأمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، ثم حضر السلطان إلى دار الصناعة بجزيرة الروضة ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا ، توافد عليه المسلمون من كل حدب وصوب لمشاهدة مناورات الأسطول بعد إتمامه . وخرجت « الشواني والحراريق والطرائد » واحدة بعد أخرى ، وتبارى الجند في الاستعراض بها أمام السلطان ، حيث ظلت الشواني تواصل محاربة بعضها بعضا إلى أن أُذن لصلاة الظهر ، فعاد السلطان

---

(١) أنظر القلقشندى ، صبح الأعشي ، جـ٢٢ ، ص ١٧٦ ؛ أنظر أيضا ، العبادى ، عبدالعزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٣٠٨ ؛ وكلمة « شد » لها معاني كثيرة وقد تعني هنا الإشراف والإعداد أى أنه يشرف على البحر وعلى إعداد السفن ، ومنها أيضا كلمة الشاد ، أو المشد على عمارة المراكب ، وهو الموظف أو الناظر الذى يشرف على إعداد المراكب (أنظر : العبادى ، سالم ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٨ حاشية) .

(٢) هو الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الرجا التنوخي الدمشقي المعروف بابن السلعوس توفي سنة ٦٩٣ هـ . (أنظر ابن تغرى بردى النجوم ، جـ٧ ، ص ٣٣٤ حاشية) .

بعسكره إلى القلعة وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم في ابتهاج وفرح[1] .

ولما خلف الناصر محمد بن قلاوون ، أخاه الأشرف ، واصل الاهتمام بالأسطول فعني بانشاء السفن وشحنها بالعدد والرجال ، وسيرها إلى سواحل بلاد الشام حيث انضمت اليها بعض القطع الحربية المرابطة بطرابلس ، وقامت بمطاردة فلول الصليبيين في البحر المتوسط ، واستولى رجالها على أقرب وكر لهم جزيرة ارواد وذلك في سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م[2] .

على أن طرد الصليبيين من ساحل بلاد الشام ، ومن جزيرة ارواد لم يحل دون استمرار تهديداتهم لسواحل دولة المماليك في مصر والشام ، وذلك بعد أن اتخذوا من

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ؛ جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ ؛ العبادى ، عبدالعزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٣٠٨ ؛ والشواني : مفردها شيني وهي من أهم القطع البحرية التى كان يتألف منها الأسطول في العصور الوسطي ، وهي مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم ، وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقسي والسهام ، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد مائة وخمسون رجلا ويجدف بمائة مجداف وقد ظل اسم الشيني متداولا حتى أيام الدولة العثمانية (أنظر ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، جـ ١ ، ص ١٣ ؛ كحالة ، دراسات اجتماعية في تاريخ العصور الوسطي ، ص ١٢ ، ١٣ ؛ سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛ عبدالرحمن عباده ، سفن الأسطول الإسلامي ، ص ٤ ، ٥ ؛ جمال الدين سرور ، المرجع نفسه ، ص ٣١٥ حاشية) ؛ أما الحرايق فمفردها حراقة : وهي سفينة حربية مهمتها حمل النفط والبارود ، فيها مرامي ترمى منها النيران على الأعداء (أنظر سعاد ماهر ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٩) ؛ والطرائد مفردها طريدة وهي سفينة خاصة بحمل الخيل ، وكانت تتسع لأربعين فرسا ، وربما وصلت حمولتها إلى ثمانين فرسا (أنظر ابن مماتي ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٩ ؛ سعاد ماهر ، المرجع نفسه ، ص ٣٥٤ ؛ العريني ، المرجع نفسه ، ص ٣١٥ ، حاشية ؛ الخربوطلي الإسلام في حوض البحر المتوسط ، ص ١١٣ ، ١١٤ ؛ عبدالرحمن عبادة ، المرجع نفسه ، ص ٥ ، ٦) .

(٢) أبو الفدا ، جـ ٤ ، ص ٤٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٥٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ .Dozy; Suppl-auxdic. arabes I.P 735 العبادى ، سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٣٠٩ .

جزيرة قبرص مركزا لهم الأمر الذى حتم على سلاطين المماليك زيادة الاهتمام بالأسطول لمواجهة ذلك الخطر الذى استشرى بعد أن تمكن ملوك هذه الجزيرة ، بمساعدة فلول الصليبيين الهاربين اليها من انتزاع جزيرة رودس من الدولة البيزنطية سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ، واتخاذها قاعدة صليبية أخرى للإغارة على السواحل الإسلامية[١] .

وقد استعان المماليك في بناء اساطيلهم بالخشب المحلي في مصر وهو من نوع السنط الذى كان ينبت بكثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء ، وكان من احتكار الدولة[٢] . بالإضافة إلى أخشاب الصنوبر والأرز التى تنبت في جبال لبنان كما قاموا إلى جانب ذلك بعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية ، حصلوا بمقتضاها على حاجتهم من الخشب والحديد والشمع اللازم لبناء أساطيلهم[٣] ، وكان يوجد بالأسكندرية في العهد الأيوبي ديوان اسمه « المتجر السلطاني » ويبدو أنه ظل حتى العهد المملوكي مهمته شراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج اللازمة للجيش والأسطول ، كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية وغيرها وكان هذا المتجر يقوم بشراء هذه المواد بأموال الخمس المفروضة على التجار[٤] .

وكما اختص ديوان الجيش بالصرف على شئون القوات البرية وما يتبعها من الحصون والقلاع والمدن العسكرية ، فقد أفرد المماليك ـ على ما يبدو ـ للبحرية ديوانا خاصا ـ شأنهم في ذلك شأن الأيوبيين من قبلهم ـ مهمته الإنفاق على القوات البحرية من سفن حربية وبحارة ومؤن وعتاد ، بالإضافة إلى دور الصناعة التى كانت تقوم ببناء

---

(١) عن تهديدات هاتين الجزيرتين لسواحل مصر والشام ودور الأسطول المملوكي في مواجهتها ، أنظر سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، العبادي ، تاريخ البحرية الإسلاميه ، ص ٣٠٩ ، وما بعدها .

(٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٥ ، المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، العدوى ، تاريخ العالم الإسلامي ، ص ٣٣ .

(٣) عفاف سيد صبره ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٣٥ ، ١٤١ ؛ نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٢٠ .

(٤) أنظر ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٥١ ؛ العبادى ، سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٢٧٣ .

الأساطيل ، والقيام بأعمال الصيانة اللازمة لها . يدلنا على ذلك ما ذكره ابن عبدالظاهر ، من أن السلطان الظاهر بيبرس أنفق على الشواني والحراريق والطرائد والسلالير وغيرها مائة الف دينار وذلك في سنة واحدة[1] . إذ يبدو لنا أن هذا الإنفاق كان يقوم به في العهد المملوكي ديوان خاص يشبه ديوان الأسطول في العهد الأيوبي[2] .

والذى يجدر ذكره هنا هو أن دور الصناعة في العهد المملوكي قامت ـ على ما يبدو ـ بإعداد سفن خاصة بالبحر المتوسط ، وأخرى خاصة بالبحر الأحمر[3] ، لأن المهام التى أوكلت إلى الأسطول تتطلب منه العمل في البحرين معا ، اللذين اختلفا في الظروف الطبيعية ، فطبيعة البحر الأحمر تختلف عن طبيعة البحر المتوسط ، بما يحتويه الأول من صخور وشعب مرجانية ، وما به من نباتات بحرية ، وما يهب عليه من رياح وأعاصير . لذا فإن مراكب البحر المتوسط كانت تجهز بالمسامير ، أما مراكب البحر الأحمر فكانت تخاط « بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل ، يدرسونه إلى أن يتخبط

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض ، ص ٨٣ ؛ أنظر أيضا ، شافع بن على ، حسن المناقب السرية ، ص ٣٥ ؛ ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٢٤٨ ؛ والسلالير : مفردها سلورة وهي سفينة متوسطة الحجم سريعة الحركة لها ثلاثة شرع ، تحتوى عادة على أربعين مجداف وتستعمل في الحرب والسلم على السواء (أنظر سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٤٧) .

(٢) ذكر المقريزى أن صلاح الدين عندما قضي على الدولة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م اعتني بأمر الأسطول وأفرد له ديوانا خاصا عرف باسم ديوان الأسطول . وخصص له أموالا ضخمة متحصلات أقليم الفيوم ، والحبس الجيوشي ، وخراج السنط ، وحصيلة النطرون التى بلغت وقتذاك ثمانية آلاف دينار ، وأجرة المراكب الديوانية وحصيلتي قريتي أشنين وطنيده من كورة البهسنا في محافظة المنيا الحالية (أنظر المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٩٤ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر ، ص ٧١) .

(٣) بدأ اهتمام المماليك بالبحر الأحمر في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، الذى أمر صاحب قوص في سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م بإرسال قوة بحرية إلى سواكن لتأديب صاحبها الذى كان يتعرض التجار ويستولى على مال من يموت منهم في البحر (أنظر ، ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ ؛ شافع بن على ، حسن المناقب ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ؛ محمد صالح ضرار ، تاريخ سواكن والبحر الأحمر ، ص ٣٨) . ويبدو أن الحاجة ازدادت لنشاط الأسطول المملوكي في البحر الأحمر عندما تعرض بعد ذلك لمحاولات البرتغاليين السيطرة عليه (أنظر محمد عبدالعال أحمد ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية السيطرة عليه ، ص ٧٩ وما بعدها ، غسان على الرمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر) .

ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب . . . وإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش »[١] .

وإلى جانب ذلك يبدو أن دور الصناعة في مصر ، قامت بإعداد سفن خاصة يمكن أن يطلق عليها المراكب النهرية ، وذلك لمواجهة أى إجتياح داخلي للأراضي المصرية ، وكذلك لنقل المؤن والعتاد والرجال من الداخل إلى سواحل مصر الشمالية[٢] ، وتوجد في المصادر المعاصرة إشارات إلى أن مراكب نهرية كانت تعمل بدمشق ، وتحمل إلى البيرة ، ثم تجهز للعمل في نهر الفرات ، وأنهار مناطق الثغور المؤدية إلى أرمينية الصغرى[٣] .

وإضافة إلى ذلك فقد اهتم المماليك بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام وحشدوا فيها الاجناد للمرابطة فيها والخفراء لحراستها[٤] . كما عمدوا أيضا إلى وضع العراقيل على السواحل لتوعر على العدو مسلكه إذا ما حاول الاعتداء على ممتلكاتهم ، ومن ذلك ما ذكره ابن دقماق من أن السلطان الظاهر بيبرس « وعَرَفم البحر بقرابيص رماهم فيه لئلا تدخله مراكب الفرنج » كما أقام بدمياط سلسلتين عظيمتين من حديد تقفل في الليل وعند الطوارىء لمنع مراكب العدو من العبور في النيل إلى الديار المصرية[١] .

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٨ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، م ٢ ، ص ٤١٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ .

(٣) أنظر ابن عبد الظاهـر ، الروض ، ص ٣٤٥ ، ٤٠٦ ، ٤٣٥ ؛ شافع بن على ، حسن المناقب ، ص ١٠٥ ؛ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٣٠ .

(٤) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(١) أنظر ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ق ٢ ، ص ٨١ ؛ والقرابيص : أو القرابيس ، ومفردها قربوس : فسره ابن منظور بأنه « حنو السرج » أنظر لسان العرب ، مادة « قربس » ويبدو لنا أن هذه القرابيص عبارة عن أعواد أو أسياخ من الحديد كانت تثبت داخل البحر على مسافة قريبة من أماكن رسو السفن تؤدى إلى إعاقة رسو سفن العدو ، وفي الوقت نفسه يسهل على سفن المسلمين مهاجمتها من الجانب الآخر وتدميرها أو إجبارها على التراجع .

وختاما يمكن القول أن المماليك تمكنوا من تكوين جيش برى وأسطول بحرى مزود بكل متطلبات القتال من سلاح وعتاد ومؤن بفضل السياسة الحكيمة التى اتبعوها لتنظيم جيشهم ، والتى قامت على أساس بث روح الجهاد في نفوس رجالهم ، وتطبيق نظام الإقطاع الحربي في دولتهم ، ذلك النظام الذى ضمنوا بواسطته الحصول على جيش منظم عارف بكل أساليب القتال ومزود بكل مستلزماته متى عقدوا النية على الجهاد . حتى تحقق لهم طرد المغول من بلاد الشام ، ودفع خطرهم المتكرر عليها ، وتصفية بقايا الوجود الصليبي من سواحلها . ليتوجوا بذلك النجاح الباهر جهود من سبقهم من زعماء الجهاد الذين تعاقبوا على حمل رايته ضد الصليبيين أعداء الإسلام والمسلمين قرابة قرنين من الزمان .

الخـــاتمــة

أهـم نتائـج البحـث

بحمد الله وتوفيقه ، إنتهي موضوع البحث الذى تناول دراسة شاملة ومتكاملة لموضوع « جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي » وقد رأينا أن المشرق الإسلامي بصفة عامة كان إبان غزوات المغول في حالة شديدة من الضعف والتخاذل والتفكك ، يسيطر عليه حكام متباغضون ، تتنازعهم الأهواء والأغراض وتنتشر في بلادهم المذاهب والآراء ـ الأمر الذى سهل على المغول السيطرة على دويلاته عندما بدأ تقدمهم على حسابها من الشرق إلى الغرب ، حتى تمكنوا في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م من دخول مدينة بغداد ، وإسقاط الخلافة العباسية بها . مستغلين ضعف شخصية الخليفة المستعصم بالله الذى لم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب ، لقلة خبرته وعدم إهتمامه بأمور دولته ، ففي الوقت الذى كانت الأخبار تصل اليه تباعا باقتراب جيوش المغول ، لم يتخذ الاستعداد الكافي لمواجهتها قبل أن يستفحل خطرها . كما أن زمام الأمور في بغداد لم يكن مركزا في يد واحدة بل كانت هناك سلطات مختلفة كل منها تجور على الأخرى وذلك بسبب احتدام الصراعات المذهبية بين الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية داخل بغداد نفسها .

ولما كان محور دراستنا هو بلاد الشام ، التى كانت هدف هولاكو التالى بعد دخوله مدينة بغداد ، فقد أوضحت الدراسة ، موقف القوى الإسلامية وغير الإسلامية من ذلك الغزو ، فقد كان من نتائج سقوط بغداد في أيدى المغول أن عم الرعب والخوف الحكام المسلمين ، الذين أخذوا يتسابقون على معسكر هولاكو لتقديم فروض الولاء والطاعة ، مقابل إبقائهم على ولاياتهم ، وكان أول هؤلاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، الذى راح منذ وصول المغول إلى همذان يتقرب اليهم ويعمل على ممالأتهم لابعاد الخطر عن إمارته ، ولما تمكن هولاكو من اقتحام بغداد ، سارع بالخروج إلى معسكره حاملا معه الهدايا لتقديم الولاء له . كما قَدِم بعده للغرض نفسه الأتابك سعد الدين بن أبي بكر أتابك فارس ، ومن بعده الأخوان عز الدين كيكاوس الثاني ، وركن الدين قلج أرسلان الرابع الذين كانا قد اقتسما سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، لتقديم ولاءهما لهولاكو .

ولم يقتصر ذلك التذلل والخضوع على البلدان الإسلامية في أعالي الجزيرة وآسيا الصغرى ، بل تعداه إلى بلاد الشام نفسها ، إذ أقدم الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق ـ الذى كان يعد أعلى الأمراء الأيوبيين شأنا في بلاد الشام ـ على إعلان خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة متجاهلا دعوة الملك الكامل صاحب ميافارقين بالعمل على توحيد الجبهة الإسلامية ضد المغول . إذ استجاب لأوامر هولاكو وانفذ ابنه الملك العزيز إليه حاملا معه الهدايا والتحف . لكن هولاكو شك في نوايا الناصر وأصر على أن يحضر عنده ليقدم تبعيته بنفسه . وهنا يبدو أن الملك الناصر انتابته نوبة من صحوة الضمير وشعر بمدى السخط الذى جلبه على نفسه بين الأمراء الأيوبيين ، فرفض دعوة هولاكو وأرسل اليه رداً مليئا بالسباب وقلب سياسته تجاه المغول رأسا على عقب ، حيث أقدم عندما بلغه عبور القوات المغولية نهر الفرات ، بإرسال رسول من قبله إلى المماليك في مصر يستنجدهم ضد جيوش المغول التى بات هجومها وشيكا على بلاد الشام فاستجاب المماليك لذلك النداء وأعلنوا استعدادهم لمساعدة الملك الناصر في الدفاع عن بلاد الشام .

ورغم أن الملك الناصر عاد فرفض ذلك العرض السخي الذى أبداه السلطان المملوكي قطز ، والذى يبدو أن مرده خوف الملك الناصر من أن ذلك سيغضب بقية الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام . فأنه يمكننا الخروج بنتيجة هامة وهى أن مماطلة الملك الناصر للمغول وتخوف السلطان المظفر قطز من معاودة الملك الناصر تسهيل مهمة المغول دخول بلاد الشام طمعا في مساعدتهم على مصر ، والذى ترتب عليه إعلان المظفر استعداده للخروج إلى بلاد الشام لمحاربة المغول واعتبار نفسه نائبا للملك الناصر على مصر ، يعتبر الأساس الأول لاعادة الوحدة الإسلامية بين مصر والشام ، والتى مكنت المسلمين بعد ذلك من إيقاف الزحف المغولي على العالم الإسلامي .

أما عن موقف مملكة أرمينية الصغرى من الغزو المغولي لبلاد الشام ، فقد أوضحت الدراسة أن ملوك أرمينية عندما علموا باقتراب المغول من المشرق الإسلامي هللوا لهم ورأو فيهم القوة الضاربة التى تستطيع أن تقضي على الإسلام والمسلمين ، وتقوى الوجود المسيحي في تلك المناطق ، خاصة وأن المغول في ذلك الوقت لازالوا يدينون بالوثنية الأمر الذى جعل هؤلاء المسيحيين ينظرون إلى هذه القوى على انها مادة

خام يسهل تشكيلها في قالب مسيحي . وزاد قوة هذا الطمع ظهور تيارات واتجاهات مسيحية بين صفوف المغول من ذلك أن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين شرقيتين عملتا على مؤازرة المسيحيين ومناصرتهم في كل المناطق التى خضعت للسيطرة المغولية .

أما بالنسبة للقوى الصليبية الغربية التى كانت تتمركز وقتئذ على الشريط الساحلي لبلاد الشام ، فقد وقفت موقف المتردد من الهجمات المغولية على بلاد الشام ، حتى أن سلوك بوهيمند السادس أمير انطاكية وتأييدة لحركة الغزو المغولي على بلاد الشام ، والذى لم يكن بوصفه أميرا كاثوليكيا ، وإنما لكونه زوج ابنه هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى وحليفه وصديقه قد ضايق معظم الصليبيين ببلاد الشام . وخاصة أهل عكا وقد تبين لنا أن عدم تعاون الصليبيين الغربيين راجع إلى أسباب عدة منها . انشغالهم بمنازعاتهم الداخلية ، مما لم يترك مجالا للخوض في ميدان السياسة الخارجية ، واستغلال الظروف التى ألمت بالعالم الإسلامي من جراء الغزو المغولي ، كما لا يستبعد أن يكون لاستياء التجار البنادقة في عكا من حركة المغول ، لما ترتب عليها من خلل اعترى طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب . هذا بالإضافة إلى أن العلاقات التجارية بين البنادقة والمماليك في مصر كانت طيبة ، لذا حرص البنادقة على الا يحدث ما يعكر صفو تلك العلاقات ، التى كانوا يحصلون من ورائها على مكاسب مادية كبيرة . كما برهنت الدراسة على أنه كان هناك سبب آخر أهم ، الا وهو استياء الصليبيين الغربيين في الشام مما أظهره المغول من عطف واضح على المسيحيين الشرقيين دون الغربيين . وتخوف الغربيين من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقية ، حتى أن مؤرخا صليبيا معاصرا هوجوانفيل ذكر ان صليبي الشام أرسلوا في ذلك الوقت إلى الغرب الأوربي يطلبون تسيير حملة صليبية ليس ضد المسلمين هذه المرة وإنما ضد المغول وحلفائهم المسيحيين الشرقيين .

وتوصل البحث إلى نتيجة هامة وهي أن موقف الصليبيين هذا هو الذى مكنهم من البقاء مدة أطول في بلاد الشام . إذ لو تحالف الصليبيون المغربيون مع المغول ، لحققوا جزءا بسيطا من أهدافهم وهو الانتقام والتشفي من المسلمين في تلك المناطق ، ولكن ذلك التحالف كان سينعكس على وضعهم السياسي هناك . إذ انهم كانوا بلاشك سيصبحون عبارة عن ولاية من ولايات المغول ، حالهم حال من سبقهم من المسيحيين

الذى تحالفوا مع المغول . هذا بالإضافة إلى أن تبعيتهم للمغول الذين عرفوا بمحاباة المسيحيين الشرقيين كان سيؤدى إلى إضعاف مركز الكنيسة الغربية في بلاد الشام .

وعلى أية حال فقد برهنت الدراسة على أن ذلك التلاحم بين المغول والمسيحيين الشرقيين ومعهم صليبي أنطاكية أثمر عن تحقيق هدف هولاكو بالاستيلاء على مدن إقليم الجزيرة وبلاد الشام فقد أصدر هولاكو أوامره بعد أن تم له السيطرة على بغداد ونقل كنوزها ودفائنها إلى مقره الجديد مدينة مراغة ، إلى قواته بالمسير غربا والبدء بمدن إقليم الجزيرة فسقطت في يده مدن ميافارقين وماردين وآمد وحران ومنبج ونصيبين وغيرها رغم ما أبداه حكامها وعلى رأسهم الملك الكامل محمد الأيوبي صاحب ميافارقين والملك السعيد صاحب ماردين من ضروب الشجاعة والبسالة في الدفاع عن مدينتيهما . ليعبر المغول بعد ذلك نهر الفرات قاصدين بلاد الشام ، الذى كانت تتنازعه آنذاك سلطات ثلاث هي الأرمن في الشمال ، والصليبيون الغربيون على الساحل ، وسلطة الحكام المسلمين من أمراء البيت الأيوبي في الأجزاء الداخلية منه . ولما كان الأرمن قد انضموا بزعامة هيثوم الأول إلى صفوف المغول منذ وصولهم إلى منطقة الشرق الأدنى ، بينما التزم الصليبيون الغربيون مبدأ الحياد في ذلك الصراع الإسلامي المغولي ، لشعورهم بمستقبل مجهول ينتظرهم أمام القوى المغولية التى كانت لا تبقي ولا تذر . فإن هولاكو قد وجه همته بكاملها نحو البلاد الخاضعة لحكم الأمراء الأيوبيين ، واستطاع بسبب تفكك القوى الأيوبية ورفضها المساعدة المملوكية وبفضل ذلك التلاحم بين قواته والقوى المسيحية من إكتساح مدن الشام الداخلية الواحدة تلو الأخرى .

وكان من نتائج اكتساح المغول وحلفائهم بلاد الشام أن عم الرعب والخوف سائر أرجائه فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية ، وقد انغرس في داخل نفوسهم ، نتيجة ما شاهدوه من الأهوال بسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك ان السبيل الوحيد لانقاذ ما تبقى من العالم الإسلامي من الغزو المغولي هو البحث عن قيادة قوية ، تترجم نواياهم بالعمل على تنظيم جموع المسلمين وبعث روح الجهاد المقدس في نفوسهم لدرء العدوان المغولي الذى استشرى خطره وبات يهدد ما تبقي من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك . والواقع أن الأراضي المصرية في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبيء بظهور قوة جديدة تنقذ العالم الإسلامي من هذا الخطر . فالسلطان المظفر

قطز اعتلى عرش الدولة المملوكية الفتية بمشورة من كبار الأمراء في الأراضي المصرية لمواجهة الأخطار والتحديات التى باتت تهدد دولة المماليك في مصر ، وتوصل هو بدوره إلى إقناع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام وعلى رأسهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لوائه متناسين ما بينهم من خلافات ، خاصة بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول . والأهم من ذلك أن جموع المسلمين التى تعرضت لويلات الغزو المغولي ابتداء بالدولة الخوارزمية ومرورا بالخلافة العباسية ثم الأمراء الأيوبيين في شمال العراق والشام ، وجدوا ضالتهم في القيادة المملوكية الحكيمة ، فحضروا ومعهم أمراؤهم باعداد كبيرة إلى الأراضي المصرية ، حيث استقبلهم قطز أحسن استقبال وأصبحوا يكونون جزءا هاما من جيشه .

ومن هذا خلص البحث إلى نتيجة هامة ذلك أن فلول الممالك الإسلامية في المشرق الإسلامي التى تعرضت للغزو المغولي ، أضحت على يقين تام بأن دولة المماليك الفتية في مصر هي القادرة على حمل لواء الجهاد الإسلامي للنهوض بالعالم الإسلامي من وهدته العميقة ، وذلك لتوفر العنصر البشرى ، فضلا عن مواردها الطبيعية الضخمة ، وابتعاد حكامها عن الإثرة وحب الذات .

وعند دراسة حوادث معركة عين جالوت التى جاءت كرد فعل على التلاحم المغولي المسيحي ، والذى ترتب عليه تطاول المسيحيين على المسلمين والإعتداء على مقدساتهم ، تبين بوضوح ما كان يتمتع به السلطان المملوكي قطز من مقدرة عظيمة في ميادين الإدارة والسياسة والحرب ، يدلنا على ذلك الخطط السياسية والحربية التى نفذها قطز بإحكام للتمهيد لضرب المغول في عين جالوت فقد بذل قصارى جهده لتكوين قوة إسلامية تؤمن إيمانا تاما بفكرة الجهاد ضد أعداء الإسلام الذى حرص السلطان قطز منذ بداية عهده على غرسه في نفوس رجاله . ومن ثم اختيار المكان والزمان المناسبين الذى يستطيع جيشه فيه ضرب المغول ضربة قوية لا تقوم لهم بعدها قائمة . وبالفعل فقد تمكنت جيوش المماليك بفضل هذا كله من تحقيق ذلك الإنتصار العظيم في عين جالوت .

وقد أثبتت الدراسة أن ذلك الانتصار العظيم الذى حققه المماليك في عين جالوت وما أعقبه من طرد المغول نهائيا من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب ولا في تاريخ الأمم الإسلامية بمفردها وإنما في تاريخ العالم بأسره ، إذ برهنت الدراسة على أن ذلك الإنتصار العظيم لم ينقذ العالم الإسلامي وحده ، بل أنقذ العالم الأوربي والمدنية الأوربية من شر ذلك الغزو ، فلو تم للمغول إكتساح الأراضي المصرية والنفاذ إلى الشمال الأفريقي لتمكنوا بكل سهولة من سلوك الطريق التقليدى إلى أوربا عبر صقلية وجبل طارق . لذا فإنه لا يختلف اثنان في أن هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة فهي لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها القوانين والقواعد والأعراف بل كان أحد طرفيها وهم المغول عبارة عن شعب بدائي بربرى متوحش سفاك للدماء مخرب لكل معالم الحضارة .

وثمة أهمية أخرى ـ هي ان انتصار المماليك في هذه المعركة قضى على المعارضة الأيوبية لهم في بلاد الشام وحصلوا بموجبه على ما كان ينقصهم من مجد سياسي كان لابد منه لتثبيت أركان دولتهم الفتية . فقد نسي الناس أصلهم غير الحر وتناسوا انهم اغتصبوا العرش من سادتهم الأيوبيين ، ولم يعد المسلمون يذكرون عنهم سوى شيئا واحدا ، هو أن المماليك انقذوا العالم الإسلامي من خطر الغزو المغولي المدمر ، وان بقاءهم في الحكم ضرورة لابد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى . وتوج سلاطين المماليك تلك الثقة التى أولوها بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة لتكتسب بذلك دولتهم صفة الشرعية الكاملة .

كما اثبتت الدراسة أن هذا الانتصار العظيم كان عاملا من عوامل انتشار الإسلام وقتئذ . فقد بعث روحا جديدة في المسلمين ، لاسيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول في ايران . وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي ، حتى كللت مساعيهم بنجاح باهر ، أثمر اعتناق المغول في غرب آسيا للدين الإسلامي . بعد أن ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من

خلال معاشرتهم لأهله ، ولبعده كل البعد عن الخلافات الجوهرية التى ابتلى بها الدين المسيحي . وذلك لكون الإسلام خاتم الأديان تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها .

وبرهنت الدراسة على ان انتصار المماليك في معركة عين جالوت كان له دور كبير في إضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام . فالذى لاشك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم الذى حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة ، فسارع زعماؤهم ـ بعد أن أدركوا ان نهايتهم آتية لا محالة ـ بالتقرب إلى السلطان بيبرس وطلب مراحمه ، فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه . وقام في الوقت نفسه بإبرام سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبيين في بلاد الشام . وتمكن بفضله من إحكام العزلة على الصليبيين وذلك بحرمانهم من أى معونة خارجية . الأمر الذى عجل باقتلاع جذورهم نهائيا من ساحل بلاد الشام .

وبرهنت الدراسة أيضا على ان نتائج عين جالوت لم تقتصر على النواحي السياسية بل تعدت إلى النواحي الحضارية ، حيث جُنبت مصر ويلات الغزو المغولي المدمر ، ولم تتعرض القاهرة لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن ايران والعراق والشام من الخراب والدمار الذى عطل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب والعلوم والفنون والمعالم الحضارية وبقيت القاهرة مكانا هادئا آمنا يهرع اليه العلماء والأدباء والفنانون ، حتى اكتسبت عاصمة المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية ، التى برهنت عما اكتسبه المماليك المسلمون من هيبة وقدرة في شئون السياسة والحرب ، اتضحت في علاقاتهم الخارجية الدولية الواسعة الانتشار وفي إصلاحاتهم وإدارتهم الداخلية الحازمة .

وعند دراسة موضوع جهاد السلطان الظاهر بيبرس ضد المغول والصليبيين ، أوضحت الدراسة أن الصليبيين في ساحل بلاد الشام شعروا بحرج موقفهم بعد انتصار المسلمين على المغول في عين جالوت ، فعاودهم الأمل في الاتصال بالمغول وطلب التحالف معهم طمعا في أحد أمرين ، إما تشجيع المغول في الاستمرار في ميدان الصراع

لتخفيف الوطأة على أنفسهم . أو محاولة إحياء مشروع التحالف الصليبي المغولي الذى بات ضرورة قصوى تقتضيها الأوضاع السيئة التى آل اليها الصليبيون والمغول على حد سواء ، عشية ذلك النصر العظيم الذي حققه المماليك بكسر المغول وطردهم من بلاد الشام . والذى أدى بدوره إلى إضعاف بقايا الوجود الصليبي في ساحل بلاد الشام بعد تضييق الخناق عليهم - كما سبق أن أشرنا - ولكن السلطان الظاهر بيبرس واجه ذلك التقارب الصليبي المغولي - الذى كان نجاحه سيؤدى إلى تورط جيوشه في القتال على جبهتين متباعدتين - بعقد تحالف مع بركة خان مغول القفجاق الذى كان قد اعتنق الدين الإسلامي وكان على عداء مع ابن عمه هولاكو ، واستجاب بركة لدعوة الجهاد التى وجهها له السلطان بيبرس فهاجم هولاكو في إقليم فارس واشتبك معه في معارك حربية ضارية . وأضحى السلطان بيبرس في وضع طيب بعد أن تمكن بفضل تحالفه مع بركة خان من تجميد نشاط المغول ضد دولته في مصر والشام وذلك باشغالهم في حروب داخلية وحرمان الصليبيين في الساحل من أية مساعدة خارجية ، الأمر الذى مكنه من توزيع نشاطه على الجبهتين الصليبية والمغولية معا .

وأوضحت الدراسة أن إمارة أنطاكية كانت أولى الإمارات الصليبية التى استهدفها السلطان بيبرس عند شروعه في الجهاد ضد الصليبيين لإقتلاع جذورهم من بلاد الشام ، وهنا تجلت براعة السلطان الحربية وحنكته السياسية وغيرته الدينية حين قصد إمارة أنطاكية في أقصى الشمال الغربي لبلاد الشام متخطيا بقية المراكز الصليبية في الوسط والجنوب وذلك لمعاقبة الأمير الصليبي بوهيمند السادس . الذى كان قد انضم إلى صهره هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى ، وساعدا المغول في اكتساح مدن الشام الخاضعة للأمراء المسلمين من البيت الأيوبي . كما تمكن بيبرس بعد استيلائه على أنطاكية من فرض عزلة أخرى على الصليبيين في ساحل بلاد الشام وبالأخص طرابلس التى كان بوهيمند مقيما بها آنذاك ، وقطع كل أمل لهم في الحصول على أية مساعدة من طرف أرمينيه الصغرى .

وكان لنجاح بيبرس في السيطرة على إمارة أنطاكية وتطويق الإمارات الصليبية في بلاد الشام أن أصبحت دولة المماليك تجاور مملكة أرمينية الصغرى وكان من الطبيعي أن يؤدى ذلك التجاور إلى الإحتكاك المباشر ، سيما وان مملكة أرمينية الصغرى ، مارست

دورا صليبيا كبيرا ضد المسلمين منذ فجر الحروب الصليبية . وزادت على ذلك بتحالفها مع المغول بمجرد وصولهم إلى منطقة الشرق الأدنى . لذا فقد أثبتت الدراسة ان استيلاء بيبرس على أنطاكية شجعه على السير قدما لمعاقبة مملكة أرمينية الصغرى ، وتقليم أظافرها حتى لا تبقى شوكة في جانبه أثناء جهاده لإقتلاع جذور الوجود الصليبي من بلاد الشام .

وبرهنت الدراسة على أن الضربة القوية التى أنزلها بيبرس بمملكة أرمينية الصغرى ، والتى أدت إلى وأد نشوة الشباب التى كانت تلازم الملك الأرمني ليو الثالث ، والتى كان يشوبها جو من الحقد والكراهية نتيجة وقوعه في أسر المسلمين قد انعكست آثارها على المغول في فارس ، فراح إيلخانهم أبغا يفكر في قوة أخرى جديدة يقحمها في الصراع مع المسلمين ، فوقع اختياره على سلاجقة الروم الذين كانوا يدينون بالتبعية للمغول منذ دخول هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . حيث قام بالاتصال بكبار أمراءهم وهاجم البيرة بمساعدتهم وذلك سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م ليفتح ذلك الهجوم المجال أمام السلطان الظاهر بيبرس لضرب الأناضول وإضعاف مكانة المغول بها ، حيث تمكن بيبرس بمساعدة بعض الأمراء السلاجقة الناقمين على السيطرة المغولية على بلادهم من أن ينزل بالمغول هزيمة مروعة في صحراء إبلستين . ليضيع بذلك على المغول فرصة مهاجمة بلاد الشام من تلك الناحية ، وليتفرغ لمواصلة ما بدأه من جهود لتصفية الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام . إلا أن القدر لم يمهله بعد ذلك طويلا حيث توفي في سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ولكن بعد وضع الأسس الصحيحة والكاملة لمن أتى بعده من سلاطين دولة المماليك الذين ساروا على نهجه وأنزلوا بالصليبيين ضربات متلاحقة لم يفيقوا منها حتى تم إقتلاع جذورهم نهائيا من بلاد الشام .

وعند دراسة جهاد أسرة قلاوون ضد المغول والصليبيين ، أوضح البحث ما حدث عقب وفاة السلطان بيبرس من انقسام في صفوف المماليك بسبب إقدام السلطان المنصور قلاوون على عزل ابناء الظاهر بيبرس ، والذى كان ضرورة اقتضتها حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين وقتئذ . ومع ذلك فقد نجح السلطان المنصور قلاوون في احتواء تلك الخلافات وتوحيد الكلمة داخل دولة المماليك لمواجهة الأخطار التى تكالبت عليها من جراء ذلك الانقسام خاصة بعد أن وضح أن المغول قد أفادوا من

تلك الخلافات وقاموا بمهاجمة حدود دولة المماليك من الناحية الشمالية الشرقية في محاولة منهم للإنتقام لهزيمة جيوشهم في صحراء إبلستين ، فقد برهنت الدراسة على السياسة الحكيمة التى اتبعها السلطان قلاوون مع الأمير سنقر الأشقر ومن انضم اليه من الأمراء المماليك لتهدئة الأمور معهم مؤقتا ريثما يتم له تجنيب دولته محنة الهجوم المغولي عليها حيث خرجت قواته من الأراضي المصرية والتقت بقوات سنقر ورفاقه ووقفت صفا واحد لمواجهة المغول وأنزلت بهم هزيمة ساحقة في معركة حمص الشهيرة . والتى نتج عن انتصار المسلمين فيها تخليص بلاد الشام مرة أخرى من نير الإحتلال المغولي . بعد أن لقنوهم في هذه المعركة درسا لن ينسوه .

وأوضحت الدراسة ان انتصار المماليك في معركة حمص أحدث تحولا جذريا في علاقة المغول في فارس بالدولة المملوكية . إذ أقدم كبار الأمراء المغول على إختيار السلطان المسلم أحمد تكدار ليلى عرش الإيلخانية بعد وفاة والده أبغا الذى توفي عقب هذه المعركة مباشرة . وكان مرده شعورهم المتزايد بأن دولتهم باتت عاجزة من جراء الهزائم المتلاحقة التى منوا بها عن مواجهة دولة المماليك في الشام ومصر . وقد حرص السلطان أحمد تكدار على أن يبدأ عهده بإقامة علاقات طيبة مع المماليك قائمة على أساس احترام مبادىء الدين الإسلامي ومواجهة أعدائه . وكان من الممكن أن توقف هذه العلاقة الطيبة العداء بين الدولتين الجارتين ، ليتحقق للإسلام والمسلمين من خلالها فترة من التقدم والانتشار فيها لو استمر الإيلخان أحمد فترة طويلة من الزمن على العرش الإيلخاني ولكن وفاته مقتولا سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م قضى عل تلك الآمال ، حيث أقدم الإيلخان الجديد أرغون ، على نسف كل الجهود الذى بذلها السلطان أحمد للتقارب بين دولة المغول في فارس والمماليك في مصر والشام . وزاد على ذلك باضطهاد المسلمين داخل دولته . وحرمهم من كافة المناصب التى كانوا يشغلونها كما أفسح المجال لوزيره سعد الدولة اليهودى في الكيد للإسلام والتآمر عليه والحط من شأنه .

ورغم تلك الصدمة العنيفة التى تلقاها المسلمون في تلك المناطق ، فقد خلص البحث إلى نتيجة هامة . هى ان موقف أرغون هذا لم يؤثر على انتشار الإسلام في صفوف المغول في فارس . إذ يبدو ان جموع المغول الوثنية ، نتيجة اختلاطهم بالمسلمين الأصليين في فارس ، قد وجدوا ضالتهم في الدين الإسلامي الحنيف ، فاقبلوا على

اعتناقه وأصبح الإسلام دينا رسميا لدولتهم ، يدلنا على ذلك ما قام به عدد من إيلخانات المغول الذين خلفوا أرغون من اعتناق الدين الإسلامي وتطبيق أحكامه داخل دولتهم .

وأوضحت الدراسة بعد ذلك ان السلطان قلاوون عمد بعد أن نسف أرغون محاولة التقارب بين المماليك والمغول إلى تحصين ثغور المسلمين على شاطيء الفرات الغربي ومن ثم اتجه إلى إتمام مشروع تصفية الوجود الصليبي . فرنا بناظريه إلى إمارة طرابلس ، فاستولى على المراكز الصليبية المؤدية اليها ثم هاجم المدينة نفسها مستغلا ذلك التفكك والخلل الذى دب في صفوف الصليبيين داخلها فاستولى عليها . ليضيف بذلك العمل الجليل ، إنجازا آخر إلى الإنجازات العظيمة التى حققها من سبقه من زعماء الجهاد . فلا غرو فقد كانت طرابلس قاعدة رئيسية وعاصمة لإمارة صليبية في الشرق الإسلامي أقام بها الصليبيون قرابة قرنين من الزمان .

وبرهنت الدراسة على أن هذا العمل الجليل ، قد شجع السلطان قلاوون على المضي قدما في طرد الصليبيين من آخر معقل لهم في الشرق الإسلامي ، مدينة عكا . ورغم أن القدر لم يمهله حتى ينال الشرف العظيم حيث توفي أثناء استعداده لمهاجمة عكا ، فقد قام ابنه الأشرف خليل من بعده بتنفيذ تلك المهمة ودق آخر مسمار في نعش الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي محققا بذلك آمال وطموحات سلاطين المماليك الذين حملوا لواء الجهاد منذ بزوغ نجم دولتهم وحققوا للإسلام والمسلمين أعظم انتصار شهده التاريخ ضد المغول والصليبيين .

وإلى جانب هذا فقد أثبتت الدراسة جدوى إهتمام المماليك باحياء فكرة الجهاد وغرسه في نفوس رجالهم على اعتبار انه فرض عين على كل مسلم مستطيع ، لا يقل عن كونه ركنا من أركان الإسلام . وكذلك الحال بالنسبة لنظام الإقطاع الحربي الذى اتخذ منه سلاطين دولة المماليك وسيلة للصرف على جيوشهم بمختلف عناصرها . حيث قاموا بتوزيع أراضي مصر والشام على شكل إقطاعات بين أمرائهم وقادة جيوشهم ، مقابل التزامات حربية وخدمات مدنية يؤديها المُقطَع . وضمنوا بهذا النظام حصولهم وقت الحرب على جيش منظم مزود بكافة متطلبات القتال .

كما أوضحت الدراسة مدى ما وصل إليه سلاطين دولة المماليك من تقدم في وضع التنظيمات العسكرية البارعة لجيوشهم . إذ اتبعوا في جهادهم ضد المغول والصليبيين خططا عسكرية متنوعة ، منها ما كان يقوم على أساس الاشتباك مع العدو في معارك مكشوفة على شكل تعبئة قتالية مكونة من المقدمة والمؤخرة والقلب والجناحين ، ومنها ما كان يعتمد على أساليب الكر والفر والخداع والتمويه ونصب الكمائن وغير ذلك ، فضلا عما قامت به فرق من جيوشهم من أعمال فدائية كان الهدف منها إنهاك العدو وكشف خططه . يضاف إلى ذلك الخطط البارعة التى اتبعها سلاطين دولة المماليك في حصارهم للمدن والحصون والقلاع التى كانت تقوم على ضرب الأسوار والأبراج بالمنجنيقات ، ومن ثم تقدم فرق من جيوشهم على شكل زحوف تحميها سهام الرماة نحو الأسوار لنقبها وفتح الثغرات فيها تمهيدا لإقتحامها والاستيلاء عليها .

كما أوضحت الدراسة أيضا أن سلاطين دولة المماليك أدركوا منذ قيام دولتهم في مصر ما للبحرية من أهمية في جهادهم لتصفية الوجود الصليبي من ساحل بلاد الشام ، فعملوا منذ بداية عهدهم على إعادة بناء الأسطول الإسلامي الذى كان قد ضعف في أواخر عهد الدولة الأيوبية . فأنشأوا دورا للصناعة بالموانيء المصرية ، قامت ببناء أسطول إسلامي عظيم حقق المماليك بفضله إنتصارات بحرية عظيمة .

والقت الدراسة الأضواء على مدى ما توصل اليه المسلمون في ذلك الوقت من إنتاج أسلحة متطورة كان لها الأثر البالغ فيما حققوه من انتصارات ضد المغول والصليبيين وحلفائهم فإلى جانب إستخدامهم للأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات والدبابات وغيرها . عرفوا أسرار أعظم سلاح عرفته العصور الوسطى ذلك هو سلاح النفط (النار الاغريقية) والبارود وبرع المسلمون آنذاك في صناعة أنواع متعددة منهما ، منها ما هو مماثل لما نشاهده في عصرنا الحاضر .

وأخيرا يمكن القول أن سلاطين دولة المماليك قطز وبيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل حققوا أحلام زعماء الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم ، باقتلاع الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي من جذوره . فضلا عما قاموا به من جهود جبارة في مواجهة الغزو المغولي المدمر على بلاد المسلمين . وعليه فستظل مكانتهم إن شاء الله في تاريخ الجهاد ضد أعداء الإسلام عظيمة خالدة أبد الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الملاحق

الملحق الاول

نص تقليد الخليفة العباسي المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس.[1] « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام بملابس الشرف، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف، وقيض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف.

أحمده على نعمه التي رتعت الأعين منها في الروض الأنف والطافه التي وقف الشكر عليها فليس له عنها منصرف. وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له، شهادة توجب من المخاوف أمنا، وتسهل من الأمور ما كان حزنا. وأشهد أن محمدا عبده الذي جبر من الدين وهنا ورسوله الذي أظهر من المكارم فنونا لا فنا. صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لاتفنى وأصحابه الذين أحسنوا في الدين، فاستحقوا الزيادة من الحسنى وسلم تسليما كثيرا.

وبعد فان أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا في تسطير مناقبه وبره من سعى، فاضحى بسعيه الحميد متقدما، ودعا الى طاعته، فاجأب من كان منجدا ومتهما، ومابدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما، ولا استباح حمى وغي إلّا أضرمه نارا أو أجراه دما.

ولما كانت هذه المناقب مختصة بالمقام العالي المولو السلطاني الظاهري الركني شرفه الله واعلاه ـ ذكره الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري ـ أعز الله سلطانه ـ تنويها بشرف قدره واعترافا بصنعه التي تنفذ العبارة المسهبة ولاتقوم بشكره، وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ماكان لها من محاسن وإحسان، وأعتب دهرها المسيء لها فاعتب، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها حربا، وصرف اليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها رحبا ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لايخفى، وأبدى من الإهتمام بأمر الشريعة البيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه ولو تمسك بحبله متمسك

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٠٢ وما بعدها.

لانقطع به قبل الوصول إليه ، لكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ويخفف بها يوم القيامة حسابه ، والسعيد من خفف حسابه ، فهذه منقبة أبي الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه ، بعد أن حصل الاياس من جمعه .

وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الرقع ، وقد قلدك الديار المصرية ، والبلاد والديار بكرية والحجازية واليمنية ، والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها اليك ، حين أصبحت بالمكارم فردا ، وما جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون مستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى .

فلاحظ أمور الأمة ، فقد أصبحت لها حاملا ، وخلّص نفسك من التبعات اليوم ، ففي غد تكون مسؤولا لا سائلا ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا وما رآها أحد بعين الحق إلا خيالا زائلا ، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة ، وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمه غير التقوى مردودة لامقبولة وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر الله بالعدل والإحسان وكرر ذكره في مواضع من القرآن وكفر به من المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما ، وجعل يوما واحدا منه كعبادة العابد ستين عاما ، وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه وهو مشيد الأركان وتحصن به من حوادث زمانه ـ والسعيد من تحصن من حوادث الزمان ، وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعيان ، وأحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد ، وأحلى من العقود اذا حلى بها عطل الأجياد .

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام ، فاذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيبا ، واجعل عليه في تصرفاته رقيبا ، وسل ، عن أحواله ففي يوم القيامة تكون عنه مسؤولا وبما أجرم مطلوبا ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لاذنوبا ، وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى اذا ظهرت أدلة الحق ، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق ، وأن لا يعاملوا أحد على الاحسان والإساءة إلا بما يستحق

وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخوانا ، وأن يوسعوهم برا وإحسانا وأن لا يستحلوا حرماتهم اذا استحل الزمان لهم حرمانا ، والمسلم أخو المسلم ، ولو كان أميرا عليه أو سلطانا ، فالسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله .

ومما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيىء السنين وجدد من المظالم التي هي على الخلائق من أعظم المحن ، وأن يشتري بإبطالها المحامد فإن المحامد رخيصة بأعلى ثمن ، ومهما جبى منها من الأموال ، فإنما هي باقية في الذمم حاصلة ، وأجياد الخزائن إن أضحت خالية فإنما على الحقيقة منها عاطلة ، وهل أشقى ممن احتقب إثما ، واكتسب بالمساعي الذميمة ذما ، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة خصما ، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعمال (وقد خاب من حمل ظلما)[1]

وحقيق بالمقام الشريف السلطاني الملكي ، الظاهري ، الركني أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة لهم بحمله ، فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام مالم تصنعه لغيره ممن تقدم من الملوك ، وان جاء اخرا . فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك امام هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى ، وأن يوالي عليها حمد الله ، فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلا وصار غيرك فرعا .

ومما يجب ايضا تقديم ذكره ، أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضا ، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصهم بالجنة التي (لا لغو فيها ولا تأثيم)[2] وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد ، وعُرفت منك عزمة هي أمضى ماتحنه ضمائر الأغماد واشتهرت لك مواقف في القتال هي اشهر وأشهى الى القلوب من الأعياد ، وبك صان الله حمى الاسلام من أن يبتذل وبعزمك

---

(١) سورة طه الآية ١١١ .

(٢) سورة النور الآية ٢٢ .

حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ، وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحا لاتندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة الى ماكان عليه في الأيام الأولى ، فايقظ لنصرة الاسلام حقا ماكان غافيا ولا هاجعا ، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا ، وأيد كلمة التوحيد ، فما تجد في تأييدها إلا مطيعا سامعا .

ولا تخل الثغور من اهتمام أمرها ، تبتسم له الثغور ، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها بالنور ، واجعل أمرها على الأمور مقدما ، وشيد منها كل ماغادره العدو متهدما ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا والعدو له ملتفتا ناظرا ، لاسيما ثغور الديار المصرية ، فان العدو وصل اليها رابحا وراح خاسرا واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا .

وكذلك الاسطول الذي ترى خيله كالاهلة ، وركائبه سائقة بغير سائق مستقلة ، وهو أخو الجيش السليماني ، فان ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه السائله ، واذا لحظها الطرف جارية في البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال « هذه ليال تقلع بالايام » .

وقد سنى لك الله من السعادة كل مطلب ، وأتاك من أصالة الرأى الذي يريك المغيب ، وبسط بعد القبض منك الأمل ، ونشط بالسعادة ماكان من كسل ، وهداك إلى مناهج الحق ، ومازالت مهتديا إليها ، والزمن الراشد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها . والله يمدك بأسباب نصره ، ويوزعك شكر نعمه ، فان النعمة تستثمر بشكره ان شاء الله تعالى .

الملــحق الثــاني

مضمون كتب وردت إلى السلطان الظاهر بيبرس من عند مقدم الاسبتارية سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م وجواب السلطان عليها .[١]

« وكان مقدم[٢] الاسبتار قد كتب عدة كتب ، منها جواب عن مشافهة على لسان كندو[٣] الداوية ، مضمونها : إنكم نقضتم العهد بأمور منها سوف تسمعونها ، يعني بأخبار التتار ، فكتب السلطان اليهم : إن شرط الهدنة التي كانت بيننا لا تجدد بناء ، وقد شرع بيت الاسبتار في بناء ربض على أرسوف وغير ذلك ، وهذا من بعض ما ينقض العهد . فردوا الى السلطان : إنا لم نبن هذا الربض إلا لحماية الصعاليك من متجرمة المسلمين ، إلى غير ذلك مما يشبه هذا الكلام . فكان جواب الملك الظاهر : أما تجديد الربض لحفظ الصعاليك ، فالبلاد ما تحفظ بالأسوار ولا تحفظ الرعية ولا بالخنادق ، ولا تحفظ إلا بأحد أمرين ، إما بالسيوف والعزائم ، وإما بإحسان الجيرة وكف الأذى . ومن يخاف من اللصوص لم لايخاف من غيرهم ؟ وأما أمر التتار ، وما جعلنا حصوننا إلا خيولنا ، ولا خنادقنا إلا سيوفنا ، ولا أسوارنا إلا رجالنا وأما قولكم إن قلاعكم ما تخاف إلا الله ، ولا يجسر أحد أن يصل اليها . فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها ، إن شاء الله تعالى . وما يفزع من أخبار التتار إلا مثلكم ، وإلا هذه عساكري أولها في الفرات وآخرها في عيذاب وما هي متواصلة . »

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ورقة ٤١٤ ب ، ٤١٥ آ .

(٢) كان مقدم الاسبتارية ورئيسها تلك السنة (F hugn Revel) انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٦٥ .

(٣) هذا اللفظ تعريب حرفي لكلمة (Commander) في اللغة الإنجليزية ، والراجح أن مرادفها في العربية الصحيحة لفظ المقدم ، وهو الذي يلي الرئيس العام (Grand riaster) في ترتيب الوظائف الكبرى عند الاسبتارية والداوية . ويظهر أن الرئيس العام في كل من الهيئتين كان يحتفظ لنفسه بوظيفته الأصلية مع وظيفة الرئاسة ، هذا وقد كان مقدم الداوية ورئيسها تلك السنة (Thomas Bernara) انظر المقريزي ، السلوك .

الملـحق الثـالث

نصُّ كتاب السلطان الظاهر بيبرس إلى بوهيمند السادس (Bohemond) أمير أنطاكية وطرابلس ، بعد فتح أنطاكية سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م[١].

قد علم القومص[٢] الجليل المبجل ، المعزّز الهمام الأسد الضرغام ، بيمند فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية كبيرة الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية (منه) من البرنسية[٣] الى القوموصية ، ألهمه الله رشدة ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عليه ، ماكان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض . ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر ، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازى واستخدم الخديم وركب الماشي .

هذا وأنت تنظر نظر المغشيِّ عليه من الموت ، واذا سمعت صوتا قلت فزعا عليّ بهذا الصوت ، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخّرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود ،وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية الا وهي في ملكنا جارية ، ولا سارية إلا وهي من أيدي المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعتك تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترقة وللعقول خارقة ، وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا الى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٠٩ ومابعدها .

(٢) القومص تعريف اللفظ اللاتيني (Comes) وهو في الفرنسية (Comte)وفي العربية الدارجة « الكونت » (انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٦٦) .

(٣) البرنسية صفة البرنس ، وهو معرب اللفظ اللاتيني (Princeps) او (Prince)في الفرنسية والانجليزية . (انظر المقريزي ، المصدر نفسه) .

وهنا نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذي عم : كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرى شعبان ، ونزولنا انطاكية في مستهل شهر رمضان . وفي حالة النزول خرجت عساكرك المبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كنداسطبل[1] ، فسأل مراجعة أصحابك فدخل الى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك واعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من اتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأن رأيهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر وهذا هو الأول في الانذار والآخر ، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين انك تدركهم بخيلك ورجلك . ففي بعض ساعة مرشان المرشان[2] ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان[3] ، وجاءهم الموت من كل مكان .

وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم الا وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي احد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها .

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهّابة فيها تصول ، والكسّابة[4] فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ودامتك[5] وكل أربع

---

(١) الكنداسطبل معرب اللفظ اللاتيني المركب (comes stabull) ومعناه في مصطلح العصور الوسطى الأوربية حاكم القلعة وحارسها ، ويقابله في مصطلح الدول الإسلامية لفظا « الذزدار » و « المستحفظ » (انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٦٧) .

(٢) المرشان تعريب لفظ (marescnal) في الفرنسية القديمة وهو مأخوذ من اللفظ اللاتيني (mariscaicus) ومعناه في مصطلح التاريخ الأوربي في العصور الوسطى « منظم الحفلات والمجالس » في البلاط ، وربما كان مرادفه في مصطلح دولة المماليك وظيفة « أمير المجلس » (انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٦٧) .

(٣) القسطلان معرب اللفظ اللاتيني (Castellanus) وهو حارس القصر (انظر المقريزي ، المصدر نفسه) .

(٤) ترجم (Quatremere : Op. Cot. 1. 2. p. 193) هذا القول إلى (ceus qui cnercnalent)أي الذين كان همهم كسب الغنائم (انظر المقريزي ، المصدر نفسه ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٦٨) .

(٥) ترجم (Quatremere : Op. Cit. 1. 2. p.193) هذا اللفظ إلى (Joyaux)اي الجواهر الثمينة ولعله مخطيء هنا ، اذ ليس من المعقول أن تباع الجواهر الثمينة أربعة بدينار كما بالمتن ، وربما كان هذا اللفظ تعريبا للكلمة الفرنسية (Qames) اي النساء ، أو لعل المقصود لفظ « الدميات » وهو جمع « دمية » (انظر المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٦٨) .

منهن تباع فتشترى من مالك بدينار ـ؛ ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نشرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت ، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت وزالت ـ، لكنت تقول « ياليتني كنت ترابا ! وياليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا !» ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفيء تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الإله الذي أعطاك أنطاكية منك استرجعها ، والرب الذي اعطاك قلعتها منك قَلَعَها ، ومن الأرض اقتلعها .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ماكنت أخذته من حصون الإسلام : وهو ديركوش وشقيف تلميس وشقيف كفردنين ، وجميع ماكان في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي ، وفرقناهم في الداني والقاصي ، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر ، فلو استطاع لما سمي بالعاصي ، وقد أجرى دموعه ندما ، وكان يذرفها عبر صافية ، فما هو أحراها بما سفكناه فيه دما .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلا وإما أسيرا ، وإما جريحا وإما كسيرا ، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة مافات .

ولمّا لم يسلم احد يخبرك بما جبرناك ، ولما لم يقدر احد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لتتحقق الأمر على ماجرى .

وبعد هذه المكاتبة لاينبغي لك أن تكذب لنا خبرا كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ان لا تسأل غيرها مخبرا » قال ولما وصل اليه هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب .

الملحق الرابع

نصُّ شروط الهدنة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبيت الاسبتار وإمارة طرابلس في المحرم سنة ٦٨٠ هـ (ابريل ١٢٨١ م)[1] .

ذكر ما تقرر من المهادنات مع الفرنج على ما نذكر . وفيها تقررت الهدنة بين السلطان وللده معاً ، وبين مقدم بيت الاسبتار وجميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشر سنين كوامل متتابعات وعشر شهور وعشرة أيام وعشر ساعات ، أول ذلك يوم السبت ثاني عشر محرم سنة ثمانين وستمائة ، الموافق الثالث من شهر آيار سنة ألف وخمسمائة (و) اثنين وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني ، على جميع بلاد السلطان وما اشتملت عليه من الأقاليم والممالك والقلاع ، والمدن والحصون والبلاد والقرى ، والمزارع والأراضي والمواني والبحور ، والمراسي والثغور ، وسائر البلاد من الفرات إلى النوبة ، وعلى التجار والمسافرين في البر والبحر والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، وعلى قلعة المرقب وربض المرقب بحقوقه وحدوده .

وتقررت الهدنة مع متملك طرابلس بيمند بن بيمند ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات يتبع بعضها بعضاً ، أولها يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة الموافق للخامس من تموز سنة ألف وخمسمائة (و) اثنتين وتسعين للاسكندر ، وآخرها سابع عشر ربيع الأول سنة تسعين وستمائة للهجرة النبوية . وذلك على بلاد السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك الصالح أعز الله نصرهما ، قريبها وبعيدها ، سهلها وجبلها ، غورها ونجدها ، قديمها ومستجدها ، وما هو مجاور لطرابلس ومحادد لها من المملكة البعلبكية جميعها ، وجبالها وقراها الرحيلة والجبلية ، وجبال الضّنين والعضبين وما هو من جملتها وحقوقها وعلى الفتوحات المستجدة : وهي حصن الأكراد وبلاده وأفليس وبلادها والقليعات وبلادها ، وصافيتا وبلادها ، وميعار وبلادها واطليعا وبلادها ، وحصن عكار وبلاده ، ومراقية ومدينتها وبلادها ومناصفاتها : وهي بلاد اللكمة (وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها)

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الاسبتار وبلندة ومدينته وبلادها ، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى ، وبلاد الست وبلاطنس وبلادها ، وقرفيص وبلادها ، وجبلة وبلاد اللاذقية وأنطاكية وبلادها ، والسويدية وميناؤها ، وحصن بغراس وبلاده ، وحصن ديكروش وبلاده وشقيف تلميس وبلاده ، وكفر دنين وبلاده ، والدربساك وبلاده ، وثغرى الشغر وبكاس وبلادهما ، والقصير وبلاده ، وصهيون وبلادها ، وبرزية وأعمالها ، والقلعية وأعمالها ، وعيدوا وأعمالها ، ومصياف وبلادها ، وحصون الدعوة وما اشتملت عليه من البلاد والقلاع : وهي القدموس والكهف والمنيقة والخوابي والرصافي والقليعة والعليقة ، والمملكة الحلبية وحصونها ومدنها وبلادها ، وشيزر وأبو قبيس وبلادها ، والمملكة الحموية وبلادها ، والمملكة الحمصية وبلادها ، وجميع ما لمولانا السلطان من ممالك وحصون وبلاده ، وقلاع وثغور وأبراج ، وموان وسواحل وبرور وأنهار ، وبساتين ومصايد وملاحات ، وسهل وجبل وعامر ودائر ، وجميع الأمطار مصريها وشاميها وساحليها وحجازيها وغربها وشرقها وما سيفتحه الله على يده ويد ولده ويد عساكرهما وجنودهما من الممالك والحصون ، وعلى بلاد الأبرنس : وهي طرابلس وماهو داخل بها ومحسوب منها ، وأنفه وبلادها وجبيل وبلادها ، ومدينة البثرون وأعمالها ، وصنم جبيل وبلاده ، وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة ومدتها إحدى وخمسون ناحية ، وما هو للخيالة والكنائس وعدتها أحد وعشرون بلداً ، وما هو للفارس روجار دلالولاي من قبلي طرابلس يكون مناصفة ، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وما تجدد فيه لخاص الإبرنس .

ويستقر النواب من الجهتين بمدينة اللاذقية وميناثها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفات ، ويستقر مقامهم بمدينة اللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية (بيبرس) وكذلك في رعايا مدينة اللاذقية وبلادها ، على ما تضمنته الهدنة الظاهرية (بيبرس) ، وعلى أن يكون على جسر ارتوسية من غلمان السلطان لحفظ الحقوق والغلات ستة عشر نفراً : وهم المشد وغلامه والشاهد وغلامته ، والكاتب وغلامه ، وعشرة أنفار رجالة في خدمة المشد ، ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنون فيها على العادة ، ولا يحصل منهم مضرة لرعية الإبرنس ، وأن يمنعوا ما يجب منعه من الممنوعات وألا يمنعوا ما يكون عرقا وبلادها ، وما يعبر من غلالها ومن أراضيها ،

مما يستغل منها ومن بلادها على ما تشهد به الهدنة ، من الصيفي والشتوي ، وغير ذلك مما يتعلق بعرقا وبلادها لا يعارضهم المشد فيه وما خلا ذلك مما يعبر من بلاد مولانا السلطان تؤخذ عليه الحقوق ، ولا تدخل إلى طرابلس غلة محمية باسم البرنس ولا أصحابه إلا (و) تؤخذ الحقوق عليها ، وعلى أن الإبرنس لا يستجد خارج مدينته ، ولا في البلاد التي وقعت الهدنة عليها بناء يمنع ويدفع ، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة من الأخرى ، وكذلك مولانا السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل مجاورة للبلاد التي وقعت الهدنة عليها ، ولا ينتقض ذلك بموت أحد من الجهتين ولا بتغييره ، ولا برجل غريبة من الفرنج أو التتار بل تكون هذه الهدنة باقية . ومتى جاءت رَجْل غريبة يداريهم عن بلاده وعن نفسه ، ولا يدخل في مشورة تؤدي إلى اعتماد سوء أو مكروه ولا يحسن لأحد من أعداء مولانا السلطان ، ولا يتفق عليه برمز ولا خط ، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة ، فتقرر الحال على ذلك ، وعادت رسل كل جهة إليها .

الملحـق الخـامس

نص كتاب السلطان أحمد تكدار إلى السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م وجواب السلطان قلاوون عليه[١] .

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال قا أن[٢] فرمان أحمد // إلى سلطان مصر : أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بحمد عليه أفضل الصلوات والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده في بريته ، « فمن يرد الله / أن يهديه يشرح صدره للإسلام »[٣] فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى بعد أبينا الجيِّد وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا ، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه وجلا هذي المملكة علينا . وأهدى عقيلتها إلينا . فاجتمع عندنا // في قوريلتالي[٤] المبارك - وهو المجمع الذي تنقدح فيه الآراء - جميع الإخوان[٥] والأولاد[٦] والأمراء الكبار ، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد . واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون ، ص ٦ وما بعدها .

(٢) قا أن : قآن = خان .

(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام ويدل أول الخطاب على أن أحمد خان اعتنق الإسلام منذ حداثته .

(٤) قوريلتالي : قور يلتاي (كما وردت بعد ذلك في النص : وهي في التركية (quriltay) هو الاسم المغولي لمجلس السلطنة الذي يختار الحكام ويدرس المسائل العويصة التي لا يريد الحاكم أن يفصل فيها وحده (انظر ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه ، ص ٧) .

(٥) الإخوان : ترجمة للتعبير المغولي « أقاوايني aqawaini » أي الأخوة الكبار والصغار ، أو أمراء البيت المالك والتي نجدها في النصوص الفارسية التي تتحدث عن تاريخ خلفاء جنكيز خان وفي المغولية أقا aqa أي الأخ الأكبر أو شيخ القبيلة أو رأس الأسرة أيني ini أي الأخ الأصغر (انظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٧) .

(٦) الأولاد : ترجمة للفظة المغولية « أوغول » أي ولد ويضيفها المغول إلى اسم الملك للدلالة على أن المسن من العائلة المالكة وبذلك يكون معناها هنا : الأمراء (انظر ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه) .

إنقاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها وامتلأت الأرض رعباً لعظيم صولتها ، وشديد بطشتهم إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها ضم الأطواد وعزمة تلين بها صم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه . فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام ، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام . وألّا يصدر عن أوامرنا ـ ما أمكننا ـ إلا ما يوجب حقن // الدماء ، وتسكين الدهماء ، وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمر الله ، وشفقة على خلق الله . فألهمنا الله ـ تعالى ـ إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك / الرأي بما أرشدنا إليه : من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء[1] . وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال ، إلا بعد إيضاح المحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة . وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح . وتنفيذ ما // ظهر لنا به وجه النجاح . أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين ، عبدالرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين . فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه . ونقمة على من أعرض عنه وعصاه . وأنفذنا اقضى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة / الزاهرة ليعرفاهم طريقتنا .

ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ويبينّا لهم أننا من الله على بصيرة ، وأن الإسلام يَجبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله ، ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا إليه : من تقديم أسباب الإحسان ، ولا يحرموها بالنظر إلى سالف // الأحوال فكل يوم هو في شأن . فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الإعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من مآثرنا ، مما اشتهر خبره وعم أثره ، فإننا ابتدأنا ـ بتوفيق الله تعالى ـ بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً ، وإقامة نواميس / الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً . وأدخلنا السرور

(١) الأدواء : أي الحرب (ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه .

على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف ، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف . وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط // الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها لشروط واقفيها ، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولا فيها . وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سلبها وتسيير قوافلها . وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد / ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحرمنا على العساكر والقراغول[1] . والشحاني في الأطراف[2] التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم ، وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك . فلم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى ، وأعدناه إليهم . ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس // من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح فساءت ظنونهم في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وارتفعت الحاجة بحمد الله تعالى إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم . فإذا أمعنوا الفكر / في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين ، والذب عن حوزة المسلمين : فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين . وإن كانت // لما سبق من الأسباب فمن تحرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا الزلفى وحسن مآب وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها لنرضي بها الله والرسول وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلي بنور

---

(١) القراغول : عند المغول تطلق على حراس الطريق (انظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٩) .

(٢) الأطراف : ومعنى أطراف في الأصل النواحي المتطرفة ومقاطعات الحدود وأتت بمعنى العامة أو الطبقة الدنيا من الناس ، جاء في الكامل « رجل من أطراف الناس » وجاء في المنهل الصافي « كان من الأطراف الذين قدمهم الملك المؤيد » وجاء في النويري « يتجنبون الفقهاء والعلماء والأدباء والعقلاء ، وكانوا يطلبون أطراف البلاد أي العامة (أنظر ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور ص ٤) .

الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة . فتسكن في سابع ظلها البوادي والحواضر ، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر ، فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم // وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليك التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل الكافة أرض الهويني وروض الدون ، وتخلص رقاب المسلمين / من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولا[1] ، والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، وحسبنا الله وحده .

كتب في أواسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين // وستمائة بمقام الأطاق[2] .

وكتب مولانا السلطان جوابه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور :

كـــــلام قلاوون إلى السلطان أحمد /

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا الحق منهاجاً ، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً . والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي ، نجّى به أمته ، وعلى كل نبي ناجى ، صلاة تنير ما دجا وتُنير من داجَى . فقد وصل الكتاب الكريم // المتلقى بالتكريم ، المشتمل على النبأ العظيم : من دخوله في الدين ، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين .

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للمُعْلَم المُعْلِم . والحديث الذي صحح عند أهل الإسلام إسلامه ، وأصحُّ الحديث ما روي عن مسلم . وتوجهت الوجوه بالدعاء

---

(١) اقتباس من الآية ١٥ من سورة الإسراء .

(٢) كتب . . سنة . . . بمقام الأطاق utaq وتكتب أيضاً أوطاق otaq كلمة تركية بمعنى غرفة ـ خيمة أو مجموعة خيام أو معسكر ، والمعنى هنا بمعسكر السلطان (انظر ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه) .

إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول / الثابت ، وأن ينبت حَبّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت .

وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول العمر ، وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ودخوله في الملة المحمدية ، بالقول والعمل والنية . فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، وألهمه شريف // هذا الإلهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام . وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه . وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه ، وتوقله الأسِرّة التي طهرها إيمانه ، وأظهرها / سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده وصـــدّق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده .

وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قوريلتاي الذي تتقدح فيه زبدة الآراء وأن كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في // إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم ، وانتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفاً لما في ضميره ، إذ قصده الصلاح ، ورأيه الإصلاح . وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك الثائرة ، فهذا فعل الملك المتقي ، المشفق من قومه على من بقي ، المفكر في العواقب ، بالرأي الثاقب ، وإلا فلو / تُرِكوا وآراءهم حتى تحملهم الغِرّة ، لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة . لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى . وأما القول منه : أنه لا يجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة ، وتركيب الحجة ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا // وحجته المتركبة . على من غدت طواعيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة . فإن الله تعالى ثم الناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا ، إنما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الدخول ، وبارتفاع المنافرة / تحصل المضافرة ، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ومن أقام منارة فله أهل بأهل في كل مكان ، وجيران بجيران في كل أرض ، وأما ترتب هذه القواعد الجمة على

أذكار شيخ الإسلام ، قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ـ أعاد الله من بركاته ـ فلم تر أولى قبلة كرامة كهذه الكرامة // ، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة ، حتى تتم شرائط الإيمان ، ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن مما كان . ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود ، ان كلّ حق ببركته إلى نصابه يعود .

وأما إنفاذ إقضى القضاه قطب الملة والدين ، والأتابك بهاءِ الدين / الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالي[١] أحواله وخطرات خاطره ومنتظرات ناظره . ومن كل ما يشكر ويحمد ، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة إلى النفوس إنْ كانت لها تطلع إلى إقامة دليل ، تستحكم بسببه دواعي الود الجميل // فلينظر إلى ما ظهر من مآثره ، في موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسان ، بالقلب واللسان ، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبل للحج إلى غير ذلك . فهذه صفات من يريد لملكه الدوام . فلما ملك عدل ، ولم يمل إلى لؤم من عدا ولا لوم من عدل . على أنها وإن كانت / من الأفعال الحسنة والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة فهي واجبات تؤدى ، وقربات بمثلها يبدى ، وهو أكبر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر ، أو له يدخر . بل إنما تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها ، ونظمها على ما كانت عليه في سلوكها وقد كان والده فعل شيئاً // مع الملوك السلجوقية وغيرهم وما كان أحد منهم يدينه بدين ، ولا دخل معه في دين . وأقرهم في ملكهم ، وما زحزحهم عن ملكهم ويجب عليه ألاّ يرى حقا ومغتصباً ويأبى إلا رده ، ولا باعاً ممتداً بالظلم يرضى إلا صده . حتى إن أسباب ملكه تقوى ، وأيامه تتزين بأفعال التقوى .

وأما تحريمه / على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرض إلى أحد بالأذى وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى فمن حين بلغنا تقدمه بمثل

(١) حوالي أحواله : حوالي جمع حالية أي نفائس أحواله . ابن عبد الظاهر المصدر نفسه .

ذلك تقدمنا أيضاً بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب وإلى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك وإذا اتحد الإيمان وانعقد الأيمان تحتم // هذا الإحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذي أُمسِك وأُطلق ، وأن بسبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قُتِلَ جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزند من ذلك الطرف كان قدحه . وكم من متزي بفقير من ذلك الجانب سيروه / ، وإلى الاطلاّع على الأمور سَوّروه ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ما غطوه بخرقة الفقر بلم ولا كيف . وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف وتدربها من الخيرات الأخلاف ، ويكون بها صلاح العالم ، وانتظام شمل بني آدم ، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد // وجنح إلى السلم وما حاد ولا حادّ . ومن ثني عناية عن المكافحة ، كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة . والصلح وإن كان سيد الأحكام فلا بد من أمور تبنى عليه قواعده ويعلم من مدلوله فوائده . فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مغنى ومعلم ، إن تهيأ صلح أو لم . وثم أمور لا بد وأن تحكم / وفي سلكها عقود العهود تنظم . قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس ، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس . وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)[1] فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على هذا السبيل // ينهج . بل لفضل المتقدم في الدين ونصرة عهود ترعى ، وإفادات تستدعى . وما برح الفضل للأولوية وإن تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروى وتأول :

وعندما انتهينا إلى جواب ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب ، سمعنا المشافهة التي / على لسان أقضى القضاة قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب : من دخوله في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين ، ومابسطه من معدله

(١) آية ١٥ سورة الإسراء .

وإحسان ، مشكورة بلسان كل إنسان فالمنة لله عليه في ذلك فلا يشبها منه بامتنان . وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه : « قل لا تمنوا علي إسلامكم // بل الله يمن عليكم إن هداكم للإيمان »[1] .

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ، ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء ، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل . فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة / ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا ، وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا . فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة ، فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحسن الوداد ، وجميل الاعتضاد ، وكبت الأعداء والأضداد // والاستناد إلى من يشتد الأمر به عند الاستناد فالرأي إليه في ذلك .

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى مافي يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود . فالجواب عن ذلك أنه إذا كَفَّ كَفُّ العدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت / الدهماء ، وحقنت الدماء وما أحقه بألا ينهى عن خلق ويأتي بمثله ، ولا يأمر ببر وينسى فعله . وقنغرطاي بالروم ، وهي بلاد في أيديكم وخراجها يجبى إليكم ، وقد سفك فيها وفتك ، وسبى وهتك ، وباع الأحرار ، وأبى إلا التمادي على الإضرار والإصرار .

ومن المشافهة أنه حصر التصميم // على ألا تبطل هذه الغارات ولا تفترعن هذه الإثارات ، فيعين مكاناً يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي أتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم ، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم . فوقت اللقاء / علمه عند الله فلا يقدَّر وما النصر إلاّ من عند الله لمن أقدر لا لمن قدَّر . ولا نحن ممن ينتظر فَلْتة ، ولا ممن له إلى غير ذلك لفتة وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بغتة ، والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة // .

---

(١) آية ١٧ سورة الحجرات .

الملحــق الســادس

وصف موقعة عكا بين جيوش السلطان الأشرف خليل والصليبيين سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٠ م على لسان بيبرس الدوادار الذي شارك بنفسه السلطان فتحها[١] .

« قال الراوي : وكنت حينئذ بالكرك ، فلما بلغني أمر هذه الغزاة وردت على مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات ، تاقت نفسي إلى الجهاد ، وحنّت إليه حنو الأرض الظامئة إلى صوب العهاد فطالعت السلطان بذلك ، وسألته أن أصير إلى هنالك ، لأساهم في ثواب الغزو وأشارك ، فأذن لي في الحضور ، وسمح بالدستور ، فكنت كمن فاز أمله بنجاحه ، وانجلى ليله بصباحه ، فجهزت من الزردخانات المانعة والآلات النافعة والرجال المجتهدين ، والرماة والحجارين ، والغزاة والنجارين ، وتوجهت ملاقياً السلطان ، فوافيته وقد وصل غزة فلقيت منه إكراماً وبشراً وابتساماً ، وسرت في ركابه إلى عكا .

فلما نزلنا عليها حاق المحاق بأهلها ، وكانوا لما بلغتهم حركة السلطان لغزوهم ، ومسيره إلى نحوهم ، قد أرسلوا إلى ملوكهم الكبار ، واستدعوا النجد من داخل البحار ، واجتمع بها كثير من الديوية والاسبتار ، وحصنوا الأبراج والأسوار ، وأظهروا المصابرة وعدم المبالاة بالمحاصرة ، فلم يغلقوا للمدينة باباً ، ولا اسدلوا دونها حجاباً ، فنصبت عليها المجانيق الإسلامية ، وأحدقت بها العساكر المحمدية ، وأرسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة ، وسهاماً كالبوارق البارقة ، وضويقت أشد المضايقة ، وهم مع ذلك يظهرون الجلد ، ولا يغلقون أبواب البلد ، ويهاجمون العسكر ليلاً ونهاراً ، ويقاتلون قتالاً مدراراً .

واستشهد عليها الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي ، والأمير بدر الدين بيليك المسعودي ، وشرف الدين قيران السكري وشدد القتال وأسعرت نار النزال وتوالت سحب النوال بالنبال .

---

(١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

وأنا في ضمن ذلك أتأمل مكاناً تلوح الفرصة منه فأقصده ، وأتصفح جانباً تمكن منه الحيلة فلا أجده ، وبينما أنا أجيل فكرتي ، وأدير بصري وبصيرتي ، إذ لمحت برجاً من أبراجها قد أثرت فيه المجانيق ، وأمكن أن يتخذ منه طريق ، وبينه وبين السور فسحة مكشوفة ظاهرة ، لا يمكن السلوك فيها ، لأن الجروخ مسلطة عليها ، إلاّ باتخاذ ستارة تطولها وتشملها ، وتقي من بداخلها ، فعمدت إلى اللبود فجمعتها جمعاً ، ولفقت بعضها مع بعض لفقاً ، فتصور منها سحابة كبيرة طولاً وعرضاً ، ونصبت تجاه البدنة المهدومة من البرج صاريين من كلا الجانبين ، وجعلت على رؤوسها بكراً كبكرات المراكب وحيالاً ، ثم جذبت تلك السحابة المتخذة من اللباد ، فقامت كأنها سد من الأسداد ، وأتقنت ذلك في جنح الليل وهم غافلون عنه ، فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوه بالمجانيق والنشاب ، فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخي اللبد تحتها فيبطل زخمها ، والجروخ إذا رمتها لا تنفذ رسمها .

فتمكنا من المرور ، ووجدنا سبيلاً إلى العبور ، وضرب بيننا وبين الأعداء بسور ، وشرعنا في ردم الخندق الذي بين السورين بمخالي الخيل مملوءة بالتراب مع ما تيسر من الأخشاب ، فصار طريقاً سالكاً ، وكان رأياً مباركاً ، وسمع به السلطان ، فأعجبه ، وركب بنفسه وحضر بالكوسات والطبلخانات ، وضربت عند الصباح ، ولاحت تباشير الفلاح وحصل الزحف عليهم من ذلك المكان وغيره ، وطلعت العساكر بالسناجق السلطانية واتخنوا في مقاتلة الفرنجية وتمكنوا من المدينة ، وبذلوا فيها المناصل ، وأعملوا العوامل ، وسبوا الولدان والحلائل .

وحقق الله في الفتح الظنون ، وأقر به العيون ، واستبشر يومئذ المؤمنون وعلت الفرنجة ذلة وصغار ، وأنكسروا كسراً ما له انجبار . وعصت الأبراج الكبار التي فيها الديوية والأمن والاسبتار هيهات ، وقد اسبتج حمى حماتهم ، وضعفت قوى أقويائهم وكماتهم ، فحاصرناهم حول عشرة أيام أخر فاستأمن منهم ما ينيف عن عشرة ألف نفر ، ولم يجدوا مفراً من حين راموا المفر ، ولا مقراً حين أعوزهم المقر ، ففرقوا على الأمراء فقتلوهم عن أخرهم ، وأبقى السلطان جماعة من أسراهم ، وأرسلهم إلى الحصون .

وكان هذا الفتح العظيم في يوم الجمعة المبارك السابع عشر من جمادي الآخرة من هذه السنة ، وأستنقذ الله عكا من أيدي الكافرين ، على يد الملك الأشرف صلاح الدين خليل كما كان فتوحها أولاً على يد صلاح الدين . وأقامت بأيديهم مائة وثلاث سنين ، ولم ينهض أحد الملوك الأيوبيين ومن بعدهم من أرباب الدولة التركية باسترجاعها ، ولا سمت هممهم إلى امتراعها وذلك أن الفرنج أخذوها في الأيام الناصرية في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ولله الحمد على انتصار المسلمين واستظهار الموحدين ، وزوال دولة أعداء الدين ، وقمع الطغاة والملحدين ، بهمة أولى الهمم العلية ، والعزمات المنصورة المنصورية الأشرفية ولا خلاف في أن هذه الطائفة أربت على الأول ، ونالت بها الدولة من النصرة والنضرة ، ما لم تنله الدول ولما أتاح الله هذا الفتح وسهله ، وأباحه وعجله ، قرضه الشعراء وذكره الفضلاء .

الملحــق الســـابع

الخلفاء العباسيون في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، الثالث عشر لميلادي .

- المستعصم بالله (بغداد)	٦٤٠ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م .
- المستنصر بالله (القاهرة)	٦٥٩ - ٦٦١ هـ / ١٢٦١ - ١٢٦٣ م .
- الحاكم بأمر الله (القاهرة)	٦٦١ - ٧٠١ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٠٢ م .

ســلاطين المماليــك

شجر الدر	
المعز أيبك	٦٤٨ - ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٠ م .
المنصور نور الدين على بن أيبك	٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م .
المظفر سيف الدين قطز	٦٥٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٥٩ م .
الظاهر ركن الدين بيبرس	٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م .
السعيد ناصر الدين بركه	٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م .
العادل بدر الدين سلامش	٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧ - ١٢٧٩ م .
المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٧٩ م .
الأشرف خليل بن قلاوون	٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م .
الناصر محمد بن قلاوون[(١)]	٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م .
العادل زين الدين كتبغا	٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م .
المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٤ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م .
الناصر محمد بن قلاوون[(٢)]	٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٨ م .
	٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م .

سلاطين سلاجقة الروم

- عزالدين كيكاوس الثاني بن كيخسروا الثاني ٦٤٣ ـ ٦٥٥ هـ/ ١٢٤٥ ـ ١٢٥٧م .
- قلج أرسلان الرابع بن كيخسروا الثاني ٦٥٥ ـ ٦٦٦ هـ/ ١٢٥٧ ـ ١٢٦٧م .
- كيخسروا الثالث بن قلج أرسلان الرابع ٦٦٦ ـ ٦٨٢ هـ/ ١٢٦٧ ـ ١٢٨٣م .
- مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني ٦٨٢ ـ ٦٩٥ هـ/ ١٢٨٣ ـ ١٢٩٦م .
- كيقباد الثالث ٦٩٥ ـ ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٣٠٠م .

ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية

- كونراد الرابع ملك المانيا (ملك اسمي) ٦٤٨ ـ ٦٥٢ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ م .
- كونراد بن (ملك اسمي) ٦٥٢ ـ ٦٦٧ هـ / ١٢٥٤ ـ ١٢٦٨ م .
- هيو الثالث ملك قبرص الثاني ٦٦٧ ـ ٦٨٣ هـ / ١٢٦٩ ـ ١٢٨٤ م .
- حنا الأول ملك بيت المقدس ٦٨٣ ـ ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ م .
- هنري الثالث ملك قبرص الثاني ٦٨٥ ـ ٦٩٠ هـ / ١٢٨٦ ـ ١٢٩١ م .

أمراء أنطاكية

- بوهيمند الخامس ٦٣١ ـ ٦٤٩ هـ / ١٢٣٣ ـ ١٢٥١ م .
- بوهيمند السادس ٦٤٩ ـ ٦٦٧ هـ / ١٢٥١ ـ ١٢٦٨ م .

أمراء طرابلس

- بوهيمند الخامس ٦٣١ ـ ٦٤٩ هـ / ١٢٣٣ ـ ١٢٥١ م .
- بوهيمند السادس ٦٤٩ ـ ٦٧٤ هـ / ١٢٥١ ـ ١٢٧٥ م .
- بوهيمند السابع ٦٧٤ ـ ٦٨٦ هـ / ١٢٧٥ ـ ١٢٨٧ م .

ملوك أرمينية الصغرى

- هيثوم الأول ٦١٩ - ٦٦٨ هـ / ١٢٢٢ - ١٢٦٩ م .
- ليو الثالث ٦٦٨ - ٦٨٨ هـ / ١٢٧٠ - ١٢٨٩ م .
- هيثوم الثاني[١] ٦٨٨ - ٦٩٢ هـ / ١٢٨٩ - ١٢٩٣ م .
- ثوروس الثالث ٦٩٢ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م .
- هيثوم الثاني[٢] ٦٩٣ - ٦٩٥ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م .
- سمباد ٦٩٥ - ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ - ١٢٩٨ م .
- قسطنطين الأول ٦٩٧ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٢٩٩ م .
- هيثوم الثاني[٣] ٦٩٨ - ٧٠٥ هـ / ١٢٩٩ - ١٣٠٥ م .

أباطرة الدولة البيزنطية

- تيودور الثاني لاسكارس ٦٥٢ - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٤ - ١٢٥٨ م .
- حنا الرابع لاسكارس ٦٥٦ - ٦٦٠ هـ / ١٢٥٨ - ١٢٦١ م .
- ميخائيل الثامن باليولوخس ٦١٠ - ٦٨١ هـ / ١٢٦٤ - ١٢٨٢ م .
- أندرنيكوس الثاني باليولوخس ٦٨١ - ٧٢٩ هـ / ١٢٨١ - ١٣٢٨ م .

حكام مغول فاس

- هولاكو خان ٦٥١ - ٦٦٣ هـ / ١٢٥٢ - ١٢٦٤ م .
- أبغا بن هولاكو ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ / ١٢٦٤ - ١٢٨١ م .
- أحمد تكدار بن هولاكو ٦٨٠ - ٦٨٣ هـ / ١٢٨١ - ١٢٨٤ م .
- أرغون خان بن أبغا ٦٨٣ - ٦٩٠ هـ / ١٢٨٤ - ١٢٩١ م .
- كيخاتو خان بن أبغا ٦٩٠ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٤ م .
- بايدوخان بن طرغاي بن هولاكو ٦٩٤ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٤ م .
- غازان بن أرغون ٦٩٤ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩٤ - ١٣٠٣ م .

المصادر والمراجع

المصـــادر والمراجــع

أولاً ـ المخطـــــوطات :

ـ ابن ايبك الدواداري (أبو بكر عبدالله بن ايبك ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ـ مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٨٢٨ ج .

ـ ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، ٨١٣ ـ ٨٧٤ هـ / ١٤١٠ ـ ١٤٦٩ م) .

١ ـ مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة ، صورة بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة رقم ٨٤٤ تاريخ .

٢ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٣١٠ ـ ونسخة مكتبة عارف حكمت ج ١ ـ رقم ٦٢٤/٣٢ ـ ٦٣٠ ـ وج ٢ رقم ٦٣٠/٩٠٠ .

ـ ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ـ ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .

١ ـ درة الأسلاك في دولة الأتراك ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة .

٢ ـ الفوائد المنتقاة من تاريخ صاحب حماة ـ صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة رقم ٣٧٢ .

ـ ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ت ٨٠٩ / ١٤٠٦ م) .

١ ـ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، مكتبة أحمد الثالث في استانبول رقم ٢٩٠٣ .

٢ ـ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٨٥١ .

ـ ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .
عيون التواريخ ، ج ١٥ ، دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ ، صورة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .

ـ ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) .

١ ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، مكتبة ايا صوفيا باستانبول رقم ٣٠٨٤ ، ومكتبة الفاتيكان ، برقم ٧٣٠ ، وتوجد منها صورتان بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .

٢ ـ تاريخ الظاهر بيبرس ، ج ٢ ، مكتبة الجامع السليماني ، في أدرنه ، رقم ٢٣٠٦ .

ـ ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ مكتبة أيا صوفيا ، ومكتبة فيض الله ١٤٠٤ ، ومكتبة أحمد الثالث ٢٩٢٥ .

ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) .

١ ـ التاريخ الصالحي ، مكتبة فاتح باستانبول رقم ٤٢٢٤ .

٢ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، أو تاريخ الواصلين ج ٦ ، دار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ .

ـ الأصفهاني (القاضي عماد الدين محمد بن محمد ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م)
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، وذيل عليه علم الدين سنجر المسروري من سنة ٥٩٣ إلى سنة ٦٣٥ هـ على المخطوطة نفسها ، مكتبة أحمد الثالث في استانبول ، رقم ٢٩٥٩ .

ـ بدر الدين الحلبي (أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ، ٧٧٩ هـ / ١٣٣٧ م)
جهينة الأخبار في تاريخ الأنبياء والخلفاء وملوك الأمصار ، مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٥١٥٧ .

ـ البرزالي (علم الدين ، ت ٧٣٩ هـ / ١٣٤٠ م)
المقتفى لتاريخ أبي شامة ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٥٠٧ .

ـ بيبرس الدوادار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري ، مملوك السلطان المنصور قلاوون الألفي ، ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) .

١ ـ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ ، صورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٢٨ ، توجد منها صورة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى .

٢ ـ التحفة الملوكية في الدولة التركية ، صورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٢٩ ، وتوجد منها صورة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى .

ـ الجزري (محمد بن إبراهيم بن محمد)
تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ١١٢ .

ـ الجنابي (أبو محمد الشريف مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد بن السيد حسن الحسيني الهاشمي ، ت ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م) .
البحر الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر ، مكتبة الحرم المكي الشريف رقم ٢ .

ـ الحريري (أحمد بن علي) ، كان حياً سنة ٩٢٦ هـ ، وهي سنة انتهائه من تأليف كتابه ، الاعلام

والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة .

- الحنبلي (أحمد بن أحمد نصر الله)
شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، صورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٢١ .

- الخزرجي (جمال الدين على بن الحسن الأنصاري ، ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م)
العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٧٣٦ .

- الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز ، ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)
تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، دار الكتب المصرية في القاهرة رقم ٤٢ .

- سبط ابن العجمي (موفق الدين أبوذر أحمد بن ابراهيم الحلبي ت ٨٨٤ هـ / ١٤٤٩ م) .
كنوز الذهب في تاريخ حلب ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ٤١٧ .

- السيوطي (كمال الدين محمد بن محمد بن أبي شريف ، ت ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م)
اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، دار الكتب المصرية في القاهرة ، رقم ١٨٢٩ .

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م)
١ - تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، صورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة ، رقم ١٥٢ .
٢ - أعيان النصر وأعوان النصر ، مكتبة جامعة استانبول ، رقم ٤٣٨٢ .

- العليمي (مجير الدين بن عبدالرحمن بن محمد الحنبلي المقدسي ، ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) .
كتاب في تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ، صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى رقم ١٢٠٦ عن نسخة المتحف البريطاني رقم ١٥٤٤ .

- العمري (شهاب الدين أحمد يحيى بن فضل الله ، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م)
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج ٧ ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث في استانبول رقم ٢٧٩٧ .

- العيني (بدر الدين أبومحمد بن أحمد بن موسى ، ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ج ١٣ ، مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٣٩٠ ، وتوجد نسخة بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث ازسلامي بجامعة أم القرى ، ج ٢٠ ، دار الكتب المصرية في القاهرة رقم ١٥٨٤٠ .

- قاضي المنزلة (معروف بن أحمد ، القرن العاشر الهجري)
عجائب الأخبار عن مصر الأمصار ، مكتبة الأزهر رقم ٣٢٠ - ٦٦٢٠ .

- المولوي (أحمد بن لطف الله ، كان حياً سنة ١١١٦ م)
صحائف الأخبار في وقائع الأمصار ، مكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم ١/١٢٥٤ .
- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٣ م)
نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٨ ، ٢٩ ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم ٥٤٩ معارف عامة .
- اليافعي (حسن بن ابراهيم بن محمد ، كان حياً سنة ٦٧٩ هـ)
جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين الإسلامية ، صورة بمركز البحث وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى . رقم ١١٤٢ ، عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٥٤٣ .

ثانياً ـ المصـــادر المطبوعـة :

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ، ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م)
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق ، نزار رضا ، ط بيروت .

- ابن الأثير الجزري (أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)
١ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبدالقادر طليمات ، ط ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .
٢ ـ الكامل في التاريخ ، ط ليدن ١٨٧٦ م .

- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، ت ٩٣٠ هـ / ١٥٤٤ م)
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى ، ط القاهرة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

- ابن ايبك الدواداري (أبو بكر عبدالله بن ايبك ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م)
١ ـ الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، ط القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م .
٢ ـ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق ألرخ هارمان ط القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
٣ ـ الدر الفاخر في سيرة السلطان الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، ط القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

- ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب)
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي ط بغداد ١٩٦٨ م .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، ت ٨٧٤ هـ)
١ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط القاهرة ١٩٣٥ م .
٢ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي . ط القاهرة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م .
٣ ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي ، ج ١ ، ٢ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط مكة المكرمة .

- ابن جبير (أبو الحسن بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)
رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار ط بيروت ١٩٨١ م .

- ابن الجيعات (شرف الدين بن يحيى بن المقر ، ت ٨٨٥ هـ)
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ط بولاق ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م .

- بن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد ت ٨٥٢ هـ)
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، ط بيروت .
- ابن حزم الظاهري (أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهري ، ت ٥٤٨)
كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ط القاهرة ١٣١٧ هـ .
- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)
صورة الأرض ، ط بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون ، ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ هـ)
١ ـ تاريخ ابن خلدون ، المسمى ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ط ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
٢ ـ مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور على عبدالواحد وافي ، ط القاهرة ، الطبعة الثالثة .
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
وفيات الأعيان وأنبا أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٢ م .
- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م)
الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، ط القاهرة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٣ م .
- ابن الراهب (أبو شاكر بطرس بن أبي الكرم المهذب)
تاريخ ابن الراهب ، عني بنشره الأب لويس شيخو اليسوعي ط بيروت ١٩٠٣ م .
- ابن سعيد (علي بن موسى ، ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م)
العيون الدعج في حلى دولة بني طغج من كتاب المغرب في حلى المغرب نشر كنوت تلكوست .
- ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل ، ت ٨٧٢ هـ)
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشر بولس راديس ، ط باريس ١٨٩٤ م .
- ابن الشحنة (أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد الحلبي ت ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م) .
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تحقيق يوسف بن البان سركيس الدمشقي ، ط بيروت ١٩٠٩ م .
- ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف ابن رافع بن تميم ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .

- ابن شداد (عز الدين أبو عبدالله بن علي بن ابراهيم الحلبي ، ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م .
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الثاني ، تحقيق سامي الدهان ، ط دمشق ١٣٨٢ هـ / ١٨٩٢ م ، الجزء الثالث ، تحقيق يحيى عباره ، ط دمشق ١٩٧٨ م .
- ابن طباطبا (محمد بن علي)
الفخري في الآداب السلطانية والدول السلطانية ، ط بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

- ابن طولون (محمد بن طولون ، ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م)
إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق عبدالعظيم حامد خطاب ، ط القاهرة ١٩٧٣ م .
- ابن عبدالظاهر (محيى الدين عبدالله بن رشيد الدين بن عبدالظاهر بن نشوان بن عبدالظاهر السعدي المصري ، ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢ م).
١ - الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، ط الرياض ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .
٢ - تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، ط القاهرة ١٩٦١ م .
٣ - الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية تحقيق (Axel Moberg) ط ١٩٠٢ م .

- ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطي ، ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م)
تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨ م ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم أحمد بن هبة الله بن أبي جراده ، ت ٦٦٠ هـ /١٢٦٢ م .
زبدة الحلب في تاريخ حلب ، الجزء الثالث ، تحقيق سامي الدهان ، ط بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م .
- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد بن العماد ت ١٠٩٨ هـ / ١٧٧٥ م) .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط بيروت بدون تاريخ طبع .
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن علي ، ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) .
تاريخ ابن الفرات ، المجلد الرابع في قسمين ، تحقيق حسن محمد الشماع ، ط البصرة ، ١٩٦٧ م / ١٩٧٩ م ، المجلد السابع والثامن ، تحقيق قسطنطين رزيق ، نجلاء عز الدين ط بيروت ١٩٣٩ م .

- ابن الفوطي (كمال الدين عبدالرازق بن تاج الدين أحمد الشيباني ، ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) .
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة ، تحقيق محمد رضا ، ومصطفى جواد ، ط بغداد ، ١٣٥١ م .

- ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد ، ت ١٠٢٥ هـ)
ذيل وفيات الأعيان ، المسمى درة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، ط الدرب الأحمر ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي ، ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) .
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨ م .

- ابن القيم الجوزية (أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أيوب ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م)
كتاب الفروسية ، ط القاهرة ، بدون تاريخ طبع .

- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي ، ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)
البداية والنهاية ، ط بيروت ١٩٦٦ م .

- ابن المبارك (أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح ، ت ١٨١ هـ) .
كتاب الجهاد ، حققه وقدم له وعلق عليه ، نزيه حماد ، ط جدة .

- ابن مماتي (الأسعد بن مماتي ، ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) .
قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، ط القاهرة ١٩٤٣ م .

- ابن منظور (أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) .
لسان العرب ، ط بيروت .

- ابن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي بن نصر الكناني ، ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م)
كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط جامعة برنستون الولايات المتحدة ١٩٣٠ م .

- ابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف ، عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري) .
التاريخ المنصوري « تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان » تحقيق أبو العبد دودو ، ط دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) .
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ١ ـ ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، ط ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ م ، ج ٤ ، ٥ تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة ١٩٧٢ م ، ١٩٧٧ م .

- ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) .
كتاب الفهرست ط بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

- أبو شامة (الحافظ شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل ، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) .
١ - الروضتين في أخبار الدولتين ، الجزء الأول ، قسمان ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، ط القاهرة ١٩٦٢ م ، الجزء الثاني ط القاهرة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م .
٢ - الذيل على الروضتين ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، نشر ومراجعة السيد عزت العطار الحسيني ، ط بيروت ١٩٧٤ م .

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .
١ - المختصر في أخبار البشر ، ط بيروت . بدون تاريخ طبع .
٢ - تقويم البلدان ، ط باريس ، ١٨٤٠ م .

- الأربلي (عبدالرحمن بن سنبط بن قنيتو ، ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م) .
خلاصة الذهب المسبوك ، وقف على طبعه وتصحيحه مكي السيد قاسم ، ط بغداد .

- الأسنوي (جمال الدين عبدالرحيم بن الحسن ، ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م) .
طبقات الشافعية ، تحقيق عبدالله الجبوري ، ط بغداد ١٣٩١ هـ .

- الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، الشهير بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م .
الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، ط القاهرة ١٩٦٥ م .

- البلوي (أبو محمد أحمد عبدالله بن محمد المديني ، عاش في القرن الرابع الهجري) .
سيرة ابن طولون ، نشر محمد كرد علي ، ط دمشق ١٩٣٩ م .

- الجبرتي (عبدالرحمن الجبرتي) .
عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق حسن محمد جوهر ، عبدالفتاح السر نجاوي ، السيد ابراهيم سالم ، ط القاهرة ١٩٥٨ م .

- الحسن بن عبدالله بن محمد .
آثار الأول في ترتيب الدول ، ط القاهرة ١٢٩٥ م .

- الحميري (محمد بن عبدالمنعم) .
الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط بيروت ١٩٧٥ م .

- الحنبلي (أبو اليمن القاضي مجير الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد العليمي ، ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) .

الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط النجف ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسين ، ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م) .
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ط بيروت .

- الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز ، ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م).
١ - دول الإسلام ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى ابراهيم ، ط القاهرة ١٩٧٤ م .
٢ - العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط الكويت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي ، ت ١٢٠٥ هـ / ١٧٨٩ م) .
ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط دمشق ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

- رشيد الدين الهمذاني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير حفيد موفق الدين الهمذاني ، ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) .
جامع التواريخ ، أو تاريخ المغول المجلد الثاني ، الجزء الأول والثاني ، تاريخ هولاكو ، ترجمة محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوي ، فؤاد عبدالمعطي الصياد ، ط القاهرة .

- سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي ، ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) .
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الجزء الثامن ، ط حيدر آباد ، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .
- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن على بن عبد الكافي ، ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م) .
طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي ، ط القاهرة ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) .
١ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الجزء الثاني ، ط القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦ م .
٢ - الذيل على رفع الأصر ، أو بغية العلماء والرواة ، تحقيق جوده هلال ، محمد محمود صبح ، ط القاهرة .

- السيوطي (الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .
١ - تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ط القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .
٢ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م .

- شافع بن علي .
حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، ط الرياض ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبدالكريم ، ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) .
الملل والنحل ، تقديم وإعداد عبداللطيف محمد العبد ، ط القاهرة ١٩٧٧ م .

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .
أمراء دمشق في الإسلام تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط دمشق ١٩٥٥ م .

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ، ت ٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ) .
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط بيروت الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- الطرسوسي (مرضي بن علي ، كان معاصراً لصلاح الدين) .
تبصرة أرباب الألباب ، نشر كلود كاهن في مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق ، ج ١٢ .

- العصامي (عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي ، ت ١١١١ هـ / ١٦٦٩ م) .
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، الجزء الرابع ط القاهرة ١٣٨٠ م .

- العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) .
السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- الغياثي (عبدالله بن فتح الله البغدادي)
التاريخ الغياثي ، تحقيق طارق نافع الحمداني ، ط بغداد ١٩٧٥ م .

- القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ، ت ١١٠٩ هـ / ١٦١٠ م) .
أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ط بغداد ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م .

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) .
آثار البلاد وأخبار العباد ، ط بيروت ١٩٦٠ م .

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) .
١ - صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ط القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢ م .
٢ - مآثر الانافه في معالم الخلافة ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، ط بيروت .

- الماوردي (أبو الحسن على محمد بن حبيب ، ت ٤٥٠ هـ) .
الأحكام السلطانية ، ط القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

- المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين بن علي المسعودي ت ٣٤٦ هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، الطبعة الخامسة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) .
١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط القاهرة ١٩٥٦ م ـ ١٩٥٧ م .
٢ ـ خطط المقريزي المعروفة باسم « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ط القاهرة ١٢٧٠ هـ .
٣ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، ط القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م .

- مؤلف مجهـــول .
خزانة السلاح في الإسلام ، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز ، ط القاهرة ١٩٧٨ م .

- النابلسي (أبو عثمان الصفدي ، من علماء القرن السابع الهجري)
لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية ، تحقيق كلود كاهن .

- النسوي (نور الديم محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي ، كان حياً قبل سنة ٦٣٩ هـ)
سيرة جلال الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ حمدي ، ط القاهرة ١٩٥٣ م .

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب بن محمد ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م)
نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء الثامن ، ط دار الكتب المصرية .

- اليافعي (أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان ، ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م) .
مـرآة الجنان وعبرة اليقظان في معـرفة مـا يعتبر من حـوادث الزمـان ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

- ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م)
معجم البلدان . ط بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

- يحيى بن الحسين (القاسم محمد بن علي ت ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م) .
غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، ط القاهـرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

- اليونيني (قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد بن قطب الدين البعلبكي الحنبلي ، ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) .
ذيل مرآة الزمان م ١ ـ ٢ ، ط حيدر أباد ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٤ م ، م ٣ ـ ٤ ط حيدر أباد ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٥٩ م .

ثالثاً ـ المراجع العربية والمترجمة :

ـ ابراهيم أحمد العدوي :

١ ـ تاريخ العالم الإسلامي ، ط جامعة القاهرة (١٩٨٤ م)

٢ ـ الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، ط القاهرة بدون تاريخ طبع .

٣ ـ العرب والتتار ، القاهرة ١٩٦٣ م .

ـ ابراهيم على طرخان :

النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

ـ أحمد السعيد سليمان :

تاريخ الدول الإسلامية ، ومعجم الأسرات الحاكمة ، ج ٢ ، ط القاهرة ١٩٧٢ م .

ـ أحمد شلبي :

موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ط القاهرة سنة ١٩٦٧ م

ـ أحمد محمد أحمد جلي :

دراسات عن الفرق ، ط الرياض ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

ـ أحمد محمد عدوان :

العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ط الرياض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

ـ أحمد مختار العبادي / السيد عبدالعزيز سالم :

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر ، ط بيروت ١٩٧٢ م .

ـ أحمد مختار العبادي :

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ط بيروت ١٩٦٩ م .

ـ أرشيبالد لويس :

القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .

ـ أمين باشا سامي :

تقويم النيل ، ج ١ ، ط القاهرة ١٩١٦ م .

ـ برنارد لويس :

١ ـ أصول الاسماعيلية ، ترجمة خليل أحمد جلو ، جاسم محمد الرجب ، ط دار الكتاب العربي بمصر .

٢ ـ الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ترجمة سهيل زكار ط بيروت ١٩٧١ م .

- بول آميل :
تاريخ ارمينيا ، ترجمة شكري علاوي ، ط بيروت .
- جعفر خصباك :
العراق في عهد المغول الايلخانيين .
- جوانفيل :
القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، ط القاهرة ١٩٦٨ م .
- جوزيف نسيم :
١ - العدوان الصليبي على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، ط الاسكندرية ١٩٨٤ م .
٢ - العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، ط الاسكندرية ١٩٨٤ م .
٣ - العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط القاهرة ١٩٨١ م .
- حافظ حمدي :
الدولة الخوارزمية والمغول ، ط القاهرة ١٩٤٩ م .
- حامد زيان غانم :
الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر في عهد سلاطين المماليك ، ط القاهرة ١٩٧٦ م .
- حامد غنيم أبو سعيد :
الجبهة الإسلامية ، ج ٣ ، ط القاهرة ١٩٨٣ م .
- حسن ابراهيم حسن :
تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ط ١٩٨٢ م .
- حسن حبشي :
١ - الحرب الصليبية الأولى ، ط القاهرة سنة ١٩٥٨ م.
٢ - نور الدين محمود والصليبيون ، ط القاهرة ، سنة ١٩٤٨ م .
٣ - الشرق العربي بين شقي رحى ، حملة لويس التاسع على مصر والشام ، ط القاهرة ١٩٤٩ م.
- حسين أحمد أمين :
١ - الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها ، ط القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
٢ - تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ط بغداد سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

- حسنين محمد ربيع :
١ - البحر الأحمر في العصر الأيوبي ، ندوة تاريخ البحر الأحمر ، بجامعة عين شمس سنة ١٩٧٩ م .
٢ - دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ط القاهرة .
٣ - النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ط القاهرة ، سنة ١٩٦٤ م .
- دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية .
- الرويشدي :
إمارة الموصل ، في عهد بدر الدين لؤلؤ ، ط بغداد ١٩٧١ م .
- الزركلي خير الدين :
الاعـــلام ، ج ٤ ، الطبعة الثالثة .
- زبيدة عطـــا :
١ - الترك في العصور الوسطى .
٢ - بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون ، ط القاهرة ، بدون تاريخ طبع .
- ستانلي لين بول :
١ - الدول الإسلامية ، القسم الثاني مع إضافة وتصحيحات بارتولد وخليل أدهم نقله من التركية إلى العربية محمد صبحي فرزات ، محمد أحمد دهمان ، ط دمشق ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
٢ - طبقات سلاطين الإسلام ، ترجمه للفارسية عباس إقبال ، ترجمه عن الفارسية مكي طاهر الكعبي ، حققه وقابله علي البصيري ، ط بغداد ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ستيفن رنسمان :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، ج ١ - ٣ ، ط بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- سعاد ماهر :
البحرية في مصر الإسلامية ، ط القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- سعد محمد حذيفة الغامدي :
سقوط الدولة العباسية ، ط بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- سعيد عبدالفتاح عاشور :
١ - الحركة الصليبية ، ط القاهرة ١٩٧١ ، ١٩٧٨ م .
٢ - العصر المماليكي في مصر والشام ، ط القاهرة ١٩٧٦ م .
٣ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ط بيروت ١٩٧٢ م .
٤ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ط القاهرة ١٩٦٢ م .

٥ ـ قبرص والحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٩٥٧ م .
٦ ـ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧ م .
٧ ـ الظاهر بيبرس ، ط القاهرة بدون سنة طبع .
٨ ـ إوربا والعصور الوسطى ، ج ١ ، ط القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
٩ ـ أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .
١٠ ـ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، ط القاهرة ١٩٧٦ م .

ـ السيد البـاز العريني :
١ ـ المغول ، ط بيروت ١٩٨١ م .
٢ ـ الأيوبيين ، ط بيروت ١٩٦٧ م .
٣ ـ المماليك ، ط بيروت ١٩٧٩ م .
٤ ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

ـ السيد عبدالعزيز سالم :
تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ط الاسكندرية سنة ١٩٦٩ م .

ـ شاكر مصطفى :
التاريخ العربي والمؤرخون ، ج ٢ ، ط بيروت ١٩٨٠ م .

ـ صبحي الصالح :
النظم الإسلامية ، نشأتها وتطورها ، ط بيروت ١٩٨٢ م .

ـ طلال العصيمي :
الإقطاع الحربي في العهد الأيوبي ، رسالة ماجستير من جامعة أم القرى عام ١٤٠٤ هـ لم تطبع .

ـ عبد الأمير الأعسم :
الفيلسوف نصير الدين الطوسي ، مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي ، ط بيروت ١٩٨٠ م .

ـ عبدالحليم عويس :
دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، ط جدة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ـ عبدالرحمن زكي :
١ ـ قلعة صلاح الدين وما حولها من الأثار ، ط القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
٢ ـ الجيش الإسلامي ، ط القاهرة ١٩٧٠ م .
٣ ـ السلاح في الإسلام ، ط القاهرة ١٩٥١ م .
٤ ـ الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .
٥ ـ سلسلة مقارنة الأديان ، الجزء الرابع ، أديان الهند الكبرى ، ط ١٩٨٦ م / ١٤٠٦ هـ .

- عبدالسلام عبدالعزيز فهمي :
تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ط القاهرة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

- عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر :
الملك الظاهر بيبرس ، ط الرياض ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

- عبدالله ابراهيم الوهيبي :
العز بن عبدالسلام ، حياته وآثاره ، ومنهجه في التفسير ، ط ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

- عبدالله سعيد الغامدي :
صلاح الدين والصليبيون ، ط مكة المكرمة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

- عبدالفتاح عبادة :
سفن الأسطول الإسلامي ، وأنواعها ومعداتها في الإسلام ، ط القاهرة ١٩١٣ م .

- عبد القدوس الأنصاري :
بنو سليم ، ط بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

- عبدالمنعم ماجد :
نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، ج ١ ، ط القاهرة ١٩٧٩ م .

- عفاف سيد صبره :
العلاقات بين الشرق والغرب ، ط القاهرة ١٩٨٣ م .

- عليه عبدالسميع الجنزوري :
١ - إمارة الرها الصليبية ، ط القاهرة ١٩٧٥ م .
٢ - الثغور الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٩٧٩ م .

- علي ابراهيم حسن :
١ - تاريخ المماليك البحرية ، ط القاهرة ١٩٦٧ م .
٢ - مصر في العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .
٣ - نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب ، ط القاهرة ١٩٨١ م .

- علي حسني الخربوطي :
الإسلام في حوض البحر المتوسط ، ط بيروت ١٩٧٠ م .

- علي محمد الغامدي :
١ - بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ط مكة المكرمة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

٢ ـ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى ، عام ١٤٠٦ هـ لم تطبع .

ـ عماد الدين خليل :

١ ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ، ط بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٢ ـ عماد الدين زنكي ، ط بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

ـ عمر رضا كحالة :

١ ـ دراسات اجتماعية في العصور الوسطى ، ط دمشق ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٢ ـ معجم المؤلفين ، ط بيروت .

ـ عمر طوسون :

مالية مصر في عهد الفراعنة ، ط ١٩٣١ م .

ـ غسان علي محمد الرمال :

صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ط جدة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .

ـ فايد حماد عاشور :

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، ط القاهرة .

ـ فؤاد عبدالمعطي الصياد :

١ ـ مؤرخ المغول ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، ط القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .

٢ ـ المغول في التاريخ ، ج ١ ، ط بيروت ١٩٨٠ م .

ـ فيليب حتى :

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، ط بيروت ١٩٥٩ م .

ـ كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي ، ط بيروت ١٩٧٧ م .

ـ كلود كاهن :

تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ترجمة بدر الدين القاسم ، ط بيروت ١٩٧٧ م .

ـ كي لسترانج :

بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد ، ط بيروت سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

ـ لوثروب ستودارد :

حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، وفيه فصول وتعليقات مستفيضة عن أحوال الأمم

الإسلامية وتطورها الحديث ، بقلم الأمير شكيب أرسلان ، ط بيروت ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٣
ـ محمد أبو زهرة :
تاريخ المذاهب الإسلامية ، ط القاهرة بدون تاريخ طبع .
ـ محمد جمال الدين سرور :
١ ـ تاريخ الدولة الفاطمية في مصر ، ط القاهرة سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
٢ ـ دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ط القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
٣ ـ دولة بني قلاوون في مصر ، ط القاهرة ، بدون تاريخ طبع .
ـ محمد حلمي محمد أحمد :
مصر والشام والصليبيون ، ط القاهرة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
ـ محمد حمدي المناوي :
١ ـ نهر النيل في المكتبة العربية ، ط القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
٢ ـ مقال عن الروك ، لم يطبع .
ـ محمد صالح ضرار :
سواكن والبحر الأحمر ، ط القاهرة .
ـ محمد عبدالعال أحمد :
البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ط الاسكندرية ١٩٨٠ م .
ـ محمد عبدالله عنان :
مؤرخوا مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري ، ط القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
ـ محمد عبدالمنعم خفاجي :
الحياة الأدبية في مصر (العصر المملوكي والعثماني) ، ط القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
ـ محمد كرد علي :
١ ـ الإسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ط القاهرة ١٩٦٨ م .
٢ ـ خطط الشام ، ط بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
ـ محمد ماهر حماده :
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، ط بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
ـ محمد محمد أمين :
١ ـ الأوقاف والحياة الإجتماعية في مصر ، ط القاهرة ١٩٨٠ م .
٢ ـ شمال افريقيا والحركة الصليبية ، بحث مستخرج من مجلة الدراسات الافريقية العدد الثالث ١٩٧٤ م ، ط القاهرة ١٩٧٥ م .

ـ محمد محمد الشيخ :

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، ط القاهرة ١٩٧٤ م .

ـ محمد مصطفى زيادة :

١ ـ حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، ط القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.

٢ ـ دراسات عن المقريزي ، ط القاهرة ١٩٧١ م .

ـ محمد ناصر الجعوان :

القتال في الإسلام ، أحكامه وتشريعاته ، ط الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ـ مسفر سالم الغامدي :

الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر ، ط جدة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

ـ نبيل محمد عبدالعزيز :

الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك ، ط القاهرة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

ـ نظير حسان سعداوي :

١ ـ الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، ط القاهرة ١٩٦١ م .

٢ ـ جيش مصر في أيام صلاح الدين ، ط القاهرة ١٩٥٩ م .

٣ ـ نظام البريد في الدولة الإسلامية ، ط القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م.

ـ نعيم زكي فهمي :

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ط القاهرة ١٩٧٣ م .

ـ نقولا زيادة :

دمشق في عصر المماليك ، ط بيروت ١٩٦٦ م .

ـ هاملتون جب :

دراسات في حضارة الإسلام ، ط بيروت ١٩٧٤ م .

ـ يعقوب ليسنر :

خطط بغداد في العهود العباسية الأولى ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، ط بغداد سنة ١٩٨٤ م .

ـ يوسف درويش غوانمه :

التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي الأول ، ط عمان سنة ١٩٨٢ م .

رابعا - المراجع الأجنبيــة

— Ayyubide, Mamlukes and Crusaders. Selections From the Tarikh AL - Duwal - Muluk, of Ibn al - Furat in two Volumes. Text and translation by U . and M. C. Lyons. Cambridge.

— Cahen, Claud,
1 — LA Syria du Nord al, Epoquedes Croisades, paris, 1940.

— The Cambridge History of Islam, Vol. 1 Alondon 1970.

— The Cambridge MEDIEVAL History, Vol IV, The Byzantine Empire, partl, Byzaintum and its Neighboure, London 1964.

— Campbell « G »
The Crusades. London, 1935.

— EHRENKREUTZ.
The place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea in the Middle Ages. Gournal of the american oriental society, 1955. Vol 15.

— DOZY, « R »
Supplement Aux Dictionnaires Arabes Toms 2, Paris 1967.

— The Encyclopaedia of Islam, (NEW EDITION), London 1960.

— GIBB, « H. A, R »
The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1967.

— LANE - POOLE, STANLY,
— 1) Ahistory of Egypt in the Middle Ages, London 1936.
2) Saladin and the Fall of Kingdom of jerusalem, Beirut (1964).

— LEWIS, B,
Saladin and the Assassins, BULLETIN THE SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAN STUDIES, vol 15 (1953) pp. 239 - 245.

— Lestrange, Gey,
Palestine under the Moslems. Beirut, 1965.

— Painter, Sidney.
History of the Middle Ages, London, 1975 - 1976.

— Poliak, A. N.

Feudalism in Egypt, Syria, palestine and the Lebanon. London, 1939.

— Rabie, Hassanein.

The Financial System of Egypt, London, 1972.

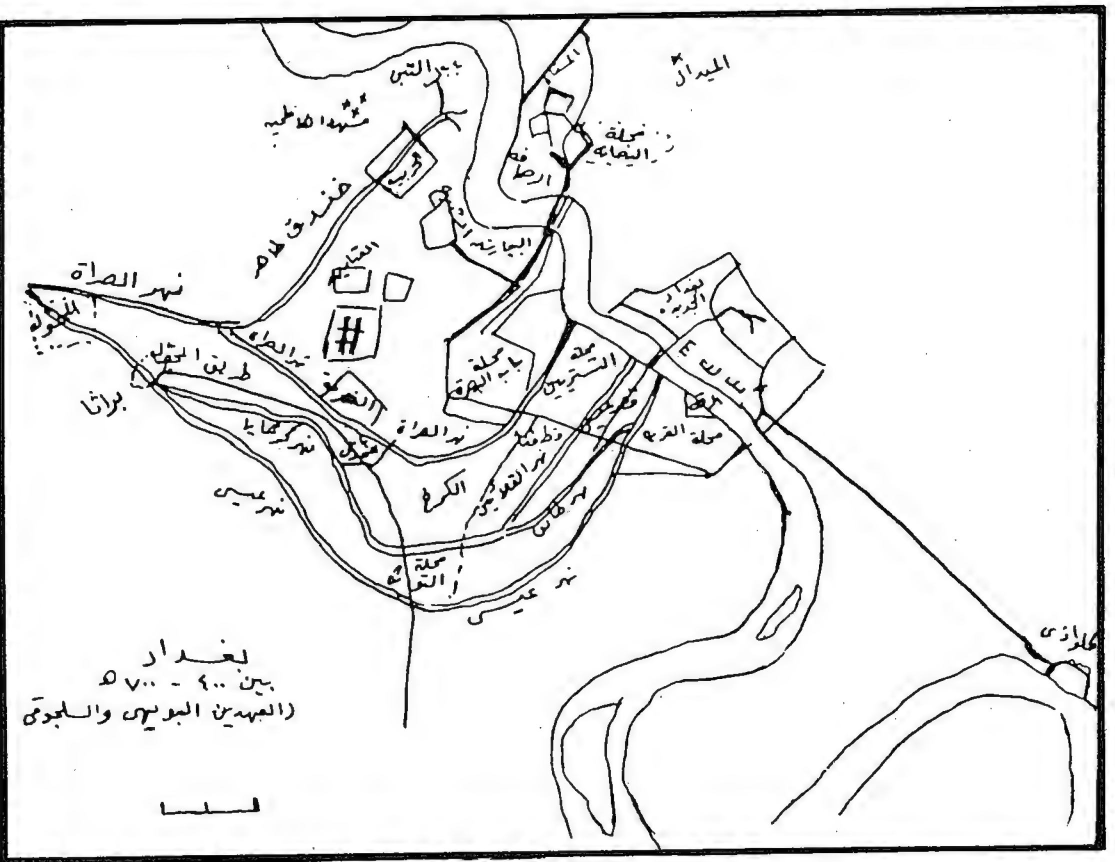
— Stevenson, W. B.

The Crusaders in the East. Cambridge 1907.

— Zakkar, Suhayl,

The Emirate of Aleppo (1004 - 1094), Beirut, 1971.

الخرائط



* نقلا عن خطط بغداد *

الكرخ
والضواحي المجاورة

الكرخ - القرية - نهر عيسى - محلة نهر طابق - نهر طابق - محلة القلائين - نهر القلائين - نهر الدجاج - قطيعة ربيعة - قطيعة ام جعفر - نهر الصراة - نهر رزين - نهر الدجاج - الزهيرية - المدينة المدورة - باب الكوفة - جزيرة العباسية - محلة التوثة - مقلبة الطهارين

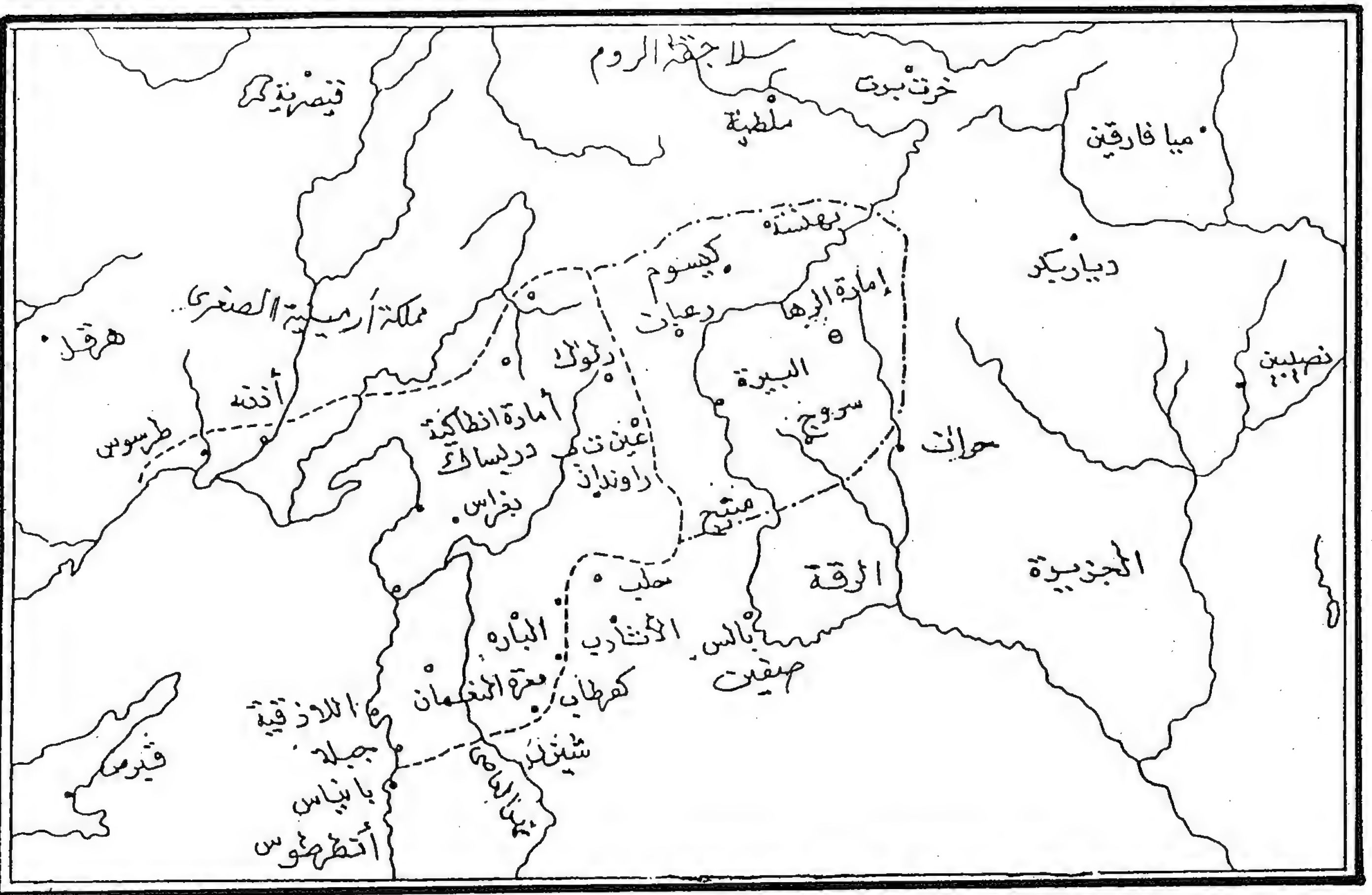
* نقــلا عن خطط بغــداد *

* اقليما الجزيرة واذربيجان ، مع أقاليم الحدود الشمالية الغربية *

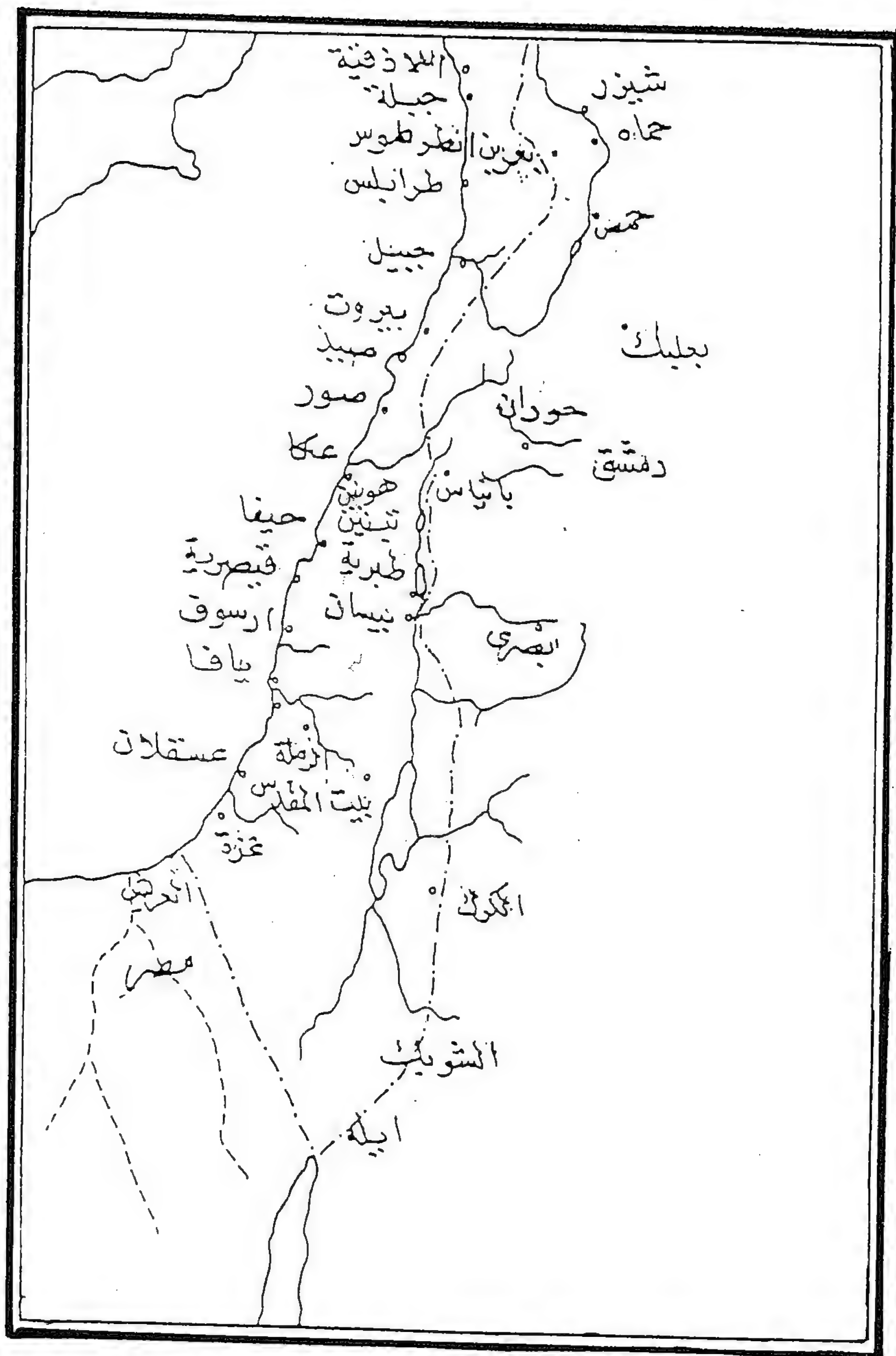
* نقلا عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية *

غزوات المغول في الشرق الأدنى

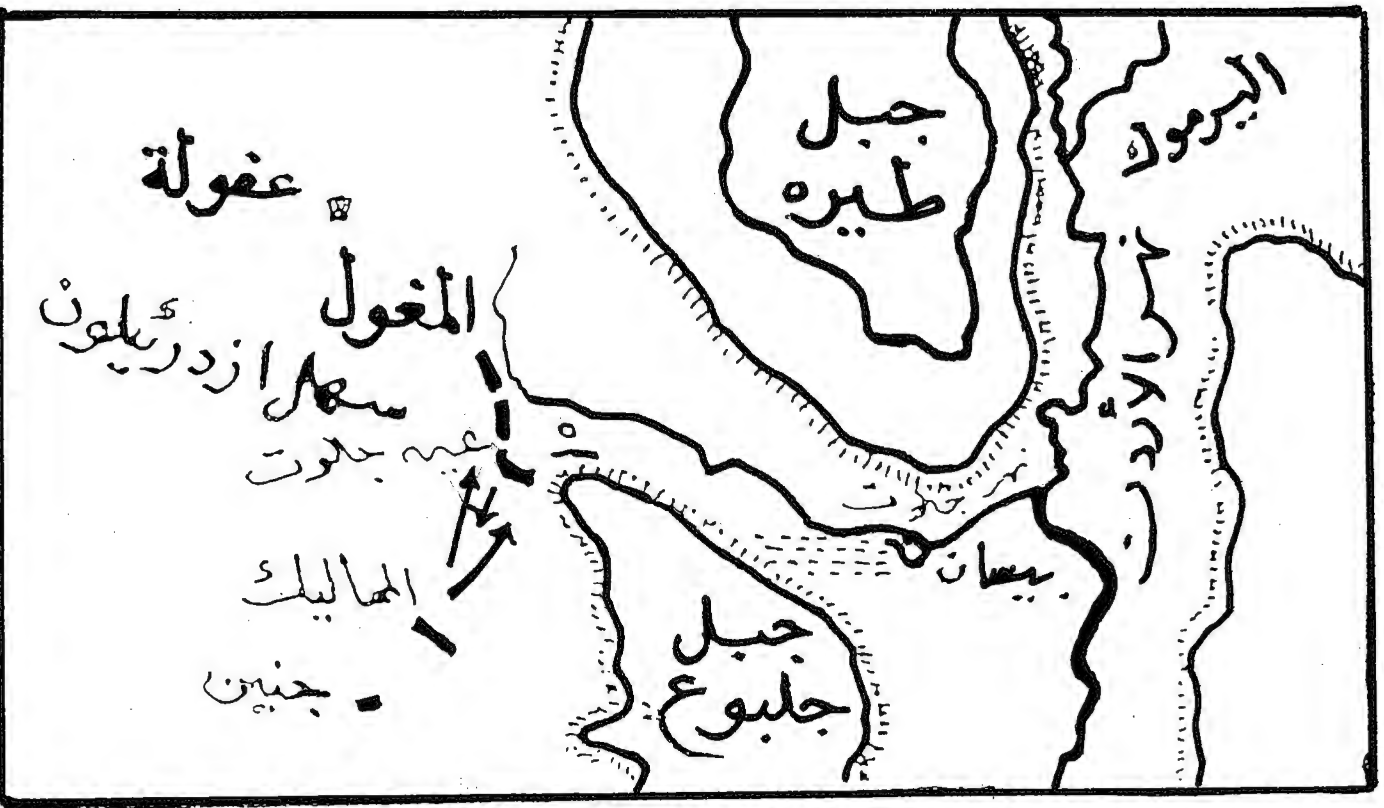
* نقلا عن الحركة الصليبية . . لسعيد عاشور *



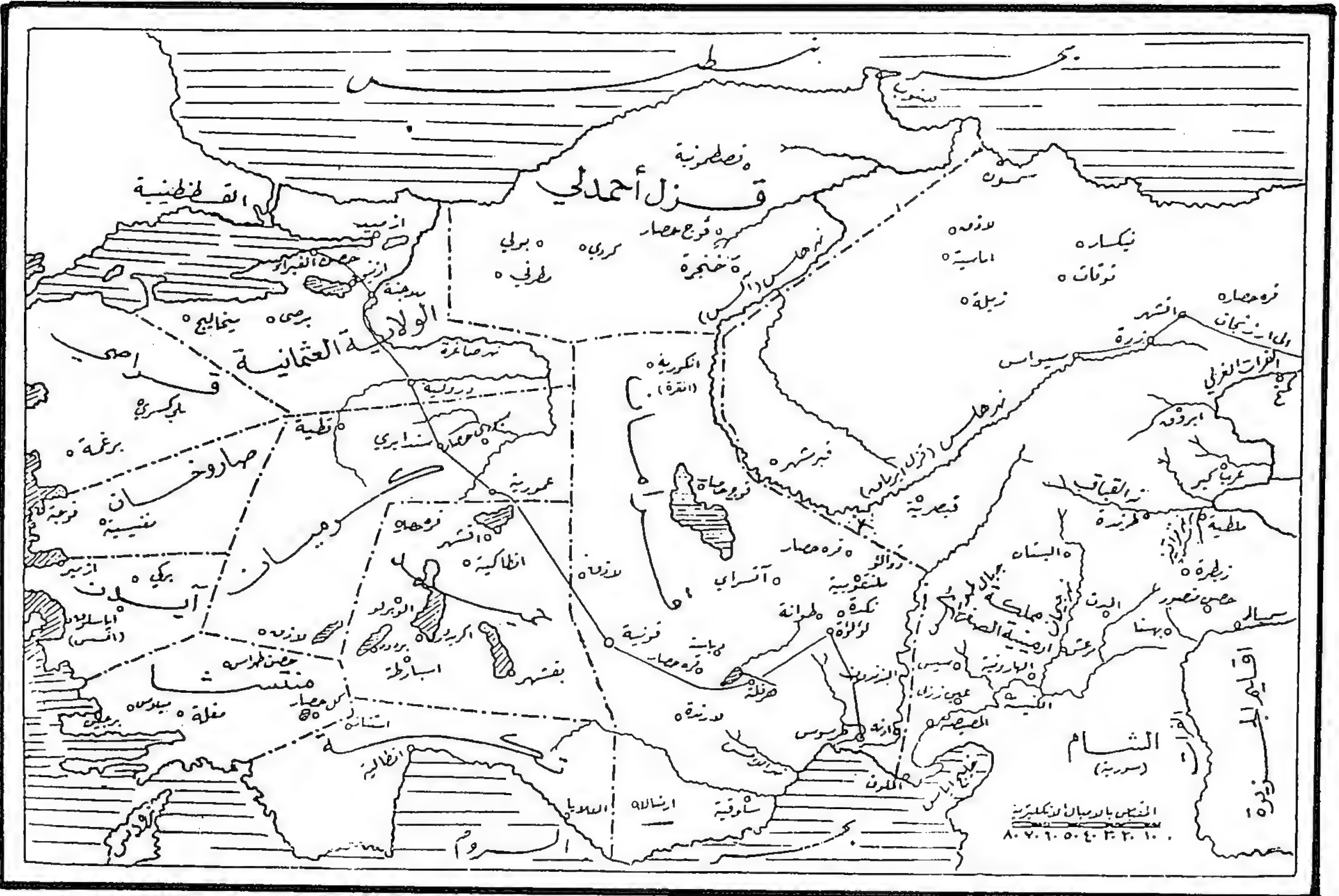
* خريطة شمال بلاد الشام *



* خريطة جنوب بلاد الشام *



* معركة عين جالــوت . . نقلا عن الجيش المصري في العصر الاسلامي لعبد الرحمن زكي *



* بلاد سلاجقة الروم *

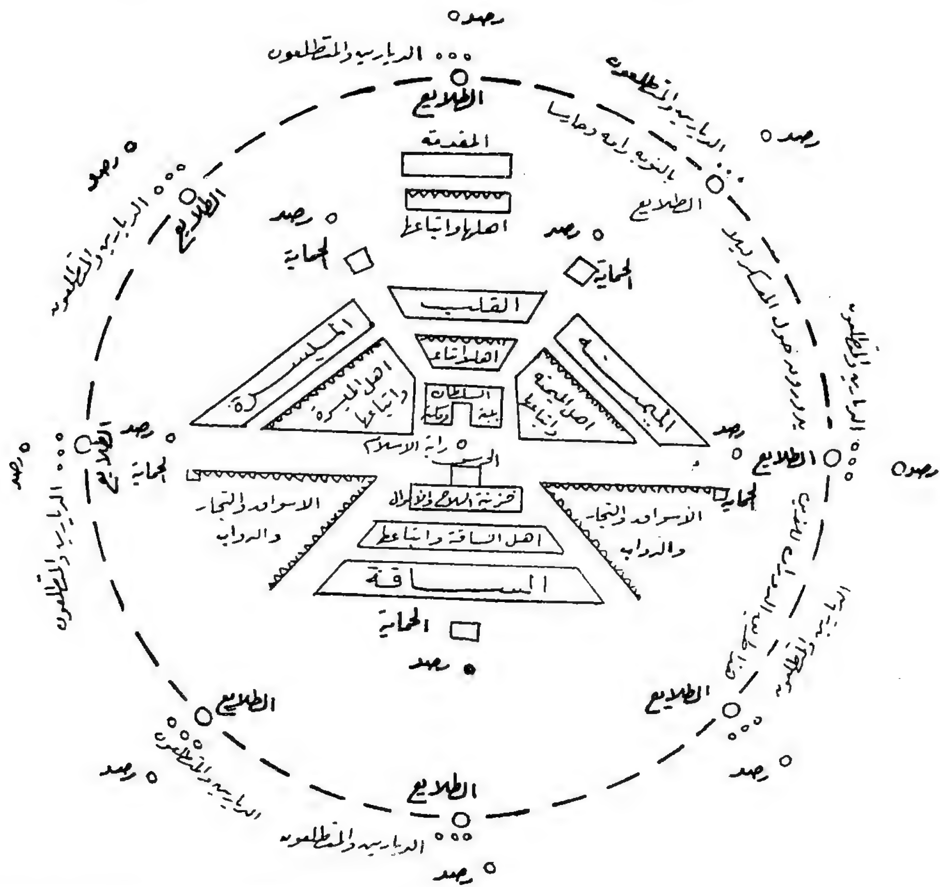
* نقلا عن كتاب بلدان الخلافة الشرقية *



* معركة عكا .. نقلا عن الجبهة الإسلامية لحامد غنيم أبو سعيد *

١ ـ جيش حماه
٢ ـ القوات المصرية
٣ ـ خيمة السلطان الأشرف

* صورة المعسكر الإسلامي عن كتاب فهرسة الكتب *



المحتـــويات

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة